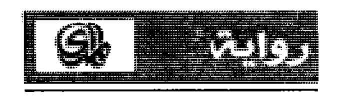

لطفية الدليمي
عشاق وفونوغراف وأزمنة
مكتبة بغداد
رواية



المؤلف: لطفية الدليمي

عنوان الكتاب: عشاق وفونوغراف وأزمنة

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الاولى: 2016



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس-محلة 102-شارع 13-بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street-Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لطفية الدليمي

عشاق وفونوغراف وأزمنة




https://telegram.me/maktabatbaghdad

في بحثك عن الحقيقة كن متأهباً دوما لما هو غير متوقع ؛ لأن الحقيقة منهكة في البحث عنها وباعثة على الحيرة عند إيجادها.

-هيراقليطس-

واعلم أن الإنســان من بين جميع الحيوان لايكتفي بنفسـه في تكميل ذاته، ولابد له من معاونة قوم كثيري العدد، حتى يتمم حياته طيبةً ويجري أمره على الســداد، ولهذا قال الحكماء أن الانسان مدني بالطبع ـ أي هو محتاج إلى مدينة فيها خلق كثير لتتمّ له الســعادة الانســانية، فكلٌ بالطبع وبالضرورة يحتاج إلى غيره.

- أحمد ابن مسكويه-

من كتابه (تهذيب الأخلاق)

مـرّت الحرب من هنا ولم يسـلم منها بيت أو تسـلم منهـا ذكرى. لقد فسد كل شيء: الصداقة، والحب، والإخلاص، وصلات القربى والإيمان، كما الوفاء، وكذلك الموت. أجل اليوم حتى الموت نفسه يبدو لي ملطخاً مشوهاً.

- أمين معلوف -


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الأول

طَوافُ المدن


https://telegram.me/maktabatbaghdad

كافيه دانتون

المستعدُّ للشيء تكفيه أضعفُ أسبابه

إبن سينا

المستعد للشيء تكفيه أضعفُ أسبابه ـ تتردد العبارة في وعي نهى جابر الكتبخاني مثل لازمة موسيقية، تنغّمُ العبارة التي استبدّت بها وهي في تيه التبدد، في قطار الأنفاق، محتمية بدرع الوحدة وسط الحشود، تغنيّها، تهتز مع انسيابها وتجعلها موّالاً يتدفق في مسارات روحها، يتساوق النغم وتأخذها لذة الترنيم، تحلّل المقولة الحكيمة وتحسبها تعليقاً دقيقاً وصائباً على واقعة عشقها الباطلة أو لعلها حافزٌ محرضٌ على قصة عشق مشتهاة..

من نافذة المترو المتباطئ، بين الأصوات المعدنية وهسيس اللغات ينبثق طيف رجل طالما تراءى لها في أحلامها، يمرُّ الآن كبرقٍ خاطفٍ على رصيف المحطة، يندغم في الزحام ويختفي مخلفاً وراءهُ ومضة نورٍ تتلاشى بين أنوار المحطة التَحْتَ أرضية، تاقت تلك اللحظة للمسِ وجهه متغير الملامح، تشهّت ملاطفة جبينه المشع بأطراف أناملها الوجِلة آملةً أن تبهج روحها المستوحدة في هذه المدينة التي تعج بالغرباء وتنضح بالقسوة و تجلد القلوبِ بنزعتها المادية المفرطة، أرعشَتْ مشاعرَها الملامحُ المتغيرةُ لرجل الرؤيا وتركتها تعوم في عاصفة من وجوهه، لكأنها

وجـوه كائن يجـدّد تخليق قسـماته مثل سـمندل الماء، لطالما أنِسَـت لمروره الحُلمي اللامتوقع خلال أزمات حياتها وتقبّلت مروره كما يتقبل المرء هزةً أرضية تقذفه بعيدا فتنبهر أنفاسـه ويتسارع نبضه، تركَها طيفُهُ الضوئـي تعوم في لجة عاطفة مهتاجة وسـرَتْ رعشـة خفيفة في ظهرها لهـا دفء المتعـة ولذتهـا، تماسـكت وابتلعت ريقها عندما اكتسـحت وجهها دفقة دم فاسـتحال العالم وردياً كالغسق، تورّد كل شيء: وجهها المنفعل، العتمة الخفيفة في عربة المترو، جدران المحطة الفسيفسـائية والنور المشعشـع من مصابيح رصيف المحطـة والعطر الذي يتدفق من ذاكرة جلدها.

لطالما داهمتها ـ غير هذه الرؤيا ـ أحلام ورؤى سـرعان ما تتحقّق فتمتلك قوة النبؤات وسـحرها، كانت تخافها، ترتجف وتخاف وتحاول تجاهـل الإشـارات التـي تظهر لها فـي الأحلام أو تبـزغ كالومض من تأملاتها، ولبثت تتسـاءل: مِنْ أين ورثت هذه القدرة المُنذِرة؟؟ مِنْ أي سلف أو أية جدّة تحدّرت إليّ؟؟

ولَمْ تحظَ بجواب..

ثمـة ذلك الحلم المريع الـذي راودها لمرات ثلاث، رأت فيه أخاها يُحلّق بين السـحب فارداً ذراعيه كالطائر المنتشـي يحف به سـربُ أوز مُشـكلاً ضلعي مثلـث، ويقتاده السـرب المهاجر معه كأنـه إوزة عراقية بيضاء من إوز الأهوار تمضي بعيداً في أقاليم هجرتها، وبغتة يهطل مطر أحمر يخضّب سـرب الأوز وجسـد أخيها وتصطبغ به الأرض والشـجر والبيوت، نادته، تضرّعت إليه أن يهبط لئلا يخنقه مطر الدم، لم يستجب لها، صحبَ السرب المدمّى وغاب بعيداً في مدارج السحب واصطبغ كل

شـيء في حلمها بلون الدم، وبعد يومين جاءها النبأ (وهي في غرينوبل) في مكالمة هاتفية من خالتها هناء:

إغتال قتلة ملثّمون أخاها عند بوابة الجامعة المستنصرية مع ستة من زملائه، كان أخوها فؤاد سابعهم ـ سربُ فتيانٍ ضلّ السبيل إلى النجاة في حرب الطوائف.

توقف القطار في محطة الأوديون، وقبل أن تترجل مع انفتاح الباب دفعها بمرفقه رجلٌ تفوح منه رائحة الخمر والعرق وانطلق مسرعاً ففقدت توازنها، كادت أن تسقط لولا أن أسندتها فرنسية عجوز ذات شعر بنفسجي مصفف بعناية ووجهٍ تخفي ملامحَه ألوان ماكياج فاحشة، مدّت يدها وأمسكت ذراع نهى، شكرتها نهى:

ـ ميرسي مدام..

ردت المرأة محتجة: مدموازيل، جي سوي دموازيل..آنسة.. أنا آنسة...

ـ إيكسكيوز موا مدموازيل.. أعذريني آنستي..

ضحكت نهى لإصرار المرأة على أنها آنسة لارجل لها يُبجّلها بلقب مدام،ألقت عليها نظرة متفحصة وهي تهبط إلى الزحام:

ـ كم تشبه هذه المرأة بائعات الهوى المُسنّات الشاخصات في الأزقة لدى أبواب المباني وهنّ يُدخِنَّ ويعرضن أجسادهن الشائخة وخدماتهن وقت الضحى قرب بوابة (سان دُني)!!، لعلها واحدة منهن، إعتاد الناس أن يطلقوا عليهن إسم (الآنسات الأبديات) أو (حوريات النهار المقدسات) ؛ فلا مكان لهن في ليل المحترفات الشابات اللائي

سيتحولن عند أفول الجمال وذبول الجسد الى حوريات نهار وآنسات أبديات يعرضن بضاعتهنّ المستهلكة في ضحى باريس..

سارت بين المتزاحمين، توقفت ـ لتستعيد أنفاسها ـ أمام فرقة موسيقية من الهنود الحمر إحتلت ركناً في المحطة. هل أخطأت الطريق؟ أهذه محطة الأوديون أم الريبوبليك حيث كانت الفرقة تعزف منذ شهور؟؟ لا، إنها في الأوديون، والعازفون هم ذاتهم من كانوا يحتلون محطة الريبوبليك بشعرهم الأسود اللامع كقماش الساتان ووجوههم النحاسية بالوجنات البارزة، نظراتهم القاتمة كانت تبث صور العزم الإنساني وهم يرتدون ما ارتداه أسلافهم من ثياب مزينة بشراشيب من جلود الدببة والقواقع والخرز الملون، عزفت الفرقة موسيقى البراري والجبال الجرداء وقلد أحد المغنين عواء الذئب فحضرت الذئاب الوديعة ثم قلد ثغاء الحملان فانتشرت رائحة الحليب الطازج والصوف المبلول، وعندما قلد حفيف الشجر تحول ممر المحطة إلى غابة ذات اخضرار وحشي، ثم عمد إلى تحويل أصوات الطبيعة المتوحشة إلى أغنية تتمازج مع خرير الماء وشدو العصافير وخفق قلوب الجياد الراكضة الذي تحدثه الآلات الموسيقية الخشبية والطبول، نفحتهم عملة معدنية ووقفت برهة تنصت لعزفهم لعلّها بالموسيقى البدائية، ببراءة الإرتجال الساخن تسترد هدوء فؤادها، ثم مضت بين المتعجلين الراكضين في ماراثون النهار،، آه لو كان والدها عاشق الموسيقى هنا ليشاركها الإنصات إلى هذه الفرقة التي تعزف موسيقاها البدائية وكأنها تعيد تخليق مشهد الحياة ردأ على فوضى المدينة وعفن حضارتها الخانقة، لو أنه معها الآن لأذهلته موسيقى المروج والغابات وسحرته الإيقاعات المثيرة والألحان الشجية وهي تفوح بأشذاء الأرض، ياه،،، كم هي المسافة شاسعة بين الموسيقى المعلبة التي دأب

على سماعها من أسطواناته الأثيرة على الفونوغراف العتيق وبين موسيقى ساخنة شهية تولد للتو من بين أيدي وأفواه العازفين؟

وهي مأخوذة بفكرتها تعثّرت وكادت أن تسقط بين الحشد وهي كثيرة التعثر لسببٍ يعود إلى نشأتها طفلة واهنة الصحة، ظلت عيون والديها تلاحقها أينما تحرّكت فكانت تتمهل في خطوها وغالباً ما تتعثر وتسقط على الأرض ؛ لذلك عجزت عن التناغم مع سرعة الناس والأشياء والوقائع في هذه المدينة التي تجمع بين رائحة وحش معدني وعطورٍ ثمينة ونتانةٍ بشرية وعنفٍ معلن وعهرٍ مُشرعن يموّهه تأريخُ ملوك ومقاصل وخطباء ثوراتٍ، ويجمّله حضور فلاسفة معاصرين يحتلون المقاهي كآلهة متغطرسة تتعطّف على المُريدين بنظرة أو إلتفاتة..

مضت نحو السلم الصاعد إلى ميدان الأوديون بين السحنات البيضاء والأفريقية الأبنوسية اللامعة والصينية والكورية، بدت نهى بين هؤلاء إمرأة من عرق خلاسي هجين بوجهها البيضوي الذي تتخالط فيه ملامح الآسيويات و العربيات: بشرة قمحية ووجنتان بارزتان وأنف مستقيم وعينان عسليتان منحرفتان قليلاً وشفتان بارزتان وشعر كستنائي طويل تحتجزه قبعة صوفية، تدرك نهى من تتابع الإشارات الغريبة على وعيها أنّ جذورها تمتد لأكثر من عرق وأكثر من بلاد وأكثر من عصر، لاتعلم حقيقةَ منْ أية نطفة أتت ومن أي صلب تحدّرت. أيُّ البشر يعلم حقيقة أصوله ونسبه؟ لاأحد... هي لاتريد أن تعرف، ماجدوى أن تعرف؟؟ سلالة الكتبخاني تكتنفها أسرار لايتحدث عنها أحد، فلتعش حاضرها حسبُ. إنها في قلب الحياة ولها أن تتقبل وجودها مهما كانت جذورها وأصول الأسلاف..

البشر جميعا ـ وليست وحدها ـ صُهروا في بوتقة هائلة يسمونها الحب أو العشق أو الغرام وهي ليست سوى الرغبة في تلاحم الأعراق والأجساد خوفَ التلاشي في خديعة الموت، الكل وُلِدوا من مكيدة نشوة عارمة سرت في اللحم صعقة مكهربة، عشقوا وتناسلوا وتخالطت أنسابهم وخانوا وتقاتلوا وأسسوا البيوت وأقواس النصر وميادين المدن والأسواق ومنازل البغاء والبنوك، وأكل ملامحَهم عفنُ الكراهية أو جذام الجشع ثم انشغلوا بتوسيع المدافن التي عزّزتها صراعاتهم والحروب..

تفكر نهى: أنا إبنة هذا العالم، فعَلامَ يعاملُني الآخر باعتباري كائناً مختلفاً؟؟ لماذا نهرتني الشرطية الفرنسية البدينة التي يقطر وجهها كراهية وعنصرية عندما كلمتها بالانكليزية وصرخت بي:

ـ إذهبي، تعلمي اللغة الفرنسية ثم عودي لتقديم طلبك..

كيف تتعلم اللغة في ثلاثة أيام؟؟ بكى جسدها وارتجّ عالمها، تفجرت دموعها ونشجت أمام الحشد في صف طالبي اللجوء من الهنود والكوريين والكوبيين والأفغان والأيرانيين الواقفين على سلم حديدي تحفه أشجار الليلك تحت المطر تفوح منهم روائح الخيبة والقنوط والقارات النائية، يتوسلون رحمة الشرطية الفرنسية قاسية القسمات،،، إمرأة هندية ترتدي الساري الحريري الأخضر وحبةُ ماس تلتمع على جانب أنفها ونقطة حمراء تبرق بين حاجبيها ربّتت على كتف نهى مواسية مثل أمٍ وهمست لها:

ـ لاتبالي، إثبتي.. كوني قوية واثبتي..

قالت للهندية الرحوم:

ـ كلنا أبناء هذه الأرض، فلماذا يحكمون على ملامحي ويعاملونني

بهذه الغطرسة؟؟: آسيوية، عربية، شرقية، هندية، مسلمة، بوذية، إمرأة، غريبة، غريبة عمّن؟ لايدركون أننا في لحظة الموت غرباءٌ كلنا، وفي لحظة الكارثة ضحايا جميعنا ولاتجدينا هذه التصنيفات المشينة!!..

ردّت الهندية بحكمتها الهندوسية المعتّقة:

ـ أواجه هذا كل يوم، طالما أنت هنا تجمّلي بالصبر أو عودي لبلادك، هذا ماكنت أردّده كل صباح لنفسي فتحمّلت وبقيت.

إستعادت نهى رؤيا الوجه النوراني ـ الرؤيا التي حلّقت بها إلى مرتقيات البهجة ووهجات النجوم وأزاحت بها ذكرى الشرطية البيضاء القاسية.. وجدت السلم الكهربائي عاطلاً فشرعت ترتقي السلم الطويل و انبهرت أنفاسها..................

إرتقت ـ وهي صبية يافعة ـ سُلّم زقورة « دوركوريكالزو « عاصمة الكيشيين في عكركوف بأطراف بغداد الغربية، كانت تلك السلالم تؤدي إلى السماء متجهة نحو الشمس والقمر والآلهة ومن درجاتها تنبثق أصداء الأساطير فتَسمَعُ تراتيل عن وقائع الطوفان وصراع الممالك وبهاء طقوس الخصب وقيامة تموز من موته، هناك كانت تتباطأ ساعتها ويتوقف الزمن فتجد الراحة والمتعة في السكون المذهل وكأنها تجتاز بوابات الأبدية في أعالي الزقورات.

سلالم المترو الباريسي تؤدي لزحام المدينة وغربة الخطى وهي تحاول أن تتناغم مع الأمكنة أينما تلقي بها الأقدار، تحاول وتخفق، تخذلها وسائلها، تجهل الطرائق العجيبة التي يتبعها المتوائمون مع الأمكنة والبلدان ليفوزوا بنوع من طمأنينة زائفة في خضم حياة ليست حياتهم لأنها تبقى ـ مهما فعلوا ومهما حاولوا ـ محض استعارة هزلية مؤقتة مثل

ثوب ضيق يحشرون فيه أجسادهم أو رداء فضفاض لا يناسب قياساتهم بل يفضح اختلافهم، بلغت نهاية السلّم الطويل، بهر عينيها ضوءُ الشمس التي سطعت من بين غيوم الخريف الرمادية، حجبت عينيها بيدها إتقاء وهج الشمس، إرتدت نظارتها الشمسية القاتمة وأسرعت على إيقاع وجيب القلب في شارع سان جيرمان... إلى يسارها شارع ضيق تحتل كافيه دانتون ناصيته وتمتد الكافيه على زاوية الشارع الآخر لتُطلّ على العابرين بمظلاتها الحمراء المنقوش عليها إسم دانتون باللون الأبيض، عن يمينها كانت أشجار الكستناء ترتعش في الريح وتتقطر من أوراقها حبات مطر كريستالية وتعاني كالبشر من تبدلات الطقس بين الشمس والمطر والثلج والريح، أشجار كستناء معمرة كانت تغطي نصف تمثال دانتون البرونزي الذي ترتفع ذراعه بهيئة خطيب مهتاج في ذروة حماسته..

تركت نهى الخطيب المهتاج وراءها واستدارت يساراً لتعبر الشارع الضيق متجهة نحو الكافيه المجاور لسينما دانتون، أمام السينما شباب وفتيات من أعراق مختلفة: صينيون ولاتينيون وهنود وفرنسيون وفليبينيون في انتظار قطع التذاكر لمشاهدة فيلم (مذاق الآخر)، شاب وشابة يستغرقهما العناق وهما وسط المنتظرين، صادف أنها شاهدت الفلم الذي يتناول معضلة الهوية وتداخل الثقافات. جلست نهى على أول كرسي أحمر عند طاولة المقهى الحمراء على الرصيف وبدأ رذاذ المطر الناعم يداعب وجهها، شعرت بالإمتنان لدعابات المطر الحنون ـ قصيدة السماء، إنتشت روحها مستذكرة طفولتها وهي تركض تحت المطر في حديقة البيت،،، في الشارع المحفوف بالنخيل،،، في ساحة المدرسة،،، في بيت جدها فؤاد الكُتُبخاني القديم ذي الطابقين وفي الفناء المزروع ريحاناً وشجيراتِ فُلّ ووورداً جورياً وأشجار نارنج ورُمّان، كانت تسقط

وتبتــل ثيابهــا وتجــرح ركبتها فتبكــي وتعالجها أمها بصبغــة المركركروم الحمراء، تحظى بسحجة مؤلمة مصبوغة بالأحمر لتثير إهتمام الكبار ولابد لها أن تتأوه وتذرف الدموع، ثم تسـمع أصــوات رفيقات طفولتها وتهرع نحو الباب فترى البنات يتراقصن تحت المطر ويغنين جذلاتٍ:

مطر مطر حلبي...... عَبّرْ بنات الجلبي

مطر مطر شاشا....... عَبّرْ بنات الباشا

مطر مطر عاصي...... طوّل شعر راسي

لم تكن تدرك سبباً لدلال بنات الجلبي المترفات وحظوة بنات الباشا اللائي تطالب الصغيرات أن يحملهن المطر ويعبر بهن الطرقات بعيداً عن الوحــل والبلل، كانت تدع المطر يبلل شــعرها ليطول فتصل ظفائرها إلى منتصف ظهرها لتغوي الفتيان والرجال الذين يحبون العبث بشــعر النســاء الطويل كما تتهامس النســاء الكبيــرات،،، لطالما جمعت هي وصديقاتها ماء المطر في زجاجات ليغتســلن به وتطول شعورهن، وكنّ يواصلن الغناء حتى بعد أن ترحل الغيوم وتنتفض العصافير على قمم الأشــجار وتنتشــر روائح الخشــب المبلول والعشب، تتردد الترنيمة المطرية بصوتها الخفي، شــعرها الطويــل اليــوم ماعاد مفتقراً للمطر ؛ فالســماء تمطــر كل آونة هنا ولاوجود لبنات الجلبي ولابنات الباشا بنات أعمام والدها، وهي تتحاشى المطر بالقبعات والمظلات..

تنفســت بعمــق وأغمضــت عينيها على دمعــة طافت بهمــا من جذل الــروح بالرؤى التي تلاحقت على ذهنها، فتحت عينيها وفكرت بقراراتها المتســارعة وحياتها المرتبكة في هذه البلاد الجميلة واللعينة معاً، من هي الآن وماذا تكون؟؟

ـ تماسكي يا نهى، كوني أنت قبل أن تفقدي قدرتك على استعادة خزين العقل والروح، صوني ذاكرتك فلايخطفك غول النسيان، لاترمي بنفسك في خرس العاجزين فينتابك البكم، إصرخي أيضاً، إعشقي ثانية، أطلقي صوتك للأعالي حتى تتأكد كينونتكِ فلاتموت شهواتك ولغتك والذاكرة، ولكن أنىّ لي أن أفعل ؛ ففي هذه المدينة يستهلك المرء كل ما أتى به من دياره: المعارف تفترسها التحديات، الصحة تستهلكها المخاوف والشوق المكبوح والخيانات، القراءات يشوّشها الحزن وكآبات الفشل، الذاكرة تتلعثم بين تشكلات حديثة يرسمها الألم في اللحم وبين خزين معتق لمدينة الروح البعيدة، واللغة، آه، اللغة تتأرجح بين إيقاعات مختلفة ومؤثرات فكرية وعرقية تستقر في الدم،،، تتراقص أو تُجنّ أو تتهاوى مختنقة في العجز، اللغة تشحب وتحتضر، اللسان ينوء بنطق كلمات جديدة تتعثر معها سلاسة القول، وهي تردد لنفسها، بل تنطق الكلمات بصوت مسموع:

ـ إنسيْ الموتى والمفجوعين، إنسيْ الرؤوس المقطوعة بعيونها المفتوحة التي تحدق بالعابرين على الرصيف، إنسيْ صرخات اغتصاب الصغيرات في مدنك المستباحة وتحطيم مواثل الحضارات العريقة، ماجدوى استعادة الألم؟؟ أزيحي مشاهد القتل على الهوية والقتل من أجل كلمة أو رداء، إنسي الخاطفين الملثمين الذين تربصوا بك لدى باب المدرسة وكنتِ تقرأين لطالباتك نصوص الحب المحذوفة من الكتب وقصص الإستبداد الممحوّة من المناهج المدرسية، لاجدوى من ذلك كله، إرتفعي قليلا فوق الماضي والحاضر الخاوي، إنبشي في أعماق ذاكرتك عن كلماتٍ مضيئةٍ تنير لحظتك المترنحة، تذكري ما كان يقرأه لك والدك من شذرات العارفين، إبحثي عن كلمة، عن سند،

عــن معنىً يديم صحوكِ ويكشــف لك عما يتجلى فــي روحك من قوة كامنة..

إلتمعــت في ذهنها عبــارة ضوئية كأنما كان « ابن عربي» يرددها للتو أمام مريديه:

«أنتَ غمامة على شمسك فاعرفْ حقيقة نفسك»

ردّدت كالمأخوذة: أجل، كنتُ الغمامة على شــمسِ عقلي فهل عرفتُ حقيقة نفســي؟ ماهي الحقيقة؟؟ العيب فــي ما نختار لا في العالم الذي هــو مرآتنا، العيب فينا وفي خداع أحلامنا ورؤانا ووعينا الغائب، أنا التي وطــأتْ الجمر فاحترقتْ ونهضــتْ، أنا التي برّرتُ الســقطة والكبوة حين وثقتُ بعاشق مأزوم واقترنتُ به.

« **المستعــدّ للشــيء تكفيه أضعــف أسبابه**»: كنت مســتعدة لمغامرة الحب وكان الحب الأخرق أضعف أســبابي، وعليه أقمت أوهامي ومنه تجرّعتُ خســاراتي، كنــت مطفأة الروح ولم تســاندني الرؤى وغــدرت بي نبؤات القلــب وتعطلــت قدرة الحــدس، ولكن هل كان لي خيار ســوى ذلك؟؟ أشك في إمكانية وجود خيارات كثيرة عندما تحاصرنا الوحدة والقنوط..

أنظــري للعالم حيــث تقفين، أنت هنا الآن، إبتســمي لتمثــال دانتون وللحافلة الزرقاء، إبتسمي للمشرّد الكحولي النائم لدى بوابة محطة المترو وأمامــه زجاجات خمره الخاوية، إبتســمي لرائحة الخبز المغوية تســتدرج العابريــن إلــى بــاب المخبز، إبتســمي لرائحة النســاء التي تغــوي المارة بهمهمــات الرغبة، إبتســمي أكثر للغيم والمطر وتألقــي بتصوراتك، دعي المطــر يــروي روحك الظمأى، فلتنعشــك الأفكار ولتنعشــك العطور التي تهب من أوشــحة الســيدات الأنيقات العابرات، إبتســمي لأوراق الشجر

المتراقصة، إبتسمي حَسْبُ لتشتهيك الحياة وتعثري على ماتتشهى روحك المستوحشة.

داهمتها هبّة عطرٍ نفاذٍ بعبير بخور شرقي وشذا زهور متوحشة من إمرأة حسناء جلست بالقرب منها لها هيأة نجمة سينمائية مثيرة: شعر أسود منسدل وقَصّةٌ تصل الى منتصف الجبين، رموش صناعية كثيفة، أظفار طويلة مطلية بالأحمر القاني، فم أشبه بزهرة حمراء تفتحت توّاً على بشرة رخامية شفافة، أشعلت النجمة سيكارة في مبسم فضي ونفثت دخاناً، حركت يدها الحاملة للسيكارة حركة مسرحية بارعة وتساقط شيء من رماد لفافتها على الرصيف وفوق حذائها الأحمر ذي الكعب المرتفع، نفضت الرماد بحركة مغوية، نظرت إلى نهى وابتسمت لها لتعلن فتنة جمالها، بادلتها نهى ابتسامة الإقرار بسلطة الجمال القادرة على زعزعة الزمن، بعد هنيهة وصل فريق مصورين وعانقها مَنْ بدا أنه المخرج و اصطحبوها ليعرضوا جمالها وجسدها الفاتن على الجانب الآخر من الشارع وراء تمثال دانتون وأمام النوافذ الأنيقة لمحلّات الأزياء الراقية التي تعرض كل يوم فستاناً ثميناً واحداً وتسلطُ عليه أضواءها الموضعية،،، تموّجَ مثل أفعى وراء النجمة أثرٌ من عطرها: «بلاك أوبيوم ـ الأفيون الأسود »، وعندما سارت أبانت الفتحة الجانبية لثوبها المخملي الأسود الطويل ساقها الرخامية حتى منتصف فخذها وبدت وهي تغادر أشبه بآلهة من ربّات الأساطير فلفتت إنتباه المارة والعابرين و بدت بأناقتها الباهضة وحُسنها كجرعة أفيون مدوخة أو كإعلان جنسي فادح الثمن، غبطَتْها نهى على جمالها الصاخب ولامبالاتها بشيء سوى حضورها الفاتن المناقض لعشرات النساء الباريسيات العاملات المسرعات دوماً في البرد والمطر، خارجات من محطة المترو أو هابطات اليها بملابس العمل البسيطة

والمعاطف الخفيفة والأحذية الرياضية والوجوه العابسة أو الملمومة على أسرارها المكتومة.

سحبت نهى قبعتها الصوفية السوداء وثبتتها بإحكام على شعرها الذي نفرت منه خصلات عصية شوّشها المطر، خلعت معطفها المطري ووضعته على الكرسي الشاغر مع حقيبتها، شفّ ثوبها الأسود بكتفيه المُكللين بالدانتيل عن جلدها القمحيّ الذي بدا ذهبياً بفعل ضوء الشمس المتسلل من بين الغيوم وأشجار الكستناء الراعشة، حرّكت الريح وشاحها الفيروزي المنقط بحبات لامعة فأحكمت نهى ربطه حول عنقها، مرّت غجرية سلافية ترتدي زياً شعبياً من أزياء أوروبا الشرقية غنياً بالتطريز والألوان، توقّفت فوجدت في نهى صيداً لظهيرتها، إعتادت نهى على هاتيك الغجريات العرّافات المتسوّلات في المقاهي ومحطات المترو وهنّ يبعن الحكايات والأمل الزائف ويسرقن مايسعهن انتشاله:

- هات كفكِ - أون أورو أون أورو - يورو واحد..

أعطتها قطعة اليورو المعدنية وصرفتها:

- أنا أعرف حظي وأصنع مصيري، لن تكشفي لي عما أعرفه وما سأكونه.. إبتعدي، أرى في حظك أن رجل البوليس سيقبض عليك بعد برهة، سيأخذونك.. ابتعدي من هنا، إختفي عن أنظارهم...

إشتد المطر وتطايرت أوراق الشجر الذهبية كشموس صغيرة وتناثرت على الرصيف والوجوه، فتح جمهور السينما المنتظر في الصف مظلاته، حملت نهى معطفها وحقيبتها ودخلت إلى صالة مقهى دانتون في انتظار كارولين، أرضية المقهى لوح شطرنج من بلاط أسود وأبيض، تلبّست هيأة بيدق شطرنج وتجنبت أن تطأ المربعات السوداء للبلاط، رتّبت خطاها

علـى المربعات البيضاء التي تضاد حذاءها الأسـود، إتّخـذت لها مكانا حول طاولة حمـراء وأنصتت إلى أغنية (ناتالـي) يرددها المطرب جيلبير بيكو بنبرة حزينة، رنّ هاتفها النقّال:

قالت كارولين: للتو غادرنا محطة مونبارناس، سنكون معك قريباً..

حسـبت نهى المسـافة مـن مونبارنـاس والتوقـف في محطّتَيْ سـان سـولبيس وسـان جيرمان دي بريه لتصل الى الأوديون ـ خمس دقائق أو ستٌّ فحسب، قالت نهى:

ـ لا بأس، أنا أنتظر في الكافيه، وصلت مبكرة..

أخبرت النادل الذي سألها عن طلبها أنها تنتظر صديقتها، ثم نادته بعد برهة حين شعرت بصداع خفيف ولسعة جوع:

ـ من فضلك هات لي قدح إسبريسو وقطعة كرواسان..

علـى الطاولة المربعـة أمامها كأس بلوري أنيق فيـه زهرة قرنفل وردية وحيدة يؤكد منظرها ولونها الشـاحب وحدة نهى ووحشـتها وسـط هؤلاء الغرباء، وثمة منفضة وماسـكة مناديل ورقية عليها شـعار المقهى، سحبت منديـلاً ومسـحت دمعتيـن تحدّرتا مـن عينيها، يحدث ذلـك عندما تعي مقـدار وحدتها في هـذه المدينة الغريبة فتنهمر دموعهـا، إرتدت نظارتها الشمسـية لتخفي احمرار عينيها وحاولت إيقاف شهقة النشيج وقررت في الدقائق الماضية أن لا تخبر كارولين الفرنسـية عن قرار عودتها إلى بغداد بعد هذه السنوات..

ما شـأن كارولين بقراراتي؟ ما جـدوى أن أخبرها عن احتضار والدي فـي بغداد وعودتي الوشـيكة؟؟ لـدى كارولين ما يكفيها مـن المتاعب

هـي الأخـرى: وظيفتها المهـددة في البنـك ؛ فثمة احتمال أن يسـتغنوا عنها بسـبب الأوضـا ع الإقتصادية المتردية في دول اليورو، سـيخفضون أعداد الموظفين في البنوك ومؤسسـات الدولة فماذا ستفعل؟؟ سفر إبنها الشاب موريس لرؤية والده الأفريقي في بوركينا فاسو، وعلاقتها المترنحة بصديقها التونسي رشيد، وطموحاتها في كتابة سِيَر العظماء بعد أن كتبت سيرة سيدة فرنسـية رحالة إرتدت ثياب الرجال وسافرت عبر الجزائر طيلة عام كامل، هي تخطّط لتكتب سيرة « الكونت دي مولان « وهو من بقايا طبقة نبلاء توشـك على الإنقراض وقد دعاها لتقيم في قصره الذي يرقى إلى القرن السـابع عشـر وكان هذا سـبباً في توتّر علاقتها برشـيد العاشق الـذي تعرفت عليـه في تونس عندما زارت واحـات الجنوب الصحراوي وساعدها لإقامة معرض لرسوماتها البسيطة، حينها قرّرت في لحظة شغف بالمكان والرجل أن تشـتري منزلاً في القرية، وأشـرف رشـيد على ترميم المنـزل طوال الصيف، ثم دعته ليمضي عطلاته في بيتها على نهر المارن فـي ضاحية غريتيل شـرق باريس، إنقضت ثلاث سـنوات على علاقتهما فطلبـت منه أن يتزوجها ويطلق زوجته التونسـية ويهجـر تونس، إختصما وعاودا العلاقة، أحضر لها حقيبة محشوة ليفَ نخلٍ عندما قررت أن تصنع لوحات من الليف والرمال مسـتوحاة مـن الصحارى وتقيم لها معرضاً في تونس وباريس..

إرتجف قلب نهى وهي تتذكر مرض والدها واحتمال رحيله الوشيك ـ هـو الذي عاملها كأميـرة أو ملكة كما كان يعامل والدتها، حبها له إنطوى علـى قدر كبير من الولاء والإمتنان والإحسـاس بكرامـة أنثوية مصانة في مجتمـع يتفكك ويتهـاوى، كان يحاورها ويقرأ لهـا النصوص التي يحب ويقول لها:

ـ الأبوة والأمومة، الحب والحياة أمور لا تستقيم إلا عندما نتعامل معها برؤية عرفانية، ترّفعي عن ترّهات الحياة وعابر الأمور، إغترفي من آبار الحكمة، لايكفي أن تعرفي مايؤهلك للعمل والوظيفة، إعرفي مايؤهلك لتكوني إبنة الكون وشقيقة الرياح وأم الرؤى..

تحكّمَ هذا الحب متعدد الوجوه في مفاصل حياتها وحماها من المرارة واليأس في بغداد وجعل حياتها موضع احتواء من والدٍ كان يُملي عليها ما يوهمها بأنه خيارُها الشخصي، كان يُشعِرُها بالإختناق ـ أحياناً ـ لفرط اهتمامه بتفاصيلها فتمردت عليه وألقت بقناعاتها وراء خطوتها عندما استقرت في غرينوبل مدرّسةً للغة العربية في المدرسة الدولية للغات وارتبطت بصديقها العربي المغترب في زواج متسرع إتفقا عليه وهما يحتسيان القهوة ويتناولان حلوى الماكرون في مقهى الفلاسفة، زواجٌ تم بين التلذذ بشذى القهوة وأحلام الشهوة ومذاق الحلوى وصخب الشارع وظلال الفلاسفة فما كان له إلا أن يتهاوى في شهره الأول...

كتبت لوالدها عن فشل ارتباطها:

« كدتُ أنهي حياتي في لحظة القنوط المريع، وسمعت صوتك وأنت تنهاني عن اقتراف حماقة الموت..... «

كذبَتْ في هذا ؛ فلم تكن لتجرؤ على قتل نفسها، لكنها كتبته لأنها فكّرت فيه حقاً، والفكرة غالباً ماتقود إلى الفعل، فكل مايفعله المرء يعود في أصله إلى بذرة فكرة تفتّحت في أعماقه وتمكّنت منه وشغلته عما سواها..

لم يؤنبها بل كتب لها رسالة موجزة طعنتها وأيقظتها:

(... علّمتكِ أن تكوني حرة فتحملي مسؤولية حريتك وقراراتك ؛ فقد

بلغــت الثلاثين، ومثلكِ يقـودون أحزاباً أو حـركات إجتماعية أو ينتجون أفكاراً، كان عيسى ـ قريبُ أبي ـ في مثل سنك عندما أسّس حزبا وقارع سـلطة...تيقظي على الأمل، إسـعيْ لتحقيق حلـم راودك لتتجاوزي هوّة القنوط..........)

أدركت بعد زوال نزوة العشق أنها أمعنت في خداع النفس قبل خداع الآخر لها، توهمت أنها تكشـف عن سـريرة العاشـق ببراعات تعلمتها من الكتب وتعاليم الحكماء فعاشـت تجربة حب صاعق باتت تنظر اليه الآن باعتبـاره حباً مسـموماً وولعا نزوياً مخزيـاً، تحوّلت علاقتهـا بوالدها من الإنتماء المطلق إلى الضيق الخانق والشعور بالذنب في مخالفتها له ؛ فهو الذي إختار لها كل تفاصيل حياتها حتى هجرتها إلى فرنسا بعد نجاتها من محاولـة اختطافها في بغداد ووصولها بعد رحلة لجوء شـاقة إلى غرينوبل في الجنوب الفرنسي عند سفوح جبال الألب من جانب وجبل فيركور من جانب آخر. كتب لها والدها:

(... كي نتعلم السـباحة لابد أن نخوض في النهر، لا تبتئسي، التجربة تشـد أزرنا ولاتهدّمنا، أنا مسـؤول إلى حد كبير عن شقائك الراهن، كنت أخـال عالمنـا جديراً بالثقة، كم كنت واهماً،،، لم أسـعَ إلـى ثروة أو جاهٍ كمـا فعل ـ ويفعل ليومنا هذا ـ أقاربي من آل الكتبخاني، كنت أعِدّكُما أنـت وأخاك وليد ـ بعد اغتيال أخيك فـؤاد ـ ثروتي وجاهي وأعلّمُكما مـاأراه صائباً في معايير الحكمة والقيم، ومازلت أعِدّكُما ثروتي الوحيدة، لا تأبهي، تجاوزي السـقطة وانهضي،،، لن نرغمك على أمر ولكن إعرفي شـيئا واحداً: إننا نحبك أكثر مما يحبكِ أي إنسـان آخر ؛ فحبنا لايرتجي نفعاً ولايساوم، وكل حب آخر قد يكون له جانبه النفعي أو قد يمثل نوعاً من الإبتزاز..........)

عند هذه العبارة الأخيرة من كلام أبيها تفجّرت في روحها موجة عارمة من الحنين إلى كل ماتركته هناك في بغداد ـ حنين إتخذَ هيأة دوامة دوارة تلفها وتدور بها وتصيبها بالدوار العاطفي، ترعش قلبها وتطيح بتوازنها وتهيج أنواء عواطفها فيجتاحها حنين أنثوي حزين لأشياء صغيرة في البيت: الصور، الروائح، مفرش المائدة المطرّز بخيوط حرير زرقاء، رائحة طبيخ أمها، زهور الدفلى على الرصيف، تغريد البلابل على شجرة النارنج في الصباح، كتب والدها العتيقة، المزهرية المثلومة التي صنعتها أمها في دورة السيراميك، أغاني فيروز الصباحية من إذاعة بغداد، أشذاء البخور في ليالي الأعياد، أجهزة الفونوغراف والغرامافونات التي يحبّها والدها، شجرة الخوخ أمام نافذة غرفتها، القطة البيضاء السمينة التي اتخذت وظيفة حارس الباب وفرضت هيمنتها على الداخلين والخارجين بمواء متسلط.

حاولت التماسك أزاء جائحة الحنين غير أن دموعها انهمرت فشهقت، لم تعُد قادرة على تقييم حالتها، تقبلتها بكل عيوبها وخساراتها وانكساراتها، ذات يوم عشقها رجل لامرئي لبث يراسلها على مدى عامين وهي في غرينوبل وأخفقت التجربة ؛ فالرجال اللامرئيون المتخفّون في خداع اللغة وتهويمات العشق الرومانسية وأقنعة العشاق الحزانى هم أخطر الكائنات وأُقدرها على المداجاة والكذب، لذا تزوّجت رجلاً مرئياً ومرغوباً يمكن لمسه ومعانقته والتعامل اليومي معه، فإذا به أبرع الكائنات في الخداع،،، أحكامها باطلة في كِلا الحالين، من أين تستقي إذن أحكاماً صائبة وهي تدور في دوامة الغربة وتطحنها الوحشة وتحيلها إلى مزيج لامتجانس من التوق والرفض والحنين والقنوط؟؟

حدّقت الى الشارع، أشرقت الشمس وسط الغمام فالتمعت ذراع

تمثال دانتون وبدت ـ تحت تماوج ظلال الشجر ـ وكأنها تتحرك وهو يلقي خطبته بعد الثورة الفرنسية أمام مُريديه من اليعاقبة والعمال والثوار عندما تسلم منصب وزير العدل وحاول تحجيم أعمال الإرهاب والتصفيات الدموية التي اجتاحت باريس وجميع المدن الفرنسية بعد سقوط الملكية، لم يكن أمام التمثال سوى جموع من السواح والمشرّدين والكحوليين والعجائز، الجميع يديرون ظهورهم ـ في خروجهم من محطة الأوديون ـ لرجل الثورة الفرنسية مثلما أدار له رفاق الثورة ظهورهم وفي مقدمتهم روبسبير، بل وأجمعوا على إدانته بتلفيق تهم زائفة له أدت إلى إعدامه هو وديمولان فقال عبارته الشهيرة:

«قبل أن تنقضي شهورٌ على إعدامنا سيمزق الشعب أعدائي، حقيرٌ أنت يا روبسبير، المقصلة تنتظرك وسوف تتبعني ؛ ففي الثورات يظل قابضاً على السلطة من هو أشدّ نذالة»

فكّرت نهى: وهكذا في بلادي قبض على السلطة من هم أشد نذالة وخسّة وفساداً وكراهية للحياة والجمال..

وصلت كارولين الشقراء: وجهها يشع ألقاً وعيناها الرماديتان مسكونتان بنظرة مغوية تساند ضحكتها العريضة وأناقتها الطامحة لإجتذاب الرجال، تبعها صديقها التونسي رشيد بقامته النحيلة ووجهه الطويل وملامحه الدقيقة، عيناه الضيقتان ترمشان بسرعة تحت نظارته السميكة لفرط اضطراب الروح، عانقتها كارولين وصافحها رشيد الذي اكتست ملامحه بتعبير مرير، قالت كارولين بعد أن جلست إلى جوارها:

ـ أنت مدعوة للعشاء في بيتي مع صحبة جميلة من الصديقات

المغربيــات ومعنا رشــيد طبعاً، ســأعدُّ طبقا تقليدياً من الســمك والمحار وبعض السلطات الريفية الفرنسية التي تعلمتها من جدّتي الألزاسية..

إعتذرت نهى: لدي انشــغالات كثيرة ولابــد أن أنام مبكرة لأعود إلى غرينوبل في قطار الساعة السادسة صباح الغد..

فتحت كارولين مغلفاً من ورق الصحف يضم لوحة مائية صغيرة مؤطرة تظهِرُ أمواج بحر تحت رياح عاصفة:

ـ هذه لك، للناجين من عين العاصفة. وعدتكِ بها منذ زمن..

عانقتهــا نهى: شــكراً لهديتــك الجميلة، مازلنا ندور فــي قلب عاصفة وسنبقى..

ضحكت كارولين: حقا، نحن خلائق الأنواء العاتية..

قالت نهى لرشيد: ما الأخبار؟؟

قال رشيد بشيء من الضيق:

ـ ألا تعلميــن؟؟ كارولين ســتنتقل إلى قلعة الكونــت دي مولان، وأنا عائد في الغد إلى تونس.....

عقبت كارولين: بدأت العمل لكتابة ســيرة سلالة دي مولان، بالمناسبة أتعلمين أن الجد الأكبر للكونت هو دي مولان رفيق دانتون..

ـ يبدو أنك ســتتخصصين في كتابة الســيرة وتهجرين الشعر والرسم... قالت نهى.

ردّت كارولين: أنا سعيدة لأني سأكتب سيرة الثائر الذي خانه روبسبير، هيأ لي الكونت جميع الوثائق التي تخص أسرته..

طلبت نهى القهوة وطلبت كارولين كوكتيل بلودي ميري بينما اكتفى رشيد بزجاجة صغيرة من البيرة. همست كارولين لنهى بسرعة محاذرة أن يسمعها رشيد الذي انشغل بمكالمة هاتفية (عرضَ عليّ الكونت الزواج في كنيسة ملحقة بالقصر).

رفعت صوتها وأعلنت: سأنجز الكتاب خلال عام أمضيه في القصرـ الشاتوه الجميل الذي تنتج كرومه أفضل أنواع النبيذ، وستخدمني ثلة من الخدم ووصيفة آسيوية، وسوف أسهر مع الكونت والنبلاء المتبقين من أسرته ونخرج في رحلات صيد ضمن أملاك الكونت على ظهور الخيل تصحبنا كلاب الصيد.

ـ ليتني أجيد الكتابة مثلك لكنني لا أحبّ أن أكون كاتبة أمضي ليلي ونهاري عاكفة على أوراقي أو حاسوبي، إنها لحياة مرهقة ومبددة ـ حياة الكاتب، أعجب كيف يعيش هؤلاء الكتاب حياتهم؟؟ وهل لهم حيوات خاصة يحيونها وهم يعملون ليل نهار؟؟ لا أظن أن لهم حيوات خاصة، إنهم يبتكرون حيوات أبطالهم وقد يتماهون معها وينسون أنفسهم غالباً، أليس كذلك؟؟

قالت كارولين:

ـ ليس جميعهم: ها أنا أمامك، أحيا حياتي كما أشاء وأتمتع بكل مايستهويني من أمور الحياة، الكتابة تجربة ممتعة ـ وكتابة السيرة بالذات ـ كأنك تعيدين بناء الحياة بعد تفكيكها، وهي أيسر من كتابة رواية أو قصيدة ؛ إذ ما عليك سوى ربط الوقائع، لا تهتمي بالزمن التعاقبي، يمكن أن تتداخل الأزمنة، أنا أفعل هذا في كتبي... لديك إمكانات كاتبة، تملكين الخيال الخصب.

ـ أنت هكذا ياكارولين، تجعلين أصعب الأمور تبدو دوماً يسيرة وفي متناول الجميع،،، مالي وللكتابة؟؟، أحلم أن تكون لي حياة هادئة أصنعها كما أشاء مع رجل أحبه ويحبني، الكتابة لا تتيح لي ذلك، لأني سأتفانى فيها، لالالا، سأبدد حياتي..لالا..

ـ عهدتك مجازفةً يا نهى ولا تتهيبين..

ـ تعلمين كم ندفع أثماناً باهضة لمجازفاتنا..

ـ أنت بخير، جازفي ولاتتوقفي، غامري مراراً..

ـ قد أفعل، لعلّني لن أتوقف عن المجازفة، لاتصدقي ذلك..

نظرت نهى إلى ساعتها: حسناً، سنلتقي في أيام قادمة، وربما بعد عودة كارولين من قصر الكونت لنحتفل بكتابها الجديد.

غادروا المقهى تحت رياح باردة: كارولين وصديقها إلى شارع السان جيرمان بينما هبطت نهى السلم الى المحطة لتستقل مترو رقم ٤ وتغادره في محطة شاتليه لتستقل المترو رقم ١٢ المتجه الى شارع فوجيرار، عند وصولها محطة فوجيرار إشترت من المحطة التحت أرضية مظلة وشالاً صوفياً تلفعت به، إرتقت السلم الكهربائي ثـمّ عبرت شارع فوجيرار لتشتري علبة شاي من سوبر ماركت « شوبي» واتجهت نحو شارع بوسيه إلى مطعم عازار اللبناني لتشتري شيئاً من طعام تطبخه زوجته الصيدلانية التـي تخلت في باريس عن تخصّصها وامتهنت الطبخ منذ هجرتهما أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، تفتح نهى باب الفندق في شارع موبلان، ترتقي السلّم الخشبي العتيق ذا الصرير وتلقي بنفسها على الفراش البارد في غرفتها الصغيرة وتنخرط في البكاء.

رسائل

رسالة ألكترونية من وليد جابر الكتبخاني إلى شقيقته نهى جابرالكتبخاني

To: nuha - iraq @ yahoo.com

From: waleed-jab@yahoo.com

October 1st 2013

بغداد

أختي الغالية نهى

... أرجوك عودي إلى بغداد بسرعة ؛ أبي في حالة صحية متردية، تعلمين أن صحته إنهارت إثر اغتيال أخي فؤاد، قال الأطباء أن قلبه متعب جداً وأجروا له عملية قسطرة للشرايين التاجية، يلهج بإسمك كل حين، إحجزي على أول طائرة وتعالي بسرعة ـ أعلم أن لا رحلات مباشرة من باريس إلى بغداد، بإمكانك الحجز عن طريق أربيل، سأتصل بخالي سليم لينتظرك في مطار أربيل ويأتي برفقتك وسأطلب منه أن يحجز لكما تذكرتين إلى بغداد إن أمكن، حاولي أن تحظي بإجازة وقد يقنعهم سبب مرض والدي، أعلم أن الأمر مربك لك جداً، لكنها رغبة الوالد الأخيرة ؛ فهو يهذي بإسمك واسم أخي الراحل فؤاد ويودُّ أن يراك قبل رحيله، حاولي أرجوك..

كـم جربنا إقناعـه بالتخلي عن هذه الرغبة ؛ فنحن نعرف مدى صعوبة عودتـك فـي هذه العجالـة وما يترتب علـى ذلك من ضيـا ع فرصتك إذا ماتخلّيـتِ عن وظيفتك ـ وهـي الوظيفة التي زاحمك عليها الكثيرون في مدرسـة اللغات ولم تحصلي عليها إلا بشقّ الأنفس، والآن نطالبكِ بتركها والعودة إلينا، أشـعر بفداحة الخسارة لكنه والدنا ولابد من تضحيةٍ ما، مع أن أية تضحية من تضحياتنا لا ترقى إلى تضحياته ـ هو الذي قدّم لنا كلَّ ما بوسعه لندرس ونبني حياتنا ونتقدم في الحياة..

وليد

ملاحظـة: أرفـق لك صورة التقريـر الطبي الأخير لوالـدي لتقدميه إلى إدارة مدرسة اللغات

Attachment: downlaod

رسـالة ألكترونيـة من نهـى جابر الكتبخانـي إلى شـقيقها وليد جابر الكتبخاني

To: waleed –jab@yahoo.com

From: nuha-iraq@yahoo.com

October 1st 2013

غرينوبل

أخي الحبيب وليد

أعلم يا وليد ما حلّ بوالدنا الحبيب بعد مقتل فؤاد وعدم الكشف عن القتلة المجهولين، أفهم رعبه ويأسـه من هذا البلد، وهذا ما أرهقه وأوهن روحـه وصحته وما جعلنـي أنا أيضاً أدخل المستشـفى هنا فـي غرينوبل

بعد إنهياري حال سماعي بالفاجعة، لا أدري كيف سأتدبر أموري بهذه السرعة، ولكن بالرغم من ذلك أرجو أن تطمئن بابا على عودتي أولاً وقبل كل شيء ؛ فالأمل سيجعله يقاوم. إتصلتُ بجميع مكاتب الخطوط الجوية التي تتجه طائراتها إلى أربيل فلم أحظ بحجز قريب، قررتُ السفر إلى زيوريخ بالقطار ؛ فثمة طائرة للخطوط السويسرية تتجه إلى أسطنبول غداً مساءً وقد حجزت عليها عبر الإنترنيت كما حجزت على الخطوط التركية إلى أربيل، أودعت حقائبي عند صديقتي مليكة الجزائرية التي تعمل معي في المدرسة العليا للغات، ولم أدفع أيجار غرفتي للشهر القادم حتى أتبين الأمر. قلْ لخالي سليم أن ينتظرني صباح السادس من تشرين الأول في موعد وصول الطائرة التركية إلى مطار أربيل ـ

نهى

ملاحظة: سأتصل بك هاتفياً من زيوريخ

رسالة ألكترونية من وليد جابر الكتبخاني إلى شقيقته نهى جابرالكتبخاني

To:nuha - iraq @ yahoo.co

From: waleed-jab@yahoo.com

October 2nd 2013

بغداد

عزيزتي نهى:

إتصلتُ بخالي سليم وقام بالحجز لكما من أربيل لبغداد وسينتظرك يوم ٦ تشرين الأول في المطار، لا تقلقي، إعتني بنفسك، تهلل وجه

والدي حين أخبرته بقدومك الوشيك حتى إنه استطاع النهوض والسير داخل البيت بعزيمة قوية وقد تورّد وجهه وتحسنت شهيته للطعام. أرأيتِ أهمية عودتك له؟؟ همس لي أمس أنه يعدُّ لك مفاجأة وهو يتكتم عليها كعادته في إعداد المفاجآت..

وليد

رسالة من نهى جابر الكتبخاني الى شقيقها وليد جابر الكتبخاني

To: waleed –jab@yahoo.com

From: nuha-iraq@yahoo.co

October 2nd 2 013

غرينوبل

عزيزي وليد:

أسعدتني رسالتك.. إعتنِ بوالدي جيداً ريثما أعود لأعرف مفاجأة والدي، جمعت أوراقي ومشاريعي المؤجلة وتركتها عند صديقتي مليكة مع حقائبي وقلبي يتمزق بين التخلي عن وظيفتي وبين حبي لوالدي ووفائي لأبوته، لديّ إحساس بأنني لن أعود إلى مدرسة اللغات في غرينوبل ولن أراها ثانية، لا يهم، سأبذل كل ما بوسعي وأعود بأسرع ما يمكنني لرؤية والدي الحبيب..

قبلاتي لكم جميعاً

نهى

القطار

مايجتازه القطار وَهْمٌ ومايمضي إليه حُلُم ونحن بينهما ومضةعابرة

كانت تتوهم وأمست تحلم: الحلم مسار وطريقة نظرٍ للحياة، الرؤى وسيلة لتخفيف مرارات الواقع وعليها أن تعزز قدرتها على الحلم بعد أن استنفدتها سنوات العنف الرهيبة في بلادها وأوهنتها الحماقة في غربتها، وهي في غسق الصحو، في لحظة التباس النفس بالنفس والمكان تتساءل: من أنا؟؟ أنا هي، أنا لست هي، آه،،، أنا كلا المرأتين: نهى التي كانت وانتهت ونهى التي تحاول أن تكون، هل ستكون؟؟ لاأحد يعلم... لاأحد... ماتخشاه هو مايختفي في خريطتها الجينية، في المورثات الكامنة وسط خلاياها..

تفيق من هلام الحلم وتتابع حركة القطارات على الشاشات الألكترونية، تنتظر الإشارة إلى القطار المتجه نحو زيوريخ، يحاصرها دوّي الحشود المزدحمة في محطة (غار دو ليست) ـ محطة الشرق، دوي مدوّخ تصنعه الأصوات البشرية المحتشدة في فضاء المحطة الهائل، فكرتْ أن هذه المئات من البشر مثلها تبحث عن فرص للحياة وأسباب للبقاء وقد يبحث بعضهم عن عقار للوثة الحماقة، أو عن عقار للحب، أو دواء لتسكين الندم أو يعالجون الخيبة بخيبات جنسية عابرة أو اقتراف جريمةٍ ما أو الإلتحاق بصفوف الأرهاب لعلهم يحظون بمعنى ما، كلهم يبحثون عن

مهـرب مـن موت متربص بهم ؛ كلٌّ بطريقته كمـا فعلت هي عندما هربت من بغداد، لكنها سـتعود الى المدينة التـي تحب: مدينة الذاكرة والموت والحياة المسـروقة، بغدادها التي ولدت فيها يوم اشتعلت حرب السنوات الثمانـي بين بلادهـا وإيران فواجهت تعاسـات لاتحصى طوال سـنوات عمرها لإرتباط طالعها بطالع الحرب المشؤومة التي أتت على كل شـيء وغيّرت موازين حياتها، شربت الحليب على إيقاع القصف وصارت تحبو علـى أصوات الصواريخ وكانت أول كلمات نطقتها: « غارة، ماما أخاف « وعرفـت حين كبـرت قليلاً أن راية البلاد تحتضـن الموت، وأن الحياة كانـت تُعاش على إيقاع النشـيج وأصوات الإنفجارات وقـراءة البيانات الحربيـة، ومضت بلادها حتى يومها هذا بقيحها وقتلاها وفسـادها ونتانة سـمومها، أية حياة هـذه التي تدوم الحـروب فيها عقـوداً طويلة إلتهمت أعمار الناس وحوّلتهم إلى كائنات مجبولة من رعب ومرارة وقنوط؟

تنفر من كونها سليلة أسرة كان لها دور في سياسة العراق تحت الإحتلال العثمانـي والبريطاني قبل ١٩٥٨ وبعد الإحتلال الأمريكي ٢٠٠٣: جدها لوالدها هو صبحي الكتبخاني الذي آل إليه اللقب من جدٍ بعيد عاش في القرن السـابع عشـر وكان كُتُبياً مولعاً بالمخطوطات والكتب وعاكفاً على الإستزادة من كل علم، ولم يرث أيٌّ من أحفاده علمه وولعه ماخلا صبحي الذي أصيب بعشـق النسـاء والكتب والكتابة، لكن بقيـة الأحفاد حملوا اللقب جزافاً مع إرث ممتد من أراض وعقارات..

كان صبحي الكتبخاني يطمح للقيام بالتغيير في مجتمع بلاده، وأسّس إبن أخته عيسـى الخيامي جمعية إستلهم صيغتها من الأحزاب الإشتراكية

والديموقراطيـة الأوروبية ـ وربما التركية ـ في بلد ينهض تواً من بداوته ويحاول اقتناص ومضـات الحداثة الاوروبية ممتزجة بالأدعية والصلوات والتناحر والتغالب، والدها وحده جابر الكتبخاني لايثق بالسياسة، لايؤمن بفكرة الأحزاب في العراق ولطالما قال لها:

ـ كل عقيـدة لحزب تمثـل قفصاً لطيور مبتـورة الأجنحة، وعن طريق الحـزب يرتقي البعـض إلى مصاف الآلهة ويحتلـون المناصب ويقبضون على السـلطة المطلقة والثروات والمصائر ويصعدون على ظهور الحشـود المخدوعة بقداسـة التضحية من أجل الوطـن وماهي إلّا تضحية من أجل الساسة حسب......

كـم يمقت والدها السياسـة ويحب الحيـاة وتفاصيلهـا الصغيرة التي يراها نقيض السياسـة وفسادها: يهوى زراعة الورود وقراءة كتب العارفين والبحوث الإجتماعية والموسيقى، كتبت من أجله كتاباً صغيراً عن الزهور وأهدته له في عيد ميلاده الخمسين، إبتكرت نصاً عن كل زهرة: طبيعتها، هويتهـا وتأثيرها في الإنسـان، كتبت عن تأريخ الزهـور وعوالمها الغريبة الفريدة وجعلت الكتاب كتقويم سـنوي للزهور، إعتبر والدها هذا الكتاب أعظم هدية ثمينة تلقاها في حياته وصار دليله ومؤنسه، كتبت له عن زهور يعرفها وزهور يتوق لمعرفتها وزراعتها وزهور كان لها أثر في صناعة تأريخ الحب والمعرفة.

إشـترت نهى زجاجـة مياه معدنية وشـربت جرعات سـريعة، لم يكن والدهـا سـوى صديق رفيق بهـا وكان يتنكـر لتأريخ العائلة غالبـاً، لكنها تذكـر أنـه أبدى تفاخـراً بوالده مرة واحـدة أمام بعـض الضيوف وأطرى علـى كياسـته وتهذيبه وإطلاعه الواسـع كونـه خريج كلية لندن للسياسـة

والإقتصاد،،، وكانت تقدم لضيوف والدها أقداح الشاي مع طبق من الإنغلش كيك المحشو بالجوز والزبيب ؛ فوالدها ورث من أبيه شغفه بكل ماهو إنكليزي حتى أنه كان يحلم بإرسال ولديه فؤاد ووليد للدراسة في بريطانيا لكن الحصار والحروب حالت دون ذلك. حافظ والدها على أناقة مميزة وهو في الوظيفة ؛ فكان يرتدي بدلات من القماش الإنكليزي ماركة (دورمويل) ويتحدث بحنين جارف عن لندن التي زارها في طفولته وشبابه مع والده، وشجع نهى على تعلم اللغتين الإنكليزية والفرنسية..

كانت كلمات والدها ذات قوة عجيبة تنطوي على رؤية حدسية دقيقة وهو يعبر عن خيبة أمله حين رأى انهيار العراق السريع بعد ٢٠٠٣، لكنه لم يبد قنوطاً كبيراً ؛ فقد آمن ـ كمثل أبناء جيله المتفائلين ـ طوال حياته بحتمية التغيير وعلّق آمالا كبرى على جيل من الشباب لم يبلور لهم الزمن موقفاً إزاء الأحداث بعدُ، كان يعيد القول:

ـ الأشياء تحدث وتستمر في الحدوث، وتأتي حوادث سواها ولن تتوقف وتيرة الحياة.....

نادت مذيعة المحطة على مُسافري رحلة زيوريخ، حملت نهى حقيبتها واتجهت إلى القطار، دفعها رجل مثل جميع المتزاحمين على صعود القطار، وضع يده على ظهرها وسط عمودها الفقري وبشيء من الخفة شبيهة السحر ضغط براحة يده على ظهرها فاستجاب جسدها منحنياً نحو الأمام وهي تضع قدمها اليمنى على درجة القطار، كان خلفها تماماً حتى ليكاد يلتصق بها التصاقاً كاملاً لولا سماكة معطفها المبطن بفراء صناعي، دفعها ثانية دون عنف بل أنه أسندها على نحوٍ

ما حين ترنّحت وسقطت حقيبة يدها فالتقطها بسرعة وأعادها إليها، همس لها من وراء عنقها ولفحت أنفاسه أذنها المتوهجة:

ـ لا تخافي، واصلي السير نحو المقعد جوار النافذة..

هل نطق الرجل؟ أم أنها تمنت ذلك؟ في تلك اللحظة أحسّت بتفجر أنوثتها في جسدها كله ـ في أطرافها وأحشائها وخفق قلبها وفمها المرتعش.. أكان هذا صوت رجل الرؤيا الذي تنتظره، تحلم به؟؟ إلتفتت نصف التفاتة ولاح لها وجه الرجل الذي يتراءى في أحلام نومها ورؤى يقظتها، وسرعان ما تلاشى كعادته مثل ومضة نور.. ليست متيقّنة من شيء، لا وجود للرجل الذي لمس ظهرها ولا لكلماته، أغمضت عينيها لحظة وتمتمت بشيء، إحتبس صوتها وعجزت عن نطق كلمة وهي تشق طريقها بين المسافرين المسرعين مساء العطلة الأسبوعية لمدينة كوزموبوليتانية كباريس..

إحتشدت نساء من مُهاجرات شرقي أوروبا في جهة القطار اليمنى يحملن أطفالاً وأكياساً وسلالاً وآلة كمان وأكورديوناً، تخطتهن و جلست في الجانب الأيسر جوار النافذة، أرادت أن تمحو فكرتها عن الرجل الذي همس لها أو خُيل لها أنه لمس ظهرها فمضت تحدّق بملصق إعلاني عن عصير الليمون فيه صورة إمرأة فاتنة ترتدي قبعة قش بيضاء وثوباً صيفياً أبيض منقوشاً بشرائح الليمون الرقيقة والفراشات والزهور وهي تشرب زجاجة عصير الليمون المثلجة تحت شمس وهاجة، ثم انتقلت إلى إعلان آخر عن حمالات الصدر ماركة (تريومف): الفتاة السوداء التي تعرض الحمالات الرقيقة المصنوعة من الدانتيلا البيضاء نحيلة جدا مثل عصا، خمّنت أنها مصابة بالأنوركسيا أو أنها آتية فعلاً من مجاعة أفريقية إلا

أنها حشت نهديها بفقاعات السليكون فبدا صدرها الممتلئ متناشزاً مع عظامها النافرة،.، إنشغالها بالتفرج العابرعلى الإعلانات المسفوحة فوق جدران المحطات أنساها أمر الرجل الذي ساعدها على صعود القطار، تلفتت، حدّقت في الوجوه فلم تعثر على وجه تعرفه، لعلّها توهَمت أو خيل إليها أن رجلاً ما أسندها ودفعها بنوع من الرقة ورفع حقيبة يدها التي سقطت، لكنها لم تجد وجها أليفاً أو رجلاً معنياً بها:

- كثيراً ماخدعتني الرؤى وتوهمتُ وجود هذا الرجل في حياتي ثم اكتشفت أن الأمر لايتعدى وهماً من أوهامي أو صورة متخيلة عن أهوائي، كم تضللني رغباتي!!..

يقشعر جلدها وترتجف، تبرد، ولأن البرد كان في عظامها وأعصابها لم تنفع محاولتها في إحكام أزرار المعطف حول جسدها النحيف، المسافرون الغرباء في القطار خلعوا المعاطف وجاكتات الجلد الثمينة وصديريات الصوف والمعاطف المطرية شبيهة معاطف رجال سكوتلانديارد، وضعوها على الرف العلوي مع الحقائب وأخرج بعضهم أجهزة اللاب توب وشرعوا يلعبون الورق والشطرنج أو يدونون حسابات وملاحظات، ونهى ترتجف من جليد أعماقها..

تسارعت أمام نافذة القطار تلك المروج الخضراء التي تتناثر فيها أزاهير بنفسجية كالنجوم وتتطاير فوقها أسرابٌ من العصافيرالرمادية بأجنحتها السّود وعلى مرمى البصر كانت أشجار الجوز السامقة تلقي بظلالها الكثيفة على نهايات الحقول..

حلمتْ بوجوه، بأحداث، بأصوات، إستدعت أحلاماً عن الحب والمُتَع

وملذات الغرام، واستردّت أحلاماً قديمة راودتها طوال سنوات ـ فيض أحلام ورؤى متشابكة مع رغبات عذبة حلوة كعسل يفيض من الأعماق، كانت وجوه أحلامها مشبوبة العاطفة وتتعامل معها كأنها جزء أليف من وجودها، تحدث أعاجيب مستحيلة الحدوث: فتى يطير وغمامة تغني، وإبريق شاي يرقص ويردد الجدار أغنية، وردة تذرف دموعاً، دودة حرير تنسج لها ثوب زفاف، رجلٌ يعانقها ويخطفها إلى بستان له زرقة غابات مسحورة، يا لأحلامها المشتهاة!!..

إختفت المروج الخضر والأحراج المعتمة، عبر القطار جسراً فوق نهر (المارن) في ضاحية غريتيل وظهرت غابات كثيفة من شجر القيقب والسنديان بينما كانت أحراج الأسل تمتزج بالمياه الجارية وتشكّل بقعاً معتمة عند ضفاف النهر الصغير، غابت وجوه أحلامها في مياه نهر (المارن)، تناثرت مزقاً فالأحلام لا تصمد طويلاً عندما ترتطم بصحوة ذاكرة متوجعة لم يندمل جرحها بعد، إقدامُها على الزواج من حبيبها اصطدم باختلاف بيئتين: شاب عاطل من بيئة عمالية، ولد نتيجة زواج بين أم عراقية وأب سوري في ضواحي مدينة حماه ونشأ شابا قويا عريض المنكبين بشعر منسدل ووجه ذي فك ضيق وعينين حادتي النظرة وشفتين بارزتين، تأكل أعماقه مرارة ساخرة وحقد راسخ، عدّ زواجه من نهى نوعاً من ثأر لحياته الخربة، فتاة من طبقة وسطى تتمتع برفاهية نسبية قياساً إلى أسرته المعدمة التي لم يكن فخوراً بها، كان يعلن لها أنه سيتفوق في مجال لايخطر على بال أحد، قد يغدو مخترعاً عظيماً، أو سياسياً يغير أوضاع بلده أو في الأقل بوسعه أن يكون شاعراً يضع جميع الشعراء العرب بدءً من أدونيس وحتى محمود درويش في خانة النسيان ؛ فكلهم لايرتقون إلى مصاف ماسيقدمه من عجائب وفتوحات أدبية!!. تعاظمت

نزعته الثأرية والمرارة التي تحرق أحشـاءه بعـد الزواج عندما كانت نهى تواجهه بلا جدوى ادعاءاته مع عطالته الدائمة:

ـ إبحث عن عمل، الكلمات تبقى محض كلمات، إفعل شـيئاً،، كيف تبقى هكذا؟؟

ـ ها أنت تعملين، يكفينا ماتحصلين عليه.. راتبك مجزٍ..

ـ وإن استغنوا عن عملي، أو تركت أنا العمل؟؟

ـ لن يحصل شيء من هذا..

ـ قد يحدث أي شيء، لاشيء مضمون في عالمنا..

كان يصمـت ويأخذ لفافة من علبة سـجائر (الغلـواز) الزرقاء ويحمل معطفـه ويخرج ولايعـود إلا بعد يوم أو إثنين لتعـرف منه وهو في هذيان الثمل أنه أقام علاقات متعددة مع نساء عابرات من السائحات الأمريكيات وغيرهن..

ـ إسـمعي ولاتقاطعينـي، ثأري لـم يكتمل بعد، هذا نصـف ما أريده فحسب: أن أضاجع أمريكيات وأوروبيات، هذا حلمي ـ أن أنتصر عليهن جميعـاً بالجنس أو بسـواه، إسـمعي جيداً، لن يقف شـيء فـي طريقي، إنتقامي في بداياته..

ـ ننفصل، لايمكننا الإستمرار، أنت لا تصلح لي ولا أصلح لك...

ـ الأمر ليس بهذا اليسر..

ـ ماذا تعني؟؟

ـ للإنفصال ثمنه ياعزيزتي، لاشــيء مجاني في هذا العالم المتوحش وكلانـا جزء منه ولايمكننـا التنصّل من قوانينه، تدفعين لي عشـرة آلاف يورو فأوقّعُ وثيقة الطلاق، ثم لاتنسْي أنني بطلاقنا لن أسـتطيع الحصول على اللجوء أو الإقامة كما حصلتِ أنت عليهما..

ـ تبتزّني لتوافق على الإنفصال بثمن؟ بئس الرجل أنت..

ـ وكيف سأعيش وأنا مشرّد بلا عمل وقد رُفض طلب لجوئي وأحتاج إلى المال لأوكّل محامياً من أجل استئناف طلب اللجوء؟؟

ـ ألا تدفع لك السائحات اللائي تعاشرهن؟؟

ـ هل سـاءك الأمر؟؟ أنت تمتنعين عن معاشـرتي فترتدين البيجامات السـميكة المقفلـة لتعيقي رغبتي وتحبطيني، ألا تفهمين؟ لسـت جيغولو يبيع الحب مدفوع الثمن، بل أنا من يدفع لهنّ..

ـ من مالي الخاص، ياللعار، ألهذا تزوجتني؟؟

ـ أنـت مَنْ رفضتِ العيش معي دونما ارتباط رسـمي فتحملي تبعات اختيارك

ـ خلتك رجلاً كما ادعيت..

ـ أنا رجل على طريقتي التي أختارها، هذا أنا وهذه شـروطي، فافعلي مايحقق رغبتك..

نفضت عن رأسها هذه الدوامة من ذكريات مخاطرتها البائسة:

ـ ها أنا أقف وحدي قوية بحرّيتي وليذهب هو والمال إلى الجحيم..

لستُ وحدي من أصابه سقم الانسانية وتكشّف له عهر بعض الرجال، ساسة أو سواهم، كلنا في هذه المنطقة الموبوءة طُبِخنا مراراً في مرق ملوث سـمّم حياة البشـرعلى مر الأزمنة وصادر أحلام النـاس: مرق أيديولوجي متيبـس تعفن لطول ركـوده أو مرق ليبرالي زائف أو مرق طائفي ماسـخ، وها أنا والجميع نرى نيران أكلة لحومنا تتوسط غابة أيامنا ويسمّم دخانها فضـاءات الأمل ويبرز من بيننا منتقمون فاجرون أمثال طليقي التافه الذي لايختلف قطعاً عن أي إرهابي، بل هو إرهابي من طراز خاص...

هـل ثمـة أمـل؟؟ لاأدري، لاأعلـم الآن أي شـيء حتى أنني أشـك بوجودي في هذا العالم المتهاوي، أين أنا؟ بلدي في قبضة السـقم، وأنا أحـاول النجاة بنفسـي، كل منا يعمل على خلاصـه الفردي وماعاد هناك تعاضد بين البشر، أبي ينحدر نحو النهاية وأمي وأخي عاجزان في مجتمع ينتج الكراهية والموت...

لـم تفتح كتاب (زئبق) لأميلي نوتومب، كانت تحمله في حقيبة يدها لتقرأه في محطات الإنتظار حسـب، لم تشـأ أن تفعل مثلهم ؛ فهي تُصاب بالـدوار متـى ما قرأت في القطار، العالم يركـض وهي تعدو في الضباب الجليـدي لمـدن من فولاذ وزجـاح، وحدها كانت ترتجف برداً ووحشـة فـي عربـة القطار السـريع TGV الدافئة رقـم A6، وقد إنطلـق القطار من محطة (غاردوليست) شرق باريس إلى جنيف ثم زيوريخ، كيف ستمضي الساعات الست وجسدها يختض من برد عظامها؟؟

إلـى جانبها فتى أحمر الشـعر يلعب الورق مـع الكومبيوتر ويضع على أذنيه سـماعة الموسيقى، يلعب بحرفية عالية، يبتسم إبتسامة ماكرة وتلتمع عيناه العسـليتان لعله كان يغشّ مع نفسـه ويتحدى قدراته بقدرات الآخر

الغشاش المنبثق من أعماقه، إبتسمت للفكرة: أن يغش المرء مع نفسه، يخدع نفسه، ويفرح بفوز مغشوش تواطأ عليه مع قرينه الغشاش..

شابة شقراء على مبعدة مقعدين تغازل رفيقها وتقبله، تهمس في أذنه وتعبث بشعره وهو مستسلم لمداعباتها، تضع رأسها على صدره وتنام، يغطيها بمعطفه ذي ياقة الفراء، يمسّد صدرها وذراعيها و تنام في فردوسها الدافئ..

السيدة المسنة بشعرها القصير المصبوغ باللون الفضي كانت تحل أحجية الكلمات المتقاطعة في الصحيفة وتلقي بملحق الفلسفة الخاص بالفيلسوف (سبينوزا) المرفق بالجريدة في سلة المهملات وتبتسم لنفسها ثم تخرج حبة شكولاتة صغيرة من حقيبتها وتقضمها، الفتى أحمر الشعر يضحك ويضرب قبضة يده على المقعد الأمامي، فاز في اللعبة، غش وفاز، شاء أن يصدق فوزه بفرح زائف كلعبته. رجل خمسيني نحيل وله ملامح مابين القوقازية والهندية، شعره الرمادي كثيف ومنسدل حتى الكتفين، كان ينظر إليها هي المستغرقة في صمتها، نهض واقترب منها بوقار أرستقراطي:

ـ أتسمحين لي؟

قالها بإنكليزية ذات لكنة آسيوية مترجرجة..

رمقته بنظرة مندهشة..

ـ هل أنتِ جايا؟؟

ـ عفوا؟؟

ـ أنت جايا القادمة من لندن؟

ـ لا.. لست جايا..

ـ آسف، أنت تشبهين جايا ميراي تماماً..أنا.. أنا شاهروخ قريب والدتها

....

ـ هل لي أن أعرف أسمكِ؟؟

صمتت، إستغربت، أشاحت بوجهها نحو نافذة القطار

ـ لا، أعني، معذرة، إسمي لا يهم أحداً

ـ أظنه يهمني أنا

ـ ؟؟

ـ أودّ مطابقة الإسم على المظهر وإلا فسوف أدعوك جايا..

ـ فليكن، سمّني جايا فالأمر لا يعنيني..

ـ هل لي أن أدعوك لإحتساء الشاي في عربة المطعم؟؟

ـ شكراً، لا أشرب..

عاد الرجل إلى مقعده وحدقت هي في المسافرين الآخرين المنشغلين بأنفسهم......

المرأة الأنيقة المتحجرة ذات الشعر الفضي المرتدية طقم شانيل من قماش التويد البيج بحبيبات خيوط بارزة تتزين بعقد من سلاسل ذهبية

تتخللها لآليء بيضاء وسوداء،،، أنهت حل الكلمات المتقاطعة ووضعت في حجرها سلة أنيقة من القش مزينة بشرائط وردية يقبع فيها كلب صغير جداً من فصيلة (شيواوا)، الكلب الجميل المدلل يحدق بالفراغ ويهمهم قليلاً، يغمض عينيه البراقتين، ينام أو يتظاهر بالنوم هرباً من كل ماحوله والمرأة المتحجرة تحاول أن تبتسم لكن ملامحها لا تطاوعها فقد حشيت ثنيات وجهها وتجاعيد ماحول الفم بالفلر أو السليكون، وملحق الفلسفة عن سبينوزا الذي ألقته في سلة المهملات إختفى تحت علب الكولا والسجائر..

هي في قطار سريع يعبر قلب القارة الأوروبية، ورجل غريب يسميها جايا له ملامح رجل وسيم لكنه مريب كالموت، بشرته بلون البرونز المحروق، تخاله رسول الموت لا العشق، وهي هاربة من شبح الموت تعايشه وتخاتله ويسير بخطى خفيفة أمامها أو وراءها، متنكراً في هيئات متعددة، كل ليلة كانت تحلم به، كل صباح كانت تراه محدقاً بها من خلف نافذة غرفتها كلما أزاحت الستائر ونظرت إلى مقبرة غرينيل، تجده واقفاً أمامها بين شواهد القبور وباقات الزهور الذاوية، كان يتبعها من بغداد حتى قبرص حتى فرانكفورت حتى باريس حتى غرينوبل...والآن هاهو معها في القطار.. إنه هو.. إنه الموت.. لاحق الموت خطوتها حتى مدينة شارلفيل، حتى جنيف حتى بون، حتى زيوريخ حتى بيرن، تبعها إلى مدينة إكس أون بروفانس وسمعت حفيفه في متحف الرسام سيزان يقف قرب لوحة (المقامرون)، ولما التفتت كان الحفيف يصدر عن حارس المتحف المسنّ، أكان هو الموت؟؟، في مدينة ليون سبقها ثم تبعها إلى أفينيون، رأته يختفي في الكاتدرائية، ومرة أخرى كان يظهر لها من وراء أحد التماثيل، أو يكمن لها وراء كشك أسطواني لبيع الصحف على

الرصيف، أو تراه يجتاز الشارع محاذيا إياها ثم يسبقها إلى مكتب البريد مقابل المطعم الجزائري حيث تودع نقودها، تتراجع وتعبر الشارع ثانية وتتوهم أنه فقد أثرها..

نظرت إلى وجه الرجل الذي دعاها جايا، حدست أن سر الموت قابع في نظرته الباردة، في نبرته المحايدة، في دعوته لشرب قدح من الشاي، رأته في إسم جايا الهندية، ماذا يعني اسم جايا؟؟ لماذا أشبه جايا؟؟ تفتح غوغل في هاتفها تبحث في الويكيبيديا: الإسم يعني الموت والنصر والخير، لماذا يخادعها الرجل بإسم جايا؟؟

قالت له: أرجوك كف عن إزعاجي، لا أريد أن أكلم أحداً..

إبتسم الرجل إبتسامة غامضة كأنها الوعيد وجلس في مقعده الذي يفصله الممشى الضيق عن مقعدها..إزداد ارتعاش جسدها، ها هو الموت معها في القطار، يظهر لها بهيئة رجل غريب أنيق له سيماء عاشق أو جاسوس ويحاول إختراق روحها بينما استرخى المسافرون واستسلم بعضهم للنوم باستثناء ذلك الرجل الغريب الذي بقي متيقظاً يقرأ في كتاب بلغة الهندو، وهي المرتعبة من حفيف الموت حولها.

في برهة تالية ماعادت ترى الرجل ؛ فقد تلاشى واختفى وما عادت تحس بتهديد الموت الذي كان يتخفى في ملامح رجال ونساء يلاحقونها في بغداد عندما كان الناس لا يرون الموت موتاً ولا الحياة حياة.

حين أمنت إختفاء رسول الموت أنعم عليها معطفها السميك بدفء مريح تسلل إلى عظامها فتورّد وجهها وبرقت عيناها، كانت قبل قليل تضع اقراطاً فضية هلالية الشكل مطعمة بالفيروز، أحسّت بالمعدن يلسع عنقها ببرودته فنزعت القرطين ووضعتهما في جيب المعطف وأحكمت ياقة

معطفهـا الفرائية حول عنقهـا، حاولت أن تنام بعض الوقت لكنها ـ وبما فـي روحها من قلـق مؤبد ـ إكتفـت بإغماض عينيها، وتركت حواسـها الأخرى تحرسها، تحرس يقظتها وانتباهها..

غادر القطار مدينة جنيف التي لم ترَ منها سوى ساحة المحطة ومبانيها المضببـة في عتمـة الليل، مرّ القطار بمحاذاة بحيرة جنيف التي تقسـمها الحـدود الفرنسـية السويسـرية، ثم توقف فـي مدينة لـوزان وهبط بعض المسـافرين، واختفى الرجل القوقازي الملامح إلى الأبد فلم تلمح له ظلاً بيـن المغادرين ولا بيـن الماكثين في القطار، إطمأنت نهى فيما تبقى من مسافة إلى زيوريخ..

ـ ليس هذا أوان الموت ولا أوان اليأس وعليها أن تتذرع بالأمل..

إسـترجعت ذكريـات وحوادث مربكة، أخرجت ورقـة وقلماً وتذكرت خاطـرة كتبتهـا أيام قصـف بغداد وكانت تهـذي بالهلـع والخوف يفجر كلماتها ويرعشها:

يحدث إنفجار صاعق في اللغة، وعندما تنفجر اللغة نخون الصمت

وعندما نخون الصمت نخون العار، وعندما ينفجر العار نهزم الموت

همست لنفسها: هزمته، هزمته..

تحـدق إلى باب القطار الموصد، البـاب أكذوبة من صنع وهمها، هو اختراع بشـري يسـمّي الجهات، وراء وأمام الباب، ووراء الباب يزهر أمل عودتهـا لبغـداد وهي الآن تتخدّر فـي رحيق الصبـر، ووراء الباب يتهاوى الخـوف وتبـدأ لحظتها الحـرة، ألواح البـاب الفولاذي تهتـز قليلاً قليلاً في رعشـة خفيفـة مرئية وهي تلامس هواء الليـل المثلج، إطمأنت لمرأى

الباب الراعش وعدّته رسالة أمان لروحها، شعرت بضوء محطة قريبة يعبر جبينها، ها قد أبطأ القطار، حدّقت من النافذة: ثمة نجوم تهطل كقطرات الكريستال، أم تراها أنوار المحطة؟؟ أم هي جمرات أهوائها تتوهج في قلب الليل؟؟

زيوريخ

أنت غمامةٌ على شمسك فاعرف حقيقة نفسك

محيي الدين ابن عربي

إنفتحت أبواب القطار في محطة زيوريخ المركزية، هبطت نهى حاملة حقيبة ملابسها الصغيرة ومرّت عبر ضباب دافيء يشكّل جو المحطة العريقة ومبناها الذي يوحي بجلال الهندسة المعمارية والزخارف المفرطة في السقوف الحديدية التي تنفذ من خلالها أضواء مبهرة، ومن داخل المحطة لمحت التمثال الضخم الذي يشمخ في الساحة أمام بوابتها المهيبة، وجدت لها أريكة مريحة في أحد الممرات مقابل معرض للفن الحداثي يقيمه رسامون شباب، كان عليها أن تنتظر خمس ساعات حتى يحين موعد الطائرة المتجهة إلى إسطنبول، إتصلت بشقيقها وليد منتصف الليل:

ـ وليد، وصلت للتو زيوريخ، سأمضي مباشرة إلى المطار في انتظار الطائرة

ـ إهتمي بنفسك، حاذري البرد لتصلي بغداد معافاة فتبهجي والدنا...

ـ لا تخش شيئاً، ها أنا أرتدي معطفاً سميكاً ووشاحاً من الصوف، لا تقلق علي. كيف حال أبي؟؟

ـ بخير، أمدّه انتظارك بجرعات سحرية من الأمل، قد يكون كلام الأطباء محض هراء، إنه يتحسن على نحو مفاجيء ويتناول طعامه بشهية واستمتاع..

ـ قبلاتي لك وله ولماما، أخبر أبي عن وصولي إلى زيوريخ، أعرف أنه يحب هذه المدينة وكم حدثّنا عنها عندما كان يزورها مع عمي... سأستقل سيارة أجرة الآن إلى المطار وأمضي ساعات الإنتظار هناك..

خرجت إلى الهواء الطلق البارد الذي لفح وجهها وأنعشها، وشاهدت اتساع السماء وأبهجها منظرالتمثال المحاط بتماثيل حيوانات صغيرة تنفث الماء الى أحواض النافورة مما ضاعف إحساسها بالبرد أيضاً، كان الجو نقياً شفافاً كأنه الزجاج، وخمنت أنه قابل للكسر والتشظي، توقفت برهة واستندت إلى عمود جوار موقف سيارات الأجرة حتى وصلها الدور، كلّمت السائق بالإنكليزية، حمل السائق ذو الكاسكيت السوداء حقيبتها ووضعها إلى جواره وجلست هي في المقعد الخلفي، واتجه بالسيارة إلى الطريق السريع الذي تحفه قرى نائمة تبرق بعض أضواء نوافذها في الليل، وبدت أحراج شجر الشربين والسرو والصنوبر معتمة على الجانبين، وفكرت بوحدتها ووحشتها وسط هذا الليل البهيم في سيارة أجرة تشق طريقها نحو مطار زيوريخ..

تضغط على قلبها أسئلة مثل كماشات مؤلمة: لماذا تراجع كل شيء في حياتنا؟

أمي التي كانت تعمل وتكافح من أجل حقوق النساء في أواخر

الستينيات، كيف تحولت إلى إمرأة أخرى وكأنها تخلت عن روحها واستسلمت لركود الهمة وخواء العزيمة في التسعينيات؟؟ لماذا لاتشبه تلك المرأة التي يحدثني عنها الآخرون؟؟ تصمت أمي بلا مبالاة غريبة وكأننا كنا نتحدث عن إمرأة سواها، لعل مقتل أخي فؤاد كسر قلبها وروحها، رأيتها ذات يوم تحمل علبة معدنية مستطيلة مليئة بالصور الفوتوغرافية بالأسود والأبيض وضعتها أمامي وقالت لي: أنظري هكذا كنا نخرج في مظاهرات ونصرخ في وجه الشرطة، كنا نرتدي الثياب القصيرة فوق الركبة ونسدل شعورنا الطويلة ونذهب في مجموعات من الفتيات إلى السينما، أنظري هذه الصورة كنت أركب الدراجة الهوائية مع أخي سليم ونتسابق في شارعنا المظلل بالأشجار في (الكرادة) ثم أرتني صوراً لمجاميع من الطلبة: أنظري، هذه الصور عندما كنت في الجامعة في احتفال يوم المرأة ومعي زملاء وزميلات لاأعرف أين هم الآن..

سألتها: ولماذا لم تتواصلي معهم؟؟

ردّت بشيء من الأسى: تغيروا جميعاً كما تغيرت البلاد، الأفكار والأمزجة غيّرتها الحروب والإنحيازات والأوضاع الإقتصادية، بعضهم تحولوا إلى أثرياء، بعضهم هاجروا، الآخرون سُجِنوا والبعض راحوا ضحايا الحرب ونزوات الحكام، ألقت نظرة ملؤها الخذلان والمرارة على الصور وأعادتها الى العلبة..

في إحدى الصور كانت ترتدي ثوباً رائعاً بلون نيلي وتعقد وشاحاً حريرياً مموّجاً باللونين الأصفر والأبيض حول عنقها، كانت تحب الأوشحة الحريرية، سأشتري لها وشاحاً من مطار زيوريخ مع عطر كلاسيكي تحبه، بل سأشتري لها عطراً جديداً لم تألفه لعلّني أثير فيها شغفاً فارقها بالحياة..........

كان والـد نهى يأمل أن تصبـح ابنته باحثة في تأريخ العراق الحديث، دفعهـا فعلاً لتكتب بضعة بحـوث عن بغداد ومجتمعها فـي أوائل القرن العشـرين، وكم كان سعيداً إذ نشـرت أحد بحوثها في مجلة التراث أواخر التسعينيات وكان عن فن الرسمِ في مقتبلِ القرن وأهم الرسّامين العراقيين الذي قلدوا الرسـامين الأتراك والمستشـرقين، لكنهـا لم ترغب أن تصبح صحفيـة أو كاتبـة وفضّلـت أن تكون مدرّسـة للغات بعـد أن تنازلت عن رغبتهـا بدراسـة علـوم الكون، وها هي تعـود إلى بغـدادِ ـ ثروتُها لغاتٌ وتجارب تركت ندوباً على روحها وحفّزتها لتواجه نفسها بطريقة حاسمة..

فـي مطار زيوريخ ـ الذي بهرتها هندسـته الحداثية والأعمدة البيضاء المائلـة في قاعة الانتظـار ـ وجدت أريكة وثيرة مغلفـة بالجلد الأصفر، وضعت حقيبتها ومعطفها تحت رأسـها واسـتلقت علـى الأريكة، أمامها شاشـة عملاقة تعلـن مواعيد إقلاع وهبـوط الطائرات، خشـيت أن تغفو وتفوتها طائرة أسطنبول، نهضت وبحثت عن السوق الحرة، راق لها وشاح حريـري وردي مموج باللون اللؤلؤي اشـترته مع عطـر (كنز) من لانكوم، عـادت لترتـاح على أقرب أريكـة خالية، مرّت أمامها حشـودٌ من البشـر المتعجلين: نسـاء جميلات ومضيفات طيران ورجال من كل الجنسـيات، لم تهدأ إلا قليلاً وتلبّسـها القلق كعادتها، نهضت لتتأكد من اسـتعلامات المطـار عن موعد طائرتها، كانـت أحداث حياتها تتوالـى على ذاكرتها، تداهمهـا وتتزاحم مع أحلامها وتتمازج مع شـطحات المخيلة، شـاهدت الكثير مـن الموت والموتى والقنابل والقصف وبين مشـاهد الموت كان يتصاعد حلمها مثل لهب يشـق العتمة، حلم برجل ستعشقه ويعشقها ذات معجزة ويسـتبد بها هذا الحلم الشـهي وفي هذه السـاعة، في هذا الفجر (حيث كانت تتخيل – تحلم – تتذكر) أزاحت الذكريات المريرة، كبحت

التخيلات واستدعت قوة الحلم، لكن المخيلة لم تهدأ ؛ فقد تقاسمت حواسها مع الحلم الفاتن، رأت نفسها وقد إستحالت نهرا لعله نهر دجلة، هي النهر والماء والزمن اللامنتهي، رأت نفسها النخل والقوارب، وعلى حين غفلة فاض جسدها برحيق التمر وامتلأ بالضجيج الحلو لطيور الصباح والنوارس، هي نفسها صارت السنونوات التي تبني أعشاشها الطينية تحت طنف الشرفات، تحوّلت إلى شجرة توت ذات ثمار حامضة حلوة كشجرة التوت في حديقة بيت جدها، هي رائحة الشاي وشذا الخبز الساخن، هي الموسيقى التي تدوزن لغة الحب في أمسية عشق، هي كل هذا وغيره الكثير، ستكون تلك المرأة التي لاتهاب الموت ولاالتجربة، إنها ثمرة رمان ناضجة ستنشق قشرتها الرقيقة الملساء وتظهر حبات مرجانها الأحمر مغروسة في لحمها الأبيض، كم تشبهها ثمرة الرمان، شهية ومتدلية من شجرة نائية، لا أحد يفكر في قطفها، لذا تفكر الثمرة وتفكر الشجرة أن تطلق الرمانة الناضجة الى مصيرها، أن تسقط فوق العشب الندي ونبات النعناع، وسوف يعثر عليها أحدهم مخبوءة بين عطر النعناع والأوراق الذهبية التي تساقطت من شجرة الرمان، ستبقى لبرهة زمن محاطة بالخضرة والذهب وهي تبرق مثل الغسق الأحمر تحت الشجرة، سيجود عليها الزمن برجل يعنى بجوهرها ومرجانها النقي، لن تكون وحيدة كما نجمة المساء، سيحملها ذلك الرجل الذي تحلم به، يحمل ثمرة الرمان الشهية شبيهة الشمس ويخفيها في عالمه السري وسوف تستيقظ مثل ملكة مبجلة بين يديه: ملكة تدرك ضوع العطر وبروق الرغبة، إن كانت نسيتها الفصول في أصقاع الوحشة الباردة فسوف يمنحها الرجل ذاكرة غضة لتتذكره، لتتذكر حنانه، وسوف يتدفق رحيقها الحلو بين يديه، سيغدو الزمن عميقاً وأبدياً عندما يمسك الرجل بالرمانة، يتأمل لونها المحمر المموج وتاجها العلوي شبيه تاج الديكة التي توقظ الفجر، تاجها الذي يحمي مياسمها وسرّها،

سوف يحميها ويحفظها في جعبته السرية مع كنوزه المقدسة، ويطل عليها كل ليلة عندما تعتم السـماء ويقسو الليل، ستنطق الرمانة بالهوى المكتوم، ستهمس له أنه صنوها وسرّها، ستكون في الخريف رفيقة التمور والزعرور والغمام، سـوف تنقذه من وحشـة الزمن وتكون هي هاجسه الوحيد طالما أن العالم غير معني بها، سـتكون حبه وخلاصه وسـينموان معاً مثل شـجر البساتين، يتعانقان عند القمم وتتضافر جذورهما في التراب..

تسـاءلت نهى: هل سـتحب الرجل حباً كاملاً؟؟ أم أنها ستوزع حبها علـى جميـع الكائنـات الجميلة في هـذا العالم مثلما كانـت تفعل وهي بعد صبية في العاشـرة؟ كانت تعشق الغيوم وشـجرة الياسمين والعصافير وطلع النخل وثمار النارنج والفراشـات والساعة الدقاقة في غرفة الجلوس وأجهـزة الغرامافون التـي يملكها والدها، ولكن هل سـيحبها الرجل حباً كاملاً أيضاً؟؟ أم سـيحب أشـياء أخـرى معها؟؟ أيتقبل الحبّ الشـراكة بأشياء الحياة الصغيرة التي تشكل ديكور الصورة اليومية للبيت والزمن؟

أسطنبول

ألا ما أشد ماتخفيه الأقنعة من دموع

أرنستو ساباتو

في طائرة الخطوط السويسرية كانت المضيفة الأنيقة والظريفة تقدم خدماتها بلطف وكلمات فرنسية مهموسة تطوف كالفراشات الشفافة حول زيّها الرمادي ووشاحها المستوحى من ألوان شركة Swiss Air: خطوط حمراء وبيضاء يفصل بينهما اللون الرمادي القاتم، أعطتها المضيفة حبة حلوى ثم قدمت لها وسادة وبطانية زرقاء حين رأت إرتباكها، لم تدرك المضيفة أنْ لا البرد ولا الوحشة كانا سبب ارتباكها، كانت تعيش نثار رؤاها وأحلامها التي هزمت هدوءها الظاهري واستولت على مشاعرها، شكرت المضيفة بصوت متحشرج وتحدّرت دمعتان من عينيها وهي تدثرها بالبطانية الرقيقة، كم كانت ظامئة إلى حنان كائن ما؟؟ لا يهم إن كان بشراً أو قطةً أو طائراً ؛ فمنذ غادرت وطنها لم يلمس أحد كتفها أو يحنو عليها بكلمة، لذلك بكت عندما أهتمت بها المضيفة ودثّرتها رغم أن حنان المضيفة كان حناناً وظيفيا مدفوع الثمن مثل ابتسامتها، لكنه حنان فجَّرَ مشاعرها فبكت..

فتحت الشاشة أمامها على فيلم لِـ (جيرار دي بارديو)، سحبتها أحداث

الفلم الخرافية من ارتباكها وتوترها، وضعتها الأسطورة أمام تأريخ البشر الممتد منذ الأزل إلى يومها هذا بالوتيرة ذاتها: صراع دموي وعنف وحب وفوز وخسران ونهايات محتومة، كان ديبارديو خشناً وبدائياً كرجال الكهوف، أطفأت الشاشة أمامها وحاولت أن تنام، لم تفلح، فتحت زر الموسيقى وجعلت تنصت إلى مقطوعة على البيانو لشوبان..

قبل أن تهبط من الطائرة أخرجت مرآة صغيرة من حقيبة يدها ومسحت الكحل الذي سال حول عينيها بفعل الدموع، في مطار أسطنبول كان عليها الإسراع الى منصة فحص التذاكر لئلا تفوتها الطائرة التركية المتجهة إلى أربيل، أنجزت مهمتها كمسافرة ترانزيت وجلست في الكافيه الصغير وطلبت قدح شاي مع كعك تركي محشو بالفستق، إرتشفت شايها متمهلة وأنصتت إلى صوت مذيعة المطار تعلن عن احتمال تأخر الطائرة المتجهة إلى أربيل لثلاث ساعات كاملة، يا إلهي كيف سأمضي هذه الساعات الثلاث؟؟

هزمتها مشاعرها المستثارة فدمعت عيناها من جديد، حملت حقيبتها وذهبت إلى منصة الإستعلامات:

ـ أنا مسافرة ترانزيت ولديّ ثلاث ساعات من الإنتظار، أرجوك ساعدني لأمضي هذه الساعات في مكان قريب من أماكن أسطنبول الجميلة..

ـ لن يسعفك الوقت ؛ فالطريق من هنا إلى اسطنبول يستغرق نحو ساعة ـ لحظة واحدة ـ (كتب شيئاً وأعطاها الورقة) هذا منتجع قريب إسمه (فلوريا) فيه مطاعم ومقاهٍ مطلة على البحر وحدائق في غابة، بوسعك تمضية بعض الوقت فيه لحين موعد الطائرة، لن يستغرق الطريق إليه سوى

ربع ساعة. أودعت حقيبتها في صندوق الأمانات واستقلت تاكسياً إلى العنوان الذي كتبه موظف الاستعلامات..

هطل مطر غزير في الطريق ؛ فلم تقصد المتنزه بل المجمع التجاري ومقهى ستاربكس المجاور للغابة ـ المتنزه، كان خياراً مناسباً لاسيما وأن شرفة المقهى تطلّ على البحر وكأنها داخلة في الموج، ومن هناك يمكنها أن ترى الطائرات المقلعة والهابطة في مطار كمال أتاتورك، طلبت قدح قهوة وجلست تتأمل البحر الذي علته غشاوة من مطر وضباب وتعالى عصف الريح: ثمة سفن بعيدة تمخر عباب الموج وزوارق تحمل متنزهين وهي تمضي مسرعة نحو المرسى القريب. إصطخب الموج عندما اشتدت الرياح وتخيلت نفسها في رحلة بحرية وسط النوء، ثم صرفت الفكرة عندما تذكرت أن عليها شراء حلوى الحلقوم التركي الشهير التي يحبها والدها من أحد المحلات المجاورة للمقهى،،، هدأ المطر قليلاً فخرجت إلى شرفة مطلة على نهاية البوسفور في موضع اتصاله ببحر مرمرة، كانت الشرفة فردوساً من النباتات والأزاهير: شكّلت المتسلقات جدراناً كاملة من الخضرة والزهور، جلست تحت مظلة تحرّكها الريح وقدّمت لها النادلة القروية قدح القهوة الذي طلبته، مرّ قربها أزواج من المتنزهين والعشاق فتأكدت وحشتها ودمعت عيناها من جديد، ضجرت وفكّرت أن تعود الى المطار، ليست هذه أسطنبول التي تحب، بوسعها رؤية ما يشبه هذا المنتجع في أية مدينة بحرية، إستقلّت سيارة الأجرة ومازال الوقت مبكراً على إقلاع طائرتها، المقاهي الصغيرة الأنيقة في مطار أسطنبول تعج بالمسافرين من جميع الأجناس، إشترت قدح شاي وجلست إلى منضدة صغيرة أمام شاشة المعلومات ودون أن تذرف الدموع هذه المرة إستحضرت قوتها واستبعدت مشاعر الإشفاق على نفسها في وحشة

العالم، تكره الإشـفاق الذي يعيد إليها مكابـدات أيام الجوع والعوز في حصار التسـعينيات، كانت تشفق على نفسـها وعلى أهلها والجهد الكبير الذي يبذلونه من أجل وجبة طعام بائسـة، أمسـت مهمة والديها الأولى أن يُبقيا الأسرة على قيد الحياة بالطّعام الذي يتدبرانه براتبيهما الضئيلين بعد أن صار الدولار الواحد يعادل نحو ثلاثة آلاف دينار، كانا يبتكران أشـياء للطعام من لاشـيء: أعشابٌ وخضار يزرعانها في الحديقة، حبوب وبقول وخضار مجففة، مربّيات يصنعونها من فاكهة كل موسم، وكان خالها سليم يزوّدهـم بالبرغـل وجريش القمح والصابون والعسـل والزيتون من أربيل، واعتبـرت أمها الحصول على العسـل ترفاً ورفاهاً لابد مـن تقنين تناوله، وكانــت تصنع لهم الجبن مـن الحليب المجفف الذي يُـوزّعُ مع الحصة التموينيـة: تغلي الحليب وتضيف له بضع ملاعق من الخل فينفصل مصل الحليب عن الجبن وتقوم بتصفيته في قطعة من الشـاش ثم تضغطه تحت أثقـال حتى الصبـاح وتقدم لهم قالب الجبن الشـهي مـع المربى والخبز الساخن والشاي. تذكر أنها تحايلت على عوزها فاستخدمت قماشاً بوجهين وصنعت منه تنورة واسـعة تستطيع أن ترتديها على وجهي القماش وكأنها ترتدي تنورتين جديدتين!!، صنعت من جوخ أحد بناطيل والدها فسـتاناً أضافت له ما نسجته بسنارتها من خيوط الصوف أكماماً مخرّمة وقطعة تعلو الصدر، تحايلت على العوز وحافظت على أناقة شـبابها المحروم دون أن تشكو أو تتبرم. كان أقارب والدها أبناء عيسى جمال الدين الخيامي وأبناء بهجـت الكتبخاني ومنصور الكتبخانـي ينعمون آنذاك بحياة رفاه توفرها لهـم مواقعهم الاجتماعيـة وعقاراتهم وأراضيهم الزراعية وبسـاتينهم التي منحتها السـلطة العثمانية إلى الجدّيْن الكبيرين إسـماعيل بك الكتبخاني ونجدت بك الخيامي لقاء خدماتهما في ولاية بغداد، فضلاً عن الأراضي التي منحتها لهم الإدارة البريطانية بعد سنوات.......

أربيل

في مطار أربيل قال لها ضابط الجوازات: هل أنت قادمة من أسطنبول الى أربيل؟؟

ـ أنا مسافرة عابرة، أنتظر الطائرة العراقية المتجهة الى بغداد..

أسرع إليها خالها سليم بقامته القصيرة وملامحه المرحة ووجهه الممتلىء المتورد وعينيه الباسمتين مرتدياً سروال جينز وسترة رياضية جعلته يبدو أكثر فتوة وشباباً: خالها ذو النزعة الإشتراكية التي ماتزعزعت حتى بعد انهيار الإتحاد السوفييتي بل إزدادت رسوخاً كعقيدة ثابتة لها قوة الإيمان، تحبُ نهى هذا الخال الإشتراكي الفياض بالحماسة والأمل والمتفائل بازدهار الإشتراكية حتى بعد قرون، كانت تحاججه وتقول:

ـ بعد قرون أيها المتفائل؟؟ وماشأنك بها بعد مئات الأعوام؟ نريد عدالة ونظماً إنسانية لأيامنا هذه. فشلت جميع الايديولوجيات في منحنا الأمان والأمل..

كان يرد عليها بسماحته المعهودة: أنا أحلم من أجل أحفاد الأحفاد بعد أن يئست من زمني..

ـ عليك أن تتزوج أولاً لتتحدث عن أحفاد الأحفاد..

ـ سأفعل ذات يوم..

خمّنــت أن موظفي المطار يعرفونه ويحترمونه لكثرة ســفراته أو لكونه تاجــرا معروفــا أو لأســباب تجهلها، تحــدّث بالكردية مــع الضابط، قال الضابط:

ـ الطائرة لن تقلع قبل ساعتين، بوسعكم التجوّل في المدينة خلالها.

ـ سأمضي الساعتين هنا.. قالت نهى.

ـ نهى، سنســتقل ســيارتي ونذهب إلى القلعة، ألا تتوقين إلى مشاهدة المدينة والتغيرات التي طرأت عليها؟؟

ـ خالي، أنا مرهقة جداً ؛ فمنذ يومين وأنا أتنقل من قطار إلى قطار إلى طائرة ومن طائرة إلى أخرى..

ـ حســناً فلنتناول الغداء في مطعم قريب، سنموت جوعا حتى وصولنا إلى بيتكم في بغداد ـ وجبة كباب لم تتذوقي مثلها منذ سنوات.. هيا..

تعلم نهى أن خالها عاشق للطعام الجيد والمُتَع، وتمثل مواعيد الطعام له طقساً مقدساً مثل والدها تماماً، وافقت على مضض ورافقته إلى المطعم القريب بســيارته التي ســيتركها لاحقاً في بارك المطار وســيحدثها طوال الطريق عن مشروعه المتأخر للزواج ـ هو الرجل الستيني الذي عشق أرملة كرديــة جميلة في الأربعيــن ويعارض أولادها ارتباطه بها لكونه عربياً وهم من عشيرة متزمتة، لكنه سيذلل المصاعب ويتزوجها خلال الشتاء القادم..

تضحــك وتقول له: أنت عاشــق كبير، أتمنــى أن أرى هذه المرأة التي إســتبدّت بقلبــك، أعلــم كم أنت صعــب الإرضاء وقد انتظــرتَ كل هذه السنوات فلم تعجبك امرأة..

ـ أمضيتُ سنواتي مقاتلاً من أجل الحرية في المدينة والجبل، فما حظيت بالحرية ولا المرأة..

فتح محفظته وأخرج صورة ملونة لسيدة ذات جمال كلاسيكي مُتوّجة بشعر طويل أشقر ولها عينان شهلاوان وفم رقيق وقد أكسبتها ملابسها الكردية التقليدية وحليُّها الذهبية هيبة وسحراً..

ـ أنظري، أليست هذه الخاتون جديرة بخالك الذي انتظر عمراً طويلاً؟؟

ـ حقا، إنها سيدة جميلة جداً، ما إسمها؟؟

ـ نازنين خان..

ـ ماذا يعني هذا الإسم؟

ـ اللطف والحُسن، ويعني أيضاً الدلال والنعومة..

ـ يليق بها، سأحضر عرسك إذا تحسّنت صحة والدي..

ـ بل ستحضرون جميعكم.

ـ هل تعلم شيئاً عن مفاجآت والدي؟؟ أعلم أنك موضع سرّه ولطالما كان يحدّثك عن خلجاته وأفكاره وأسراره، قال وليد أنه أعدّ لي مفاجأة..

ـ أنا أحفظ لوالدك أسراراً كثيرة، وحتى لو كنت أعرف شيئاً عن مفاجآته فلن أبوح بشيء..

ـ ماهي إلا بضع ساعات وسأكتشف الأمر..


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثاني

مهرجان الحب والموت


https://telegram.me/maktabatbaghdad

البيت

العراق بيت الاحزان من أور حتى الباب الشرقي، ومن أوروك حتى انتهاء الصبر، بلادنا بترولها دمع الآلهة، دمها نسغ الزمان، بلادنا شجرة المال المهدورة ـ أرض المراثي التي غادرتها عناية الالهة واستوطنتها النادبات...............

يتوتر جابر فؤاد الكتبخاني ويشــكو من تأخر وصول إبنته ويخشـــى من مباغتــات القدر ـ هو الذي صار متطيراً متوجســاً منــذ اغتيال ولده فؤاد، تهدئه زوجته ميادة:

ـ ستصل نهى بعد قليل، إهدأ ياعيوني.

تفيــض عليــه بحنانهــا هي التــي ما توانــت لحظة عن حبــه ورعايته، تقاعدت من وظيفتها مديرةً للقسم الهندسي في وزارة البلديات منذ بضعة أعــوام وتفرغت لرعايته يوم أصيب بنوبتــه القلبية الأولى بعد مقتل ولده، تمسح له دموع الحسرة، يقول لها:

ـ ماذا بوسعي أن أفعل غير البكاء، أنا عاجز، كلنا عاجزون، هذه حال مريعة،.. حياتنا أمست بلا معنى ياميادة، ماهذه بحياة تليق بالبشر..

تربّــتُ على كتفه وتجلِسُــه على الســرير، تضع له وســائد خلف ظهره،

تمسح جبينه من عرق الإنفعال وتمسّد يده المعروقة بيدها الناعمة وتهمس له:

ـ لاتبكِ ياعيوني، سـيأتي يوم أفضل لنا جميعاً، لاتبكِ ، سيأتي ذلك اليوم..

يحدجها بنظرة عاتبة: متى سـيأتي ذلك اليوم؟؟ سـنموت كلنا ونلحق بولـدي فؤاد وكما مات أخي ووالدي، ووالـدك وأمك، وكما مات جارنا الدكتور محمد رؤوف إغتيالاً وكما أعدِم ماجد شقيق قريبتك حياة البابلي ثـم لحق به والداه، وكما مات إبن أختكِ مخطوفاً ومقتولاً، كيف سـيأتي ذلك اليوم؟؟ كل هذا الجيل الذي بنى العراق سـيموت وينتهي وسيهاجر الشـباب أو يموت بعضهم في الحروب أو الإبادة بالتفجيرات، البلد يفنى ياميادة،، إرحميني من كلماتك التي تشبه رشوة طفل بقطعة حلوى..

تتحـدر دمعتـان من عينيهـا هي الأخـرى، وتغرق لحظتهمـا بمدٍ من الدموع المالحة.. تهمس لنفسها:

ـ ماجدوى هذا الهراء؟ كفى تقليباً للهموم..

ـ ميادة، أغلقي غرفة فؤاد قبل وصولها، لاتدعيها ترى أشياءه..

ـ أغلقتها تحسباً للأمر..

ـ أسمع ضجة سيارة،،، لعلهما وصلا

طرقات متعجلة على الباب، تفتح ميادة وتهتف بصوت مزغرد:

ـ ها هما قد وصلا..

عانقت إبنتها وهي تنتحب وعانقت أخاها، أسرعت نهى وارتمت على صدر والدها ونشجت: بابا سلامتك، ها أنا أتيت، قم هيّا لا تتمارض، مازلت شاباً، لاتخدعْنا بتمارضك،،، ها أنت متورد الوجه وفي عينيك بريق الشباب..

نهض الأب متحاملاً على وهنه ووقف قرب سريره:

ـ أنظري ها أنا ذا، مابي من خطب، إبنتي الحبيبة نهى..

عانقته وقالت: سلامتك بابا جابر، الآن صدّقت أنك بخير..

قال سليم: كفاك نهى، ألا تدعين خالك يسلم على صهره وصديق عمره؟؟

تعانق الرجلان فامسك سليم بيد جابر وقاده إلى غرفة الجلوس

ـ أيها الرجل، أنت أقوانا عزيمة، هذا لايصحّ، لستَ بمريض..

فتحت نهى التلفاز: كانت نشرة أخبار الثامنة مساء وتوالت على الشاشة مشاهد الإنفجارات وجثث الضحايا وصراخ النسوة وعويل سيارات الإسعاف، وشريط الأخبار يعلن: إختراق أمني، الإرهابيون يفجّرون سيارتين مفخختين، خمسون شهيداً ومائتان وعشرون جريحاً..

أغلقت نهى التلفاز بسرعة وعادت لتجلس مع خالها ووالدها، تُداري غصة خنقتها وهي تستعيد ضحكات أخيها الراحل فؤاد، حاولت إخفاء غُصَتِها بافتعال السعال..

قالت وهي في حومة انفعالها الجارف:

ـ أين وليد؟؟

ـ ذهب ليحضر لنا السمك المسكوف ؛ أعرف أخي سليم لايهنأ بطعام في بغداد مالم يتذوق السمك وبعدها يطلب مايشتهي من أطباق يحب أن يتناولها من يدي...

ـ إسمعوا أيها السادة، إسمعي أمي ميادة وبابا جابر الكتبخاني، لدي خبر سعيد: هذا الخال الوسيم قرّر بعد أن بلغ الستين أن يتزوج، إنه عاشق كبير، إسمعي قصته ماما ميادة، أخوك ساحر تعشقه أجمل النساء، هل تصدقين؟؟

قفز الخال سليم: نهى لقد استبقت ترتيبي للمفاجأة التي خططت لها، كنت أريد أن أروي لهما قصة الحب أولاً قبل موضوع الزواج، الحب شيء آخر غير الزواج، لماذا أفسدتِ عليّ حفلة التشويق الليلية؟؟

صاح والد نهى مستنكراً: تقول قصة حب؟؟ أنت وفي هذا العمر تحبّ؟؟ أيعقل هذا؟!!

ـ أعشقُ كي لاأشيخ أكثر وأموت محروماً،، ثم هل ترى الحب حراماً على مَنْ هم في عمري؟؟ متى ماتوقف المرء عن الحب يذبل ويتهاوى مثل شجرة ميتة، الموت يتربص بنا كل لحظة وأريد أن أحيا سعادة الحب قبل أن أموت ميتة سخيفة بحزام ناسف أو سيارة مفخخة..

إعترضت نهى: قبل أن يبدأ خالي برواية قصته التي لن ينتهي منها حتى الصباح أريد أن أعرف مفاجأتك لي بابا جابر..

ـ الموضوع بيني وبينك يا ابنتي ؛ هذا سرنا أنا وأنت ـ يضحك ـ لا تواصلي إلحاحك.. كلّ شيء في أوانه..

ـ أووهوه كم تحبّ الأسـرار بابا جابر.. لا أصبر الليلة ولن أنام حتى تخبرني..

ضحك أبوها وغمز بطرف عينه لزوجته التي ابتسـمت وسحبت أخاها إلى غرفة الطعام..

ـ تعـال ننتظر وصول وليد ونهيء المائدة ونعدّ السـلطات والمخللات وأوراق الريحان والبصل الأخضر..دع نهى ووالدها يتشاكسـان ويتبادلان الأسرار..

همست نهى لوالدها: وأخيراً، هل ستكشف السر الآن؟؟

ـ كم أنت عديمة الصبر!! القضية أكبر من كلمات تقال، سـنجلس أنا وأنت طويلاً وأسلّمك السر..

ـ آه، أرى فيـكَ عزماً على تأجيل البـوح، متى؟؟ ألاتراني هنا أمامك وقد تخلّيت عن كل شيء وأتيت من أجلك ومن أجل مفاجآتك؟

ـ إهدأي ولاتبتزّي أباك بعودتك، إنه دورك الذي لاينافسك فيه أحد ؛ فوليد لايتحمل مهماتٍ من هذا الطراز، كما أنه منشـغل كثيراً هذه الأيام، وأظـن أن جائحة العشـق قـد تمكّنت منه. وليد يحبّ فتـاة ويعتزم التقدم لخطبتها حال إتمامها عامها الدراسي الأخير في كلية العلوم.

ـ هل تعرفان الفتاة؟

ـ نعم، عائلتها بأكملها قضت في هجوم عصابة مسلحة بقصد السرقة: هجمت العصابة أولاً على الكنيسة المجاورة بقذائف متفجرة وشبّ حريق فانشـغل الناس بالحريق واقتحمت العصابة البيت وكان يوم أحد وقد عاد

الجميع توا من الكنيسة، قتلوا الأب والأم وشقيق الفتاة وزوجته في وضح النهـار ونجا الطفل الصغيـر الذي كان نائماً، وعندما عادت سـميراميس مـن الجامعة فُجِعَت بالمجـزرة وانهارت تماماً ولبثت شـهرا فاقدة النطق ذاهلة وخضعت لعلاج امتد شـهوراً حتى أنها حاولت الإنتحار، واضطرت لتأجيل عامها الدراسي الأخير وتعهّدها قريب لها بالرعاية واحتضن الطفل الناجي معها..

ـ هل عرفها وليد قبل الكارثة أم بعدها؟

ـ قبل ذلك بكثير، وتحدّث إلى والدتك لتخبرني بعزمه على خطبتها..

ـ ظننـت الأمـر نوعاً من التضامن والإشـفاق على ضحيـة من ضحايا وضعنا المروّع..

ـ يعرفان بعضهما منذ عامين، أعني ثمة حب راسـخ لايعرفه أبناء هذا الجيـل، ووليد كما تعرفينه جاد وعقلاني في اختياراته إلى جانب عاطفته الفياضة.

ـ ياله من أخ، لم يخبرني بشيء!!

ـ وأنت أليس من جديد في حياتك ياملكتي الجميلة؟؟

ـ ماعاد أمر الارتباط برجل يعنيني بعد تجربتي المريرة..

ـ سيتكفل الزمن بتغيير كل شيء، لاتتعجلي باتّخاذ المواقف..

ـ على أية حال هذا ليس أوانه فلا تحشرني مع خالي وأخي. ترى أهذا هو السر والمفاجأة: حب وليد وخطبته؟؟

ـ هذا واحد من الأسرار، تمهلي عليّ قليلاً، سنذهب من الغد ومعنا خالكِ لمقابلة خالها ونحدد كل شيء وسيكون الزواج بعد شهور قليلة حال تخرّجها..

ـ وصل وليد، هيا لنلتحق بهم..

ـ أسنديني لأشارككم حفل العشاء الرافديني: تعلمين أنّ العراقيين كانوا يمجّدون السمك منذ القِدم في شخص الإله (أنكي) ويحتفون في المناسبات السعيدة بتناول السمك المبجل..

ـ وهل أنسى دروسك عن تراث الأسلاف الغابرين وعاداتهم؟؟

ـ أنت تفهمينني وتكملين كل ما أشرع بقوله أو فعله..

ـ أنا إبنة بارة لم تخالفك إلا في قضية واحدة أثبتت إخفاقها..

ـ إنها ارتباكات الغربة والوحدة واضطراب النفس في غياهب الوحشة..

ـ كان علي أن أستشيرك بابا جابر ؛ فأنت أبي وصديقي، لكني كنت أشفق من رفضك المتوقع وكأني كنت أعلم مسبقاً خطل ما أقدمت عليه..

صاحت أمها: هيا يا جماعة الأسرار قبل أن يقضي سليم على صيد اليوم..

قال الأب وهو يسير إلى غرفة الطعام مع نهى:

ـ وعندها سيكون على وليد جلب المزيد من السمك وهو عريسنا المحتفى به..

أسرع وليد ليعانق نهى: آه ياعزيزتي، كم نحفتِ، آه يانهى كم أنا سعيد بك، وهمس لها: هل حدثك الوالد عني؟؟

ـ تعلم أن لاأسرار بيني وبينه، وأنت خدعتني طوال عامين ياولد.. كيف صبرت على خداعي؟؟

تورّد وجه وليد وبرقت عيناه الواسعتان تحت نظارته التي انعكس عليها نور المصباح، وحرّك فمه حركة ارتباك ثمّ عاد وعانق أخته معتذراً..

ضحك الجميع واتخذوا أماكنهم حول وليمة السمك وقد وضعوا عذقاً من التمر البرحيّ في سلة على طرف المائدة وطبقاً من الزعرور وآخر مليئاً بثمار الرمّان النضرة..

صاحت نهى: مائدة رافدينية لاينقصها شيء، شكرا وليد، شكرا ماما ؛ الآن فقط ستُمحى كل أيامي الحزينة في الغربة وينتهي صيامي الإضطراري، سأفطر على تمرة برحية أولاً..

تذكرت أيام الجوع في باريس وغرينوبل وغصّت بلقمتها: إستعادت ذكرى أول وصولها إلى مأوى اللاجئين الـ (فوبيه) في شمال باريس الذي لاتبلغه إلا بعد مرورها بمحطات مترو تتشابه أسماؤها وتتقاطع في ذاكرتها ـ سيباستبول، ستالينغراد، ريكويه، كريميه، كورنتين كاريو، كورت دي لافيليه،،، موقع مأوى ناءٍ منبوذ يتكون مبناه من طابقين كمحطات ترحيل العمال أو كمعتقل مؤقت ـ غرف بائسة تطل نوافذها على ساحة محطة قديمة لتصليح القاطرات تتقاطع فيها السكك الحديدية تحت جسر عتيق، ومن الجهة الأخرى تطل الغرف على معسكر لتدريب البوليس، ثمة حمامات مشتركة ومطبخ مشترك ـ تبكي نهى كلما اضطرت لدخول الحمام، تحمل معها زجاجة ديتول ومناديل ورقية كثيرة لتنظيف المكان

و تنفـق معظم نقودها على شـراء المعقّمات و المـواد المطهرة والمناديل وورق التواليـت، تحتـرم جسـدها وتحميـه وتعتز به ولاتسـتهين به لحظة واحدة، تعلمت من خالتها الراحلة مديحة: الجسـد الانساني مهرجان حيٌّ وعلينا أن نجعله معبداً للروح ونحيطه بالحنان والنظافة والتوقير.

تضع معدات التنظيف في الغرفة التي كانت تشاركها فيها لاجئة افريقية من أنغولا، كانت الأنغولية (شـيميتا) شرسـة ولاتبالي بشيء، تبدو رقيقة فـي بعـض الأيام، تترك أمر تنظيف الغرفة لنهـى التي أظهرت قدرة فائقة على تحمل مزاج شـيميتا ورائحة ملابسـها الرثة وطعامهـا الغريب برائحة الفاصوليا السوداء والفلفل الحار،، شيميتا لاتعنى بتوقير الجسد وحمايته ونظافته، جسدها مهرجان فوضى معتمة وابتذال..

تخـرج شـيميتا مع زملائها الأفارقة تمرح وترقـص وتعود ثملة مترنحة عنـد منتصـف الليل أو تنام في شـقة أحـد معارفها أحياناً، أمـا الأثيوبية السـمراء الأربعينيـة (هيوان سـراج) ـ التي جاءت لتتسـلم جائزة زوجها السـجين فـي أديس أبابا مـن منظمة صحفيي العالـم ـ فكانت تحل كل ليلة ضيفة على أحد لاجئي المبنى، لم تطالب بغرفة تخصها، كان الرجال الأفارقـة والآسـيويون يتزاحمـون على كسـب ود الأثيوبيـة المثيرة ذات المؤخرة الرجراجة والشفتين الموشومتين بصباغ نيلي والضفائر الثلاثين، ثـم منحتها الإدارة غرفة شـغرت في المبنـى فعلّقت وثيقـة جائزة الزوج السجين عند رأس السرير الذي تضاجع عليه ضيوفها اليوميين..

أمـا الصومالية (تيرهاس ميسـاي) الرقيقة الهاربة بعـد اعتقال زوجها الصحفي العامل في تلفزيون الصومال فقد لاذت بالكنيسة التي وفرت لها عملاً وسكناً بعد حصولها على اللجوء..

أيـام مريرة أمضتها نهى في ذلك المكان حيث النزاعات تنشـب بكل اللغـات، وتتقاطـع العادات والتقاليـد، غادرت المبنى عندما اسـتأجرت غرفة لدى السـيدة ميشـيل التي تؤجر غرفة إبنتها طوال شهور دراستها في جامعة مونبلييه، وكان يتوجب على نهى أن تعتني بالسـيدة العجوز وطيور الحب المسـجونة في قفص معلق على الشـرفة وأن تشـتري لها الحبوب وتنظـف قفصها يومياً، ومن منزل السـيدة ميشـيل التي سـتعود إبنتها في العطلـة الصيفية إلـى البيت لم تفلح في العثور على غرفة مسـتأجرة بثمن معقول فدعتها مدرسة اللغة الفرنسية جوديت لتنتقل إلى منزلها طوال فترة سـفرها مع أسرتها خلال عطلة شـهري تموز وآب وماعليها سوى الإعتناء بالقطة السوداء التي تنام في سلة مترفة مفروشة بوسائد صوفية وأن تطعمها ولاتنهرها وتنظف برازها كل يوم..

تتدرّب نهى مرغمة على العناية بأجساد الطيور الجميلة والقطة السوداء النزقة ؛ فلكل الكائنات حقها من التوقير والعناية ماعداها هي، من يعتني بها؟؟ لاأحد..

تتماثل أيام نهى في بلاد الغربة كما تتماثل إعلانات الطرق في شوارع المدن عن بضائع وأدوات وأثاث يحتفي بنسـاء عاريات مستلقيات تحت الأضواء يعرضن فراشاً وثيراً أو نصف عاريات يلحسْن أقماع المثلجات أو يروّجن لسـيارات فارهة بثياب سهرة شفافة، الإعلانات المثيرة هوية مدن تحيـا على بحـر من الذهب والنقود والمقايضـات، تتغاير أيام نهى مابين أيام الفوضى والقتل والاختطاف والاغتصاب والتعذيب ؛ فلكلٍّ من البشر أيامه حسـب حظوظه من السياسـة والتحضّر والإستقرار، الأيام في بلادها لم تعرف الهدوء ولانعمت بسياسة عاقلة ولاحظيت بالتحضر، أيامهم لعبة قمار يراهنون عليها كل ليلة و يخسرونها كل صباح بمفخخة وحزام ناسف

ومَنْ يتبقى منهم تجففه الأحزان كما يجفف القيظ اللافح العشب الطري فـي ظهيرة آب أو تصيبـه الفواجع بصدوع تتهدم معهـا أعمدة الروح أو تنفطر لها القلوب..

أيـام نهى عنيدة مواربة هـي الغريبة أينما حلت، أيـام والدها واضحة محددة ومتكررة الملامح: مهموم بذكرى إبنه المغدور وبما يراه من خراب البلاد، وأيامه حرب مسـتديمة، لم يعرف يوم سلام، لم يعش مرفهاً كأسرة الكتبخاني ولامعوزاً تماماً ولم ينجز شـيئاً ذا بال، عدّ نفسـه رجلاً فاشـلاً بسـبب نزاهـة فُطـر عليها وزهدٍ تأصل فيـه، يحاول أن تكون لـه أهميةٌ ما بعد أن فقدت جميع الأشـياء أهميتها فـي عصر الزوال، بينما أفراد الفرع الآخـر من عائلـة الكتبخاني وعائلة الخيامي يعيشـون رفاهاً فاحشـاً وقد لبثوا يحتلون مواقع إجتماعية وسياسية تواترت طوال عقود من أيام الدولة العثمانية حتى الإحتلال الأمريكي للبلاد، يسـتثمرون أراضيهم ومزارعهم وعقاراتهم ومصالحهم في كل عهد.

كان يبكـي كلما ذُكِر حال بغداد التي باتت لاتشـبه مدينة عرفها، كل شيء أمسى ضحية الشر المستحكم وعنف السياسة وصلف الحاكمين...

يقول لها: حتى قيظ بغداد الجحيميّ يتواطأ مع سلطة الخراب..

ـ كيف يا أبي؟؟

ـ الحـر المتفاقم يقتل الشـجر والنخل ويخرب العقـول ؛ فثمة أمواج مغناطيسية مريعة تحوم في الجو عند بلوغ درجة الحرارة الخمسين مئوية، أمواج صاعقة مسـلطة مـن مصادر مجهولة لترويض البشـر وتحويلهم إلى قطعان بليدة أوعصابات مهتاجة.......

تتأمل نهى الحديقة الجميلة والممشى الحجري المتعرج الذي يخترق المرج الأخضر، حديقة طفولتها وصباها، شجرة المنوليا تمد أذرعها وقمتها العاليـة نحو الغيوم، ثمة براعم معدودة غافلـت قيظ الصيف وغبار الزمن وتفتحت في هذا الخريف وانتشـى الهواء بضوع عطرها، تذكرت ماكتبته لوالدها عن الزهور في عيد ميلاده الخمسين في شهر تموز، إنهمرت عليها اللحظة وهي تنتشـي بعطـر المنوليا ماكتبته لوالدها عن هـذه الزهرة التي يحبها فقبّل جبينها ودمعت عيناه من فرط الجذل وهي تقرأ له بصوتها:

(..... زهرة المنوليا سـاطعة في أعالي تموز وهضاب الصيف، تشـرع كؤوسها لليل والمغامرين، لقاحها يخصّب أسارير العشاق فيطيحون بسلطة الأصفاد، موقظة اليقين على ريبة الأقاويل، من خفقة عبيرها تقوم معجزات العقل وتنجلي صفات العالم، محسـومة الجمال، محسومة الجدوى، تدور فـي فلك المتع وتتراءى كبـدر مكتمل ولا تعبأ بالقاطفيـن يتربصون بها، جمالها الفضّاح يغوي النسـور والعقبان وقبيلة البوم، لاتسـتثني طائراً ولا نجمـة ولا إمـرأة ولا فتى من غوايتهـا، تحيي في الحجـارة لَهَفَ الحياة وتطـرد البهائم من أحلام الحقول، تضـارع الحب برطانة الجمال، طغيان فتنتها يفضح زيف التبجح، كؤوسها تطيح بغطرسة الطواويس، طائر إينانا كسـير الجناح يلوذ بالمنوليـا فتمطره الآلهة بذرور الطلع، سـيدة الجنائن المشـرقية، ترسـل الفتنة إلى المخادع المهجورة، المنوليا مضللة البنادق عـن بهجة العنـاق، الزهرة الطليقة تراوغ المنايـا وأفاعي الوحل، تتفادى القاطفين وبلادة المزهريات، المنوليا نزوة تؤرث النار في هشيم أيامنا، في مدن مرّمدة لا تموز في سنواتها تعلن المنوليا براءة بياضها من جمهوريات الـدم ومدافـن البهجة، تنام عاريـة بين ذراعي الحرية فيغمى على سـادة الرصاص وحكماء الهاوية..........)

رأى وليد ذهول أخته وانصرافها عنهم فهمس لها:

ـ هَيْ نهى.. أين أنتَ؟؟ ماهذا الصمت؟ مابكِ، أين سرحتِ بأفكارك؟؟

إبتسمت وقالت: أووه لاشيء،،، كنت أتأمل شجرة المنوليا...

تذكر أنّ والدها قال لها حين قرأ كتيّب (تقويم أزاهير الروح)

ـ يمكنكِ أن تكوني شاعرة، أنت تملكين مخيلة ممتازة ولغة منتقاة...

ـ هذا لايكفي، المهم أن أمتلك الشغف بالشعر، أنا أضجر بسرعة، إبنتك كائن ملول، ينال مني السأم وأنا أبحث عن الكلمات المناسبة، هذا الكتيّب ليس بداية لشيء، إنه بداية وخاتمة، طفرة، شيء لايقاس عليه، لن أستطيع المضي في هذا الإتجاه، لاأحبّ أن أكون كاتبة أبداً..

ـ أنت تذكرينني بِـ (حياة) قريبة والدتك..

ـ من؟؟

ـ حياة البابلي التي كانت تسجل مذكرات النساء وأحوالهن بعد ٢٠٠٣، إبنة أخ الشيخ قيدار الذي هداني إلى طريق المعرفة، وشاركته يوماً في جمع المخطوطات الثمينة التي نقلها إلى الدير قرب جبل مقلوب..

ـ أووه، ترى ماأخبارحياة البابلي؟ أين استقر بها المقام أخيراً؟؟

ـ إسألي والدتك فهي تزورها بين حين وحين..

ـ هذا يعني أن حياة في بغداد..

ـ نعم عادت إلى بغداد منذ ٢٠٠٩..

ـ هـل كان الشـيخ قيـدار مـن مجموعة صحبـك يوم كنتـم تجتمعون للإستماع إلى الموسيقى؟

ـ أجل وقد يحضر أحياناً عازف العود الراحل (جميل بشير) أوعازف الكمان (غانم حداد)، كانت أياماً مجيدة حقاً..

ـ متى كان ذلك؟؟

ـ في منتصف السـبعينات قبـل أن أتزوج والدتـك، كان الجمع يلتئم مساء كل خميس في بيتي القديم ونرتجل أمسيات ثقافية وموسيقية، وكنا مزهوين بمعارفنا الموسـيقية وكأنها شـهادة انضوائنا في عالم المثقفين!! أيـة أيام رائعـة تلك، كان قيدار وسـاطع عبد الرحمن وحسـن عبد الأمير وكارلو خاجيك زواراً ثابتين لاينقطعون..

ـ وماذا كنتم تفعلون غير السماع؟

ـ بعد حفل السماع نتسامر ونتناول العشاء وقد يبيت بعضهم في بيتي، كنا نتبارى في الحديث عن المؤلفات الموسيقية التي نستمع إليها ـ نناقش ونحلل الموسـيقى ؛ ذات ليلة كنا نستمع إلى السيمفونية السادسة الحزينة لتشايكوفسكي في تسجيلات مختلفة ؛ فينبري أحدنا لتبيان الفروقات بين أداء فرقة لندن السـمفونية لها وأداء فيينّا فيلهارمونيك أوركسـترا، وعندما يحتد النقاش بين سـاطع وحسـن عبدالأمير ويختلفان في التقييم يتسـلل الشـيخ قيدار إلى حيث الفونوغراف العتيق ليشـاكس المتجادلين ؛ فيضع أسطوانة للمنشد الصوفي والملحن (أبو العلا محمد) ليصدح صوته الشجي بقصيـدة البهاء زهير (غيري على السـلوان قادر)، يصمت المتجادلون مع المباغتة وينتقلون من موسـيقى مصنوعة بتقنية حاذقة ورومانسـية تعبرعن انفعالات تشايكوفسكي وعاطفته الجياشة إلى شجن شرقي طربي ذي بعد

واحد، ينهض ساطع وقد استثاره الطرب ويقبل رأس الشيخ قيدار ويقول له (فديتك، كأنك بلسمْتَ فؤادي والله لست على السلوان قادر)، هل لنا بسماع مقام من مفضلاتك ياشيخ قيدار؟؟

يجيب الشيخ قيدار: أيعني أنكم عدلتم عن السمفونيات إلى مشارق النغم؟

يقول ساطع: شيخُنا نحن أبناء العالم ـ شرقه وغربه، تشجينا سيمفونيات موزارت وشوبان وموسيقى العظيم ماهلر مثلما تطربنا مقامات يوسف عمر وابتهالات سمير بغدادي وأغاني أسمهان..

يردُّ الشيخ قيدار: أما عنيّ فالسماع لدي غير السماع الذي تعرفون، أنتم تستمعون إلى موسيقاكم ومطربيكم من أجهزة فيليبس ومسجل أكاي، بينما روحي لاتبلغ التجلي في السماع إلا مع الفونوغراف العتيق الذي أخاله نبعاً يفيض بموسيقى الملائكة ويبوح بتراتيل القلوب وأسرار الأفئدة..

تقاطع نهى إسترسال والدها في سرد الذكريات:

ـ وهل بقي الشيخ قيدار مهتماً بالموسيقى؟؟

ـ لاأظنه يتخلى عنها، لعله ينصت الآن مع صديقه القس إلى أنغام الأرغن في الدير العتيق..

ـ وأنت بابا، مازلت مثله مولعاً بالفونوغرافات العتيقة؟؟

ـ ولن أفرّط بها ماحييت..

الحقائق

الحقيقة محض خيال رغم إمكانية إستمرارها

أينشتاين

قال الأب لنهى وهو يصحبها إلى غرفته بينما غادر الآخرون إلى غرفة الجلوس لإكمال سهرتهم أمام التلفاز:

ـ نهى هات لي قدح ماء..

خرجت نهى مسرعة وأحضرت قدح ماء ووقفت أمامه..

فتح علبتي الدواء الموضوعتين على الكوميدينو جوار السرير وتناول منها حبّتين وابتلعهما، وضع القدح على الكوميدينو وتناول ورقة مطبوعة..

ـ تعلمين يانهى أنني لاأحب الشعر كثيراً لكنما تستهويني بعض النصوص الرافدينية وبعض القصائد المترجمة البعيدة عن الإسهاب اللفظي والاستعارات الكثيرة واللغة المترهلة التي يحفل بها الكثير من شعرنا اليوم، أحب اللغة المكثفة: اللغة التي تنضح بالموسيقى، وتعلمين أنّ والدك قاسٍ في أحكامه على الأدب مع أني لست بناقد أو كاتب لكنني أتذوق النصوص العرفانية المنطوية على جوهر كوني وأعشق النصوص الرافدينية التي ترجمها أستاذي الراحل طه باقر أو ترجمها آخرون من

الجيل اللاحـق له من المعنيين بالتراث الرافديني، أحبها لأنها تتوفر على الجمـال والمفارقة والتكثيف والمعاني المخلدة الصالحة لكل عصر رغم ميزة التكرار فيها، لكنّ الحروب والكوارث التي شـهدناها سـرقت جميع المعاني التي رسّخها البشر طوال العصور من أول الخليقة حتى يومنا هذا، الحرب شـوّهت الأفكار والمعاني، سرقت الذاكرة وخرّبت الوعي وقتلت مخيلة الناس وهذا أسوأ ماحدث لنا: موت المخيلة وخراب الوعي..

أمس كنت أقرأ قصيدة للشـاعر الإيرلندي (لوي ماكنيس) وأحببت أن تسـمعيها ففيها يكمن السر، هل يروق لك سماعها بصوت والدك المتعب أم تقرأينها أنت؟؟

ـ أرجـوك إقرأها لي، أشـتاق لصوتـك وأنت تقرأ كمـا كنت تقرأ لي القصـص في طفولتـي، ونصوص إبن عربي وإبن الفـارض أيام كنت في الجامعة..

ـ تبقين طفلتي الصغيرة مهما كبرتِ..

ـ القصيدة إسمها: **الحقائق** [1]

ـ أرجوك إقرأها..

«... سلَّمَهُ أبوهُ صندوقاً من الحقائق

كان يشبهُ التابوت

ثم ماتَ

وظلَّت الحقائقُ فوقَ رفِّ الموقِد

١. قصيدة الحقائق ـ ترجمة الشاعر ماجد الحيدر

خشبيةً كصندوقِ الدُّمى الذي حُشِرَتْ فيه

أو كذاكَ الصندوقِ الذي توارى الأبُ فيهِ

وغادَرَ البيتَ

تاركاً الحقائقَ وراءَ ظهرِهِ

ملقاةً على رفِّ الموقِدِ

والتقى بالحبِّ..

والتقى الحرب والخسة والهزيمة والخيانة،

حتى وصلَ وقد أحاطه الشَكُّ إلى منزلٍ لا يذكرُ أنَهُ رآهَ قبلاً

ودلفَ مِن فورِه: كان ذاكَ المكانَ الذي منه خَرَج

شيءٌ ما دَلَّهُ على ما يفعلُ

فرفعَ يدَهُ، وبارَكَ بيتَهُ فحَلَّقَت الحقائقُ

وحَطَّت على كتفيهِ..

وانتصبَتْ من قبرِ أبيهِ شجرةٌ سامقة................. «

....

بعد إنتهائه من القراءة أخذ القدح وشرب ماتبقى فيه من الماء..

إنهمرت الدّموع من عيني نهى واحتضنت والدها:

ـ أووه يا بابا، أوووه لن تموت وتغادرنا، لن تموت، ها أنت بخير كما

أرى وأظـن أن أخي بالغ في رسـائله لي عن مرضـك، ولكن أين صندوق الحقائق؟؟

ـ في المكتبة، سـوف يكون هديتي وإرثي الذي لن أسـلمه لسـواك ؛ وليد غيـر معني بهذه الأمور، يقول أن اختصاصه فـي الجيولوجيا يتقاطع مع الأدب أو الشـعر وهو على خطأ في هذا ؛ فالجيولوجي لابد أن يكون عارفـاً، يقـول أن الحفر في باطن الأرض ـ لا فـي المعاني والقصص ـ هو مايحـب، يعرف الصخور وطبقـات الأرض والأماكن التي يحتمل أن يتفجر منها النفط في السـنوات القادمة، يعرف الكثير عن الزلازل وأنواع الصخور النارية والمتحولة والرسـوبية، يعرف المصاطب النهرية وأحواض الأنهار ومسـتودعات الميـاه الجوفية، إنه يتحدث عـن الجيولوجيا كأنها تأريخ الإنسـان، على نقيضي أنا الذي يبحث عن المعنى في حياة البشر، أول أمس كان يحدثني عن العصر الجيولوجي الهليوسيني ماقبل ١٠ ألاف سـنة وأثر التغيرات الجيولوجية على مستقبل البشر والبيئة والمناخ، حدثته عـن التراث الحضـاري والنصوص العرفانية فحدّثني عـن إمكانية إكمال دراسـته التخصصيـة في الصخور الجيريـة التي تحتضن أحـواض النفط في مناطق وسـط العـراق ـ حالِمٌ كبير، أتمنـى أن يحقق حلمه، مهووس بالجيولوجيا، ألقي نظرة على غرفته: منضدته مكتظة بنماذج من الصخور وأنابيب الأتربة الملونة كأنها غرفة مختبر..

ـ كلنا حالمون، لولا ذلك لغدونا صخوراً رسوبية...

ـ تماماً يانهى..

ـ هيا لنفتح صندوق الحقائق..

ـ ليس الآن، أنا متعب، سنفعل صباحاً...

ـ ألا تسمح لي بفتحه الآن؟؟

ـ لن تفهمي شيئاً بمفردك.. إنها قصة طويلة يانهى..

ـ حسناً، سأموت من الفضول حتى يأتي صباح الغد.. ليلتك سعيدة بابا جابر

إنحنت عليه وقبّلت جبينه..

ـ ليلة سعيدة إبنتي نهى إينانا.. حقا إنها ليلتي السعيدة بوجود ملكتي الجميلة...

المُدَوّنات

كتابة المذكرات: كأنك تحيا حياتك مرّتين.....

بعد أن تناول الجميع الإفطار خرج الأب والخال سليم إلى الحديقة، تفحّصا أحواض الورد الجوري التي تحولت شجيراتها إلى نبتات قميئة بورود هزيلة، وابتهجا بتفتح أبصال الفريزيا وأبصال النرجس الأصفر، أشفقا على أشجار النارنج والمشمش التي جففها قيظ الصيف الحارق ودخان الانفجارات فالْتوَتْ أوراقها وتساقطت حولها ويبست أغصانها، أحزنت الأبَ طبقاتُ الغبار التي تراكمت على النباتات وأحرقت أوراق شجرة الهيل والمطاط وشعَرَ بغُصّة تحرق صدره وكأن الغبار الأحمر حاصر رئتيه الضعيفتين حتى أنه أحس بحاجة للسعال لعله يزيح ذلك الغبار عن أنفاسه..

إستعاد جابر الكتبخاني أيامه السعيدة الآفلة يوم زرع أشجار الحديقة مع البستاني (أبو أحمد)، كانا يشتريان الشتلات والفسائل الممتازة من منطقة التاجي أو من مشاتل السبع أبكار ومشاتل منطقة زيونة القريبة من حي المهندسين حيث يقع منزله: ينتقي أفضل الشتلات وأثمنها ـ نخيل السايكس وشجرالمنوليا والغاردينيا ومتسلقات اللبلاب وشجيرات الآس وشجرة ست الحسن لينشئ فردوساً يليق بزوجته الجميلة ميادة وأولاده

المستقبليين، حدث ذلك في أواخر السبعينات من القرن الماضي قبيل حرب السنوات الثماني مع إيران بشهور، وقبل ولادة نهى إبنته البكر في أوائل الثمانينات...

إستعاد أيامه الجميلة وسعاداته المبتورة ؛ فقد لازمته بعد حين أحلام مروعة في أواخر عقد التسعينات: كان يرى بغداد تحترق وأغراباً يطوفون الشوارع يطعنون النساء ويكمّمون أفواه الرجال ويعتقلونهم، كان المشهد يتكرر وتكاد تفترسه الكوابيس، يرى نفسه في شارع السعدون أو في شارع النضال قرب أطلال « بارك السعدون « أو في ساحة الطيران قرب جدارية فائق حسن، يرى وجوهاً ملثمة ونساء مُقنّعات أمام المبنى المهجور للمتحف الوطني للفن الحديث، وتلتمع أمامه حِرابُ البنادق والمِدي والخناجر، وتهب انفجارات وتتهاوى الصواريخ من الأعالي وينفجر خزان الماء ويغرق الناس والبيوت، يرى حيوانات نافقة وجثثاً ملقاة على الأرصفة وغرباناً تحوم في أجواء مغبرة معتمة، يرى بغداد أخرى، يرى موتى وأشباحاً ويسمع عويلاً، وينهض من الكابوس مرعوباً..

تناوله ميادة قدح ماء وتعانقه..

ـ مالذي يحدث لك يا جابر؟ مابك؟

ـ لاشيء، كوابيس لعينة، لاتهتمي، هيا لنهيء فطورنا ونجلس في الحديقة نتمتع بأريج زهورها ونسائم الصباح..

تمتم بنبرة شاكية: لم يعتنِ أحد بالحديقة بعد رحيل فؤاد الذي كان يقاسمني حب الزهور، مرضتُ وانشغلت ميادة بي وبشؤون حياتنا، أنظر لقد ماتت نخلة السايكس، كم إعتنيت بها ووضعت عليها مظلة تحميها من وهج الشمس ولكن الجو الملوث قتل البشر والشجر، ماتت شجرة

الياسـمين الأصفـر وتهاوت من فوق عريشـتها، جفّت شـجرة العنب ولم تثمر، حتى الطبيعة دفعت ثمن الخراب الراهن، الشجر والطير والحيوانات نالها ماأصاب الانسان من إبادة منظّمة في هذا البلد الحزين...

ـ ووليد، ما شأنه؟

ـ وليد ماعاد معنياً بشيء في هذا البيت، رعيت الحديقة مثل إبن لي، إنها شـبيهتنا ـ وجهنـا الآخر المهمل في فوضى القتـل والموت، الحمد لله نجت شـجرتا النارنج تحت النخلـة من عواصف الصيف الحارقة، إذا ماقُدّر لي وبقيت حياً حتى الربيع سأتنشـق عبير زهور القداح وأنا أحتسي شاي العصر هناك تحت النخلة معكم...

ـ ستبقى، كفى حديثاً عن الموت، أنت بخير، ثم من سيأتي معي إلى أربيل ليخطب لي نازنين خان؟ دعني أتزوج ثم افعل ماتشاء..

وأطلق ضحكة مرحة لطالما كانت ميزته الساحرة التي يحبونها فيه..

ـ أنت تعادلنا جميعاً بمنطقك وظرفك ووسامتك وقدرتك على الإقناع، ستأتي معك ميادة والأولاد، لاأظنني قادراً على تحمّل مشاق السفر..

ـ لن تسـتغرق الطائرة سـوى أقل من سـاعة، وسـأهيء تذاكر سفركم عندما نحدد الموعد..

خرجت نهى مرتدية بنطلوناً فضفاضاً من الكتان باللون الرملي وقميصاً قرميدي اللون من الحرير وربطت شعرها الطويل بشريط، لوّحت للرجلين:

ـ هـل إنتهيتما مـن جولتكما الصباحية أيهـا الفلّاحان؟ هل لي الحق باستعادة والدي من قبضتك ياخالي العزيز؟

ـ تعالــي حرّزينـي منـه فهو الـذي اختطفني لأشـاركه رثـاء حديقته المهجورة، خذيه..

فـي غرفة المكتبة ثمة صندوقان خشـبيان مزخرفان بنقوش نباتية على هيـأة توريقـات وبراعـم محفـورة وملونة بصبـاغ أفتح لوناً من الخشـب القاتم وهناك تطعيمات بخشـب لامـع، للصندوقين حلقتان برونزيتان من كل جانـب ويقبعان أمام خزانـة الكتب الكبيرة في غرفة المكتبة، أزاحت نهى السـتائر فهبّت موجة خفيفة من غبار جعلتها تعطس ودمعت عيناها، سـحبت كرسـياً لوالدها ووقفت قرب الصندوق الأصغر حجماً في انتظار ماسيفعله أو يقرره الأب...

إحتل زاوية الغرفة جهاز الغرامافون العتيق ماركة فيليبس الذي يشـغل الأسـطوانات ذات ٧٨ دورة، وقـد لبث في مكانه كمـا تركته نهى وخلفه كانت خزانة كبيرة لأسطوانات الموسيقى الكلاسيكية والمقامات العراقية والموسـيقى الصوفية والأغانـي التراثية القديمة، وقـرب الغرامافون كان جهـاز الحاكي العتيق بالبوق الذهبي المتفتح كزنبقة النهار ماركة (صوت سـيّدِهِ His Master"s Voice) الـذي تتكرر عليه وعلى أسـطواناته صورة كلـب أبيض ظريف ينصت إلى صوت سـيدهِ المنطلق مـن البوق الذهبي ويبدو منتشـياً بالصوت، وثمـة على أحد الرفوف جهاز موسـيقى حديث تكدّست قربه أقراص مدمجة كثيرة..

ـ وأخيرا، صرتَ تسمع الموسيقى من الأقراص المدمجة؟

ـ لكل زمان مايلائمه، أضحت الموسـيقى الآن أشد وضوحاً ونقاء من الأسـطوانات القديمة، لكنني ما زلت أعتز بما جمعته منها خلال سـفراتي إلى أوروبا، تذكرين أن اللصوص الذين اقتحموا بيتنا سرقوا كل شيء عندما

تركنا البيت أيام الحرب في ٢٠٠٣، لم يهتموا بالأسطوانات والغرامافون، كانوا يبحثون عن أشياء أخرى ؛ فالموسيقى لاتهم اللصوص..

ـ كنت أؤمن دائما أن الموسيقى هي أحد عناصر تطور البشرية وتهذيب النفس، لو كانوا أنصتوا يوماً للموسيقى لما تحوّلوا إلى لصوص وقتلة، لاتنسَ أنهم سرقوا أشياء كثيرة وثمينة.

ـ نعم يا إبنتي سرقوا لوحات أصلية لاتقدر بثمن لفنانين راحلين بعضها ورثتها من أبي ؛ فقد كان له أصدقاء فنانون من الرواد، وثمة بعض اللوحات إقتنيتها أنا، والبعض الآخر أهدِيت لي من رسامين آخرين، يبدو أن اللصوص كانوا على علم بقيمتها...

ـ لاشيء أثمن من حياتنا وقد سُرِقت منّا، إنسَ الأمر يا أبي، دع عنك الحسرات.

ـ وماذا تبقى لنا من حياتنا تلك؟ فقدنا الكثير، فقدنا أخاك، ومازلنا نقدم الخسائر كل يوم..

ـ نحن باقون يا أبي..

ـ بقاء أشبه بالزوال..

ـ هل أفتح الصندوق؟

ـ دعي ذلك لي يانهى إينانا..

ـ منذ سنوات بعيدة لم ينادني أحد باسمي هذا، كم هو جميل أن تعيدني طفلة صغيرة وتدعوني به..

ـ كان أملــي أن تكونــي بمقام ملكــة في بيت أو مكانــة ما في بلدك يانهــى، كان أملــي أن يتخــرج فـؤاد لكنهم قتلوه قبل شــهر مــن تخرجه، واجتمعت الكوارث لتقتل جميع أحلامي..

ـ كفى،لا تبدأ بتقليب المواجع والنواح.

ـ وهل تظنين أن جراحي وأوجاعي هدأت يوماً؟

ـ لاترهــق نفســك بالــكلام والحركة الكثيــرة طالما أنــا معك، قل لي حسب بأي الصندوقين نبدأ؟

ـ إفتحي هذا الصغير الأقرب إليك..

رفعــت الغطــاء فوجدت أربــع مجلدات عتيقــة وحــزمَ أوراق مربوطة بشرائط حائلة اللون..

ـ ماهذه؟

ـ أوراقهم ـ أوراق آبائي الراحلين..

ـ وما المطلوب مني؟

ـ أنت الحفيدة الأخيرة التي ستجمع أخبار الأسرة والبلد معاً، تقومين بتحقيق المخطوطات ففيها شــخبطات كثيرة وســطور مطموسـة، الأوراق طالها عفن الرطوبة وفعلُ الزمن فتعذرت عليّ قراءتها..

ـ ربما سأكون إنتقائية في تعاملي معها!!

ـ لـن تفعلي، أعرف أمانتك في هذه الأمور وإلا ماكنت أخترتك لهذه المهمة..

ـ لِمَن هذه المجلدات؟

ـ بعضهـا لجـدي صبحـي الكتبخاني وواحـد لوالدي وبينهـا أوراق متفرقة، وحاولت إضافة دفتر أخير دونتُ فيه أموراً لاأراها ذات قيمة لأني لـم آتِ بجديـد، لم أتمّها بعد رحيل أخيك فـؤاد ومرضي وغيابك الذي أرهق روحي، فمزّقت أوراقي..

ـ لماذا؟

ـ فـي هذا الزمـن توثق الأحداث مؤسسـاتٌ عالميةٌ وشـبكة إنترنيت وصحف كثيرة، فما جدوى مذكراتي؟

ـ لكنها لاتوثّق تفاصيل الحياة الحميمة برؤية شخصية..

ـ لاتهتمـي لهذا وعليك أن تتمّي مابدأه أسـلافك: حقّقي المجلدات وأطبعيها على الكومبيوتر ودوّني ـ إذا شئت ـ ماترين من سيرة الأسرة..

ـ هل ترى ثمة أهمية لهذه المهمة في حياتنا الآن؟

ـ يتوقّف الأمر على مدى أهمية ما تنتقينه للكتابة..

ـ من يقدر أهميته؟

ـ أنت يانهى ؛ بوسعك التمييز بين الوقائع الأساسية والعابرة..

ـ وهل تراني سأنجح؟ لست كاتبة يا أبي...

ـ لكنك تمتلكين أسـلوباً جميلاً، وقد أثبتِّ ذلك حين نشـرت بحثك عن رسّامي أوائل القرن العشرين وأثار موضوعك إهتمام المعنيين غير أنك أهملتِ المُضي في طريق البحث والكتابة وفضّلت التدريس، ثم كتبتِ لي

(تقويم أزاهير الروح)، هذه وصيتي والإرثُ الذي أهبه لك. ثمة أسرار هنا حسب ظني سنفضُّ ألغازها لأنني عجزت عن فك الخطوط بسبب ضعف بصري، وثمة أسرار أخرى ستتكشف لك في الصندوق الثاني إذا مانجحنا في فك مغاليقها..

ـ ماذا في الصندوق الآخر؟

ـ دعي ذلك الآن، لاترهقيني بأسئلتك، هيا إلتحقي بأمك التي تعتزم الخروج مع خالك وأخيك لشراء هدايا لخطبة وليد، إذهبي معهم..

ـ لن أدعك بمفردك، ألايكفي ثلاثة لشراء الهدايا؟

ـ أعلم أنك شديدة الحماسة لقراءة الأوراق، قبل أن تبدأي أرجو أن تنالي قسطاً جيداً من النوم لأنك ستسهرين طويلا وقد يؤرقك ماتقرأين..

ـ لن أبدأ القراءة قبل أن تكشف لي سر الصندوق الثاني.

ـ دعيني اليوم، تمتّعي بنهارك بعيداً عن الماضي، سنفتح الصندوق الثاني في يوم آخر..

ـ أبي أين كان الصندوقان قبل هذا، لم أرَهما عندنا؟

ـ كانا في بيت عمك الراحل أخي منصور، أرسلتهما أرملته لي عندما لم تكتشف فيهما أشياء ثمينة كالتي تتوقعها، كانت تتخيل وجود كنز من حليّ وليرات ذهبية وتحف وغيرها لكنها وجدت مجلدات متعفنة وكتاباتٍ وشخبطات لاتعني لها شيئاً..

ـ بابا قبل أن أنسى، حصل لي أمر غريب في القطار المتّجه إلى زيوريخ، إقترب مني رجل بملامح قوقازية وهندية وناداني بإسم جايا..

أجفلَ جابر لدى سماعه هذا الكلام:

ـ ماذا؟؟ ماذا قلت؟ كيف ناداك الرجل؟

ـ سألني هل أنت جايا القادمة من لندن؟

ـ أيعقل هذا؟ مستحيل! لالا.. جايا؟

ـ ماذا يا أبي؟

ـ سأحكي لك القصة في وقت آخر..

ـ من هي جايا؟

ـ ستعرفين لاحقاً.. دعيني أرتاح الآن..

لم تستطع نهى كبح فضولها، سألت أمها عن جايا، قالت الأم: عمَّ تتحدثين؟ ماهي جايا؟

ـ في القطار ناداني أحدهم بإسم جايا.. توهَّم أنني إمرأة إسمها جايا. رويت القصة لأبي فارتبك وقال سأخبرك عن قصة جايا في وقت لاحق............

ملكة

أعلم أنك لا تُقرر شيئاً ما لم تستشر هذا الصوت السماوي الذي يُناجيك. هيّا إذهب واعتزل وتأمل وتحدث إلى ملاكك ثم عد حاملاً إليّ الجواب...

أمين معلوف (حدائق النور)

أخبرهـا والدهـا بأنها وُلِدت لتكـون ملكة في عالم جميـل نظيف، في أرض تُحترَم فيها الحياة، تُبجّل فيها النساء وتكتمل حيواتهن بالحب والعمل والأمومـة، يكتشـفن الحبَ ويجرّبن كرم النفس والمنـح ـ ملكات يختلفن عـن نمط النسـاء الذي أنتجته الكـوارث والحروب: نمط النسـاء الجواري المعروضات كالسـلع الرخيصة في مزاد الأجسـاد والمنافع العاجلة، لم يحلم بها ملكة حاكمة على عرشٍ وبلاد بل سيدة نفسها التي تدرك جلال أنوثتها وقيمتها وسـط التيه الكبير الذي يدعونه الحياة. كان يدعوها سـيدة العطاء والتجدد، أم الطبيعة. وعندما وُلِدت إستبشر بولادتها خيراً وأطلق عليها إسم (نهى إينانا) وفي سجل النفوس دوّنوا إسمها هكذا: نهى إينانا جابر...

قال لأمها: ستحظى إبنتنا بمجد إينانا ربة الجمال والحب..

ضايقها إسمها المركب، كانوا في روضة الاطفال ينادونها: نهنانا، نهنانا، هنانا..

فكانــت تبكي وتمتنــع عن الكلام واللعب مع أقرانها... في المدرســة سخرت بعض المعلمات بقسوة من إسمها المركّب حتى تحول الإسم إلى مشكلة دائمة سبّبت لها الحرج والهزء، قالت لها معلمة التربية الدينية التي نُقِلت حديثاً إلى مدرستها:

ـ يكفيك إسم نهى، إينانا إسم وثني وقد نسخ الإسلام كل ماسبقه..

ـ ....

ـ إينانا، إينانا، إسم لايليق بفتاة محترمة، أتعرفين ماهو عمل إينانا؟

ـ أعرف انها إلهة الحب وأم الخير وإمرأة الخصب، وهي من حضاراتنا القديمة.

ـ ألايخجلكِ هذا؟ عيب أن تتسمّي بإسم آلهة الشرك، عيب وحرام.

خجلت وغضبت وبكت وقالت لأمها:

ـ لــن أذهــب إلى المدرســة وفيهــا هذه المعلمــة،، لن أذهــب، أريد الإنتقال إلى مدرسة أخرى..

علــى مدى أيــام تحدثت إليهــا أمها عن إختلاف وجهــات النظر بين بيــت وآخر، بين شــخص وشــخص، بيــن إمرأة ورجــل، وإمــرأة وإمرأة، ورجــل ورجل، وبيــن مجتمع ومجتمــع، وعلينــا أن نكون أكثر تســامحاً وفهماً للآخرين،، فكّت ضفائرها بعد احتســائهما شــاي العصر، ومشّطت شــعرها الطويل الكثيف، وقالت لها الآن بوسعك وضع ماسكة شعر جميلة لترفعي شعرك على شكل ذيل الحصان، كفاك تضفرين شعرك كالطفلات الصغيــرات، ســعدت نهــى بالأمر وكأن أمها أطلقت ســراحها من ســجن

الطفولـة إلـى فضاء المراهقة الشـهي، كأنها قالت لها أنت مشـروع إمرأة ناضجة جميلة. قالت لها الأم:

ـ لاتهتمـي، أنت نهـى إينانا عندنا، وأنت نهى القويـة خارج البيت، لابد أن نوازن قليلاً بين مانريده وبين مايفرضه المجتمع علينا..

ـ إذن نحن لانملك الحق حتى في أسمائنا؟

ـ دعي هذا الموضوع، إنسيه تماماً، من الغد لن تهتمي كثيراً لما يقال، أنت الآن شابة صغيرة في الصف الخامس، إرفعي رأسك ولاتهتمي كثيراً لنصف إسمك، أتعلمين لماذا؟

ـ لماذا؟

ـ عيشـي الحاضر، ليكن الماضي محفزاً لنجاحك، لطموحك، لتحقيق حلمك، أما تريدين أن تصبحي شيئاً مهماً في المستقبل؟

ـ لـم أفكر كثيـراً في الأمر، حتى اليوم أفكر أن أصبح مدرسّـة لاأكثر، وسأعامل تلميذاتي بشكل مختلف.

ـ كوني ماتحبين، إجتهدي وستبلغين حلمك. إنسي موضوع الأسماء..

إكتفـت نهى بنصف إسـمها، وتبعـاً لذلك تغيـرت حظوظها واكتفت بنصف فرص حياتها المبتورة..

هـي الآن فـي البيـت، بيتهـا، في ما يسـمى وطنهـا: الوطـن الخانق المختنق، كلُّ مافيه تحلل أو تعرض للفقدان، الحرب مرّت من هنا وتركت وراءها الموتى والرماد، تغير حال أسـرتها عندما تآكلت الطبقة المتوسطة كلها واحتلت واجهة المجتمع طبقات طفيلية تملك المال وترعى الخراب

ولاتقدم شيئا للبلاد المختنقة بالنفط ونتن التحلل، فقدت أخاً وأقارب وأصدقاء أختطفوا أو ماتوا، هذا البلد الذي شاءت بريطانيا في أوائل القرن العشرين أن تجعله دولة مدنية ونصّبت له ملكاً وساسة وحكاماً وبرلماناً فشل في صعود مرتقى الديموقراطية وصار اليوم مرتعاً لتجاذبات العصورالعتيقة وروايات التأريخ الملفقة وصراع السلطة منذ أربعة عشر قرناً..

رأت في زوايا البيت نسيج عناكب وسمعت صرير حشرات، دخلت الحمام ووقفت تحت الدوش، ماء دجلة به نتانة مستنقع، سكبت المزيد من رغوة الإستحمام المعطرة فلم تنجح في إزالة نتانة الماء، كل شيء تجتاحه النتانة، ينبوع حياة المدينة تلوث فبماذا تتطهر المدينة من نتانة جائحة تفترس كل شيء؟

خرجت من الحمام متلفعة بمنشفة بيضاء وعيناها تذرفان الدموع، تذكرت محاولة اختطافها عندما توقفت سيارة نزل منها ثلاثة رجال مسلحين ملثمين واتجهوا نحوها وهي في باب المدرسة ونجت بأعجوبة حين توقف باص المدرسة قربها وحجبها عن سيارة الخاطفين الذين كانوا سيطلبون فدية كبيرة ـ باعتبارها من أسرة الكتبخاني المعروفة بثرائها ـ وسيضطر معها أهلها إلى بيع بيتهم وسيارتهم وليتشردوا بعدها في تيه مدينتهم، حماها سائق الباص الذي أخرج رشاشته من نافذة السيارة وأطلق النار على الملثمين وأصاب أحدهم فلاذوا بالفرار وهم يطلقون النار باتجاه الباص والمدرسة..

مسحت دموعها وتمْتمت:

ـ لاشيء لنا في هذه البلاد الموجوعة نحن التائهون في ظلامها، نحن الذين لا يد لنا في تسيير أمورها..

تدخل غرفتها التي بقيت كما غادرتها يوم اضطرت للهجرة سنة ٢٠٠٧ بعد محاولة اختطافها، حفظت لها والدتها كل ماتحبه في هذه الغرفة الأنثوية ـ ستائر الشيفون التي تشبه فستان عرس، غطاء السرير شبيه الحقول والمروج بأزهار أقحوان وبنفسج وخزامى، السجادة الصغيرة التي من صوف أبيض ذي وبر ناعم، جهاز تشغيل الأقراص المدمجة، مصباحا السرير المكلّلان بنسيج حريري أبيض، روبها المنزلي، أوراقها، كتبها المفضلة التي كان بعضها من هدايا والدها في أعياد ميلادها: (الطواسين) للحلاج، (فصوص الحكم وترجمان الأشواق) لابن عربي، (أساطير الخلق في الحضارات القديمة) وكتب طه باقر، مؤلفات هادي العلوي، مؤلفات نيتشه، كتب ستيفن هوكنغ، ديوان المتنبي وأشعار ريلكة وروايات دوستوفسكي وغوغول وكونديرا ورواية (بلاد الأشياء الأخيرة) وكتب أمين معلوف ودوريس ليسنغ،،، جلسَت على السجادة، تناولت كتاباً عن علوم المستقبل فوقعت عيناها على هذا التساؤل: كيف نعالج الواقع الراهن بناء على مآلات ممكنة؟:

ـ كيف أعالج مانحن فيه بناء على توقعات؟ أخي سيتزوج فتاة منكوبة، ماهو المآل؟ هل سيكون لها الشافي أم سيدمر أحدهما الآخر؟ هل بإمكان من درس الجيولوجيا وتعاملَ مع الصخور أن يتعامل مع وضع نفسي رقيق ومعقد؟

يبدو أن هذه هي حياتنا في هذا البلد، هكذا تجئ وهكذا تمضي مضادة لأحلامنا وتوقعاتنا الساذجة، ولكن كيف نتقبل قتل أحلامنا ورغباتنا؟ هذا بلد يغتال كل رغبة، ومتى ما أغتيلت الرغبة فإن الإغتيالات الكبرى ستحصل: أنا على سبيل المثال من أغتيلت رغبتي في الحب والحياة في محاولة اختطاف و زواج فاشل، واغتيلت رغبتي في العمل حين عدت

إلـى بغـداد وأمامي إحتمال كبيـر أن لاأعود مطلقاً إلـى غرينوبل، كم من الإغتيالات تلاحقني؟ كيف سـأنجو من كل هذا المَسْخ لحياتي؟،،، أبي هـو الآخـر يمضي حثيثاً نحـو النهاية لأنه توقف عن الحلم إلا حلم نشـر مذكرات أهله، أحدّثه عمّا سـأفعله بأوراقهم، يتخيل أنه سـيرى كتاباً أنيقاً يحمل تجربة الأسـلاف، سـأقول له من أجل حلمك سـأعمل على ترتيب هذه الأوراق وأستخرج منها الخلاصة في كتاب لن يكون كبيرا، ولكن ما شأن المستقبل بتأريخ أسرة موشكة على الإنقراض؟

يالسـوء ما أقدمـتُ عليه، اخترت الهجرة والـزواج اللعين، أمي تكظم أحزانهـا ولوعة قلبها على إبنها المغدور وتسـتبقي لنا بعض حنو النسـاء، تتقبّلنـا كمـا نحن بكل أخطائنـا وعثراتنا، تحبنا وتحب أشـجار الحديقة وشـمس الخريف الناعسـة ورذاذ الماء في النافورة الـدوارة على المرج، تتقبـل زواج أخي من فتاة تعرّضت لصدمات نفسـية وعذابات فقدان قد تنغص حياة وليد إلى الأبد، موقف إنسـاني؟ نعم لعلّه تعويض عن فقدان فؤاد، ولكن هل سيكون وليد بحجم التحدي: الزواج من فتاة مريضة؟ أم أنه سيدمر حياته وحياتها؟؟..

أمـي كمـا عهدتهـا تداوي جـراح قلبها وكآبات سـن اليـأس بإعداد الحلـوى لنـا، هي التي تهتم بالبيت وأسـعار المشـتريات ونوعية الخضار المسـتوردة رديئـة المذاق، رأيتها قبـل قليل تخفق البيـض وتذيب الزبد بمتعة وتقشـر التفاح وكأنها تعزف الموسيقى، تضع قطع التفاح في الماء وعصير الليمون، تضيـف السـكر والدقيق إلـى البيض المخفوق لتهيئ لنا كعكـة التفاح التي كنا نحبهـا في طفولتنا، تتبّلها بالقرفـة وتفوح الرائحة لتغمـر بدفئها جو البيت. قدمتْ طعام الحمية لوالدي وأطعمته وفكّرت بنا نحن طفلاها الكبيران، كم حزنتُ عندما رأيتها وقد تغيرت على هذا النحو

المريع ؛ إزداد وزنها وشاب شعرها ولم تشأ أن تصبغه، صارت ترتدي ثيابا بشعة وتضع وشاحاً على رأسها، أهذه أمي الأنيقة الجميلة؟ أي قرار أتخذت لتغدو هكذا؟؟ كل قرار نتخذه اليوم سيحدد مايأتي غداً ولابد أنها حسمت أمرها بقبول انتهاء دورها في الحياة، أعرف نساء كثيرات إنتهين إلى ما انتهت إليه أمي وكأن سن اليأس نذير بانتهاء وجودهن الأنثوي، هكذا لقنوهن، وهكذا تقبّلن إلغاءهن من الحياة، سأقول لها:

ـ عودي إلى أناقتك وبهائك، لاتستسلمي، عاندي وكوني أنت، كوني أنت يا ماما، لاتستسلمي أبداً، ألا تريني؟ ها أنا أعود لأبدأ من جديد وأتجاوز كل شيء. ما الذي مسخك يا أمي؟ البلاد إنمسخت فلماذا تستسلمين أنت أيضاً لحالة المسخ؟ حالة أمي مرآة لأحوال البلاد البائسة التي بلغت سن يأسها وانجرح فؤادها وتعطّلت خصوبتها، فهل نرتجي منها إزدهاراً بعد كل هذا؟

إستغرقتها الأفكار، غامت نظرتها قليلاً، صورة طائر أخضر ذي جناحين أزرقين ومنقار كهرماني محمر لبثت معلقة على الجدار المقابل لسريرها، تحرّك الطائر اللحظة ضمن إطار الصورة، نفض جناحيه اللازورديين وفتح منقاره وحطم زجاج الصورة وسمعت تهشم الزجاج، حلق الطائر بعيداً واختفى تاركاً ريشة خضراء على الغصن العاري أسفل الصورة،،، وهي في إنذهالها وتشوش ذهنها إقتربت من الصورة الخاوية، شمّت رائحة الريش وفي لحظة خالتْها خارج الزمن باغتها الطائر عابراً زجاج النافذة ليحط على إطار الصورة، وأخذ يصدح بتغريدة عجيبة، مدّت يدها لتلمسه فارتطمت أصابعها ببقايا زجاج الصورة المتشظي..

كان لها طائرا حب في فترة مراهقتها اشتراهما لها والدها في قفص من حديد شبكي أبيض، وكانت تطعمهما التمر الرُطب وبراعم زهور حلوة

المذاق ؛ فاعتادا على تناول التمر والبراعم على غير مااعتادت الكناريات من تفضيل العشب والحبوب، فكّرت بتلك العادات الغريبة التي تعلّمها طائراها العاشقان وغيّرا من عادات الغابة وشفرات البرمجة الجينية..

ـ ما العجب؟ هي مسألة تدريب حسب، كل شيء رهنٌ بتراكم الزمن، لكن ثمة من يقول أن الطيور آلات بيولوجية مبرمجة كما يبرمج الأهل والمدرسة الناس في قوالب محددة، وقد نجحتُ في تحطيم البرمجة، لماذا لاتحطم النساء مابرمجه المجتمع في أدمغتهن عن سن اليأس؟ لماذا يتقبلن إنهاء حياتهن الفعلية؟ علامَ لايحاولن معاندة البرمجة الإجتماعية ويعدّلن من نظام الحياة؟

تعالى صرير حشرات الليل في الحديقة، تلك الحشرات النطاطة التي تصطاد الهوام الصغيرة في العتمة وتعانق الزهور الليلية العطرة وتحط على مياسمها، أرادت أن تخرج الى الحديقة لتسكت هذه الحشرات الصرارة، ترددت قليلاً ؛ فلا أمان في ليل بغداد، كانت في سنوات صباها تُمضي ساعات طويلة تداعب القطط وتركض وراء العصافير النزقة في النهار هي وفؤاد، أما الآن فبغداد يستغرقها خمول الحر فتتمدد بكل تأريخها وأحزانها تحت شمس حارقة ومن جنباتها تهب رياح محملة بالغبار ورائحة دخان الإنفجارات، ومن أعماقها تقوم روايات التأريخ الملفقة، لبثت مدينتها تنام وتصحو على همهمات الزمن المتقطعة، تصاب بين حين وحين بإنتكاسة وانقلاب فتغرق في الدم والعويل، وتمر بها حروب جائحة تنسيها معضلة الزمن وهمهماته، توقف الزمن في برهة معتمة ولم تعد الروزنامات تعني شيئاً ولا أدوات قياس الزمن ولا المنبهات، تعطل الزمن تماماً، إستيقظت بغداد لتجد نفسها مقذوفة في العراء، لم تتعرف على نفسها وهي تطفو فوق الرايات السود واللافتات المدمّاة تغطي واجهات المنازل وكل لافتة

تعلن مايناقض الأخرى، تخاصمت الجدران والأبواب وألوان ثياب الناس وتفاقمت صيحات الثأر ولاأحد يعرف الثأر ممّن ولِمن؟

كانت في الثامنة عندما انتهت أطول الحروب وكانت في العاشرة عندما بدأت أخرى، وما أن بلغت الثامنة عشرة حتى قصفت بغداد لأيام أربعة، ومرت الحرب سريعاً مثل عاصفة من لهب، وحين تخرّجت من الجامعة شعشعت نيران الحرب الأخيرة ـ حرب احتلال العراق كأنها القيامة ومضت تلتهم الزمن والناس والبلاد حتى اللحظة، هذه الحرب الولود المخصبة بالكراهية وجراثيم الفناء لن يصيبها اليأس كما النساء المستسلمات ليأسهن..

قلّبت كتاب (ترانيم العشق السومرية) و (قصائد الغزل)، وقرأت بضع صفحات، فكّرت بجمال الحياة مع الحب، باكتمال الجسد في ارتوائه، إستعادت تجربتها المريرة في زواجها البائس، لم تنعم بمتعة أو لذة أو أمان، كان إدعاء النشوة زائفاً:هكذا تمثل النساء على مسرحهن الليلي عندما يستلقين مرهقات الجسد مستنفدات القوى متعباتٍ من كل مايحيط بهن، ويأتيهن الرجل فلا يجدن بُداً من الإستسلام ـ كما معظم النساء في الزيجات الفاشلة ـ، تقبّلت الأمرعلى مضض، على كراهة ونفور، على قرار بالخلاص...

إستلقت على سريرها وأغفت، جسدها مهرجان مؤجل وروحها تضيء بمفردها أنحاء الليل في الوسن والحلم، تهمل الجسد وتستسلم لأفكار ورؤى وأحلام..

رأت نفسها في شارع الجمهورية، خرجت من سوق الشورجة محملة بروائح البهارات الهندية وأنواع البخور، علقت بثيابها أشذاء الهيل والزنجبيل والدارسين والكاري والحناء والكمون واليانسون والقرنفل،

وفي يدها حزمة شموع، ثمة عربة تجرها خيول بيضاء تنتظرها عند مدخل السوق، صعدت العربة التي غاب حوذيها وأمسكت زمام الخيول، رأت نفسها ترتدي ثوباً سومرياً مكشوف الكتف الأيسر ومزيناً بأهداب طويلة، وفي لمح البصر وجدت نفسها أمام المعبد الذي انهارت بعض سلالمه المشيدة باللِبن، ميّزت فيه زقورة شبيهة بزقورة أور، وقف على كتفها طائرها الأزرق الهارب من الصورة، شرع الطائر يغني ويخفق بجناحيه، وخزتها مخالبه المعقوفة، أنزلها الكهنة من العربة وقادوها نحو البرج والريح تحرك شعرها الطويل كمثل مروحة، إرتقت سلالم الزقورة حتى قدس الأقداس، كانت هناك عازفات يعزفن على القيثارات والجنوك توزّعن على جوانب السلالم، وكاهنات يحملن التقدمات من طير البر والسمك والتمر إلى مقام الإله القمر، إرتقت الدرجات المائة حتى انبهرت أنفاسها، إظلمّت السماء بغتة ومرّت بروق تبعها رعد مزلزل، عادت شمس المساء للظهور وشعّت ضوءاً وردياً بنفسجياً كالحريق، تقدّمها كاهن يضع لحية مستعارة وعلى رأسه غطاء بطبقات مقرّنة كملوك بابل، إنحنى وهو يرش زيت الأرز وعطر الآس أمام خطوتها فأنعشها الأريج النباتي المثير للشهوات، دعاها إلى معبد إله القمر (سين) الذي زُينت جدرانه بالآجر الأزرق البرّاق بينما علته قبة ذهبية لها استدارة بدر مكتمل، توهّجت القبة تحت ضوء الشمس الغاربة والبرق السماوي المراوغ، تماثيل مصغرة تمثل دمى الخصوبة وتعويذات الحظ كانت تحيط بالسرير الملكي المفروش ورداً وأغصان آس، لم تجد عريساً في انتظارها ليمارسا طقوس الخصب ويعلنا الجسد مهرجان حياة ويجلبا الوفرة والخير لأرض مابين النهرين، لم يكن هناك الملك شو سين ليمثل دور سين إله القمر، بحثت في الغرفة المقدسة عن تفسير لما هي فيه من وحشة بعد جهد ارتقاء السلالم المقدسة، أية خديعة؟؟

خرجت إلى الكاهن الملتحي فلم تجده، هبطت الدرجات المائة للسلم الأوسط، إختفت من السلّمين الجانبيين للزقورة عشرات العازفات اللائي كـنّ يعزفن أغنيات الحب المعهودة حين ارتقت الزقورة، إظلمّت السـماء وهطل مطـر غزير جرف العربات والمحتفلين، تمسّـكت بالجدران الزلقة فلم تسـتطع الصمود، تهاوت من منتصف سـلم الزقورة فأمسـك بها إثنان من الرجال العقارب وألقيا على وجهها خماراً أسود وسارا بها في الطريق الذي غطاه الوحل المتفاقم نحو معبد القصاص بينما انهمك رجال آخرون لهـم هيئات طيور جارحة بتقييد العازفات واصطحابهن إلى مبغى المدينة المجاور للمعبد، شرع الرجلان يجلدانها بالسياط وهي تصرخ وتستغيث:

ـ دعوني، لسـت ملكتكم، لسـت كاهنتكم، لست من تظنون، صرخت وصرخت..

أفاقت من حلمها الكابوسي وفي سمعها صدى ترنيمات طقس الزواج المقدس وأغنية العشـق التي ردّدتها المغنيات، كان الصدى بعيداً وعميقاً كأنه آتٍ من قاع العالم السفلي عميق الغور:

محبوبي

محبوبي الموقّر الجميل

عناقيد تمره لم توضع في يدي

حزم قمحه ليست لي

حبوبه ليست في البيادر

أختي سوف أذهب معك إلى شجرة تفاحي

لعل شجرة التفاح تكون في يدي

أختي ساذهب معك إلى شجرة رُماني

سوف أقطف عسلاً حلواً

أختي سوف أذهب معك إلى بستاني

سوف أذهب، سوف أذهب، أذهب إلى بستاني،

تلاشـت الترانيم من حولها فهبّت مذعورة من سـريرها، سقط من يدها كتاب، همهمت:

ـ أية ملكة سيئة الطالع كنت؟

لابد أن أنظر لما هو آت، كفاني اسـتحضاراً للزمن الغابر، كفى اتكاءً على الذاكرة والتأريخ، أردت أن أدرس علوم الكون دون مدرسة أو جامعة فأرغمني أبي على دراسـة اللغة العربية، أردت أن أكون إبنة الغد فربطني بالماضـي، والآن يحلم بكشـف أوراق السـلالة، لعله علـى حق في هذا، علينا أن نعري الأمس ؛ فما لم نتعلم من سقطاته لن نبلغ الغد..

ـ لمـاذا تلاحقنـي النذر حتى في أحلامي؟ أترانـي إرتكبت خطيئتي الكبـرى بعودتـي؟ ألـم أعد من أجـل والدي؟ هل عدت مـن أجل كفِّ اللوم عن نفسـي أم عدت حقاً من أجل أبي؟ لسـت أدري أيهما الأقرب إلى الحقيقة، أي الأسـباب هو الذي دفعني للعودة إلى بغداد: أنانيتي أم ولائي لأبي؟

لعله أبسطها كما قال إبن سينا:

المستعد للشيء تكفيه أبسط أسبابه!!..

ولائم غير مقدسة

أنا يا عصفورة الشجن....... مثل عينيكِ بلا وطن

تتصل مليكة الجزائرية صديقة نهى من غرينوبل:

ـ نهى كيف أنت؟ طمئنينا على صحة الوالد. متى ستعودين؟

ـ مليكة عزيزتي أفتقدك، أبي بخير، لاأظنني سأعود بهذه السرعة..

ـ تلاميذك يرسلون تحياتهم والزملاء جميعاً.. المدرسة تفتقدك..

ـ أحبكـم، وأفتقدكم سـأكتب لك إيميلاً مفصلاً، هل ستسـافرين في أعياد الميلاد إلى الجزائر؟

ـ لـم أقرر بعدُ، أشـعر أحياناً أننـي غريبة في وطني، غريبـة فعلاً، هنا تآلفتُ مع الناس والأمكنة والأشياء.

ـ إنها اللغة عزيزتي، أنتم أقرب منّا إلى المزاج الفرنسي..

ـ عودي إلينا نهى.. حرامٌ أن تفرطي بعملك هنا..

ـ سـأرى لاحقاً ماسـأفعله، سـلاماً صديقتي الجميلـة، أحبك، إعتني بنفسـك، ولاتنـسـي أن تتعلمي الأغاني العراقية من السي دي الذي تركته لديك لتفيدك في فهم لهجتنا المعقدة..

ـ إلى اللقاء..

الغربة؟ الغربة؟ رددت نهى الكلمة مراراً، كلنا غرباء بدرجات متفاوتة حيثما كنا أو نكون، لامفرّ من اغترابنا حتى عن أنفسنا وأحبائنا...

نهى أيضا ـ مثل مليكة ـ تجد نفسها غريبة في بيتها، مع أن وجودها في فرنسا كان أشد غربة، وجودها الذي حصل بمحض مصادفة لم تحتط لها، لم تضعها في الحسبان ولم تحلم بباريس إلا كوهجة نور نائية ومستحيلة، وعندما جاءتها مهاجرة مرعوبة من أهوال بلادها لم تنبهر بها كما ينبغي لمن يرى جمال باريس وفتنة أمكنتها وتراكم عصورها، جاءتها لاجئة نجت من محاولة اختطاف، في بلادها تُمحى العصور تباعاً لدى كل انقلاب أو غزو أو تغيير فئة حاكمة، فتتغير ملامح البلاد وتزول العلامات والأسماء والتماثيل والشوارع والمباني، أما باريس فإنها راسخة كأنها مدينة الأبدية، لايسَعُ المرء الإمساك بشيء منها أو تحاشيها وسيكون عليها أن تتقبلها كوليمة مقدّسة، تفتنها أناقتها وتنوّع عمارتها وزيناتها الملهمة وألوانها ومفاجآتها،، تتراجع عن فكرتها: الولائم المقدّسة لا تخصّني وليس لي أن أعوّل على وهْمٍ جديد ليتبدّد كما تبدّدت أوهام جيلي في لهب الحروب.

كيف لها أن تنبهر بغربتها إذن وهي وسط طوفان مضطرم بالغربة والغرباء وذاكرة الهلع؟ الحياة هناك في غربتها غير حياتها في بغداد، هناك حياة جذلة لسواها، لها سحر مؤقّت كشمس النهار، متغيّر، ومخادع، سِحرها مجون الزمن والناس وجنون البشر في اجتناء المتع، مدينة لفرط اشتغالها بالخيال والمتع تبدو أشدّ واقعية من الحلم ذاته، هل كانت نهى قادرة على التوائم مع واقعيتها وعدميتها وجموحها؟ مقاهي الأرصفة والصحف الطازجة وصباحات القهوة، كانت وحدها تجالس نفسها وتحاور وحشتها في الشوارع والمقاهي، أمامها قهوة الأسبريسو وقطعة

الشوكولاتة الصغيرة توقظها على وحشة القلب وتردد لنفسها: أين أنتَ أيها الرجل المرتجى؟ هل سأجدك عند منعطف عصر أم سأمضي العمر في صيانة الجسد من الذبول وأنا أنتظرُ بزوغك؟

إستعمارالعراق ـ لسوء حظّها ـ كان بريطانياً ولغتها الثانية هي الإنكليزية، والفرنسيون يحمون لغتهم من طغيان اللغات الأخرى ويرفضون النطق بأيّة لغة أجنبية ؛ فهم مولعون بالموسيقى الصادحة، ولكنة باريس شبيهة تغريد العصافير في متنزه اللوكسمبورغ، أما في غرينوبل فالكلمات تقال بقسوة جبلية ولايترنم بها المتحدثون..

تهرب نهى من الموت إلى عدم متسع، تغادر الشوارع وغواية المقاهي إلى غرفتها في الطابق الثالث من فندق متواضع وتطلّ على بار يلفظ بعد انتصاف الليل السكارى والغانيات الخلاسيات والفتيان المزيّنين بالسلاسل والأقراط، تتعالى الأغاني اللاتينية التي تدحضها ضجّة الدراجات النارية ليتلاشى الفجر في دخان العنف ومعارك السكارى..

تسير في المدينة الغريبة كمن تلتهمه متاهة، والمتاهة تلتف وتلتف كأفعى، يرتجف فؤادها الكسير وتعصرها أفعى البوا الضخمة ـ المدينة القاسية، يصير جسدها هلاماً قابلاً للتلاشي في المتاهة، تتّجه إلى مجهول لاتدرك طبيعته، لاشيء ينجيها من الوحشة، تتولد أفكارها بلغتها وسط بلبلة لغات وأعراق، هي بين الغرباء تلوذ بلغتها التي تحبها، ترى اللغة سوراً لامرئياً يحرس وجودها من التلاشي، تفكّر وتحيا وتتحرّك في أروقة لغتها، تعوم في نهر من مفردات وعلامات، واللغة تتدفّق حولها ومن أعماقها، من ضفّة غامضة ينهمر مقطع شعريّ، من زاوية في الذهن تنبثق حكاية، وفي الدم تترنّح عبارات حبّ توقظ مهرجان الجسد، في الذاكرة

تموج مفـردات تصوّف وعبارات عرفانية تنفرد بها لغتها، تسـمع كلمات من أبعد الجهات..

تنصت لوقع العبارة، تصغي لأصوات غامضة تنقضّ عليها من جنبات الأمكنة لا تدري من أين تجيء وإلى أين تذهب، والذاكرة ترسل إشاراتها عبر مفاصل الوقت استعاراتٍ وكناياتٍ، تحدّق مهتاجة الروح بما يدور في الشـوارع الكبرى لمدينة ثملة بالحياة والعشـق والغوايات، تحتمي بلغتها كقميص مضادّ للضلال والتلاشي.

هنا المقاهي والقراء وهنا الغلاء الجحيمي وسـاعات العمل الضاغطة والبشـر العابسـون المسـرعون بمظلاتهم وكلابهم وحقائبهم إلى محطّات المترو والعشـاق المتريثون في عناقهم وسـط الحشـود المتعبـة، هنا ليل الموسـيقى والحانات الصغيرة والنساء الخلاسيات والسوداوات البدينات والمطاعم الصينية وباعة الذرة المشوية وصيّادي السائحات الثملات،، هنا المظاهرات والمشرّدون اللائذون تحت جسور الطرق السريعة والكحوليون يفترشون أسمال الشتاء أمام مركز بومبيدو للفنون، هنا المتشددون والنساء المنقبات المترنّحات على سلالم تصعد أو تهبط ما بين الشرق والغرب في حي بلفيل، يشهرن الهوية قِطَعاً من قماش أسود تقول الإختلاف المتشدّد وتعلـن الخلاف في تعاطي الحياة مـع أهل البلاد ونهى تترنح بينهم كمن غادر الشرق إلى المغيب...

لابـأس أن تدندن أغنية عراقية شـجية عن ظمأ الروح وحرمان القلب، الغناء يبرهن لها أنها تحيا في لغتها وتعبر اللّجج ودوّامات البشر، ولا أحد معنـيّ بإمرأة تغنّي وحدها في الشـارع لتوقظ جسـدها المهجور، تحتفي بروحها المقاومة، ترفع صوتها لتسـمع نبر اللغـة من أعماقها، النبر متموّج

والإيقـاع على بحر المتـدارك أو ربّما على بحر الوافر، هي غير واثقة من شـيء، اللغة توقظ في جسدها اللوعة لأشـياء تتداعى تباعاً أمام ناظريها، ترى الأشـياء وتسـمّيها بلغتها: هـذه انعطافة النهر، هـذا رصيف الفنّ في مونبارناس، هؤلاء مهرّجو الفرجة في مونمارتر، هذا بائع الموسيقى النّوبي يتسـوّل بأنغام العـود في الأنفاق، هـذه إمرأة أفريقية تعانق رجلاً أشـقر، هـذا مطعـم تركيّ ومجزرة إسـلامية تبيع اللحم الحلال إلـى جانب محلّ يبيع الحلال اليهودي (الكوشـر)، وهذه إمرأة بنقابها وقفازاتها السود تجرّ وراءها عصوراً غابرة.

تشمّ أشذاء وتسمّيها كما أِلفت الأسماء في بيت لغتها: هذا فَوْحُ ليلَكٍ، وذاك عطرُ زنبقٍ وهذا ياسـمين مشـرقيّ وهذه نكهة خبز القمح وهذا شذا شاي منعنع، ضوعُ كافورٍ وعبقُ سدرٍ، الأشجار لها أسماؤها الأخرى: هذه شـجرة دردار، ماذا تسـمّى بالفرنسـية؟ بالانكليزية هي elm، آه تذكرت بالفرنسـية هي orme، هذه شـجرة كستناء وأشـجار حور، أبواب المدينة لها أسـماء ملكية وأسـماء قديسـين: بـورت دي أورليان، بـورت دوفين، بورت دي سان كلود، بورت دي لاشابيل، كم باباً للمدينة، عشرة أبواب؟ ثمانية؟ لا تعرف..

هي تعرف أبواب مدينتها الزائلة، كم باباً بقي لبغداد؟ كلها اندثرت إلاّ الباب الوسـطاني، تستنهض ذاكرتها لتنجدها بالإسم الأصيل للباب، باب الطلسم؟ لا.. أو باب كلواذى؟ أيّ باب هو؟ ربّما هو باب الظفرية.. أجل هـو ذا، الظفرية، حصنه إسـتعصى على جيش المغول، الباب الوسـطاني أجمل، اللفظة أسـهل ولها إيقاع التوسّط بين المتضادّات،،، الآن لا باب لبغداد غير إثنين: باب الجحيم وباب الهروب...

شوارع باريس وغرينوبل تخطفها من لغتها، الأغنية تتناهى إلى مجرّد لحن منفرد يتكـرّر بصوتها والكلمات تجرحها، لغتها تدبّ دبيب النمل في جسدها، تـذرف كلمات الأغنية كمن ينثر لؤلؤاً وسـط ليل الوحشة فتضحك، هل الضحك لغة؟ هل تراها تضحك بلغتها؟ تضحك وضحكتها ذات رنين منغّـم على إيقاع المتسارع، اللغة أتت بعـد الضحك، مؤكد أنّ اللغـة أبتكِرت بعـد الضحك. أنا أضحك بلغة يفهمها الشـرق والغرب والشـمال والجنـوب، لا عنصريـة في الضحـك، لو كان الضحـك بلغتها لاستنكرها العابرون بإشارات اسـتخفاف عنصرية، الضحك لغة، والبكاء لغـة وعليها أن تسـتنجد بالضحك كلما تبدّت لها نظـرة عنصرية في وجه عبـوس،،، لغتهـا تهنـدس متاهة الإغتـراب والتغـرّب، تهنـدس اللحظة وتصوغهـا كما المهندس يشـكّل المـأوى أو القاعة فيقيمهـا في الفراغ، اللغة تهندس الأمل، صوتها حارس جسـدها وحامل أهوائها وفيه تتصارع الكلمة وتتجاور اللغات...

يـرنّ هاتفهـا المحمول فلا تـردّ، لعلهم يتصلون بها من إدارة مدرسـة اللغـات فـي غرينوبـل، أو ربما هي كاتريـن أو إيزانا أو شـيرين، لن ترد، تواصل دندنة الأغنية بلغتها العربية وتعلو النغمة ويتسارع الإيقاع، تحتمي باللغـة من مخاطر ومجهولات، تحلـم أيضاً بلغتها وتندم بها وتتوارى فيها من سـوء فهم الغريب وتستدعي رؤيا الرجل الغامض الذي يراود أخيلتها، تنعشـها الرؤيا المبهجة، تدير كلماتٍ وعبـاراتٍ من اللغة الأخرى تقول له بالفرنسية: Je t›aime أحبك، تدير الكلمة بين ذاكرة مكتنزة بدفء لغتها وبين اللغة الجديدة المموسقة وتضحك من بين دموعها...

تسـمع صياح ديك وموسيقى تنبعث من بعيد، هو الصباح إذن، تحدق بالغرفـة كأنها في المتاهة، أين هي الآن؟ أهـذا بيتها؟ أهذه رائحة بغداد

تنهمر من نافذتها أم رائحة الزقاق الضيق المرصوف بالحجارة حيث تقيم في غرينوبل؟ أهذا سرير الفندق أم سرير صباها؟ لاتدرك لبرهة أين هي، ترتاب في وعيها ويقظتها، تحسم حيرتها وتطلُّ من النافذة على صباح الحديقة وحوض ورود الجوري يشع بألوان وردية حمراء بلون الغسق وثمة فراشات تتطاير وعصافير تعبث في حوض الماء..

ـ أنا هنا، جسدي هنا والروح مابرحت تطوف هناك، أنا هناك، وهنا وهناك، لوكنت في غرينوبل الآن لكنت هنا، لكنني هناك أيضاً، أوووه ماهذا الهراء، أنا في بيتي كفى جنوناً، تخرج إلى صالة البيت الغارقة بضوء الشمس وفي أرجائها يتردد صوت فيروز يتصادى في الضوء:

أنا يا عصفورة الشجن.... مثل عينيكِ بلا وطن

بي كما بالطفل تسرقه.... أول الليل يدُ الوسن

واغتراب بي وبي فرح... كارتحال البحر بالسفن

خريف

خريف بغداد الذهبي، شـذا الشـاي مع وهجة من عطر الهيل يملأ جو غرفة الجلوس دفئاً عطراً يفغم الروح بالنشـوة، يوقظ جسد ميادة على متع لم تعد من حقه ـ من حق الجسـد المحروم، تسـعل قليلاً، تسـعل أكثر، تأخذ بخاخا أزرق اللون وتستنشـق رذاذه من فمها،،جسـدها لم يعد جسد إمرأة كاملة، تراها نهى وقد شحب وجهها وضاقت أنفاسها..

تهرع نهى إليها وتقبلها: ماما، مابك؟ ماهذا البخاخ؟

ـ تلوث الهواء يانهى، أصبتُ بحالة ربو تحسّسـي جراء دخان مولّدات الكهرباء

ـ وما العمل؟ أتعانين كثيراً؟

ـ في بعض الليالي يتفاقم التحسـس والسعال عندما تنقطع الكهرباء ؛ مولدة الكهرباء لاتبعد سـوى عشـرة أمتار عن البيت، وقودها يطلق دخاناً أسود يتسلل من النوافذ.

ـ ما الحل إذن؟

ـ لاحلول لأية مشكلة في هذا البلد، كل مشكلة تفقس عن مائة أخرى..

ـ الأدوية، لابد من أدوية..

ـ لم يعد جسدي يتحمل المزيد من الأدوية،، ماعاد جسدي يصلح لشيء،، مثل تلك الساعة الخربة المعلقة على الجدار تذكّرنا بالزمن المغلوط...

تتذكر ميادة أختها المنتحرة مديحة التي سُمّيت على إسم جدتها العظيمة الحاجة مديحة: العارفة القوية التي كانت تمتطي الخيل ويحتكم إليها رجال الأسرة والأقارب ومنها يستمدون العزم والعون. كانت المنتحرة تتحدث مع أختها عن جسد النساء المظلوم:

(... إستمعي لهمهمة الجسد، أنصتي إلى الشرر وهو يخترق عتمة الجسد، ألا تشعرين بالشررعندما يخترق لحمك؟ عليك أن تثقي بالصلاة الآتية من الجسد، إنها هِبةُ الله لنا، الإشارة الحية تأتي منك أنت، من جسدك أنت، لا من سواك........)

كلمات مديحة لبثت في ذاكرتها كمنخس حاد، توقظها أحياناً على خسارة العمر والمتع، جسد المرأة يسمن ويتراخى وتثقل حركته لكنه لايشيخ ولا يتعطل كما يتوهّم أو يتمنى الرجال، تبقى الجذوة متوهجة تحت رماد النكران والتجاهل،،، لم يطفيء روحها وجسدها سوى رحيل ولدها فؤاد، غصّت بإجهاشة صامتة وامتلأت عيناها بالدموع من أجل إبنها المغدور ومن أجل أختها المنتحرة، سكبت الشاي في الأقداح ونادت الجميع بصوت مخضّل بالدمع:

ـ هيا، برد الشاي..

جاء وليد وتبعه والده والخال سليم، لاحظت نهى دموع أمها، عانقتها وهمست:

ـ مابك ماما؟

ـ تذكّرتهم..

ـ أووه ماما..

قبّلت أمها ومسحت دموعها، وخمّنت مستوى القهر الذي يغلي في قلبها ويعتصر روحها..

غمرهم صمت طويل، نظرت ميادة إلى زوجها الذي تهالك جسده ووهن تماماً، أهكذا يتحول الجسد القوي الرجولي الشهواني إلى محض هيكل هش من اللحم المترهل والعظام النخرة والأعصاب الخامدة؟ ماعاد صالحاً للعمل أو الحب بل أنه يقاوم بقوة لينتزع أنفاس الحياة من الحياة، فيسري فيه شيء من العزم يعينه ليقوم بأبسط مهامه الحيوية دون اعتماد على أحد، يستحمّ ويأكل وينام حسبُ..

الخريف يوقظ أشجانها وأشواقها وأحزان الجسد اللامنظورة فتصيبها غصّة، والشاي منقذُها من هذه الغصة، ترشفه بالتذاذ شهوي، وتتشمّم عبيره المتصاعد من الإبريق الخزفي الجميل المزيّن برسمات ذهبية وزرقاء، قالت:

ـ من يريد قدحاً آخر؟

قالت نهى: أنا، من فضلك ماما، أسكبي لي في قدحي..

همهمت الأم: علينا أن نستدعي صاعود النخل ليقطف لنا عذوق النخلتين لتأخذ بعض التمر معك، سليم...

ردّ سليم: غداً أعود إلى أربيل وأنتظر أخباركم، دعي التمر لمرة قادمة...

قالت ميادة بصوت أسيان:

ـ لكني وعدتك أن أطبخ لك غداً كبة الحامض ومحشي الباذنجان..

ـ إذن سأبقى وأسافر بعد الغد، سأخرج لتأكيد حجز الطائرة..

ـ هل فكرت بموضوع بيت الوالد؟ هل نتركه مهجوراً منسياً؟

ـ هذا موضوع لن أناقشه ميادة، لن نبيع البيت، سأعود لأسكن فيه مع زوجتي..

ـ إذن عليك أن تفكر بترميمه، الحديقة جفت تماماً وأجهزة التكييف وسخان الحمام سرقها اللصوص، لابد من تجهيز البيت قبل أن تعود لتقيم فيه، البيت بات خربة مهجورة..

ـ دعك من الإنشغال بهذه التفاصيل، سأكلف إبن أخي مؤيد بالأمر قبل عودتي..

ـ ألا تعلم؟ مؤيد إستقال من وظيفته وباع أثاثه وسيارته وقرر أن يهاجر هو وزوجته، لا تعتمد على أحد من جيل مؤيد، كلهم يرومون الرحيل عن هذا البلد اليتيم الذي بلغ خريفه...

ـ سأرى ما أستطيع عمله بهذا الشأن، أراكم مساء..

ـ إنتبه لنفسك في الطريق..

هذا موسم بغداد الأجمل، خريفها البهي، موسم قطاف التمر والرمان، غيّرت الحروب والفواجع إيقاعات الزمن والمذاقات التي تشكل سمات الحياة اليومية، لاالخريف بقي خريفاً وماعاد الربيع شهر النهوض وقيامة الكائنات، منذ عقود صارت أيام نيسان البهيجة إحتفالات سياسية للحزب الحاكم وسُلِبت منها مباهج الربيع الطليق وأشذاء الورد وفتنة

زهور الزنبق والسوسن البنفسجي وشوّهت الطرقات شعاراتٌ وورق ملون وأشرطة نايلون وأغرقت القاعات بأكاليل زهور صناعية قميئة، ثم تفاقم القبح بعد احتلال العراق وصارت بشائر الربيع تنذر بمزيد من الفواجع: أجواء ملتهبة من الترقب والقلق والخوف، إنفجارات وقتل مبرمج، مطاردة للنساء وتحريم للموسيقى والفنون وتحطيم للتماثيل التي كانت تزدهي بها معاهد وأكاديميات الفنون...

هذا الخريف حين عادت نهى إلى بغداد ماعاد هو ذاته خريف بغداد الذهبي ولاشيء يذكّرها به سوى حبات التمور الكهرمانية تتناثر على الأرض مثل هباتٍ سماوية أو مجوهرات ثمينة ينطوي لحمها الحلو على عسلها الشهي الذي يعزّز قوةِ الأبدان وطاقة الشهوات ويقيم أود الجياع أيام القحط..

في السنوات الخوالي كانت أم نهى توزّع التمر يوم القطاف على الجيران في أطباق بلورية كبيرة تكللها بالورد الجوري فتبهجهم بمذاق التمر وشذا الورد وتحتفظ ببعض العذوق في مخزن البيت معلقةً كوعود حلوة لأيام شتاء قاحلة، كانت تحفظ الثمار والخضار في المجمدة، أما اليوم وفي أزمة الكهرباء التي تضرب البلاد غدا مثل هذا الأمر مستحيلاً بعد أن تحولت المجمدات إلى محض خزانات لتكديس المواد المهملة ؛ فكان على ميادة أن تواجه هذا التحدي لتديم حياة أسرتها بمواردها البسيطة فعمدت إلى استعادة مهارات الجدّات لمواجهة خلل الطبيعة ومباغتات القحط: جففت الخضروات ونشرت ثمار الأجاص والتين على حُصُر الخوص في الشمس، صنعت المربّيات الشهية من التفاح والأترج كما لوكانت أيام عيد، خللت الخيار والفلفل وهيأت ببراعة أنثوية مشهودة خزيناً من أغذية إحتياطية كان لها نفع كبير أيام منع

التجـوال وعامَـيْ الحـرب الأهلية التـي أرغمتهم علـى الإعتكاف في البيوت...

خرجـت إلـى الحديقة لتختلي بنفسـها وتنجـو بغصتها بعيـداً عنهم، أرادت أن تزيـح غمـة اليـأس عن روحها وفكرت أنها سـتزرع شـتلات الأقحـوان الأصفر والبزاليا العطرية وزهور المرجـان والقطيفة، لن يهزمها الحر ولا ندرة الكهرباء، لابد أن تسعدهم قدر ماتستطيع، بالأمس اشترت أبصال النرجس والكلاديولس من المشـتل وزرعتها في الأصص من أجل روح فؤاد، همست له: أنت حي معنا ياولدي، لابد أن نقاوم الموت بهذه الأشياء الصغيرة التي تبدو للآخرين بطراً خلواً من المعنى، أنت تحبُّ هذه الزهور ومن أجلك أزرعها كل عام..

تزورها أختها هناء وتضحك من إهتماماتها الجديدة:

ـ خفِّفي عن روحك، حياتنا تتبدد بسـرعة، لم تعد للأشياء قيمة تذكر، أنظـري للمرآة ماعدت أعرف ملامحك، غـادري عزلتك، زوري الأقارب وأحضـري أعياد ميـلاد الأحفاد، أخرجـي إلى الدنيـا، لاتقطعي صلتك بالحياة وإلا انتهيت، حسبك حزناً، كفى انغلاقاً أنت وجابر..

ـ تصدعـت روحانـا بمـوت فـؤاد، لانسـتطيع أن نحيا كمـا كنا قبل رحيله...

تطرح هناء سـؤالها المستفز: ـ وهل أنتم مقتنعون باستدعاء نهى؟ ألا تريـن أن تصرفكم هذا كان جريمـة بحق إبنتكم التي نجت من الخاطفين وهاجـرت ـ كيـف تعيدونها؟، إما أنكـم أنانيون أو مجانيـن، لالا، لقد إرتكبتم خطأ لايغتفر باستدعائها..

ـ تعلمين أن حالة جابر تسوء كل يوم وهي أثيرته العزيزة، منذ عودتها وصحته تتحسن بشكل لايُصدق، أنت لاتفقهين شيئاً في الحب وأثره في الشفاء؛ قلبك من حجر..

ـ الحب؟ لا يوجد حب، عزيزتي ميادة هناك تبادل منافع، صفقات، ليس من حب في هذه الدنيا، فكرتم بمصلحتكم وتغاضيتم عن مصلحتها..

ـ كم أحزن من أجلك، أنت تبددين حياتك في الهرج والتفاهات الزائلة، لن تفهمي يوماً معنى المحبة التي تجعل الحياة قابلة للعيش، أنت مسكينة هناء، لو كنتِ تزوجت وأنجبت لاختلف وضعك...

ـ تعيّرينني بعنوستي؟

ـ لا عزيزتي، بل أحزن لمنطقك..

ـ كل الذين تقدموا للزواج مني كانوا مدفوعين بالجشع: طمعوا بسيارتي وشقتي ووظيفتي، لم يخطبني هيثم لسواد عينيّ، ولا أحبني ماجد لجمالي، إكتشفت أنهم طامعون بما أملك لا بي كإنسانة محبوبة، كشفتهم بسرعة؛ لذا قررت أن أعيش بلا زواج مهين، لست في زمن جدتي، وظيفتي تكفيني وتقاعدي في الغد يسدّ حاجتي، ماذا أنتظر من زوج طامع يعيش معي وروحه متعلقة بسيارتي وأموالي و عيناه تلتهمان الشابات الجميلات في الشارع والعمل؟ رأيت ذلك بنفسي، لاأمان لهم جميعاً، كلهم هكذا..

ـ لاتحكمي على الجميع، من الخطأ أن تعمّمي

ـ ميادة، أنت لاتعرفين مايجري خارج سور حديقتك وعالمك المثالي المغلق، المجتمع إنقلب رأساً على عقب، لاأمل في شيء، أنت تعيشين في عالم بعيد عن الواقع المرذول...

ـ أخشى عليك من وحدة آخر العمر..

ـ أنتم المتزوجون ستعيشــون الوحدة ذاتها وســيهجركم الأبناء، الدنيا تغيرت يا أختي، كوني واقعية، الحياة ليســت كما تتوهمونها بل كما أراها كل يوم ؛ فأنا على تماس مباشــر مع الناس، أنتم تعيشون في زمن غارب، افتحي عينيك، إحمي إبنك وإبنتك من مثاليتكم..

ـ ألم تحبي رجلاً ذات يوم؟

ـ بلى أحببت.

ـ أما أحسســتِ يوما بحاجة روحك وجســدك لرجل يشــاركك اللقمة والنوم والأمل ويمنحك الأمان؟

ـ أحسست وماوجدت من يمنحني الأمان والأمل..

ـ جرّبي ياهناء، جربي، أخشى عليك من يباس الروح،،، أنت صغيرتي أختي الوحيدة، أنت لم تحبي لأنك عاجزة عن المنح.

ـ هل تريدين أن أنتهي إلى حال مزرية وأنتحر كأختي مديحة؟

ـ دعي مديحة في ملكوت الأموات، لاتذكريها بسوء..

مديحة

يقول المعبد: الجسد خطيئة، يقول المعلم: الجسد آلة، تقول الإعلانات: الجسد مشروع تجاري، يقول الجسد: أنا مهرجان

إدواردو غاليانو

وحدها مديحة كانت تعرف أن جسدها مهرجان حياة مشرقة، مديحة هي التي قالت **« أن في أعماق الجسد بئراً وفي البئر معبد وفي المعبد مصباح وعندما يضاء المصباح بالحب يضاء الجسد وينير كل ماحوله حتى الظلال السود تغدو شفافة متراقصة، هذا هو سحر الحب..»**

سرت النميمة بين زميلاتها المدرّسات بأنها ممسوسة وبها شئ من جنون، مديحة الجميلة التي عيناها مصيدة للعشاق، جسدها الأبيض الممتليء مشتهى الرجال وموضع حسد النساء، لاحقها رجال كثر، وخطبها عُزّاب ومتزوّجون من أثرياء مابعد ٢٠٠٣ الذين نبتوا بغتة في أرض الإحتلال السبخة الزلقة وتضخمت ثرواتهم بعملهم مع القوات الأمريكية والمتنفذين في الأحزاب الحاكمة، لكنّ مديحة أحبت رجلاً واحداً حباً جامحاً بلا تبصّر ومنحته كلّ شيء..

الجَدّة، الحاجة مديحة: تلك المرأة الجميلة التي ورثت مديحة إسمها،

كانت خبيرة بأمور النســاء والحياة، تعرف ســرّ الجسد وهمهمات الأنثى، كانت مثل نســاء البراري اللائي عرفن الفصول والمواسم وتحولات الزمن وتبدلات الطبيعة وخبرن حياة النباتات وعرفن أسماءها ؛ فكانت تخصّص فــي مزرعــة ملحقة بالبيت أحواضاً لأعشــاب الطعام: هنــا البصل والثوم، هناك البقدونس والفجل والرشّاد والكرفس، هناك البزرنكوش والنعناع، هنــاك الكزبرة والزعتر،،، إزدهر حقلها على امتداد الفصول، كانت تدرك بمعرفتها البدائية أنّ الفصول عديدة ولكل فصل نباته الذي يناسبه وتقول لحفيداتها ميادة وهناء وصغراهنّ مديحة:

ـ حياة المرأة مثل فصول العام، لاتُبالينَ بمن يقول أن فصول حياتكن ثلاثة فقط: طفلة نضرة وعروساً شابة وعجوزا محطمة، لاتستسلمْ إحداكن لهذه الأفكار الخادعة عن حياة النساء..

وتسألها ميادة: جدتي، وماهي فصول حياة المرأة؟

ـ هناك عشرات الفصول لحياتنا نحن النساء ـ فصل البذار ونمو الزرع وفصل الحصاد، لنا فصل العشق والزواج، ولنا فصل العاصفة في الخصام والرعد حين الغضب والبرق والمطر عندما نلوذ بالبكاء، حين نلد ونصرخ ألمــاً يتم الحصــاد، هناك فصل الغبــار والرمل والســراب عندما ينصرف الرجــل عن إحدانا أو تنفر إمرأة من رجلها لســبب أو لآخر، وبين كل هذه الفصــول لدينا موســم الورد والعطور وموســم التفاح والتيــن والرمان وهو موســم المُتع، وفصل شــتاء الروح حين لانجيد ســوى الحزن والانكفاء. أنظري إلى أختك الصغيرة مديحة، إنها لا تعيش سوى شتاء عمرها..

ـ جدتي، مديحة مريضة، لا لوم عليها..

ـ أعلـم إنها مريضة بعشـق مميـت.. أتظنين أنني أجهـل حالها؟ هذا ميراث عتيق في دماء عائلتنا..

تقول هناء وهي تسكب الشاي لجدّتها:

ـ أتعنين أن مرض العشق يحصل بالوراثة؟ أظنك مخطئة ياجدتي، فها أنا أمامك لم ينتقل إلي داء العشق..

ـ أنت لا تفهمين شـيئاً ياهناء، مات رجل وامرأتان من عائلتنا بمرض العشق..

ـ لم أسمع ولم أقرأ عن شيء كهذا جدتي، العشق لايورث أبداً..

تصحّح ميادة: تعني جدتي أن لدى عائلتنا القابلية على الموت عشـقاً ـ الفناء في الحب المستحيل..

تردّ هناء بعنادها المشاكس:

ـ حتى لو انتقل إليّ مرض هذه العائلة، فلن أستسـلم للموت، سـأبقى متشبثة بالحياة، لاشئ يستحق الموت من أجله..

تحتسي الجدة شايها برشفات قصار، وتضحك ضحكة العارف الساخر من جهل الآخرين، تهزّ يدها وتقول بصوت هاديء واثق:

ـ كنـا فـي زمننا نقول أن دق الوشـم على ملتقى عظـام حوض المرأة يخفّف من وجع العشق ويهديء الجسد، ولكني لم أفعل ؛ فقد كنت أحب جدّكن حباً ما أردت له أن يهدأ..

تضحك هناء وميادة ضحكة استخفاف وتقول ميادة:

ـ وهل تنوين وشم ظهر مديحة ياجدتي؟

ـ قلت لها ذلك ورفضت، للوشم أثر سحري على أجسادنا وحياتنا، أنظري ميادة، أترين هذا الوشم على يدي اليمنى؟

ـ نعم أراه، ماهو؟ الرسم غير واضح..

ـ هذا وشم طير، وشمت على يدي طيراً لأن جدّك أحب ذلك كما أحب وشم ساقيّ، الطير هو شهوة المرأة،، أنتنّ نساء هذا الزمن لاتفعلن شيئاً من أجل المحبة، تتركن الأمور تجري على رُسلِها ثم تشتكين من انصراف الرجل عن إحداكن..

تنظر هناء إلى ضفائر جدتها التي لوّنها خضاب الحناء وهي تنسدل تحت منديل الرأس الأسود الذي له أهداب حرير وتزينه وريقات خوخ ذهبية رقيقة تتداخل بين الأهداب..

تسألها هناء: جدتي، لمن ستعطين هذه الأوراق الذهبية، قولي صدقاً من تُحبين من حفيداتك؟ أنا أم ميادة أم مديحة؟

ـ سأوزعها بينكن، لكل واحدة سبع أوراق ذهبية.

تضحك هناء وتقول: حسناً، خلتكِ ستهبينها لمديحة لأنها الأثيرة لديك..

ـ ثلاثتكنّ حبيباتي، لكنني رعيت مديحة بعد وفاة أمك فصارت أقربكنّ إلى قلبي، هل تغارين من محبتي لها؟

ـ أبداً، جدتي، أبداً..

أحبت مديحة رجلاً حباً لا يشبه الحب، والرجل نال منها متعته المكللة بالوعود الحاذقة وعبارات الهيام، لم تصدق مديحة أن الحب هشٌّ وقابل للإنتهاك على هذا النحو المشين، لم تصدق أن معظم الرجال لايعرفون فكرة التوحيد في الحب، لم تصدق أبداً، فتهاوت مثل نخلة قصفتها العاصفة، واستسلمت للصمت غارقة في كآبة سوداء..

قالت مديحة لجدتها وأختها ميادة:

- لن أدع رجلاً سواه يلمسني، جسدي وروحي خُلِقا من أجله..

وماذا يعني أن لا أتزوج؟ لارجل يستحقني إلا هو..

لم يَعُد المحبوب الذي عشق مديحة وعشقته، غاب واختفى بغتة ولم تسمع عنه ولم تشأ أن تسأل أخته، سمعت أن الرجل تزوج إمرأة مطلقة عادت إلى البلاد بعد غربة وكسبت ثروة كبيرة خلال أربع سنوات من عملها مع الأمريكان ومنظمات المجتمع المدني، وقع (نشوان) تحت سحرها أو سحر المال بالأحرى، كانت تعيش في بلد أوروبي وعادت للعراق مع من عادوا بعد ٢٠٠٣ وصارت تملك شقة في عمان وأخرى في لندن وثالثة في دبي و قصراً مطلاً على دجلة له شرفات مفضّضة بمرايا وأعمدة تتسلقها أشجار الجهنّميات والمرجان الوردي، ولديها خادمة أثيوبية ووصيفة من جورجيا وحرّاس مستأجرون من شركة أمنية، ولديها عمارات في شارع السعدون، وعقارات في الكرادة وأسهم كبيرة في أحد البنوك الأهلية...

كانت مديحة تضحك من كل هذه الأقاويل، سخرت من هذر النساء حين علمت أن المرأة لم تكن ذات جمال، وأنها ذات شعر أجعد وتستخدم الشعر المستعار وقد خضعت لعمليات تجميل لأنفها وملأت خديها

الغائريـن ونفخت شـفتيها وشـفطت دهون بطنها، لم تنجـب من زوجيها السـابقين، حملت مـرة واحدة وولدت ولادة قيصرية ومـات المولود بعد ساعة..

قالت مديحة لنفسها: أعلم، نشوان لاحول له، و لم يقدِمْ على خيانتي، أعرف أن الذئبة خطفت روحه، وسوف أستعيده منها مهما كان الثمن، أنا وحدي من سيسـتعيده منها، لاالحياة ولا الموت قادران على ذلك، سوف يأتيني في الليل عندما يهجع الجميع، سوف أستعيده...

أقنعتها إحدى صديقاتها بالذهاب إلى إمرأة مشـعوذة تفعل الأعاجيب بسـحرها، قالـت أن لهـا باعاً فـي معرفة أسـرار الرجال والنسـاء وتوجيه مصائرهـم، أزاحت مديحـة كل عقلانيتها وعلمها وذهبت إلى السـاحرة، أعطتهـا تعليمـات مضحكة: إصنعي دمية من الخرق تشـبه الرجل وقومي بغرز الأبر والدبابيس في الدمية ثم احرقيها، بعد ذلك إصهري حجر الشب وصبّيه على طبق فيتشكل منه جسم رجل وجسم إمرأة، واصلي صب الشب المصهور حتى تتشوه الأشكال وتختفي ملامحها الإنسانية...

فعلت مديحة كل هذه الترهات التي علمتها إياها المشـعوذة، وخجلت من نفسها وبكت:

ـ أهكذا أرتدُّ إلى ممارسة التفاهات من أجله؟

مديحة هـي التي قالت « **أن في أعماق الجسد بئراً وفي البئر معبد وفي المعبد مصباح وعندما يضاء المصباح بالحب يضاء الجسد وينير كل ماحوله** «، قالت أنها قرأت هذه العبارة في كتاب وعدّتها آية ودليلاً يهديها إلى سـبل السـعادة في الحب...

لـم يتقـدم أحد ليضـيء مصباحها المطفـأ، خاب رجاء الـروح، ومع خيبـة الرجاء بدأ جلدها الناصع الجميل يذوي، يتغضن، يجف، مصباحها لـم يضئـه حبّ الرجل، جفـت البئر، المعبد تهاوى فـي الأعماق وتحطم المصباح...

حالما يضاء المصباح بالحب ستحدث المعجزة ـ هكذا قالت مديحة العاشقة التي كانت تشعُّ طوال الليل والنهار وتنير كل ماتلمسه يداها، ولأن مصباحها تحطم في الأعمـاق جفّت يداها وانطفأ وهجها ونتأت عظامها وهزل جسـدها الأبيـض الجميل، ولأن الرجل خدعها وهرب إلى سـواها كان لابد أن تفعل شيئاً، أي شيء ؛ فلاذت أول الأمر بالمرض..

بـدأت قواهـا تخونها، أخـذت تهلوس وتبكي وترى أشـباحاً، تسـمع أصواتـاً، تنتابها نوبات ذعر وهلـع، تصمت طوال أيام وتمتنع عن الطعام، لم تنفع المهدئات والحبوب المنومة، تعاطت الأتيفان والستيلازين ولكن انهيارها كان محتماً، كانت تقول: قلبي ينبؤني أن المرأة سـحرته وأفقدته الصـواب، سـأذهب إليه ـ لـم تقل لهم ذلك لكنها فكـرت به، لم تفصح عن نية رحيلها لكنها عزمت على المضيّ، قالت لنفسـها: سـوف أسـتعيد مصباحي المطفأ وأشعل جذوته فيصير جسدي مهرجاناً..

كانت تسـمع أصواتاً في الليل: يسـتيقظ الصوت في أعماقها كوحش شمسـي يضيء الجسد حتى ليكاد يشـتعل، يقول الصوت بصوتها العذب المبهم:

ـ إسـمعيني، أنصتي إلي، أنا حقيقتـك،ماينبغي أن يحدث قد حدث لكن أنصتي لي، أنت بدوني لستِ شيئاً، أنت بدوني لا أحد، أنا صوتك..

جسـد مديحـة يبوح بلغتـه البدائية، كانـت الرغبة تتوهـج من رائحته

مِشْكاً، يتورّد لون جلده ألقا، يتسع مداه ويصير بلا حد ثم لا يلبث أن ينطفيء كومة رماد..

قيمة الجسد أن يكون بلا حد ـ هكذا كانت تفكر، بلا حد حين يستغرقه الشجن أو العشق، بلا حد حين يمتصّ وهج النجوم، وبلا حدّ يكون حين تعبره خفقات الماء في بئر سحيق..

إرتدت مديحة ثياب حداد: ثوباً أسود وحذاء أسود ومعطفاً أسود وربطت شعرها الجميل بوشاح حريري أسود، ذهبت مديحة إلى القصر الذي وصفوه لها، كان باب الحديقة مواربا فتسللت وكمنت تحت إحدى النوافذ حين غاب الحارس برهة زمن، إختبأت في عتمة الظل المسائي تحت عريشة ياسمين ونظرت إلى صالة القصر الواسعة المضاءة بثريات عملاقة، رأته يراقص المرأة ثم يدعها ترقص وحدها، كانت الساحرة شبه عارية ترتدي صُداراً قصيراً كالهنديات يظهر بعضاً من ثدييها المحشوين بالسليكون، ويبرز من تحته جزءٌ من بطنها وسُرّتها وتحت الصدار تنورة طويلة من طبقات الشيفون، بدا بطنها كامداً وبه ندبة عريضة كجُرحٍ ممتد من جنب إلى آخر من أثر عملية قيصرية، رأت نشوان يمسكُ يدَ المرأة ويقبلها، ثم يركع تحت قدميها فتضع قدمها على كتفه وتضحك، يلامسُ ندبتها بأنفه ويمرّر وجهه على بطنها، تدفعه عنها وترقص قافزة حتى تطير تنورتها الملونة ويظهر ساقاها، سمعته يهمس لها:

ـ أنت مالكة حياتي، أنت أجمل إمرأة، أحبك، أحبُّ كل ما أنت عليه..

صعقت مديحة:

ـ آه يا إلهي، إنها الكلمات ذاتها التي كان يقولها لي..

تغيب المرأة برهة في غرفة وتظهر وصيفتها الشقراء تسير بخطوات غنجة حاملة كأسين مترَعين شراباً بلون الياقوت، تضع الكأسين أمامه فيمسك بذراعها، تتمنّع ثم تضحك ضحكة خافتة وتمطره بنظرة شهوانية وتضع يدها على رأسه..

ـ أنت أجمل نساء الكون، أنت سيدة هذا العالم وسيدتي، الجميع هنا في خدمتك أنا وهي والحراس والخدم والأموال، تعالي أنت معشوقتي، أنت حبيبة نشوان الوحيدة..

الكلمات ذاتها كان يشعلها بها حين يلتقيان....

كان الباب لايزال مُوارباً، هبط الليل وغمر الشجر والممرات بالعتمة، كان نهر دجلة وديعاً هادئا صابراً من ألف ألف عام، سارت عبر المتنزه وبين أشجار السّدر والأرجوان ونزلت إلى الشاطيء الرملي ثم هبطت إلى عمق النهر، أخذها النهر بحنان إلى أعماق معبده المائي، سمعت ترنيمة قديمة تتعالى من المعبد المائي حيث أعشاب النهر وبيوض السمك والسلاحف الصغيرة والقواقع،،، حيث جذور نبات القصب تتكاثر وتنسج حصيرة خضراء صفراء تحت الماء، أخذها النهر بفيض من الحنان وأضافها إلى رواق ضيوفه القدامى من الغرقى والمنتحرين والقتلى المغدورين، رحّب بجسدها الناحل الخفيف واحتضنها بنعومة دفقه، كانت قد لبست معطفاً ثقيلاً من الصوف الأسود ؛ فالوقت منتصف شباط، لم تضع في جيوبها ثقلا ؛ فالماء هنا سخي ويرحب بالزائرين الراحلين، قرأت أن المنتحرين في النهر يضعون أثقالاً في جيوبهم ليضمنوا سرعة الهبوط إلى ملكوت الأعماق، كانت تقرأ الروايات باللغة الإنكليزية وتحبّ فيرجينيا وولف ـ التي انتحرت في النهر ـ وتحبّ روايتها (مسز دالاواي) ورواية

(الأمواج)، كانت تحب روايــة (الثعلب) لِـ (ديفيد هيربرت لورنس)، لم تلبـس المعطف مذ تخرجت في الجامعــة، كلا، إرتدته مرة واحدة عندما سافرت إلى منتجع الحبانية في الشتاء مع صديقاتها، كان شقيق صديقتها نشــوان قد ســبقهنّ وحجز لهن شــاليها مطلاً على البحيرة، وعندما عادت من هناك كان جســدها يشــع وجلدها يتوهج وعيناها مســكونتان بوميض غريب ـ حتى معطفها الأســود بدا مرحاً وخفيفاً وكأنه ثوب عرس، بهذا المعطف ذاته تقابلت هي ونشــوان أول مرة في الحبانية وبه زفّت نفســها للنهــر،،، ولأنها لم تكن لتضحّي بالمعبد وتلــوث البئر وتطفيء المصباح بلمسة رجل لاتحبه تزوّجت النهر، ولأنها آمنت بأنّ الموت وجهٌ من وجوه الحب تزوّجت الماء، شاءت أن لاينضب البئر، تزوّجت النهر، زفّت نفسها للموج وعتمة الأعماق، وكانت بغداد ليلتها قد طوقتها سحب الإنفجارات الســوداء كأنها مملكة من الغربان تجتاح الأفق وتحتضن بسوادها المدينة الجريحة...

حنان

كلّ مـا حـول ميادة يحظـى بحنانهـا: إبنتها وإبنهـا وزوجها وجدران البيت والستائر الشـفافة والأكواب الخزفية الجميلة والباب وجذور نبات البنفسـج وسـعف النخلة الصغيرة وعناقيـد نبات الهيل وزهـور الإيبوميا وزهور العسـل، كل مايوجع أسـرتها تردُّ عليه ببذل العزاء وتخفيف الوجع بالكلمـات والعناق، بالهبات الصغيرة، بإعداد كعكة أو حلوى، بالسـؤال اليومـي في أقل تقدير لكنها لم تفعل شـيئا لمديحـة، لم تمنحها مايكفي من الحنان والتفهم لترسـم مصيرها بتروٍ، لم يسـاعد أحد مديحة، عدّوها مجنونة فقدت رشـدها، تناسـوا أنها عاشـقة من طراز لـم يألفوه في زمن الموت والكراهية، أحبت في الزمن الممسـوخ، لم يساندها أخ ولاأخت، أسـلمت مصيرها للعدم، مضت إليه بكل تأريخ النسـاء، رسمت مصيرهن علـى موج دجلة ومحته في اللحظة ذاتهـا، تذكر ميادة أنهم وجدوا جثتها طافية بعد أن أبلغوا عن اختفائها، كانت مشوهة تلتف عليها أعشاب النهر والأسماك الصغيرة والطحالب، بكتها طوال شهور، بكت الجمال المهدور ومصير الجسد الفاتن، بكتها ولم تنسها، وكلما نظرت الى النهر تراءت لها جثتها المنتفخة ووجهها المشوه..

تزيـح السـتائر، تفتـح النوافذ، تسـتدعي نسـمات الخريـف الطازجة المحملة بعبير الياسـمين، و سـرعان مايكدّر النسـائمَ غبارُ بغداد ورائحة الحرائق، تهبّ النسـائم والأصوات معاً، تتسـلق روحها و تنعشها فترتعش

وتخاف، يسـري سـلك حارق مـن اللوعة فـي لحمها، فـي عظامها، في أحشائها، تخفق على وجهها نسمات متسارعة محملة بأريج زهور الخريف ومختلطة بزقزقة العصافير وهديل الحمام، تنتشـي للحظة وتستسـلم لبهجة صغيرة فتخاف على عادة الأمهات اللائي يستغربن مرور النشوة العابرة في أجسادهن، فهن منذورات للدموع ومنح الحنو والعزاء، تفكر ملياً بحياتها، ما حياتها؟ حياتها يشـكلها هذا الثالوث الحبيـب: الإبن والإبنة والزوج، وهـي مكبلة إليهم بخيوط مـن حرير الحنان والـولاء والمحبة والواجب، ماالحياة غير هذا؟

البـلاد تتضـاءل وتتهاوى وهي تتحول إلى إمرأة مسـنة إبيضّ شـعرها وتكدس الشـحم في أعطافها وجاءت إبنتها لتؤنبها على إهمالها لمظهرها على هذا النحو المنذر باليأس..

الناس تموت كل يوم لا بالموت الناعم المتسـلل خفية إلى أجسـادهم الشـائخة، ولا بالموت الناجم عن التقدم في العمر ؛ بل بالموت الشـقي الدموي القاسي ـ موت يهبُّ من سيارة مدججة بالمتفجرات أو من حزام ناسـف أو عبوة متفجرة، وأحياناً بصواريخ كاتيوشا يتبادل إطلاقها مسلحو الأحزاب الحاكمة لتسقط على رؤوس الناس وتشعل الحرائق في البيوت..

ـ أنـا لاأفكـر بموتـي الشـخصي ؛ فكلنا سـنموت في الأخيـر، أفكر بالمـوت الـذي يتفتح كالورود السـامة في الشـوارع والأسـواق، الموت الذي اختطف ولدي، أفكر بالإنسـان الذي بخسـوه كرامتـه وحوّلوه إلى كائـن لايفكر إلا بإشـباع الغرائز وإدامة الحياة في أحط أشـكالها، أفكر بزوجـي المريض، بإبنتي المهاجرة العائدة، بإبني الذي سـيتكفل برعاية زوجة مريضة تلاحقها الكوابيس وحالات الإغماء، أفكر بمدينة يسـكنها

ثمانية ملايين إنسان وتعيش بلا خدمات ولا حماية، أفكر بالعصابات التي تخطف الأبناء والأزواج والبنات، ماذا أفعل لو خطفوا إبني وطلبوا فدية لانملكها؟ ماذا لو اختطفوا نهى ثانية؟ سيغتصبونها، سيقتلونها، يا إلهي، لماذا طلبنا منها العودة في هذه الأوضاع المروعة؟ كانت هناء على حق في هذا، لماذا لم ندعها هناك بسلام؟ يا لأنانية الآباء، لماذا أتيت يانهى؟ ماجدوى كل ذلك ياجابر: أن تعيد نهى كتابة تأريخ أسرتك التي أنكرتك؟

تمايلت أشجار الحديقة في الريح التي اشتدت سرعتها، راقصت الريح الشجيرات الصغيرة وحاجز نبات الآس، تساقطت أوراق شجرة المشمش وشجرة التفاح على المرج المجزوز، سُمِعت أصوات انفجارات بعيدة، تكررت الأصوات، النهار في أوله والإنفجارات تتوالى، كم من الضحايا سيموت في زحمة الصباح؟ عشر سنوات من الخراب الذي أجهز على ماتبقى من الحروب السابقة، قلت لوليد: خذ عروسك وهاجر، إذهب بعيداً، أريدك حياً يا ولدي، إذهب إلى أي بلد، لاتقل شيئاً، خذ سميراميس وارحلا بعيداً، لاتفكر بنا، نحن عشنا حياتنا جيداً، الفناء هنا يأكل الأرواح والضمائر والقلوب، يأكل الأجساد الفتية، الفناء وباء يتسلل إلى أرواح الناس يأساً وتأسياً وندماً وحرماناً، فليتزوج أخي المسكين سليم وليفرح قلبه ـ هو الذي اعتنى بأخوته حتى تخرجوا جميعاً وتزوّجوا وهاجر بعضهم، فليفرح، سأقول له عد إلى أربيل وتزوج، لاتنتظرنا، لاتبقَ في بغداد، عُد إلى عملك التجاري هناك وتزوج بسرعة، الحياة لاتنتظر أحداً، عِش سنواتك الباقيات كما تحب، وسأعيش أيامي مع جابر الذي أحب، أتذكر عندما خطبني جابر وكنت ماأزال في سنتي الدراسية الأخيرة في كلية الهندسة، قال سليم حينها:

ـ هذا الرجل يليق بأختي الجميلة

نعم كان جابر وسيماً وحنوناً وعاشقاً، كانت حياتنا ساحرة وممتعة، سافرنا إلى تركيا في شهر العسل، أتذكر أصابعه المرهفة تلمس عنقي وصدري، كان مفتوناً بي، كنت جميلة، نعم جميلة جداً، كان يعشق وجهي وضحكتي، آه،،، أتذكر تلك الأوقات فيرتجف جسدي كله، جفاف أيامنا الحالية يبدو مثل عقاب جماعي، الحياة تجفُّ في عروق الرجال والنساء، ماعاد هناك حبٌ وتفانٍ بل مطامع وجشع كما تقول هناء...

لم أسمع من قبل بمدينة تتآكل وتنحدر بأناسها وقيمها مثل بغداد، لم أسمع عن مدينة تتحول إلى غبار وجحيم، الحرّ بات يخيّم حتى شهر تشرين الثاني، كنا مثل شواء منذور لآلهة دموية كما يقول جابر ـ الأرصفة ميتة والمباني متجهّمة مهجورة تحفل بإعلانات قبيحة وصور لأشخاص عابسين بلحى وعمائم، الشارع مزحوم بسيارات زاعقة ووجوه السائقين عكرة عابسة..

سرنا أنا ونهى إلى الشارع العام واستأجرنا سيارة أجرة إلى الكرادة لزيارة سميراميس في بيت خالها، سمعنا شتائم وكلاماً بذيئاً من العابرين لأن ابنتي بلا حجاب، الأرصفة مقابر للروح، الشارع للإنتقام، مسرحٌ لإستعراض السلاح وإظهار القوة المتوحشة، سيارات المسؤولين تمّر في مواكب من السيارات المظللة وحولها سيارات الحماية المسلحة. سبَقَنا وليد إلى بيت خال سميراميس، كانت عروسنا الجميلة تعدُّ الشاي على السماور وقد إرتدت فستاناً أنيقاً بلون زهري أضفى على وجهها نضارة وبهاء، عانقتنا وارتبكتْ وأدركتُ أنها تعاني من حيرة إزاء أمر ما،

أظهـرت احتفاءا مرحاً بنا، جاءت بأطباق المعجنات والكعك وسـكبت الشاي في الإستكانات المنقوشة بزخارف ذهبية وقدمتها لنا..

جلـس خالها وزوجته متخفِّفين من الهموم وفرِحَيْن لأنهما سـيغادران قريبـاً إلى تركيا ومن هناك يقدمان طلب لجوء إلى الأمم المتحدة وأملهما كبير بقبول لجوئهما إلى بلد أوربي لأنهما مسيحيان تعرّضا للتهديد وانتزاع بعض أملاكهما قسراً..

قال وليد لخال خطيبته:

ـ لسـميراميس الحريـة في عقيدتها، وأنا أعدُّ هذا أمراً شـكلياً، المهمّ فـي الأمر أننا نحبّ بعضنا ونقبل أحدنا الآخر بما نحن عليه وكما هو في حقيقته، وأهلي يحبونها كما أحبها ؛ فلا تخش شيئاً، وستكون سميراميس درة منزلنـا وموقعهـا فـي قلوبنا وكلنا سـنعتني بها ونحـرص على راحتها وسعادتها.

علقت سـميراميس: قبل كل شـيء ووليد يعرف الأمر، أريد أن تعرفوا شيئاً قبل فوات الأوان: ساحتفظ بنمير إبن أخي المرحوم ؛ فهو كل ماتبقى لي من عائلتي، وشرط زواجي من وليد أن نربي الصغير معاً..

قال وليد: أعتبرُ هذا الصغير هبةً من السماء طالما أن سميراميس أقرب أقربائه ولاتحق حضانته لسواها...

قالت الأم: إبني وليد، لكن سميراميس تحتاج إلى من يعتني بها..

ـ أمـي، دعي الموضوع بيني وبينها، لايمكن أن تترك الطفل في دور الأيتام، وخالها وزوجته سيسافران..

إنتهـت الزيارة التي خيّم عليها الوجـوم وأثقلت عليها الحقائق الصادمة: على العروس أن تعتني باليتيم الصغير...

إجتمعت العائلة عشـية ذلك اليوم، كانت الأم مبتئسـة ؛ فما هكذا أرادت حياة إبنها، ولكي تخفف من حيرتها وموقفها المرتبك قالت له:

ـ كنت أفكر أن تسافرا معاً لتبتعد سميراميس عن مكان الكارثة وذكرياتها المؤلمة.

ـ ماما سنفكر بأمر الهجرة لاحقاً، لابد من حل المشكلات المتعلقة بأهل سميراميس.

قـال جابر: قصة وليد وسـميراميس تتعقد كل يوم، الفتاة مريضة وبحاجة إلى علاج، فكيف ستقوى على العناية بالطفل الرضيع؟

ـ إذا كان الأمر متعلقاً بسعادة وليد، فماذا نفعل؟

ردّ الأب: ألن تتوظف سـميراميس؟ كيف سيعيشان براتب وليد الضئيل؟ أتراهمـا يفكـران بالعيش معنا؟ يبدو أن الأمر في غايـة التعقيد: وجود طفل صغير في بيتنا، الأمر في غاية الصعوبة ياميادة..

إقترحت نهى أن يتزوجا أولاً ويقدما طلباً لتبني إبن أخيها

ـ هل تملك سميراميس الوثائق الرسمية الخاصة بالطفل؟

قال وليد: نعم لديها جميع أوراق العائلة

ـ إبنـي وليد نحن جميعا مهدّدون، كنت أتمنى أن تسـافرا بأسـرع وقت أنت وعروسك وقد فاجأني موضوع الطفل، كنت أظن أن خالها سيتكفل به..

ـ أمـي هـي أقرب الأقارب للطفـل ومن غير المعقـول أن تتخلى عنه لخالها وهو كل ماتبقى لها من أهلها..

ـ ولكن ماذنبك أنت؟ وماذنبنا نحن؟

ـ لن أتخلى عن سميراميس..

قالت نهى: ومن قال لك أن تتخلى عنها، لابد من دراسة الموضوع من جوانبه كلها، كيف ستعيشان؟ وأين ستعيشان؟

ـ ستعرض سـميراميس بيت أهلها للإيجار وهذا مـورد معقول يتفوق علـى أي راتـب قد تجنيه من وظيفة، وسـنعيش معكم هنـا ؛ ففي البيت متسع لنا..

صمـت الجميع، كانت الفكرة بمجملهـا صدمة لجابر وزوجته و نهى ؛ فهذا نذير باختلال نظام حياتهم المعتاد.

قالت الأم: إبني وليد، أخرج من مسـتوطنة الموت، ستجد في الخارج من يعالجها ويعتني بها وينسيها فجيعتها، الحب وحده لايكفي ولا الحنان ولاالتضامن العائلي الذي نحيطها به، أناْ أم وأعرف كم سـتعاني في تربية الصغير، كنت أرى عينيها الذابلتين ونظراتها التائهة وحركاتها غير المتسقة وتحولات مزاجها المفاجئة وانقباض ملامحها، إنها في حالة غير سـوية، ألم تلاحظ إهمالها المتعمد لمظهرها فتبدو يوما بشـعرها المشوش وثيابها المدعوكة وكأنها نزيلة مصح نسيها أهلها هناك؟ قال خالها إنها تمر بنوبات بـكاء وحزن ولاتتكلـم، وفي اليوم التالي تبالغ فـي التأنق والزينة والمرح وتبدو عروسـاً جميلة تنشـر البهجـة والفرح حولها، أنا فخـورة بك لأنك لـم تخذلها، فخورة بك إلى حد التباهي بإنسـانيتك، ولكن كم سـتتحمل

موضوع الطفل؟ هل سيدوم الحب ويقاوم؟ ألن تزهد في الغد من دور الممرض والمربي وتحّن إلى دور العاشق والزوج المدلل؟

ـ أبداً، ثقي يا أمي، أبداً..

فكّرت الأم: سيحطمه الأمر، سنكون في دوامة لانهائية من الحزن والقلق الذي نتقاسمه كالرغيف، أخشى عليه من هواجسي، أنا أم لها حدسها الذي لايخيب، أم لها رؤاها ونبؤات القلب، قلبي زجاج شفاف يمكنني من رؤية الغد، في التسعينيات من القرن الماضي قلت لجابر: العراق يتآكل، أخاف من المشهد الذي يتكرر في أحلامي، العراق يتبدد، كان ينظر إلى وجهي بحزن ويصمت، لايعلق، لا يريد أن يعمق إحساسي بالخراب الذي يفترسنا جميعاً، العراق مسروق بأكمله، لم يتبق للعراق سوى العتمة والغد المجهول، قلت له: نحن نعيش اليوم بدافع اليأس سواء في بغداد أو في البصرة أو في الناصرية أو كركوك، في كل المدن يتململ الناس من فرط اليأس، ينهضون محاولين تصحيح صورة العراق وتنظيفها من الوحل الذي أخفى ملامحها، فإذا بالصورة محض دم ورماد، لم يتبقّ أطباء إختصاصيون في العراق، أغتيل معظمهم وهاجر الباقون، لا أثق بالأطباء الشباب فلا خبرة لديهم بحالات معقدة كحالة سميراميس، لعلّ وليد يجد من يُشفيها خارج البلاد...

قالت له بحزم:

ـ هاجرا معاً، خذها بعيداً لتنجوا من هذه المجزرة، ربتا موضوع تبني الطفل وغادرا..

قال وليد: وكيف أدعك ووالدي؟

ـ أنا ووالدك إتفقنا على موضوع هجرتك، حسبنا ماقدّمنا من أضحيات بلا قضية، قدمنا الكثير لبلد يفترسـنا كل لحظة، ألم يُقتَل أخوك؟ إذهب، إبـق بعيداً لتنجو، ألـم يُختطف إبنُ خالك ويقتل؟ ألم تغتل الميليشـيات قريبنـا الدكتور حسـين؟ ألم تتعرض نهـى قبل أعـوام لمحاولة اختطاف ونجت بمعجزة؟

ـ سميراميس ترفض فكرة المغادرة، أخشى الضغط عليها...

ـ ستقتنع يوماً ما، وحالما يحصل ذلك إرحلا دون تردد..

متاهات متقاطعة

تبقى الدلالة بالفعل الجلي ودفع الظواهر بالبواطن إذا اجتمعت لدينا الشواهد والدلائل وأذهلنا المقصود عن كل ماسواه...

الشيخ قيدار ـ سيدات زحل

تسأل نهى والدتها:

ـ ماما، هل حقاً لم تغضبا مني أنت وأبي بسبب زواجي الفاشل في غرينوبل؟

ـ لم يكن غضباً، إنما صُدِمنا بالأمر ولازمنا الحزن لأيام طويلة، أنت إنسانة سوية وعيبُكِ أنك تمنحين الثقة للجميع وترين البشر أسوياء على شاكلتك وهنا تكمن المعضلة. كان عليك أن تعرفي أمراً أساسياً غاب عنك: إن اختلاف البيئات والتربية والثقافة تحدِثُ هذه التصادمات، بعض الأشخاص لا يكون جديراً بالثقة ولايقدرها أساساً ؛ فهو يظهر غير ما يبطن، الزيجات الفاشلة وعلاقات الحب المحبطة تحدث كل يوم في زمننا وظروفنا الملتبسة، فلنحاول أن ننسى، إتجهي بأنظارك إلى الأمام ولاتلتفتي أبداً، إنسي من هو جدير بالنسيان، إفعلي كما فعلت حياة البابلي...

ـ ماذا فعلت حياة؟ هل التقيتِها قريباً؟

ـ نعم زارتنا في المستشفى عندما أجرى والدك العملية وأحضرت معها باقة ورد

ـ وما أخبارها؟ وأخبار عمها الشيخ قيدار؟ بل مالذي قالته لك؟

ـ تريد أن تراك، عرفَتْ أنك عدتِ من غرينوبل ودعتنا لزيارتها..

ظهيرة اليوم التالي كانت نهى ووالدتها تجلسان معاً إلى مائدة حياة البابلي، وكانت ضحكاتهن تعلو على صوت الموسيقى المنبعثة من غرامافون عتيق، وصلت (راوية) الشقراء الجميلة صديقة حياة وهي تحمل صينية المشويات ووضعتها أمام الضيفتين وعانقتهما:

قالت حياة:

ـ هذه المشويات هيأها لنا جاري وأخي الطيب حامد الأخرس أبو الطيور، أخبرته راوية أن لدي ضيوفاً من أعز الناس فكتب لي على ورقة: سأعدُّ لكم الغداء وأنت أحضري المقبلات والخبز..

قالت راوية: حياة أعز ماعندنا، هي أختنا وجارتنا وحبيبة الجميع ولانستطيع نسيان مواقفها معنا أيام الحرب الأهلية...

ردّت حياة: لولاكما ـ أنت وحامد ـ ماكنت لأعرف ما أفعل بحياتي في هذا الزمن الصعب..

قالت أم نهى وكأنها أحسّت بتقصيرها إزاء قريبتها حياة:

ـ تقطّعت بنا السبل بعد وفاة إبنة خالتي بهيجة والدة حياة، روت لي

حياة حين عادت إلى بغداد قصصهم جميعاً ـ الشيخ قيدار وحامد وهاني وإبنه سرمد..

تستدير نحو راوية وتسألها:

ـ هل مازال حامد يربي الطيور والطواويس والإوز؟

ـ نعم، عاد لسيرته الأولى، إختفى نحو ثلاث سنوات أثناء الحرب الأهلية وعاد إلى بغداد وصار يشتري الطيور من سوق الغَزِل كل جمعة حتى امتلأت حديقة البيت بأنواع الطيور من جديد..

ضحكت حياة: وأنا سأكمل القصة، عادت محبوبته راوية من محاولة لجوء فاشلة في السويد ولم يبدّدا فرصتهما الأخيرة بل تزوّجا بسرعة..

علَقت نهى: أجمل قصة حب. ترى ما أخبار العم الشيخ قيدار؟ قالت أمي أنك كنتِ معه قرب الدير في الجبل حيث يحتفظ بالمخطوطات الثمينة..

ـ نعم، كنت هناك، جمع عمي المزيد من المخطوطات عن بغداد كمجتمع وتأريخ وأمكنة وذاكرة، عمي مازال هناك و تشبث بي لأبقى معه، لكنني آثرتُ العودة إلى بيتي بعدما حصل..

ـ ماذا حصل؟

ـ ألم تخبرك والدتك؟

ـ قالت أمي ستروي لك حياة القصة كلها..

ـ عزيزتي، لايصيبك الحزن والهمّ لما حدث لك، طرازنا من النساء

والرجال لم يُخلق لهذا الزمن، حولنا أمة من الأقنعة وحشود من القتلة، علّمني عمي الشيخ قيدار أن أدع كل شيء خلف ظهري وأمضي قدماً، قال لي «**إن الرؤية التامة معدومة في التباس الحوادث ودخان التقاتل**» ؛ ففي بغداد يتشابه الجميع ليختلفوا أكثر ويقتل أحدهم الآخر، هم نتاج الكراهية والتحارب والدماء، وقد يقتلنا البعض قتلاً معنوياً بخداعه لنا، خلاصة قصتي ماقاله لي عمي بعد أن اكتشفت أكاذيب ناجي وطردته من حياتي.
قال عمي:

(... لاتأخذي كل قول على محمل الصدق ؛ فالألفاظ بها لبسٌ والمعاني بها اشتباه، وأنا مرتابٌ بكل حرف ومؤداه مما يدعيه غير العارفين بالحق...)

قالت نهى: يا إلهي، لماذا نحن؟ لماذا؟ كنت أخالك إمرأة سعيدة بالحب ولديها كل ماتتمناه النساء. كم لنا من تصورات جامحة مغلوطة..

ـ لسنا وحدنا، ثمة آلاف النساء هنا شبيهاتنا، وهذا لايعني أننا على صواب حتى لو كنا أغلبية، نحن مسؤولات عن سوء خياراتنا، بالغنا في تقدير الآخر الذي نحب ومنحناه الحق في خداعنا لأننا بوّأناه مكانة لايستحقها. سألت عمي الشيخ قيدار يوماً عندما راودتني الريبة بوعود ناجي: عمّاه، أيمكن أن نواصل الحب في جوهره الخالص لشخصياتهم التي تعلقنا بها قبل أن نكشف المخفيّ من أوزارهم؟

قال عمي: ذلك رهن لما يصلح لمحبّتنا إذا اجتمعت لدينا الشواهد والدلائل وأذهلنا المقصود عن كل ماسوانا..

ـ وما الذي حصل من ناجي؟

ـ أطلق وعوداً كثيرة ولم يفِ، ثم عرفت أنه عاد إلى العراق و فجعت

بأنه بات يعمل مع ميليشيا لها إستثمارات وشركات ومصالح كبيرة ؛ فكان هذا سقوطه المريع الذي استدعى القطيعة..

ـ وماذا فعلتِ؟

ـ حسمت الأمر بنفسي وكتبت له: إنتهى مابيننا ولكل منا طريقه وحياته التي تليق به، ولم أقل كلمة أخرى. تعرفونني أنا قوية وقادرة على اتخاذ أي موقف يحمي كرامتي مهما كانت قسوته..

ـ أنت شهدتِ كوارث لايتحمل وطأتها أقوى الرجال، وها أنت اليوم أمامي مشرقة وأنيقة وشجاعة.

ـ دقيقتان فقط، سأحضر إبريق الشاي..

عادت تحمل صينية عليها إبريق الشاي ووعاءالسكر، بينما قامت نهى بتهيئة أقداح الشاي على منضدة القهوة الواطئة التي تتوسط غرفة الجلوس..

انهمكت حياة بسكب الشاي وهي تبتسم، قدّمت كوب الشاي إلى السيدة ميادة واستدارت بطريقة رشيقة وسريعة إلى حيث تجلس نهى وقالت لها بصوت منضبط النبرات:

ـ لاتنخدعي كثيراً بالوهج الخارجي يانهى، صحيح أن كل مامررت به من فقدانات وخسائر أظهرَ لدي القوة التي لم أكن أعهدها في نفسي أبداً، لكن ماكنتُ هكذا من قبل يانهى، كسر روحي إعدام أخي ماجد واستشهاد أخي مهند وموت أبي وأمي بعدهما وطلاقي من حازم واختطاف سرمد أبن أخي هاني وعودته، وبالرغم من كل ذلك لم أستسلم للقنوط مع أنني كنت أتمزق في أعماقي، وبقيت أكابر وقاومت الوهن الذي أصاب

عزيمتـــي، وأجدني الآن قادرة على أن أحب رجلاً جديراً بالثقة إذا التقيته ذات مصادفة سـعيدة، وإذا وجدته حقاً فسـوف أختطفـه اختطافاً (تقول ذلك وتطلق ضحكة مرحة فيها ظل سخرية)

ـ ظننتك كرهت الرجال..

ـ الرجال ليسـوا جميعهم مثل ناجي، وليسـوا جميعاً مثل طليقك التافه الذي ابتزك، ينبغي أن لا نطلق أحكاما تعميمية جرّاء تجاربنا الفاشلة، بل نتعلـم منها كيف نختار لاحقاً، تغيّرت قيمي ونظرتي لكثير من المفاهيم، تغيـرته كثيراً، وكأنني لسـت تلك المرأة التي تعرفون، النفس الإنسـانية تتغيـر لأنها مرنة وقابلة للتطور، لسـنا فولاذاً ولاحجـراً، لابد أن نتغير وإلا تحوّلنا إلى أعمدة صماء.

قالـت نهى: أما عني فإنني أحاول، أحيانا أتوقف وأتراجع وأوجّه اللوم لنفسي لأنها تتوق إلى نسف العهود التي أطلقتها...

ـ لاتلزمـي نفسـك بقواعـد قاسـية، أما أنا فقد نسـفت أشـياء كثيرة، محـوت ذكريات، تجاوزت علاقة حب بـدت لي في حينها ـ كما يتوهم معظم المحبين ـ قصة عظيمة من زمن غير زمننا، إسـتبعدت بشراً كثيرين وصديقات ماكرات، غيّرتُ عادات كثيرة لدي، لابد أن ننسف أشياء كثيرة لنعاود بناء حياتنا من جديد.

ـ ليتني أستطيع. الأمر ليس بالبساطة التي تتحدثين عنها..

ـ نعـم نهـى، يتطلب الأمر بعض قسـوة مـع النفس وقدراً مـن أنانية مخففة، قدراً من نرجسية..

ـ أتقولين: أنانية؟

ـ نعـم، عندما تهِبين كل شـيء لمن هو غيـر جدير بك لابد أن تلتفتي بعدها إلى نفسك: تحبينها وتراعينها وتتفهمين نوازعها ـ نوع من نرجسية حميدة..

ـ أحتاج إلى زمن لأستوعب دروسك..

علّقت راوية: ألاترينني، إحتجت لثلاث سنوات كي أتعلم درس حياة، وعـدت إلى الشـخص الجديد بحبّـي، الرجل الذي أحبنـي أكثر من أي انسان في حياتي..

قالت أم نهى بغتة: كم نحن تواقون لرؤية الشيخ قيدار

ـ عمـي لـن يعود إلى بغـداد، وجد ملاذه مع صديقـه القس جبرائيل ولايمكنه أن يفرّط بصحبة عرفانية عثر عليها أخيراً. كلاهما مهتمان بجمع مخطوطات التراث العراقي وحفظها في أماكن سرية محمية، وأنا شخصياً أعمل معهما وأجمـع المخطوطات من بغداد وقد رصدت مبلغا من المال من بيع حصتي في بيت قديم لنا لهذا الغرض واستبقيتُ ما أعيش منه..

ـ كـم يحبه جابر ويلهـج بفضله ؛ فهو الذي كان أنيسـه ومصدر فرحه الروحي وكان يزوده بكتب العارفين وموسوعات التأريخ والعلوم..

ـ أعلم ذلك وكثيراً مايذكر الأسـتاذ جابـر الكتبخاني باعتزاز واحترام لموقفـه الحاسـم من أسـرة الكتبخانـي وتخبطاتهـا السياسـية ومطامعها ونفاقهـا، عمي في غاية السـعادة الآن فله مريـدون كثُرُ، وجد طريقه بعد فقدان زوجته فتنة، وهو لايصدر أحكاماً على الناس ولايتدخل في شؤون الآخرين، قد يعطي رأياً أو مشورة وليس أكثر من ذلك.

قالـت السـيدة ميادة: كنا نتمنى أن يبقى في بغـداد، نفتقده كثيراً وهو رجل لايعوّض فعلاً..

قالت حياة وكأنها تكمل مابدأته من حديث:

ـ نهى لاتراعي الآخرين كثيراً، كوني أنت ولاتكذبي على مشاعرك من أجل إرضاء الآخرين. إتبعي حدسك وقلبك وعقلك أيضاً.

ـ أووه، هذا درس بالغ الصعوبة، قد لاأصلح لهذا.

ـ بل تصلحين لكنك خوّافة، كوني أنت كما تشعرين وتفكرين..

ـ صعب، أمر صعب

ـ ولكن ضعي في حسبانك أنك ستخسرين وتقدمين تضحيات، الآخرون لايقدرون أهمية أن نكون أحراراً ونحيا كما ينبغي أو كما نشتهي..

ـ هذا أمر خطير.

ـ الإنصياع لإرادة الآخرين أخطر..

قالت أم نهى وقد صدمها حديث حياة: لابد أن نغادر الآن، زورينا قريباً عزيزتي حياة. جابر وحده في البيت ولاينبغي أن نغيب عنه طويلاً..

ـ قريباً سأتصل بكم وأزوركم متى ما انتهيت من انشغالاتي..

ـ ننتظر مكالمة منك.

ـ سأزوركم قريباً جداً رغم أن انشغالاتي لانهاية لها..

وهما في سيارة الأجرة قالت أم نهى:

ـ تغيرت حياة البابلي كثيراً، أصبحت هجومية وحاسمة.

ـ مامـا، لاتحكمي عليها، مـرّت حياة بكوارث ومصائـب لايتحملها أعتى الرجال، هذا رد فعل طبيعي.

ـ لاأدري، إنها ليست حياة التي أعرف. تغيرت مع الأسف..

ـ كلنا نتغير. بلا أسف يا أمي، لابد أن نتغير ونتقبل أي تغيير..

الفصل الثالث

ما دوّنه الأسلاف


https://telegram.me/maktabatbaghdad

مُدَوّنات صبحي الكُتُبخاني

نعرف جميعاً أن الفن ليس الحقيقة، إنه كذبة تجعلنا ندرك الحقيقة

بابلو بيكاسو

فتحت نهى المجلد الأول من مجلدات جد والدها صبحي الكتبخاني فوجدت الشذرة التالية مكتوبة بخط فارسي جميل:

وُلدنا من الحُب

وخُلقِنا من الحُب

ونميلُ إلى الحب

فنحن محمولون في أحضانهِ

الشيخ الأكبر سلطان العارفين محيي الدين إبن عربي

قلبت الصفحة لتجد ورقة مطوية حال لونها إلى الأصفر الباهت، وفيها تنويعات لإسم صبحي الكتبخاني بالخط الفارسي والخط الكوفي وخط الثلث والديواني، تأملت الورقة العتيقة، كان اسم الخطاط يذيّل الصفحة: سعد أو أسعد، راق لها الأسم المكتوب بالخط الديواني بانحناءاته وتدويراته الرشيقة كأنها أقواس الموسيقى، سمعت الحروف تغني: تناهى

إليها حفيف الحروف كشجرة تغتسل بالمطر، تستهويها أنواع الخط العربية وتسحر روحها ؛ ففي كل حرف روح خبيئة وفي كل نقطة سر ولغز وفي كل انحناءة إيحاء زماني معجز.

ـ يبدو أن جدنا صبحي كان ذا ذوق رفيع، ذواقة خط وفن..

طوت الورقة باحتراس وعزمت ـ مع إحساس بالرهبة والفضول ـ أن تقرأ ما دوّنه جد والدها بريشته وبالحبر الصيني الأسود على الورق الأصفر فاكتشفت أنه كان يتحدث عن نفسه مرة بضمير الغائب، يتحدث عن شخص يعايشه ويشهد تفاصيل حياته وحياة الأقربين وأحوال البلاد ولايريد أن يظهر أنويته، ومرة يكتب بصوته هو، وقد كتب تصديراً ببضعة سطور يشرح فيه ما أراده:

... وبعد، فإني صبحي الكتبخاني، أعترف لهذه الدفاتر التي ستتحمل أوزار سنواتي، وسأكشف عن نفسي وأهوائي ومرارة روحي، سأحاكم نفسي وأخضعها للمساءلة، ها أنا وحدي معتكفٌ في غرفة مخزن الشاي، غارق في أشذاء الشاي الهندي والسرنديبي والصيني، أسمع هديل الحمام على شجر النارنج وربما على النخل، كنت وحيداً منذ طفولتي، لاألعب مع أخوتي ولاأهتم باللعب، ومازلت وحيداً في هذا البيت وقلبي يرتجف أسى على روحي وأسأل قلبي:

– ماذا سأفعل بحياتي وسط عالمي الخانق وخطواتي الفاشلة؟ أنا الغريب المتغرب وسط أهلي ومدينتي. ياالغربة الروح حين تصبح وحشتها قدراً مؤبداً، وجدت نفسي منفصلاً عما هو حولي، رافضاً لما تفرضه الأعراف والتقاليد المحبطة، كأني نبتة غريبة مزروعة في حقل من الصبار الجارح..

أبكي تأسياً على روحي، أبكي على أمي وأخواتي وإخوتي والخدم والحراس والمربية المُخلّدة أم نعمان وعلى الناس القانعين بما وجدوا أنفسهم عليه من عبودية موروثة..

ما أكتبه لاعلاقة له بالتأريخ وأحداث البلاد ؛ إنما أنا أكتب عن الإنسان وأوجاع روحه وأشواقه المكبوحة، عن أحلامه وخطاياه وجنون القلب، ومايرد في مذكراتي عن الحوادث والوقائع التـي شهدتُ سطحها الخارجي فإنه محض إطار خشبي لمرايا مضببـة كتلـك المرايـا الأسطنبولية العتيقة في غرفـة أختي وفيقـة. الحقائق أجمعها مطموسـةٌ علـى أية حال، ولا شـيء حقيقي في التأريـخ ووقائعه المدونـة، الحقيقي هـو خديعتنا بأشياء كثـيرة، أما الوقائع الحاصلة في أطراف البـلاد كلها فتلك مادة للتهويـل والمبالغات، التأريـخ مناورٌ ومضلل وخادع، والحـوادث يراها الناس من جانـب واحد حسب ماتمليه أهواؤهـم، ويكتبُ عنها الكُتّاب من الجهة التي ترضي ميولهم، إنتماءهم، مصالحهم، قسوتهم، لاشيء حقيقي في العالم سوى غربة الروح وقصص العشق والفقدان والتوق المضني للمكوث في الزمان والمكان الآمنين، وما سوى ذلك ألعاب سحرة خادعة وعمل قطاع طرق وقسوة قطاع أعناق..

(هذا ماكتبته أول الأمر قبل سفري إلى الأستانة)

وبعدُ، فإني أكتب هذه العبارات بعد سنوات وسنوات من عيش الحياة:

خبرت الحياة في أبهى مايكون العيش، تغرّبت وعرفت الضنك والعشق والزهد والمجازفـة وارتقيت مرة وانحـدرت إلى حضيض البؤس مـرّات، وأعدت ترتيب حياتـي بعد أن انفرطـت سنواتي. ولـدتُ في بغداد سنـة ١٨٨٧ للميلاد حسب ماثبت والدي في سجل عائلتنا، ومنذ مطلع الصبا وأول وثبة اليفاعة وجدت نفسي مختلفـاً عمّا يحيط بـي من مجتمع منغلق وعالم كئيب تلفـه الخرافة والجشع والخطايا، صرتُ الولد الضال الناقم المستوحد ذا القلب المضطرب والعقل المرتاب..

سأدع أوراقي تتحدث عني بلسان غير لساني مرة وبلساني مرات، فإني لا أرتجي مـن قراء مذكراتي غير أن ينعموا الفكر بما دونـتُ لعلهم يرون بعض نفع في كتاب عتيق ويستدلوا على بعض ماحدث لي ولنا في سنيّ أعمارنا..

أما بعد...

فقد كنت أنا صبحي الكتبخاني متأرجحاً بين غلبة الشهوة وهمهمات الروح وشبق شبابي وغضبي من أوضاع ولاية بغداد التي كان واليها في تلك الفترة (نامق باشا الصغير) مخولاً من السلطان عبد الحميد، أقمت ليلي والنهار سابحاً في لجج الأحلام، أستفيق كل صباح منتشياً بما نلت من أحداث و متع عشتها أو تراءت لي في أحلامي، فأسارع لتدوينها في مجلد كبير مغلف بالجلد الأسود ومزوق بماء الذهب، وكلّما سطّرتُ حلماً كنت أستعيد نشوتي بقراءة أوصاف النشوة ومتعة تخيّلها بعد أن خَبِرتها في الحلم، وأنا أعلم أن النشوة يتعذر وصفها، فكيف يمكنني وصف الرعشات ورحيق المتعة وهو يتحلب ريقاً حلواً في الفم؟ كيف بوسعي وصف الخرير العذب وهو يتدفق مجنوناً في عروقي كلها حتى ليقودني إلى غيبوبة كاملة؟ ما أعجزني عن تدوين طعم النشوة ومذاق الملذات!!، أنا عاجز عن ايجاد الكلمات الملائمة لكل هذه الفيوض من رؤاي ورغبات شبابي المحروم. لم آبه كثيراً لهذه الحقيقة وواصلت تدوين رؤاي الممتعة وأحلامي بالحبر الصيني الأسود في كتاب الأحلام الأبيض.....

أغلقت نهى المجلد الأول ؛ فقد وجدت في داخله أوراقا متفرقة منسوبة الى تأريخ سابق، دوّنها صبحي بخط مرتبك في بعض الصفحات وكان بعضها مطموساً تتعذر قراءته، وثمة سطور جرى شطبها فغمضت معانيها... ، قالت لوالدها:

ـ هل إطلعتَ على هذه الأوراق؟

ـ نعم، لكنني وجدت صعوبة في فك الخط فتركت الأمر كله لك. لاأملك صبراً على التنقيب وقراءة الخط المطموس.

ـ سأحاول إعادة كتابتها. أحتاج إلى وقت لقراءتها بدقة..

ـ لك كل الوقت..

بعد يومين أحضرت نهى أوراقا مطبوعة على الكومبيوتر..

ـ هـذا ما اسـتطعت تدوينه مـن أربعين ورقة مهترئـة ومطموس بعض سـطورها، إنها عن سـنوات شـباب جدك صبحي وسـفره إلى الأسـتانة للدراسة وعن أخته وفيقة. هل تود أن اقرأ لك مااستخلصته منها؟

ـ دعيها لي أقرأها بهدوء وأرى مافيها

ـ فمتى نفتح الصندوق الثاني؟

ـ كل شيء في أوانه

ـ إليـك الأوراق، أمـا أنا فسـوف أعمل علـى حزمـة الأوراق الثانية: هذا عن طفولته وصباه وشـبابه المبكر، وهي أحداث سـبقت ما قرأناه في المجلد العتيق...

كتاتيب ومدارس

بدء الأشياء المعرفة وآخرها العلم، وبدء الشيء العلم وآخره المعرفة

الصوفي سهل التستري

... شيء يشبه الحلم أو الرؤيا يستحوذ على وعي صبحي الكتبخاني الذي هو أنا: هذا الرجل الذي يستعيد طفولته كأنها طفولة شخص آخر وهو يشهدُها من زاوية بعيدة، هل أبالغ في التخيلات؟ أم تراني على الضد من ذلك أفتقد تفاصيل كثيرة وأنتقي الأهم والأكثر ثباتاً في ذاكرتي؟ سأكتب عما ثبت في ذاكرتي وأشهد الطفل الصغير الذي كان، والذي كنته، هكذا أتذكره وهكذا عرفته.........

في الخامسة من عمره أدخلوه كُتّاب الملا عبدالرحمن، وكان الملا عبدالرحمن رجلاً بلغ من العمر عتياً وقيل أن عمره جاوز المائة وعشرين عاماً وشهد نحو عشرة ولاة تعاقبوا على بغداد كما شهد جائحتين للكوليرا وأربع فيضانات، كان الملا كما يذكره صبحي رجلا قوي البنية مستقيم الظهر حاد البصر، ولأنه كان يصوم العام كله ولا يفطر إلا في الأعياد وأيام الجمع ؛ فقد حرّم على الصغار تناول طعامهم الذي ترسله أمهاتهم معهم فكان يجمع أرغفة الخبز منهم ويوزعها على المتسوّلين المجتمعين عند بابه. كان صبحي يكاد يقع مغشياً عليه لكثرة مايعاني من الجوع في حضرة الملا عبد الرحمن ؛ فارتبطت حصص تلقين القرآن لديه بمغصة الجوع في أحشائه..

تعلـم صبحي مبـادئ الكتابـة على صفائـح الزنـك المعدنية التـي اعتاد ملالي الكتاتيـب استخدامها، كانت صفائـح رقيقة خفيفة يسهل حملهـا ويتوجب على الأولاد غسلها بالمـاء ليمحوا درساً سابقاً وليكتبوا درساً جديداً، عمد بعض أقران صبحـي إلى لحس اللوح المعدني بألسنتهـم ليكتبوا عليها ثانية، وكان هذا يثير غثيانه ورعبه ؛ فيخشى أن يضطره الملا يوماً إلى لحس لوحته عندما لا يتوفر الماء في حوض المنـزل الذي يدرس فيه الصبيان، وقد حصل هذا فعلاً عندمـا لم يُحضِر السقّاء الماء من النهر وجفّ الحوض، فأصيب صبحي بالغثيان وتقيأ ولوّث ثوبه وأعاده الأولاد من معارفـه إلى البيت، إهتمت به المربّية أم نعمـان وحكت له حكايات من طرائفها حتـى أضحكته، نظفت وجهه وأدخلته الحمام وألبستـه ثياباً جافة نظيفة ثم أطعمته وأرقدته في فراشه..

أصيـب صبحي بالحمـى الشديدة ورقد أياماً عاجزاً عـن الحركة، وتعاونت أمه والمربيـة على سقيـه مغليات الأعشـاب وحساء الفراريـج وأقسمت أمـه أنها لن تدعـه يذهـب إلى كتّاب الملا عبد الرحمـن، وبعد أن غادرته الحمـى أصر أبوه على أن يختـم إبنه القـرآن مهما كلف الأمر فأخـذه إلى كُتّاب آخر تديـره إمرأة عرجاء تدعـى خوجة جميلة، كانـت تعلمهم قراءة القرآن بشدة لم يألفهـا، ومن كان يتلكّأ أو يخطـيء تسلمه الملا جميلة لمعاونها مـن الفتيان الكبار ليضربه بالعصا والفلقة، لم يتحمـل صبحي العقوبات المروعة فقد سال الدم من عقبي قدميه بعد عقاب بالفلقة ؛ فهرب يومها إلى البيت وأخبر أهله أنه لن يعود إلى كُتّاب جميلة، وحبس نفسه في غرفـة والدته خشية عقاب الوالد الذي غضب منـه وضربه وقاده إلى الكتّاب وأمر الخوجـة جميلـة أن لاتتردد في عقابـه حتى يختم القرآن، في تلـك اللحظة كره كل سلطة – سلطة الأب والخوجة جميلة التي كانت في غاية القبح – على نقيض إسمها – . كره صبحي كل مايقيد روحه ويذلها، وأضناه تلقي العقاب الشديد بالعصي كل يوم وارتبط حفظ القرآن لديه بالألم البدني والإذلال المريع.....

قال لوالده: لو تعلمت القرآن في البيت لأختلف الأمر.

قال الأب: والآن وقد ختمتَ القرآن ستذهب إلى المدرسة الحميدية، ستتعلم القراءة والكتابة بالعربية والتركية وتصغي جيداً لجودت افندي مديرها ؛ فهو رجل طيب ومستقيم ولن تجد هناك من يضربك..

ربما كان صبحي في الصف الرابع وكان يفكر في الظلم الذي يعانيه خدم أهله وعبيدهم، ويقرأ في كتب المدرسة عن جلالة قدر السلطان خليفة المسلمين ووجوب التفاني في طاعته والموت من أجله ؛ فهو ولي نعمة المنعمين وصاحب الأفضال على المترفين وهو الذي يقطع رؤوس الجاحدين من الذين يتطاولون على هيبة السلطان والسلطنة..

لايتذكر صبحي سبباً واضحاً لِما أقدم عليه ذلك اليوم، لكنه كان يدرك أن السلطان مسؤول عن كل شيء في الحياة: عن ثراء أهله وفقر الآخرين، عن عبودية الخدم، وعن سجن أختيه ومنعهما من الذهاب إلى الكُتّاب أو المدرسة، وكان يتألم وهو يرى عبيداً يُجلدون في بيت عمته آل الخيامي، آلمه هذا الظلم الفادح وكان يبكي عندما يؤنب والده مربيتهم أم نعمان ويهددها بالطرد إلى قارعة الطريق ؛ فكتب في ورقة ماطلبه منهم المعلم في درس الإنشاء والتعبير بصيغة حكاية خرافية فيها تعريض بحاكم المدينة الظالم وشتمٌ للملك الأجنبي الذي كان يغدق المال على من يسجدون له ويقطع رقاب الآخرين، كان يستلهم إحدى قصص المربية أم نعمان ويضفي عليها مايكنّه في روحه من كراهية للسلطان، قرأ الحكاية مزهواً أمام أحد التلاميذ الخبثاء ؛ فقرر الصبي ابتزاز صبحي وقال له:

- هذه قصة يفهمها الجميع، أنت تقصد بقصتك التطاول على مولانا السلطان، هذا كفر، إنه خليفة المسلمين، سأخبر المعلم عنك أيها الكافر..

لم يعرف صبحي كيف يردّ على الصبي، وخشي من الفضيحة، فلا أحد من

أهله كان يتحدث بالسوء عن السلطان ولاأحد بين المعلمين كان يذكر السلطان إلاّ بالإجلال والتمجيد والخوف، فكيف خطرت له فكرة إهانة السلطان؟ وما ستكون نتيجة فعله هذا؟؟

قال له:إنها قصة سمعتها من المربية، ليست عن السلطان..

– لاتكن غبياً، إنها قصة واضحة، لن أخبر أحداً إذا أعطيتني ليرة ذهباً..

– سأعطيك ما تريد، ولكن أصبر عليّ إلى الغد..

عـاد إلى البيت مهموماً وبكى طويلاً وامتنع عن تناول الطعام فعرفت أمه بالأمر، فركت اذنه بقوة وهمست له:

– لـو علـم أبـوك فسـوف يسلّمـك للجندرمـة ويضعونك في الحبـس وهناك سيضربونك بالسوط وتموت ألماً وجوعا وعطشاً..

– أريد الليرة الذهب أمي، سيفضحني الولد ويطردونني من المدرسة..

أعطتـه أمه الليرة وتكتّمت على الأمر. عرف صبحي أن شتم السلطان فعلةٌ من الأفعال المشينة التي تودي بأصحابها الى الجحيم بعد قطع الرأس..

قبـل شهور حلّ في بيتهم رجل تركي مع خادمه وعبده المخصيّ وسائس خيوله مرسلاً من قبل الصـدر الأعظم بمهمة التعرف على رجال العوائل المرموقة ليسندوا إليهم الوظائف المهمة، تضايق والد صبحي من الضيف الذي أطال إقامته مع أتباعه لديهـم وهم يخدمونه كأمير سلطاني، وتعمد الغريـب أن يتحدث مع والده بطريقة متعالية وكأنه الصدر الأعظم ذاته، فكان والد صبحي يغادر صرامته المعتادة ويذعن للحديـث مع الرجـل ويتنازل لطلباته وهـو الذي لم يكن يـأذن لأي أحد من أسرته بمثـل هذا، إعتبره الوالد عيناً للصدر الأعظم للوقوف على الأحوال في ولاية بغداد وجمـع المعلومات عن أهـواء وأفكار العوائل الثرية التي سيحـل ضيفاً عليها، كان الرجـل يتحدث التركية ويحـاور الجميع ويطـرح أسئلة كثيرة مما أكـد توجسهم،

سادت البيت حالةٌ من الإضطراب والحذر بوجود الرجل الذي كان يقص عليهم كل مساء قصصاً عن تقاليد أهل الأستانة ويصف حفلاتهم المختلطة وملابسهم ومآدبهم، وعاب أن يُحجَر على النساء في حرم بيت إسماعيل الكتبخاني الذي كان طوال عشرين عاماً يعمل معتمداً في إدارة الولاية ثم طلب الإعفاء ليعمل مع أخيه في التجارة، لكن الوالي اشترط لقبول الإعفاء أن يعينه مستشاراً دون أن يلزمه بالحضور الدائم في دار المعتمدية..

هدأت المخاوف عندما سافر المبعوث التركي إلى ولاية البصرة ليحل ضيفاً على بعض الأسر الثرية والشخصيات المعروفة هناك، ودعّته العائلة وداعاً مبالغاً في حفاوته بلغ حد النفاق للتدليل على احترامهم له ولمن أرسله، وقد عزا صبحي قضية كتابته للإنشاء حول الحاكم إلى هذه الحادثة.

بعد المدرسة الابتدائية إنتقل صبحي إلى المدرسة الرشدية التي كان موقعها في محلة جديد حسن باشا، أخفق صبحي في السنة الأولى لعدم قدرته على استيعاب المواد الدراسية باللغة التركية التي كان لايستسغيها، فاعتبر والده هذا الإخفاق أمراً مخزياً جلب العار على صبحي وعلى أسرته بعد أن فشل في تعلم لغة السلطنة ؛ فهو إبن موظف كبير في الولاية ومستشارٌ حالي للوالي ولايحق له الإهمال واللامبالاة ؛ لذا تلقى اللوم والتأنيب وقسوة التعامل. كان صبحي في تفتح المراهقة نفوراً متمرداً ؛ فما كان يطيق اللغة التركية التي ارتبطت لديه بالإستبداد وكان يرى في والده مثالاً للمحافظة والتزمت ونضوب العاطفة التي انحدرت إلى الأب من أمه الأسطنبولية، لكنه كان يصبر على ذلك حتى دخل مدرسة (إعدادي ملكي) التي كان يديرها أستاذ تركي إسمه إحسان بك، وفي هذه المدرسة تغيرت نظرته للغة التركية عندما تمتع بالدروس الجديدة التي كشفت له عن عوالم مختلفة كل الإختلاف عن دروس المدرسة الرشدية وعمّا ألفه من إنغلاق في أسرته، كانت الدراسة مثيرة للروح والعقل محرضة على التفكير وهو ماكان ينقصه طيلة سنوات طفولته وصباه:

هنـا يدرسـون الحساب والجبر والفيزيـاء والمعادن والميكانيكا والمثلثـات والتأريخ واللغة الفرنسية والخط والرسم، كان صبحي عنيداً قويّ الروح فصمم على المضي قدمـاً والتفوق في دراسته وفي اللغـة التركية ذاتها لفكرة ستحقق له حريته ونزوعه إلى الاستقلال، ونجح رغـم تنافس زميلين يهوديين معه هما إبراهيم مناحيم و سليم زلخا وحقّق المرتبة الأولى، وأعلن خطته:

– أبي أريد السفر إلى الأستانة للدراسة..

نظـر إسماعيـل بك إلى إبنه، ثم أخـرج علبة السعوط الأبنوسيـة المزينة بنقوش مـن اللك الصيني الأحمر، ففاحت مع رائحة مسحوق التبغ أشذاء ياسمين وورد، كانـوا يعطرون مسحوق التبغ بأنواع من الزهور المجففـة، أخذ بين إصبعيه السبابة والإبهـام قليـلاً من المسحوق المعطـر ودسّه في أنفه وتنشقه ثـم عطس مرات وبدا عليـه الإنشراح، لم يفقه صبحي سرّ تعلق والده بهذه العادة الكريهة التي كان الولاة والأمـراء وأثرياء الرجـال يمارسونها، حتى قرأ في إحدى الصحـف أن هذه العادة منتشـرة في بلاد الإنكليز والفرنجة والأسبـان والأستانة وغيرها، وتذكّر أن زائرهم التركي كان يتنشق السّعوط من علبة مذهبة مزوقة بجواهر صغيرة..

إنتظر صبحي بنفاد صبر، قال الوالد:

– لن تغادر بغداد، ستعمل موظفاً في المكتوبي ضمن إدارة الولاية أو أرسلك الى المدرسة العسكرية ؛ فعائلتنا بحاجة إلى ضباط يضفون أهمية عسكرية على مكانتها في علو النسب و الثراء والتجارة والإدارة.

– أبي سأسافر إلى الأستانة حتى لو تطلب الأمر أن أمضي إليها سيراً على قدميّ، أنـا رجل راشد ولا أريـد أن أثلم طاعتي لأبوتك وأتمنى عليـك أن تفكر بالأمر، لا أريد أن أكون ضابطاً أو تاجراً، أتمنى أن أكون شيئاً آخر، لديك عمي إبراهيم و أخي نشأت وهما يحبان أعمال التجارة بل ويبرعان فيها..

- دع الأمر الآن..

- متى إذن؟

- سنتحدث حين عودتي من سفرتي إلى المحمودية..

وليمة العرس

تم زفـاف وفيقة أخت صبحـي الكبرى إلى إبن عمتها رأفت بعد قصة حب خفية موجعة حرستهـا الأمهات والمربيات وأرواح الجـدات وأشباح العشاق الموتى عن أعـين رجـال الأسرتـين على مدى عامـين. كان الجو حـاراً وثمة أبخرة مـن أشذاء الزهـور ورطوبة أرض البستان المروية حديثـاً تمتزج معاً وتحلق فوق الرؤوس، وفي اليـوم السابـع للزفاف - وكما جرت العـادة لدى البغداديين - أقـام والد صبحي وليمـة كبيرة لأفـراد العائلتين ليس بدافع الحنان وحـب الأبوة بـل للزهو بمكانته وكرمه وإظهار ثرائه..

إستقبلـت أم صبحي إبنتها العروس وأخـوات رأفت ووالدته في مضيف الحرم وقدمـت لإبنتهـا الهدايـا: عقداً مـن سلاسل الذهـب وخاتمين وقرطـين من الماس وقماشـاً من حرير الصين المنسوج بخيوط الذهـب، وأرسل والدها لها عقداً ذهبياً مُطعّمـاً بالماس والياقـوت، غنّت أم نعمـان للعروس ورقصت العبـدة الزنجية نمنم وصفقـت لها النسـاء وحملت العبدة الأخرى زبيدة الكلبـدان مِرشاش ماء الورد ورشّـت على الحضـور فامتلأ جو الغرفة بأشـذاء عطر الورد، ثـم رقصت مع نمنم رقصة عنيفة أشتهر بها زنج العراق، قالت أم صبحي:

- الآن هيّئن المائدة لضيفاتنا وعروسنا، هيا بسرعة زبيدة ونمنم..

إستقبل اسماعيل بك الرجال في الديوان، ثم انتقل معهم إلى غرفة الطعام، إتخذ والـد العروس ونجدت الخيامي - والد رأفـت العريس - موقعيهما في صدر المائدة

وجلس الأبناء صبحي وشقيقاه حكمت ونشأت على أحد جوانب المائدة، وفي الجهة المقابلة جلس رأفت وشقيقاه كمال وأحمد..

أحضر الطباخ صينية يعلوها حمل مشوي ففاحت أشذاء التوابل الهندية من الشواء، ورَصف حول الصينية أطباق الرز المكللة باللوز والزبيب و رتبها على المائدة كما علّمه إسماعيل بك الذي أخذ بالعادات العثمانية في تقاليد المطبخ وأصول المائدة باستثناء جلوس النساء مع الرجال على مائدة واحدة ؛ إذ لم ترُق له هذه العادة الدخيلة على تقاليد أسرته، وعلى نقيضه كانت عائلة الخيامي – رغم تزمتها الظاهر – تجتمع كلها: الأم والأب و الأبناء والبنات إلى مائدة واحدة مما لم يجد ترحيباً لدى إسماعيل الكتبخاني..

قال صبحي لأبيه هامساً:

– لماذا لا نفعل مثل بيت عمتي وتشاركنا أمي و أخواتي وفيقة وبديعة وألفت مائدة الطعام؟ أختي العروس المحتفى بها، ألا يحق لها أن تجلس مع إخوتها وعريسها؟

زجره إسماعيل بك:

– لاتتدخل فيما لا يعنيك، هذه تقاليد بيت الكتبخاني..

– إنهن من تحبهن يا أبي، أمي وبناتك العزيزات ونحن عائلة واحدة وليس مِنْ غرباء بيننا..

– صبحي، إنس ماقلته الآن، لن تدير البيت على هواك، أنا رب البيت وعندما أموت إفعل ماتشاء..

– لك طول العمر ياوالدي...

قال إسماعيل بك الكتبخاني ليصرف الأسماع والأنظار عن النقاش الهامس بينه وبين صبحي:

- صحيح أننا أقارب وأنسباء، لكن زواج رأفت من وفيقة وثقّ هذا الرابط وأعتبرُ زواجهما بشارة خير للعائلتين: فهذا رأفت - ماشاء الله - يعمل في قلم المكتوبي لدى الوالي وسوف يصبح مديراً مهماً في الولاية وقد يترقى إلى منصب قائم مقام أو يصبح متصرفاً في الغد القريب، هو الذي تلقى علومه في الأستانة وعاد بنجاح من رحلة الدراسة..

علّق رأفت: والله يا عمي لقد وضعتَني في موضع أخشى معه أن لا أكون قادراً على تحقيق المزيد فيه، لكني سأبذل مابوسعي.

- بل سنبذل ما بوسعنا ونفعل ما ينبغي أن نفعله من إتصالات لتنال حظوة لدى الصدر الأعظم، لابد أن ترسخ عائلاتنا مكانتها لدى السلطان والصدر الأعظم لنحفظ هيبتنا وأملاكنا ومستقبل الأبناء..

قرأ سورة الفاتحة، وقال: تفضلوا بإسم الله..

شمرّ نشأت عن ذراعيه وبدأ بتقطيع لحم الحمل وتوزيعه في الأطباق وأخذ المحتفلون يغرفون الرز المصبوغ بالزعفران والرز البخاري والمحشيات المقلية، ساد الصمت باستثناء ارتطام الملاعق بصحون البورسلين الصيني المزخرفة بالنقوش الزرقاء التي تتخذ أشكال أشجار وبيوت وجسور وطيور، وكان صبحي واجماً منطوياً يجيل بصره بين الطاعمين النهمين ويغصّ في حزنه وأسفه على نفسه. لم يأكل، وضعوا له لحماً ورُزاً لكنه لم يكن قادراً على ابتلاع حبة رز واحدة؛ فقد خنقته غصة و بقيت الملعقة الفضية لامعة مجلوة إلى جانب طبقه..

بعد أن رُفِعت الأطباق قدّم الطباخ صِحاف الحلوى وفيها القطايف والغولاش

وشاماشـي طاطلسي، وعندما انتهوا من تناول الحلـوى إنتقل الجميع إلى الديوان لاحتسـاء القهوة التي تعدّ في القهوة أوجاغي..

تشبه دار الكتبخاني في منطقة الحيدرخانة دوراً كثيرة لأثرياء وتجار بغداد، وبخاصة لأن صاحبهـا يعمل معتمداً في الولاية ويتاجر بالخيـول والأغنام والشاي والأقمشة والتوابل ؛ فهي دار واسعة تتكون من أقسام عديدة: الديوانخانة أو السلاملك حيث مقـر الرجال والضيوف، والحرم او الحرملك للنساء وضيفاتهن والخادمات، ويليها المطبخ والحمام والإسطبل والفناء الخارجي الذي تطل عليه غرف الخدم من الرجال، وتقـع باب الدخول عند الديوانخانة، ويمـرُّ المجاز على الطابق الأرضي حيث توجد غرفة صغـيرة يسكنها البواب والحارسان وإلى جانبها بابـا السردابين وغرفة الخزين التـي تفوح منها الروائـح الشهية التي كان صبحـي مفتوناً بها ؛ ففيهـا أكياس الرز العنـبر الفواح بالشذا العنبري والطحين والبرغل والملح والبهارات الهندية والسمن والمخللات والمربيـات وجبن الكـرد والتمـر والباسطرمة، وفي وسـط الفناء كان ثمـة حوض للماء، ومن الفناء يمتد ممـرّ ضيق يؤدي إلى الحديقة التـي تحيطها أشجار النـارنج والنخل وبعض أشجار الرمان حيـث يستقبل إسماعيل بك ضيوفه هناك في الأمسيات الحارة على كراسٍ من جريد النخل مفروشة بالوسائد، وفي الطابق الثاني كانـت غرفة استقبال إسماعيل بك التي يسمونها الديوان وقربها (القهوة أوجاغي) وغـرف أبنائه: صبحي و حكمت ونشأت، وللغـرف نوفذ تطل على الفناء وغرف الحرم ؛ فكأنها مزاغل حراسة في قلعة إسماعيل بك..

تديـر أم صبحـي بيـت الحـرم الكبير الـذي يضمُّ في طابقـه الأرضـي سردابين ومخزنـاً وغرفة الحطب والفحم والحمام وحوض الماء المحاط بحديقة جميلة زُرِعت فيهـا شجيرات الرازقي والجـوري والآس، وفي قسم الحرم عشر غـرف وزّعتها أم صبحـي على بناتها: وفيقة وألفـت وبديعة، وغرفة للمربية أم نعمان وإبنها وغرفتان للخادمات وغرفة للصحون وأخرى للأفرشة الزائدة المهيأة للضيوف.

في مثـل هذا البيت كان صبحي يكاد يختنق لشدة التضييق عليه وعلى أخوته ؛ فثمـة رقابة مشددة يقوم بها الجميع على الجميع: الأب والأخوة والبواب والحراس ووكيـل الأملاك وسائس الخيل والطبـاخ وحتى المربية أم نعمان مع أنها كانت تمثل السلوى الوحيدة للأبناء ونفحة الخيال الممتعة التي يحلقون عبرها إلى عوالم سحرية تحملهـم بقصصها الغريبة وحكاياتهـا العجيبة إلى الهند وبلاد الصين وفارس وجزر الواق واق، تروي لهم كل ليلة قصة جديدة ذات أجواء تلهب خيال الصغار مستقاة مـن ألـف ليلة وليلة مع تحويـرات وإضافـات تبتكرها لتناسب الفتيـات والفتيان، وعندمـا كانوا يطلبون منهـا أن تروي لهـم الحكاية التي تزوّجت فيهـا الأميرة من حوذي والدها الملك، أو تقص عليهم قصة السبع بنات اللائي تحولن إلى إوزات، أو قصة الغزالة التي حولتها السـاحرة إلى فتاة حسناء، كانت تقول لهم:

- أنـا لا أحفظ حكاياتي لأني أرويهـا في ساعتها وأنساها وسأحكي لكم قصصاً جديدة أجمل منها..

لأم نعمان جسم ضامر ووجه أسمر يتوسطه أنف مفلطح، ولها عينان واسعتان سوداوان تتسعان أكثر في حالة غضبها عندما لا ينتبه إليها أحدهم وتتوقف عن سرد الحكايـة وتترك الغرفة ثائـرة مهتاجة، فيتضرع إليها ابنهـا نعمان وحكمت ونشأت وصبحي لكي تواصل حكاياتها، فتعود شرط أن يصغي لها الجميع وإلا حرمتهم من روايـة القصص لليال عدة،،، تعلق بها الصبيان والبنات ومثلت لهم مساحة الفرح والمتنفس الوحيد في بيت مغلق متزمت يشبه سجناً ذا غرف متعددة. كانت أم نعمان شخصية غريبة بارعة في إثارة المشاكل والشجارات مع الخدم وكلما وجّه إليها أهل البيت اللوم لتصرفاتها تلك كانت تغضب وتُضرِب عن الطعام والكلام وتعتكف في غرفتها وتمرر تهديداً يسمعه الصغار بأنها لن تبقى بعد اليوم في هذا البيت ولن تعود أبـداً، فيطرق الأولاد بـاب غرفتها وهم ينشجون، ثم يتضرعـون لوالديهم ليحولا دون رحيلهـا، تهمهم أم نعمان وهي تسـترق النظر إلى الأولاد المنتحبين: أعرف أن

فراقي سيقتل هؤلاء الصغار ويميت قلوبهم الطيبة، لكني سأعود إلى النعمانية..

وكان الأبوان يقولان:

- فلتذهب، دعوها، فلترحل..

يبكـي صبحي في سره ويخشى أن تقدم أم نعمـان على الرحيل حقاً ولاتتراجع عنـه، ولكنه يسعـد إذ يراها بعد ساعـات وقد عادت ضاحكـة رقيقة تحب الجميع وتمازحهـم وتروي الأمثال وتـردد الأغاني الجميلـة، ثم تعاود شجاراتهـا بعد أيام قليلـة فيحزن الأولاد ويتخيل صبحي الحيـاة المعتمة الخالية من أم نعمان وحكاياتها العجيبـة التي كانت سلوتهم الوحيدة وهـم يتجمعون حول الكانون يتدفأون بالنار والحكايـات أوعندمـا ينامـون صيفاً علـى السطوح تحـت النجوم ممّـا يُضفي على الحكايات المرتجلة جواً من السحر الخارق..

نشـأت

بين نشأت الإبن البكر من زوجة أبيه الراحلة وبين والده إسماعيل الكتبخاني نمت علاقـة تكاملية تقوم على تبادل المنافع والخدمـات ؛ فكلاهما كان يعتمد على الآخر ويخـدم مصالحه الخاصة وهو يحقق مطامح الآخر: كان الفتى نشأت - الذي توفيت والدتـه في عام الكوليرا - يقتفي خطى والده في براعتـه التجارية وطموحه في الثراء والبحـث عـن مكانة مرموقة في مجتمع بغـداد ؛ فصار يقلد وجهـاء بغداد في مجونهم السـري، إشـترى جارية من جورجيا وأفرد لها منزلاً في مـكان غير معلوم من بغداد، ولم يكتـفِ بذلك بل لبـث يطارد النساء في بيوت الدعـارة ويصحب والده للصلاة ويشاركه صومـه وعبادته، كان في روحه جوع لايشبع للمال والمتع وفي جسده نهم وحشـي للملذات وقد سمع من بعضـ التجار حكاياتٍ عن والـده وجواريه اللائي جمعهن في قصر كبير له في محلة البارودية..

إلى جانـب متعة قصص أم نعمان كان البيت ينعم بوفرة الطعام وكثرة الغلال التي يجلبهـا الفلاحون من الحلـة وبساتين بعقوبة وسامراء، ومقابـل التشدد الأبوي كان هنـاك الحنـان الأمومي والخدمـات التي يقوم بهـا أشخاص شبـه مستعبدين ؛ فهناك الخادمتـان الحبشيتان (عبدتـان) إشتراهما إسماعيل بك من سـوق العبيد وخادمتان ريفيتـان وأربعـة خدم مـن الرجال أحدهـم عبد مملوك لخدمـة الديوانخانـة وإعداد القهـوة للضيوف ونقل الأطعمة من المطبخ إلى غرفة الطعام وتنظيف الديوان وتسوق احتياجات البيت.

تعمـل الخادمات الأربع طوال النهـار وأجزاء من الليل: الحبشيـة الشابة كانت

ذات ملامـح ناعمة جميلة تكاد تكون حسناً متفـرداً، أطلقت عليها أم صبحي إسم نمنـم لجمالهـا وأوكلت إليها تنظيف غـرف النساء وخدمة البنـات ومساعدتهن في تخضيـب شعورهن بالحناء وضفر جدائلهن وترتيـب ملابسهن، بينما تقوم الحبشية الأخـرى زبيدة بغسيل الثياب وترتيب المفارش والأغطية، وفي وقت فراغهن النادر كنّ يطرزن المفارش بإشراف أم نعمان، ومن تقاليد البيت أن الوالد حرّم على الأبناء الحديث مع الخدم ؛ اذ يتم توجيه الأوامر من قبل الأم وحدها، ولم يكن مسموحاً لأي رجل من الخدم دخـول الحرم باستثناء شابين صغيرين شبّا في البيت: أحدهما نعمان إبن المربية الذي نشأ مع الأبناء، ورجب إبن وكيل أملاك الكتبخاني..

جُـن نشـأت أخ صبحي الأكبر عشقـاً بالحبشيـة الجميلة التي أثـارت الفوضى والإضطـراب بين ذكـور البيـت ؛ فأحبها رجب بصمـت ويأس وتمنـى البواب أن يمتلكهـا وهفت قلـوب الخدم الآخرين إليهـا، وكان صبحي يرى هـذا الإضطراب الـذي تحدثه الخادمة السـوداء في ذكور البيت الكبار ويندهش مما يرى وهو الهائم في ملكـوت الأفكار والأسئلة والإعتراضـات التي كان يبديها على الجميع، حتى أم نعمـان لم تسلم من نقده واعتراضاته عندما لا تقنعـه تفاصيل قصصها الخرافية فكان يحاصرها بالأسئلة المنطقية ويحرجها فتحرمه من سماع الحكايات..

كان الجميـع صيامـاً في رمضـان، أرسلـت أم صبحي - بعد الإفطـار - الخادمة الحبشيـة زبيدة ببعض أطبـاق الحلوى إلى إبنتها وفيقة في بيت نجدت الخيامي القريب وأوصتهـا أن تساعـد وفيقة في أمور النسـاء وإعداد الثيـاب، وخرجت الخادمتان الأخريان لزيارة ضريـح الشيخ عبد القادر الكيلاني بعد أن صحبتا أم صبحي لزيارة ضريـح الإمـام الكاظم أول أيام رمضـان ورافقهن الحارس شاهـين واستقل الجميع الترامواي الذي تجره الخيول وامتقعت وجوههن وصرخن هلعاً عندما عبر الترامواي الجسر العائم على الزوارق ليوصلهم إلى الكاظمية..

إنتهز نشأت فرصة خروج زبيدة وبقاء نمنم وحيدة في الغرفة واطمأن إلى انشغال

مَنْ في البيت بأداء صلاة التراويح، فتسلل إلى الحرم واقتحم غرفة نمنم، ورآه صبحي الـذي كان ينظر مـن شباك غرفته المطل على الفناء في الطابـق الثاني وارتعد خوفاً مما سيحـدث، تمنّعـت نمنم وارتعبت، سمـع صبحي صرخة مكتومـة وشهد من مكمنه محاولـة نمنم لإخراج نشـأت لكنه احتضنها بقوة وكمّم فمهـا فأرتعب صبحي: رأى من شباكه المطل على شباك نمنم أن نشأت خلع عنها جلبابها الأسود وثوبها الداخلي وانقضّ عليهـا انقضاضاً كمثل وحش أصابته الشهوة بالجنـون وصار يقضم لحمها ويعصـره وهـي تتوجّع وتحاول الصراخ فيضع يده على فمهـا ولم يدعها الا وهي تئن وتبكـي وتلطم وجهها، وسمع مَـنْ في الطابق العلوي صوت نحيبهـا، تنبه البواب للأصـوات المريبة فوقـف في المجاز ليرى مصدر الأصـوات، ظهر رجب الذي كان مختبئاً في الممر وقد بدا عليه الإنفعال وسحق الغضب والألم قلبه لاستيلاء نشأت على محبوبتـه التي كان يحس بانتمائها إليه أكثر مما تنتمي إلى نشأت إبن سيد الدار، خرج نشأت مرتبكاً من غرفة نمنم، لم يشأ البواب الوشاية بإبن سيده خشية الإنتقام والطرد المؤكّد، وعندما حدث اللغط وجرى استجواب الجميع إدّعى البواب أن (رجب) هو من إقتحم غرفة الخادمة، تصدّى صبحي للبواب وقال:

- أنت تكذب، رأيت نشأت عند الخادمة، كنت أطل من شباك غرفتي في الطابق الثاني ورأيت وسمعت كل شيء..

غضب الأب وصرخ في وجهه:

- إخرس ياصبحي، كيف تتهم أخاك؟

- رأيته بعيني هاتين من شباكي..

- تكذب، لأنك تحقد على أخيك الكبير نشأت..

- لم أكذب ولن أكذب أبداً وأنا أحب أخي، لكني رأيته، رأيته..

صفعه والده وصرخ به أمام البواب:

- إذهب عني لا أريد ان أرى وجهك أيها الوقح، أخوك لن يفعلها، ربيته على الإستقامة والطاعة والفضيلة..

هرع صبحي إلى غرفته واعتصم فيها ولم يشاركهم مائدة الإفطار في اليوم التالي - مع أنه كان صائماً - ولم يكلم أحداً، طرقت والدته الباب فلم يفتحه، وخشيت أن يكون قد أقدم على قتل نفسه، ولبثت تتنصت عليه حتى سمعت عطاسه فاطمأنت وهي تعلم مقدارعناده وعزة نفسه ونزاهته.

تلك الليلة لم ينم أحد من أهل الدار: لا الأب ولا الأم ولا نشأت ولا الخدم ولا البواب، كان صبحي أشدهم أرقاً وعذاباً وتفكراً، قضى ليلته يتساءل:

- لماذا يستعبد الناس بعضهم؟ ولماذا يغتصبون حياة الآخرين؟ بماذا سيؤمن إن كان الصدق و العدالة والاستقامة تُداس بالأقدام على الضد مما يدعي والده وما يقوله الكبار جميعاً؟ لماذا تحدث أمامي هذه الأمور البشعة ولا يصدقني أحد بل يصدقون كذبة تحمي مكانة كلّ منهم؟ هل كان عليه أن يتواطأ ويحمي أخاه، أم يتشبّث بقول الحقيقة التي رآها وينال اللوم والعقاب لأنه حطم ما يتفق عليه الجميع من نفاق يشدّ خيوط المصائر إلى بعضها ويحمي تواطؤها؟

هل يظن أبي ومن حوله أن الخوف رباط أقوى من العدالة والحب؟ يبدو أن المكر والدسائس أقوى من الصدق والحكمة التي تقول بها جميع الكتب التي قرأتها، هل أنا مخطيء؟ ولماذا أتحمل وزر تواطئهم جميعاً وأحسُّ بالتصاغر أمام نفسي؟ ألست إبناً لإسماعيل بك، فلماذا لا يصدقني ويعتد بكلام البواب؟

حبس إسماعيل بك الفتى رجب طوال اليوم التالي في غرفة صغيرة دون طعام ثم حقق معه في الأمر فأنكر وأقسم أنه لم يفعل شيئاً مما إتهمه به البواب، ضربه

ضرباً مبرحاً رجاءَ أن يعترف لكنه أصر على براءته وخشي فضح إبن سيده، فطرده اسماعيل بك ومنعه من دخول الدار ولكنه بقي يعمل في بساتين الكتبخاني وإسطبلات الخيول مع والده وهو يشعر بالغبن والظلم والغيرة على محبوبته غنم.

مرت شهور ثلاثة إعترفت أثناءها غنم لرفيقتها الحبشية زبيدة أنها تخشى الفضيحة ؛ فقد انقطع حيضها وبرز بطنها، ولابد من عمل شيء، حاولت زبيدة مساعدتها في إجهاض الجنين ولم تفلح، كان لابد أن يصل النبأ إلى والدة صبحي التي أخبرت زوجها واتفقا على كتمان الموضوع عن البنات وقام اسماعيل بك باستدعاء الوكيل جاسم أبو رجب وأخبره أن على ابنه ستر الفضيحة والزواج من الحبشية، صعق جاسم ولم يشأ الإعتراض و لم يعرف رجب - الذي أحس بثورة تلتهم روحه - كيف يستقبل موضوع الزواج المربك ؛ فهو من جهة عاشقها المتيم الذي أصابته هزة فرح لتحقق الزواج منها، ومن جهة أخرى وجد في هذا الزواج المفروض صفقة عار: عروس يحبها ويتمناها ولكنها تحمل جنين سفاحٍ من رجل آخر وهذه وصمة لن تفارقه طوال حياته، فماذا بوسعه أن يفعل؟ ليس أمامه سوى الرضوخ للأمر وإطاعة أوامر سيده، وفيما عدا ذلك سيُطرد والده من أملاك الكتبخاني وتجوع عائلته ويتشرد إخوته وتضيع أخواته..

بكت غنم وقبّلت يدي أم صبحي وقالت لها همساً:

- خاتون ظلمتموني وظلمتم رجب، نشأت بك هو من هاجمني و........

قاطعتها أم صبحي - فات أوان الكلام، هيا استعدي وارتدي ثياب عرسك وعباءاتك واستعدي للرحيل..

ركعت غنم وهي تنتحب أمام الخاتون التي تنفذ أوامر إسماعيل بك ولاتملك من الأمر شيئاً..

- إنهضـي، هيئـي حاجاتك واستعـدي، ستنقلك عربة إسماعيـل بك إلى بيت عريسك في البستان..

أشباح العشق

لم يكـن أحد ليسأل عن السبب الذي يدعو رب العائلة إسماعيل الكتبخاني بين حـين وآخر للذهاب إلى المحمودية، وساوسُ أم صبحي كانت تدور حول احتمال زواجـه مـن زوجة شابة، فهو يعود مـن المحمودية فرِحاً منشـرح القلب، لكنها من جهة أخرى تجد أن حبه لها لم ينقص أبداً ولايمكن لرجل يحب امرأة أخرى أن ينافق زوجته على هذا النحو دون أن يقع يوما في الزلل.

كان يحمـل معـه الكثير من الهدايـا والأطعمة كلما توجه مـع حوذيه ومرافقيه إلى المحموديـة ولم يجرؤ أحد مـن الأسرة على البحث في الأمـر ؛ فصبحي منشغل بكتبـه وأسئلته عن الحق والعدالـة والنفاق الذي يهيمن على العـالم كما أنه مهمومٌ طـول الوقت بموضوع السفـر إلى الأستانة ويعدُّ نفسه لمواجهـة أبيه من أجل حلمه هذا، ونشأت منهمك في أعمال التجارة مع والده يتابع البواخر القادمة من البصرة والهنـد وينجح في تنمية تجارة العائلة يساعده حكمـت الصغير أحياناً ومطمح كل منهما أن يرث تجارة والده وعقاراته وخيوله..

حـدّث صبحـي إبن عمتـه رأفت الخيامـي - زوج أختـه وفيقة وأقـرب أفراد العائلتين إلى نفسه - عن رغبته في السفر إلى الأستانة للدراسة، راقت الفكرة لرأفت وهـو المتعاطف معه لنباهته واهتمامه بالعلم والتغيير، وشجعه على الثبات ومواصلة الضغط على الأسرة للسفر، وقال له:

- لـولا وفيقـة لرافقتك في رحلتـك ؛ فأنا أحـن إلى مرابع تلـك المدينة العظيمة

حيث درستُ ورأيت مالم أره في بغداد من مباهج وأحوال بشر ومتع وماتعلمته فيها من علوم وفنون وحياة مختلفة، إذا تحقق الأمر وسافرتَ سأكتب لك رسالة إلى قريب لنا له نفوذ كبير في السلطنة وسوف يساعدك في كل شيء ويجد لك مسكناً، لاتخش شيئاً ياصبحي، سأقف معك وسأحدث والدك وأحاول إقناعه، وإن لم يقتنع سأصحب معي والدي وأخي الكبير لنظفر برضاه..

لم يعد بوسع أحد أن يوقف تدفق هذا الحلم العظيم الذي أصبح أشبه بطوفان إكتسح كل شيء، يذكر صبحي أستاذ التأريخ الشاب محمود تحسين افندي في مدرسة (إعدادي ملكي) وهو المدرس الذي قدم حديثاً من الأستانة وكان كبير الإهتمام بتدريس الطلاب أحداث العالم وتحولات الدول وبخاصة وقائع الثورات في عالمهم وتفاصيلها ومآلاتها: ثورة أكتوبر في روسيا والثورة الفرنسية، إستيقظت في عقل صبحي مفاهيم مختلفة عن حياة غير حياته البغدادية السقيمة، ولبث يسأل المدرس عن مبادئ الثورة الفرنسية الثلاثة (الحرية والعدالة والمساواة) التي كتبها على اللوحة في صفهم المدرسي:

– لماذا قامت الثورة؟ هل من أجل الجوع والفقر والظلم والسجون؟

قال محمود أفندي: كانت فرنسا قبل الثورة إمبراطورية على وشك الإنهيار والإفلاس وأحسّت بأن كبرياء الدولة قد تهاوى عندما تخلت عن مستعمراتها الواسعة.

– هل كان هذا هو سبب الثورة – الشعور بالظلم والإنكسار والفقر والهزيمة؟

– أبداً، لو اجتمعت أسباب كثيرة لدى الشعب لما كان ذلك دافعاً أو مبرراً لقدرته على الثورة، أتعرف لماذا؟ كانت معظم بلاد أوربا المحيطة بفرنسا تعاني من الأوضاع ذاتها ولم تتجه للثورة. ثمة سبب أهم وأكبر من تلك الأسباب..

- ماهو؟

- كانـت وراء قيـام الثورة عقول عظيمة في الفكـر والفلسفة والعلم وهي التي قـادت الثورة ونهضة أوروبا الثانية، ومن بين هذه العقول موليير وفولتير وروبسبير وروسو وغيرهم..

- وهل لدينا أناس كهؤلاء العظماء؟

لم يـردّ المدرس على تسـاؤل صبحي، بل حمل كتاب التأريـخ وأوراقه وخرج وهو يقول:

-إنتهى الدرس اليوم، سنتحدث عن درس جديد غداً..

منـذ تلك اللحظـة بدأ صبحي يقـرأ الكثير من الكتب والجرائـد التي تصل من الأستانة، ويتابع أخبار السلطنة وأخبار ولاية بغداد البائسة، ويردد لنفسه:

أيها الفتى: إبحث عن شيء يغير حياتك الراكدة، أنت لن تكون تاجراً ومعتمداً لـدى الوالي كأبيك، لـن تكون مالك عقـارات وخيول، ليس هـذا طريقك، إمنح حياتـك معنـى، كن شيئـاً مختلفاً عما كانه أبـوك، تعلق بأمر ذي قيمـة، ليكن لديك شغف يملأ حياتك...

سيسافر إلى الأستانة وهناك سيُتاح له أن يقرأ فولتير، سيقرأ مونتسيكيو، سيقرأ مسرحيات موليير المترجمة للتركية، سيقرأ موسوعة ديدرو، سيقرأ ويقرأ ولا سبيل إلى ذلـك سوى السفـر إلى الأستانة وهناك سيرى حقيقة السلطـان والسلطنة التي يقدسهـا أبوه على أنها امتداد للخلافـة الإسلامية وهي وحدها التي يحق لها حكم بلادنـا والبلدان الإسلاميـة أجمعها، وكانت هذه إحدى جوانـب تناقضات الأب والإبن ؛ فكلٌ منهما يمثل ضداً مخالفا لصاحبه، هناك سيرى عن كثب حقيقة مايشغله من أمور جرى الإختلاف عليها..

عكف صبحي على قراءة الصحف التي يحضرها والده من إدارة الولاية، وحصل يوماً أن قرأ فيها مقالة كتبها كاتب تركي في مجلة (شهنبال) عن مطربة شابة إسمها (بنفشة خاتون) اشتهرت في بغداد هذه الأيام، ووصف الكاتب صوتها بأنه (الجوهر المصفّى والعسل الشافي والبلسم المعافي) وكتب عن براعتها في سرد الحكايات والطرائف وتفسير الأحلام وتأليف الأغاني عن الأرواح الحزينة والعشق الموجع والهجر والفقدان والشوق إلى الأوطان، وكانت تدفع المنصتين لغنائها إلى البكاء حين تغني عن الأمومة والرجال المفقودين في الحرب والعاشقات المقتولات جراء السبي. ماكانت - كما روى عنها أعيان بغداد - إمرأة حسب بل هي أشبه بكتاب (الأغاني) لأبي فرج الاصبهاني أو كتاب (مروج الذهب) للمسعودي، بل هي مثل كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، لها ألف خريطة ولها كنوز من الكلمات بلغات فارس والهند والترك والعرب، هي كتاب لا أول له ولا نهاية، لايعرف المرء أين يبتديء وأين تكون خاتمته فهي تجدد حديثها وعلمها وغناءها كل صباح ومساء، ولم يكن أحد ليجرؤ على الاقتراب منها أو طلب صحبتها ؛ فقد وضعت حدوداً لايمكن تخطيها: تعتلي منصتها في مجلسها ويجلس قربها عازف العود تومـا البغدادي وتسدل على وجهها نقاباً بنفسجياً شفافاً من الحرير يضفي على ملامحها غموضاً وسحراً، حتى أن معجبيها جميعاً لم يعرفوا حقيقة لون عينيها أو بشرتها ولايمكن لأحدهم أن يقدم وصفاً موثوقاً عن ملامحها المضببة وراء برقعها الحرير، لكنهم أجمعوا على حسنها الباهر وسحرها من صوتها ومايشيعه حولها عطر البنفسج الذي لا تستخدم سواه، وأشار الكاتب إلى شائعات سرت في بغداد عن قدرة غنائها على شفاء الأمراض ؛ فقد عالجت إبنة الوالي من مرض الحزن الأسود (الميلانخوليا) بعد موت حبيبها بطعنة رمح مسموم عندما التزمت بنفشة الغناء لها كل مساء فاستعادت بهاءها وابتسامتها وشهيتها، وأنقذ صوتها المتألّق إبن الوالي اليافع من مرض الصرع وقيل أنها كانت مستشارة الوالي في بعض شؤون الحكم لما تملكه من حكمة ودربة ونباهة وبصيرة نافذة لايملكها إلا حكماء الأزمان الغابرة.........

منــذ تلــك اللحظة تملك صبحي غرام جائح لهذه المـرأة وصارت رفيقة أحلامه الشبقيــة، وبــات بستحضرهــا في أحلام يقظتــه ويرفع نقاب البنفســج عن وجهها الشهي، يقبلها ويعانقها ويغفو على لذة امتلاكها المتخيلة وقد تفصّد جسده بالعرق وتعالت نبضات قلبه وتدفق دمه هادراً في عروقه ليهمد كالميّت تحت أغطيته.

عــزم أن يصل إليها فتكون هي هدف حياته بعد أن ينهي دراسته، لبث يحلم بها ويمنحهــا أوصافاً غريبة يبتكرهــا كل ليلة ويعيد تشكيل صورتهــا في الليلة التالية: إشــترى من أحد العطارين عطر زيت البنفسج الذي اشتهرت به بنفشة خاتون ونثر بضع قطرات منه على وسادته ليتنشقه كل ليلة وهو يحتضن طيفها..

قصّــ صبحي المقال الذي قــرأه عن بنفشة خاتون من الجريــدة وحفظه في مجلد مذكراتــه التي بدأ يدونها منذ عامين وقرأه مراراً وهو يتفكر فيما ستؤول إليه حياته وأحلامه المتقاطعة..

كان مولعــاً بدرس الميكانيكا وأخبــار العلوم الحديثة إلى جانــب جنونه بأطياف بنفشــة خاتون ؛ أفــرد أحد المجلدات لتدوين أخبار الإختراعــات العلمية التي كان يقرأهــا في الصحف الــواردة من الأستانة: قــرأ عن إعلان (ماكــس بلانك) نظرية الكوانتــم سنــة ١٩٠٠ كما قرأ عن جهــاز قياس الزلازل الــذي اخترعه (ريختر) أحــد علماء جامعــة كاليفورنيا وكتب عن الإثنــين، ودوّن معلومة قرأها في صحيفة يلــدرم عن (ويليس كارير) مُصمّــم أول جهاز مكيف هواء سنة ١٩٠٢ ثم أدهشه الحديــث عن النظرية النسبية الخاصــة لآينشتاين - التي لم يفهمها جيداً - في إحدى الصحــف مثلما أذهله اختراع (أديســون) لبطاريات تخزين الطاقة، واختراع محرك الإحــتراق الداخلي للمكائن، ولم يصدّق باختراع مذهل اطلقوا عليه إسم « الراديو « إخترعــه (ماركــوني) ثــم سلبت لبــه وسحرته فكــرة تسجيل الصــوت في جهاز (الفونوغــراف) الــذي اخترعه اديسون عام ١٨٧٨ وعزم علــى أن يكون أول من يشــتري الفونوغــراف عندما يعود إلى بغــداد بعد إكمال دراستــه في الأستانة حتى

بـات يتخيل كيف ستغني له بنفشة خاتـون وكيف سيحفظ صوتها في الفونوغراف ليخلّده أبد الزمان..

دوّن في المجلـد جميع الإختراعـات العظيمة التي غيّرت حيـاة البشر في أنحاء العـالم الأوروبي والأمريكي ويعلق عليها ؛ لذا صمّم على الرحيل إلى الاستانة ليرى بعينيـه بعض هذه المدهشـات والأعاجيب والأحجيات وليتعلم مـالم يستطع تعلمه في بغـداد، كما صمّم على تعلم اللغة الانكليزيـة في الأستانة بعد أن تعلم الفرنسية والتركية في مدرسة الإعدادي الملكي.

قرأ صبحـي في مجلة (شهنبال) أن كاتباً يعيش في لندن إسمه (جوزيف كونراد) أصـدر كتابـاً عظيمـاً عنوانه « قلـب الظلام « وقد طـار صيت الكتـاب في جميع البلدان، كما قرأ عن كتاب آخر عنوانه «آل بودنبروك « صدر عام ١٩٠١ للكاتب (توماس مان) باللغة الألمانية..

– يا صبحي، عليك أن تتقن اللغة الألمانية أيضاً في الأستانة وقد تجد هذه الكتب مترجمة للتركية، متى ياصبحي تتنعم بقراءة كل تلك الكتب الباهرة وتزور الحانات والمقاهي وترى النساء الجميلات من كل صنف ولون ثم تعود إلى بغداد لتبحث عن (بنفشـة خاتون) التي أمست غاية المنى ومنتهى مايطلبه قلبك الفتي؟ ياالله.. لن تهنأ لـه الحياة بعد اليـوم إلا إذا سافر إلى الأستانة واقتنى الكتـب العظيمة التي لن تصل قطعاً إلى بغداد، لابد أن يفعل ؛ إما الأستانة العظيمة وإما الموت، هذا هو تحديه الأول الذي لو قُدّر له الفوز فيه ستغدو حياته حياة مسحورة وغاصة بالعجائب وهو يأمل أن يفيـد من كل ساعة هنـاك، أما تحديه الآخر الأشد ضراوة فهو الفوز بحبّ بنفشة خاتون مهما كلفه ذلك الأمر من تبعات وتضحيات..

إجتمع رجـال عائلتَيْ الخيامي والكتبخاني في ديوانخانـة الكتبخاني ليبحثوا في رغبـة صبحي السفـر إلى الأستانـة، إرتفعت الأصوات واشتـد الجدال حتى لانت

عريكـة إسماعيـل بك ووافق على مضض شرط أن يعـود صبحي بعد عامين يحمل شهادة مشرّفة من هناك..

قـال رأفت: عمّاه، لا تكفي سنتـان، الدراسة في الكلية تقتضي أربع سنوات في أقل تقدير ولايمكن لأحد أن ينالها في عامين..

– أرى أن صبحي قد يفعل، فلتكن ثلاث سنوات..

ردّ صبحي بجموح شاب في التاسعة عشرة من عمره:

– وأنا أقبل الشرط والإتفاق...

لم ينـم صبحـي في الليالي التي تلـت موافقة والـده على السفـر إلى اسطنبول: إستعبدتـه الأحـلام وتناوبتـه الرؤى وأحـلام اليقظة، حلم بأنه سيجـد في عاصمة السلطنـة مـن المعرفة والتجـارب ما يمنح حياته قيمـة مختلفة عن رتابـة وبؤس أيامه تحـت ضغوط الأبوة المتزمتة وأوضـاع بغداد المضطربة في تلك الأيام التي تنبيء عن حوادث وكوارث غير مسبوقة في البلاد..

جمـع مع متاعـه وملابسه بعض الكتـب التي سيواصل قراءتهـا خلال الرحلة الطويلـة على ظهور الخيل والدواب، هو لايعلم هل سيبلـغ مراده سالماً أم سيواجه في مخاطـر الطريـق وصعوبات السفر ما يحبط روحه ويوهـن عزيمته؟ راودته أسئلة واستفهامـات عديدة في تلك الليالي التي سبقـت بدء الرحلة – هل تراه سيعود إلى هـذه الأرض العتيقة ويبدأ حياة جديدة مختلفة؟ ما الذي بوسعه أن يفعل آنذاك؟ هل ستعينـه دراسته في الأستانة على تغيير نظرته لنفسه وللعالم من حوله؟ قرأ كتبا كثيرة ويتوق لقراءة المزيد هناك، فهل ستعينه تلك الكتب على اختيار الطريق؟ هل سيجد مايخالـف توقعاته؟ وكيـف ستمر السنوات؟ أتكـون ثقيلة الوطـأة أم ستمر مرور النسمات الجذلة؟

لبث يحدق بالساعة الجدارية الكبيرة التي يتحرك رقاصها الذهبي جيئة ورواحاً وراء الزجاج النظيف اللامع وكان يحسب الدقائق سنوات ويرى مرورها الخاطف علـى وجه الساعة التي اعتبرها بديل حياتـه، كان كل شيء ممكناً في حسبانه وعليه أن يجتهـد ويسعى لبلوغ مراميه ولكـن بعدما يغدو رجلاً مهماً بعلمه ومعرفته. هل تراه سيحظى بحب بنفشة خاتون عندما يعود إلى بغداد أم سيسبقه لنيل حبها رجال آخـرون؟ فليجرّب الحلم: يستدعي السنوات القادمة ويجتاز العقبات كلها، ويرى بنفشة خاتون بين ذراعيه الفتيين القويين، يعانقها بقوة فتوته وشهوة المحروم، يقبلها مـن قمة رأسها حتى أصابع قدميها وينتشـي بسماع تنهداتها، في الحلم أيضا شاهد جدتـه الأسطنبولية المتوفاة، كانـت ترمقه شزراً من وراء نظارتهـا المدورة ثم تطلق صوتها الأجش بكلمات صارمة قاطعة:

- عيب ولد أدب سز، عيب..

كانـت الجدة قبـل رحيلها تعده الطفل الأثير لولدهـا إسماعيل بك، وكان ينظر إليها بعجب ودهشة وهي تطرز على قماشة كتان محصورة داخل إطار خشبي مستدير فتظهر الزهور والفراشات والبنات الصغيرات بالألوان، ظنّ أن جدته ساحرة، وأن والدته لاترقى أبداً إلى مستوى جدته التي توفيت وهو لمّا يبلغ السادسة، قالوا له أنها سافرت إلى الأستانة، لكن المربية أم نعمان حدثته عن الموت والرحيل عن العالم...

قبـل سفره بأيـام إستيقظ منتصف الليـل محموماً، فتح نافـذة غرفته حين أعوزه الهواء، سقط مغشياً عليه، وبعد برهة تحامل على وَهَنه ونهض واستلقى على السرير وهـو يشعر بالوحـدة والألم، لاأحد من رجـال البيت معني بأحـد إلا لفرض سلطة وإثبات هيبة، لايتحدث أحد عن نفسه ومخاوفه، الكل صناديق موصدة قد تصطدم يوما ببعضهـا وتصدر ضجيجاً أو تنفتح وتفضح مافي أجوافها من غرائب وخطايا، مـن بوسعـه سمـاع أنينه في منتصـف الليل؟ بكى قليـلاً مثل طفـل ونشج بصوت مسمـوع، الكل نائم أو منشغل بما لديه حتى لكأن أهل البيت غرباء يخشى أحدهم

رؤية مايـدور في خلد الآخرين. كانت أفكاره تتدفـق كالطوفان، تغمره وتغرقه في لجـج الحمى والألم، أفكاره الغريبـة التي لن يتقبلها أحد ممّـن في البيت الكبير، يريد أن يكـون حراً ويحلـق بجناحي نسر كبـير، رأى نفسه يطير فوق النهـر والبساتين ثـم سقـط فوق أجمة أشـواك وخزته في بطنـه وذراعيه، كان يتـألم، نهض من فوق الشوك واستلقى على عشب ندي، إبتلّت ملابسه فشعر بالقشعريرة تجتاح جسده: أمـاه، أماه، ألا تسمعـين؟ أماه، أنا موجوع، رأسي وجسمـي كله يؤلمني، بعد ساعة مـن الإرتجاف والبرد الـذي جمّد عظامه تفصـد العرق من جسده كلـه ثم عاودته قشعريـرة وابترد تماماً ولم ينجح في سحب الغطاء على جسمه المرتعش، كانت يداه ترتجفـان وعينـاه تدمعان، وظهرت لـه جدته تحلق في عتمة الغرفـة: صبحي، تعال، تعال، أسـرع، تعال لأضمك إلى صدري،،، مدّت ذراعيهـا لتنتشله ففزع وصاح: لالا، لالا، أماه، أماه..

إكتشفـت المربّيـة أم نعمان مرضه وهي توقظه صباحـاً لتناول الفطور فأسرعت تخبر أمه:

- خاتون، صبحي أفندي مريض، تعالي بسرعة..

إضطربـت الأم وهرعـت إليه، مسحت العـرق عن جبينه وغـيّرت له ملابسه الرطبـة بينما هيأت أم نعمان مغليـات الأعشاب، سقته والدته مغلـي البابونج أولاً ثـم أرغمته على تجرع الحليب الساخن وبعده سقتـه نقيع قشور الصفصاف لخفض الحـرارة، وعمدت أم نعمان إلى شَيّ رؤوس بصـل وقطعتها ووضعتها حول قدميه وربطتها بضمادات من الخرق وجلست تقرأ له آية الكرسي وتدعو أدعية الشفاء..

عانقته أمه وهي تنتحب:

- كيف ستسافر ياروح قلبي؟ لاتذهـب يا صبحـي، لو مرضـت هناك فمن سيرعاك؟ سيقتلني خوفي عليك.. لا تسافر، لا تسافر..

- لاتقلقي يا أمي، لو مرضتُ فهناك أطباء من كل أنحاء السلطنة يعملون في مستشفيات الأستانة، الأستانة ليست بغداد، لاتخشي شيئاً، أحبك يا أمي...

ساءت حالة صبحي في اليومين التاليين وارتفعت حرارته ولازمه الهذيان وفقدان الوعي، وأخذ يسعل وضاقت أنفاسه فاستدعوا الطبيب الفارسي مرزا يعقوب الذي أعلن لهم:

- الفتى في حالة خطيرة وهذه أعراض التهاب رئوي ولا بد أن يخلد للراحة تماماً ويتغذى على الدجاج المسلوق ويتناول الحليب والعسل، ويمكنكم أن تغلوا له الخل فيتنشق بخاره، وخذوا بعض الزيتون وضعفه من الفجل وليغلى جيداً ثم يشرب المغليّ طوال سبعة أيام، وإن شاء الله سيشفى..

مرت الأسابيع وازداد صبحي هزالاً وشحوباً وفاضت من قلبه الحسرة لضياع فرصة سفره إلى اسطنبول وخلاصه من هذا السجن المقيت في بغداد، إلا أنه كان عازماً على الرحيل لحظة شفائه مهما كانت العواقب..........

بيت الشاي

ولابد أن يتبارك بيت الحب بضرورات الحياة اليومية السبع:

الوقود والقمح والزيت والملح والشراب والنار والشاي

بدأ إسماعيل الكتبخاني والد صبحي – الى جانب وظيفته مستشاراً في الولاية – يتاجر بالشاي ؛ فقد انتشرت عادة احتساء الشاي بين الطبقات الثرية في بغداد وصار موضع مباهاة المترفين أنهم يعدّون الشاي بالسماورات منذ زيارة الملك ناصر شاه الذي استضافه مدحت باشا وهو في طريقه لزيارة المراقد المقدسة. أحضر ناصر شاه – فيما أحضر معه – من هدايا ثمينة للوالي: جوارٍ حسناوات وسجاداً منسوجا بحرير الصين ومجوهرات مطعمة بالتوباز والياقوت والزمرد وتوابل ثمينة من زعفران وزنجبيل ونجمة اليانسون وعطوراً مصنوعة في بلاد الملايو وجزيرة سومطرة كما حمل موكبه ضمن تجهيزات الرحلة الملكية أدوات إعداد الشاي من سماورات نحاسية روسية منقوشة بصور فاتنة وأقداح بلورية من صنع بوهيميا وأنواع مختلفة من الشاي الفارسي والصيني والهندي المخمر والسرنديبي النادر، وقدّم خدمه الشاي للوالي مدحت باشا الذي أعجب به ؛ فما كان من الملك ناصر شاه إلا أن أهداه جميع أدوات إعداد الشاي وأنواعاً من الشاي وترك له أحد خدمه البارعين في إعداد شراب الملوك وخمرة الزهاد، وصار الوالي مدحت باشا يكرم ضيوفه من كبار رجالات السلطنة والقناصل الانكليز والفرنسين والألمان بأقداح الشاي..

إستورد تاجر يوناني وآخر بلغاري بضع صناديق شاي من الهند وباعاها لكبار التجار وقدّما منها هدايا لبعض وجهاء بغداد، فما كان من إسماعيل بك الكتبخاني والد صبحي إلا أن استحصل فرماناً من الوالي نامق باشا الصغير ليحظر استيراد الشاي على الأجانب وينفرد هو باستيراده من الهند وسيلان وبلاد فارس وقدّم للوالي هدية ثمينة لا تقدر قيمتها بمال أو جواهر كما كان يعلن لأسرته ومعارفه حين يتحول الحديث إلى نجاح تجارة الشاي وأرباحها..

كانت البواخر التجارية ترسو في البصرة وتفرغ حمولتها في زوارق بخارية صغيرة تذهب الى بغداد ثم تنقل البضائع على ظهور الدواب الى مخازن التجار، أقام إسماعيل بك مخزن الشاي في غرفة واسعة جافة لها نوافذ للتهوية – حسب ما أوصاه تاجر هندي – للحفاظ على جودة الشاي ونكهته، وخزن فيه الشاي والهيل وأقداح الشاي والسماورات الروسية والفارسية التي تعمل بالفحم، وتنعّمت أسرة اسماعيل بك برفاه احتساء الشاي لأول مرة فأحبوا مذاقه وصاروا يشربونه مع الزبيب وتعلّمت أم نعمان إعداده في السماور من سيدة فارسية – هي زوجة القنصل الفارسي في الأستانة – حلّت ضيفة في البيت مع إبنها عندما جاءت لزيارة الأماكن المقدسة..

قبل سفر صبحي الى الاستانة وهو في طور النقاهة من الحمى والالتهاب الرئوي أعجبه بيت الشاي وسحرته الأشذاء المثيرة للفكر والتأمل ؛ فاستأذن أباه لينام في المخزن ونقل الخدم سريره ومنضدته الأسطنبولية المزركشة بنقوش مذهبة وخزانة كتبه إلى الغرفة التي يخزنون فيها صناديق الشاي..

كانت متعته الكبرى – وربما أحد أسباب شفائه – ذلك الاريج الدافيء الحميم المنعش الذي ينبعث من صناديق الشاي الخشبية الموصدة على كميات كبيرة من النبات السحري الذي له مفعول بلسم شافٍ..

بعـد أن انتشـت روحه بالأشذاء بدأ بتفحص ماتحويـه الصناديق فعثر فيها - إلى جانـب العطـور المختلفة لأنواع الشـاي - على تماثيل صغيرة مـن خشب الأبنوس لفيلة وطيور وأسود وقرود ونمور، جمع عدداً منها ثم وزعها على أخوته وأخواته، وذات يـوم عـثر في أحـد الصناديق التـي وردت حديثاً على كتـاب عنوانه (طريق الشـاي): كان الكتـاب مُترجماً عـن اللغة الصينيـة إلى اللغة التركيـة ومحفوظاً مع صندوق شاي سنغيوان الصيني، وافتتن صبحي باللقية المدهشة.

كتب (طريق الشاي - شاجينغ) راهبٌ بوذيّ وزوّده برسوم بديعة عن حفلات الشـاي والجواري الملكيات والعُشاق الذين يَسمَرون علـى أشذاء الشاي، وشرعَ صبحـي يقرأ الكتاب وهو منتشٍ بالعطر الشذي والكتاب - الكنز، حتى خيلُ إليه أن ثمـة فردوساً يتشكلُ أمام نشوته بتلك الأشذاء العجيبة والصور الملونة فلا يعود يرى غـير حقولٍ خضراء ممتدة علـى سفوح الجبال وأنهارٍ تتدفـق من شعاب الجبل تحت غيوم المغيب الحمراء ونساء فاتنات يتجولن كالطواويس الملكية بين الأجمات والخمائل ومقاصير الشاي...

ينقل في دفتر مذكراته ماكتبه الراهب البوذي:

«... يا نبتة الشاي المبجلة أنت من تمنح الروح مباهجها، مبارك من جعلَ أوراقك مرهمـاً لتسكين الآلام، كم كان أهل المعرفة على صـواب حين اعتبروك سر أكسير الخلـود، وتفنن الأباطرة في ابتكار وصفات من أوراقك مع العناصر الثمينة: صنعوا من مسحـوق أوراقك المجففة خليطاً للكعك الملكي ومزجـوا معها الزنجبيل وقشر البرتقال والبهارات الثمينة النادرة، ورأى المفكرون في شرابك السحري مايربطهم بالكون العظيم ؛ فكل عنصر على الأرض يمثل الكون ويشير إليه.......... «

تمهـلْ إذن أيهـا الفتى، صبحي، وترفـق بصبوات القلب وتعلـم حكمة الشاي من أهـل الشاي، وهيئ شايك علـى وهجات اللهب الهـادىء وتخيل معشوقتك تشاركك احتساء الشراب الثمين وأنتما تذوبان عشقاً..

يكتب الراهب: تتفتح زهور الرمان في الربيع ومعها تطيب أمسيات الشاي، فيوصي كتاب (شاجينغ) بماء الندى وسرّ الماء هو سر الشاي، يوصي الكتاب بجمع القطرات من فوق أوراق اللوتس قبل الشروق، وها أنا أنحني بكأسي البلوري على زهور اللوتس في البرك المضيئة لأجمع هبة الليل: قطرات ندى لشاي روحاني،،، وراء طريق الشاي الذي يرتاده عشاق الشاي دكاكين تبيع ماء النبع، لكني أنا الراهب الزاهد أترع كأس البلور بالندى الذي تشرّب ضوء قمر الربيع وراء جبل الكنوز السبعة..

أتودّ أن تعرف كنوز المعرفة ياقارئ كتابي (طريق الشاي - شاجينغ)؟

كنوز المعرفة السبعة تبدأ بالحب وتنتهي به، الكنوز في ثقافة طريق الشاي هي: أن تحب، أن تجيد عزف آلة وترية - السيتار أو الساميسن، أن تلعب الشطرنج الصيني، أن تجيد فن الخط والرسم، أن تتذوق الشعر، أن تحسن اختيار شرابك، مع كل هذه الفنون لابد أن تتقن تقاليد الشاي وتجيد إسعاد المرأة التي تحب..

ولابد أن يتبارك بيت الحب بضرورات الحياة اليومية السبع:

الوقود والقمح والزيت والملح والشراب والنار والشاي...

ها أنا قد أعددت وقوداً وقمحاً وملحاً بحرياً ونبيذاً وشعلة نار في الموقد وكنوزاً من أنواع الشاي، لكن مانفع كل ما صنعت وهيأت وقد رحلت محبوبتي عن هذا العالم وتحولت إلى نجمة بعيدة؟

النجوم لاتتقن احتساء الشاي، ورغم ذلك لن أهمل واجبي في تحضير الشاي - نبيذ العارفين:

وريقات شاي معطر تتفتح في الإبريق الخزفي الأزرق والأبيض المجلوب من

(بكين) والمرسوم بيد الفنان الصيني (جيانغ ونغ)، وريقات لها خضرة شاطيء مظلل بأشجار خيزران،، تتمدد الأوراق وتفوح بالشذا وتهمهم شأن شفاه عاشقة،، شذاها يزاوج بين لذة الهيل والقرفة – وهو يلذع الشفتين – وبين نكهة شاي ماداي الذي يحتسيه العشاق في حضن غابة الفهود أو عند معبد الجسد المقدس..............

تسحر صبحي أوصاف الشاي في كتاب (طريق الشاي)، يغمض عينيه ويستحضر المشاهد التي يصفها الراهب، ويرى فيها إمرأة أحلامه الفاتنة تهبط من جبل الروح وتقدم له قدح شاي معطر تحفّ بها أشذاء البنفسج، وتغني له بلغة غريبة تسحره وتفقده الصواب،،، يفتح عينيه ويردد: سألتقيك أيتها المعشوقة التي قادني إليها طريق العشق والشاي، سأجدك يوماً ما ونحيا معاً في ظلال أشذاء الشاي، فإما أن نجتني السعادة حتى النهاية أو نموت معاً دونها...

يكتب البوذي عن الشراب السحري:

(... الشاي يواشج بين تضاد النار والماء، يوجِدُ لغة انسجام كوني بين العناصر ويتيح توافق الأضداد، تتراءى الطبيعة في توافق العناصر وفي تحوّل الماء وأوراق الشاي – بفضل النار – إلى شراب باهر ويتحول الشاربون الماضون في طريقه إلى مرتبة رهبان الحب، بوسع شاربي الشاي أن يبدلوا النكهات على مدار ساعات اليوم فيتغير مزاجهم وتصفو أرواحهم،،، زرت بلاد الروس وتعرّفت إلى زفير السماور النحاسي يناغي غبش المساء مع أشذاء النيلوفر والقرنفل الناعس على الأحواض، سماور مصنوع في سيباستبول الروسية، أشعلتُ في جوفه فحم شجر الدردار وأترعته بماء نبع ورصفت على مائدة صغيرة أكواباً خزفية مذهّبة أبدعها حرفيو أذربايجان ورسموا عليها أسماك بحر قزوين..........)

ينتشي صبحي بكتاب شاجنغ، يستلقي على سريره المعطر بأريج الشاي

ويستحضر وجه حبيبته التي سيلتقيها ويعلمها طقوس الشاي ليرتقيا معاً جبال النور ويحوزا كنوز المعرفة السبعة..

أدمن صبحي إحتساء الشاي مثلما أدمن قراءة كتاب شاجينغ طيلة إقامته في حجرة الشاي بل وحفظ فصول الكتاب وهو ينقل محتوياته إلى دفاتره، وحاول أن يكتب شيئاً عن الشاي وهو يحتسي قدحاً من الشراب الساحر حتى صار الكتاب مرجعه وملاذه ومحط أحلامه..

كتب صبحي: ممتنٌّ لمن أزدهر على يديه حضور الشاي في بغداد ومنحني هذا الكتاب العظيم، تعلمت الكثير عن مُتع الشاي وملذاته الخفية الناعمة شبيهة الجواهر الثمينة التي لايدركها المتاجرون به ولا من يحتسونه على عجل ولايتفكرون في أمره ولايعلمون شيئاً عن طقوسه وقيمته في حياة أهل الشرق..

كتب في صفحة جديدة:

يحتسي الناس الخمرة لينسوا أحزانهم وأشرب الشاي لأحصيها

الفصل الرابع

الأستانة: عشق وموسيقى


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرحلة

من لم ير إلا بلده فإنه قرأ الصفحة الأولى حسب من كتاب الكون

فوجريه دو مونبرون

كان صبحي راقداً في غرفة الشاي، نظر عبر النافذة إلى شجرة النارنج المزهرة ولفحه شذا زهورها بهبوب النسائم، أحسّ أن شجرة النارنج توزع حنانها عطراً على من حولها وتهبه لهم دون أن تطالب بشيء، فكّر أن للأشجار أرواحاً وقلوباً أرقّ من قلوب بعض البشر، لعل قلبها مثل قلب مربيته أم نعمان ؛ فهي أكثر سكان البيت اهتماماً به وانشغالاً بصحته بعد والدته.

أوجع فؤاد صبحي أن أباه لم يأبه بمرضه عندما كان طريح الفراش وكان يسأل والدته وهو يمضي خارجاً:

– أما زال صبحي راقداً؟ حسبه دلالاً...

وكانت الأم ترد: الولد مازال مريضاً وضعيفا..

– لاتشجعيه على الدلال، فلينظر إلى أخيه نشأت الذي يعمل ليل نهار، كيف سيسافر وهو على هذه الحال؟

سمع صبحي حوار والديه فارتعش فؤاده..

- ينبغي لي أن أقاوم ضعفي وأنهض..

صار يأكل جيداً ويتمشى في الفناء ويتشمم ورود الجوري في الحديقة فينتشي بشذاها ويتنفس هواء سخياً ممتزجا بالعطور وروائح الحياة، إبتهجت أمه وأختاه وضاعفت أم نعمان من اعتنائها به:

- ضروري جداً أن تاكل حتى ترد روحك إبني صبحي

وكان يشاكسها: أم نعمان، روحي معي، ماراحت بعيداً..

فتضحك وتقدم له الكبد المشوي ثم تأتيه بطبق الرز بالحليب..

هيأ رأفت الخيامي مستلزمات السفر لشقيق زوجته صبحي، وكان معجباً به وباهتمامه بالكتب والكتابة ليل نهار وانصرافه عن مهنة التجارة التي برع فيها والده اسماعيل بك وتبعه ولده نشأت الذي اكتفى بالمدرسة الرشدية ولم يطمح لإكمال الدراسة في الاستانة كما اعتاد رجال عائلتي الخيامي والكتبخاني. أكمل رأفت الخيامي تدبير أمر السفر لصبحي مستفيداً من خبرته في سفراته المتعددة إلى الأستانة واتفق مع صاحب الدواب المعدّة للسفر (المكاري) حميد بن مكية وشريكه حسن سعدون على موعد السفر: أعدوا القافلة المكونة من أحد عشر حصاناً ذات لوان متفاوتة مابين الأشهب والأصهب والأبيض وحمارين لحمل المؤونة، وصحبوا معهم مُدبّراً لشؤون الطعام والخدمة يطلقون عليه اسم (العكّام)، إلتحق بالقافلة تاجر سجاد أفغاني متجهّم الملامح يعتمر عمامة حريرية منقوشة بألوان عجيبة ويتكلم بعبارات غريبة كأنها الطلاسم، وكان يغري الطبيب التركي عبد المجيد بشراء سجادة ثمينة صغيرة الحجم من سجاد مدينة بلخ المشهورة بنقوشها الخلابة، وظل الطبيب يساوم الأفغاني حتى غادرت القافلة بغداد ووصلت إلى منطقة الوشاش ولم يوفّق التاجر في صفقته...

أمـا الضابط التركي رشدي بيك فكان يتبختر على فرسه البيضاء متقدماً القافلة مزهـواً ببزته العسكريـة وطربوشه ونياشينه السلطانية، يمنُّ علـى الجميع أنه تنازل وسافـر مـع أناس لايرتقون إلى مكانتـه الساميـة في الجيش العثماني، وبـدأ يعامل المسافرين كجنود تحت أمرته ويأمر وينتظر أن يُطاع حتى ضج المسافرون بالشكوى لصاحـب القافلة، بل أن بعضهم طلب الرجـوع إلى بغداد تجنباً للمهانة، لكن حميد أبـن مكيـة - بحكمةٍ كسبها من طـول التعامل مع أصناف البشـر خلال الرحلات الطويلة على صهوات الجياد - أفهم الضابط التركي بهدوء أنهم رفقة سفر وليسوا في ثكنة عسكرية وعليه أن يتعامل مع المسافرين بطريقة أكثر كياسة ولطفاً..

واصلـت القافلة رحلتها حتى منتصف الليل وتوقفت في منطقة خان النص بعد الفلوجة، نصبوا الخيام وأعدوا العشاء، وبعد منتصف الليل عاودت القافلة المسير، كانـت نجوم تتوهـج وتنطفيء هنا وهنـاك في السماء النيلية القاتمـة فأحسّ صبحي بانقباض قلبه، وغدا في تلك اللحظات فريسة خوف مريع من الرحلة حتى أن فكرة العـودة راودته، وفي العتمة الباقية لم يلمح أحد من المسافرين دموعه التي انهمرت، إعتصـرت قلبـه الوحدة وتملكه خوف مبهـم من الرحلة، لكن روحـه هدأت قليلاً عندما لاحت له شجرة وحيدة على حافة مرتفع حجري وكأنه رأى صديقاً قديماً أو أخاً مثلما كانت شجرة النارنج تعتني بروحه في الخفاء وتمنحه أشذاءها وثمارها التي كانـت أم نعمان تبرع في تهيئة العصير الشهي منها، كانت شجرة النارنج وأم نعمان تهتمان به أكثر مما يفعل والده - الرجل ذو القلب الحجري والقسوة المفرطة...

بـدت الخيول المسرعة بألوانها السوداء والشهباء مثل كثبان تهب من الصحراء المخيفـة وتنطلق نحو الأفق محمولة في الريح العاتيـة، بعد مسيرة يسيرة ران صمت رهيـب على الجميع عندما تعـالى عواء ذئاب فتوقفت القافلـة واضطربت الخيول، نـزل المكاري إبن مكيـة وجمع نبتات شوك جافة وأوقد نـاراً وطلب من مساعديه جمـع المزيد من هشيم الشوك، ومـا أن هبت شعلة النار وشقـت بقايا العتمة حتى

صمتت عصبة الذئاب وانسحبت بعيداً، إمتشق الضابط التركي بندقيته وأطلق النار في الهواء لإرعاب الذئاب الغبراء..

بعد أن إستضاءت السماء بخيوط من أشعة الشمس رأى صبحي وجوه المسافرين المرتعبة يعلوها الوجوم والشحوب وفوقها تكدست طبقات الغبار حتى اختفت الملامح وتشابهت الوجوه، تناوب المسافرون على الجلوس في المحامل التي تشبه مهوداً خشبية محمولة على محور رجراج وبدوا كأطفال مسنين مشوّهين في جلوسهم المرهق على الوسائد المحشوة بالصوف..

توجّب على صبحي أن يتشارك مع التاجر الأفغاني ركوب المحمل الذي يوضع على الحصان كهودجين صغيرين على الجانبين ويفرش ببعض الأبسطة والوسائد لراحة المسافرين من إرهاق امتطاء الخيل طوال أيام في الصحراء، ثم ينزل بعضهم من المحمل ويسيرون مع القافلة ريثما ترتاح سيقانهم من الجلوس المقرفص في المحمل..

حدثت مشادة بين صبحي والأفغاني ؛ فلم يكن المحمل متوازناً بسبب بدانة التاجر ونحافة صبحي، طلب صبحي من صاحب القافلة أن يستبدل مكانه في محمل آخر مع مسافر في مثل حجمه الضئيل، فما كان من الرجل إلا أن وضع وسائد إضافية مع صبحي ليتوازن المحمل دون أن يحقق له ما أراد من تغيير رفيق السفر في المحمل..

تعلم صبحي في الرحلة أشياء كثيرة عن الناس وأنانية البعض وبخل الآخرين: عرف أن الحياة أصعب وأكثر تعقيداً مما كان يتراءى له وهو في منزل عائلته مستغرقاً بالأحلام وكتاب الشاي يمضغ الأماني ويعتاش على رؤاه الغريبة، وهاهو الآن يواجه الحياة وحيداً بلا سند ولا مُعين ولاتجربة سابقة وهو غريب وسط هؤلاء المسافرين رغم معرفته بالضابط رشدي بيك والتاجر الافغاني وكلاهما رجلان يكبرانه بنحو

عشرين عاماً، وكان معه زميل دراسة أسمه أسعد لم يكن صديقاً بمعنى التآلف والحوار مع صبحي ؛ فهو فنان خط وزخرفة منغلقٌ متحفظ لائذ بالصمت أغلب الوقت..

كانت القافلة تواصل الرحلة كلما هبط الليل وتحط رحالها عند شروق الشمس في الصحـراء اللاهبة، ومن عادة تلك القوافل أن تحط رحالها يومين في أقرب مدينة لترتـاح الخيول وتتزود القافلة بالمؤونة، وأقرب مدينة كانت الرمادي - تلك القرية الصغـيرة المنسية التي أسّسهـا قبل نحو أربعين عاماً الوالي مدحت باشا لتغدو خلال عشـر سنـوات محطة للقوافـل والمسافرين بين جهـات السلطنة. لم يكـن ثمة سوق للتزود بالطعام ؛ فكان توقف القوافل هناك فرصة ليتسابق مربو الأغنام والمزارعون ليبيعـوا الخبـز واللبن والحليب والحمـلان الصغيرة التي كانت تُذبـح وتُشوى على نـار الحطب أمام الخيام التي ينصبها العكام ويمدُّ فيهـا الأبسطة والأفرشة والوسائد لينـام المسافرون حتى يحين موعد الوجبة الوحيدة التـي يتناولونها رغم أنهم كانوا يحملـون في أمتعتهـم الزبيب والتـين المجفف والفستق واللوز والجـوز ويتناولون منـه خلال مسـير القافلة ليلاً. تـزودت القافلة بالخبز والماء الـذي حملوه في زقاق جلديـة على الخيول وتموّنوا ببعض الخضار والتمر وثمار السفرجل التي تتحمل حر الصحراء ولايطالها التلف..

كان صبحـي أصغـر المسافرين عمراً مـع زميله أسعد الـذي كان يقصد دراسة الخط في الأستانة على أيدي أساتذة الخط، وكان الشابان اليافعان حذرين من الكبار الذيـن يتعاملون مع بعضهم بنوع مـن الجفاء والإرتياب والنفعيـة، أثار ذلك الأمر مخاوف صبحي وقرر مع أسعد أن لايكلما أحداً ولايقتربا من أحد باستثناء صاحب القافلة الذي كان يتعامل بحزم مع المتشاجرين والمناورين الكبار، وكان - بعونٍ من طباخ القافلة - يعدُّ لهما الطعام ويجلِسُهُما منفردين في خيمة صغيرة..

صبحـي الذي لم يغادر بيتـه ولم يجرّب غربة عن أهله من قبـل كان مرتبكاً رغم بهجتـه الروحية بالتحرر من أغلال حياته التي كان يعاني منها في بغداد، يخفف عن

روحه أمل الحياة المبهجة التي تنتظره في الأستانة ؛ فكان يجلس ساهماً في المحمل وعندما تتوقف القافلة عند بزوغ الشمس ينصرف إلى القراءة في كتبه. إكتشف المكاري ابن مكية عزلة الفتى وانهماكه بالقراءة، فقال له:

- لاتخش شيئاً من أحد يا صبحي بك، أوصاني والدك ورأفت أفندي بكَ ولن أدع أحداً ينغص عليك الرحلة أو يزعجك، أنت بمثابة أمانة لدي..

بدأ المكاريان والعكام بإعداد الخيام وتجهيز الطعام، وسمع صبحي أحدهم يغني:

سفين بلا بحر قلبي وإلك راح

منعت هواي من عندك وإلك راح

تكلي شراح من عندك وإلك راح

قلبي الراح إلك ما رَدّ إليّ..

إهتاجت أشواقه لمحبوبته السرية بنفشة خاتون ودمعت عيناه لكنه تمالك نفسه وسرح في تخيلاته العشقية بينما كان المغني يردد بصوته الرخيم وهو يوقد النار تحت القزان الكبير لطبخ الطعام:

يقلبي مثل نار الوطس وإن جم

يدمعي يشبه الشلال وأنْ جَم

مانساكم إن طال المكث

ونجومِ تغيب ويترك الذيب العوا..

وسرى هرج وضجيج بين المسافرين ؛ فقد طالب بعضهم بتحسين الطعام وزيادته لأنهم دفعوا أموالاً طائلة للمكاري من أجل الخدمة والطعام، إستطاع

المكاري تهدئتهم ووعدهم خيراً في الإستراحة التالية، وصار يروي الحكايات المضحكة عن المسافرين في قوافله وغرائب عاداتهم ومخاوفهم وبخل بعضهم وفجور البعض الآخر، وتعالت الضحكات والأصوات غير أن صبحي كانت له مشاغل أخرى وهو مستغرق بنشوة تحرره الوشيك في الأستانة ومشفق من مستقبله الغامض فيها، ويحلم بما سيكتشف ويرى من عجائب وكتب ومتع، ينام في المحمل ويرى أحلاماً شبقية: إمرأة جميلة لها رائحة بنفشة غائمة الملامح تصحبه إلى روضة من رياض الأستانة ومغانيها، تقود رغائبه بخبرة أنثى عارفة بكل ما يفكر به شاب مثله، وما يلبث أن يستحضر صورة امرأة جميلة من قريبات والدته كانت تأتي مع وصيفتها و تثير فيه جنون الشهوة التي يكتشفها المراهق بغتة، إعتادت تلك المرأة الفاتنة زيارتهم في الأعياد والمناسبات العائلية ؛ فكان يهرب من نظرتها الحارقة وفتنتها الموجعة متلعثماً راعش القلب خشية أن تفضي استجابته لسحرها الأنثوي إلى فضيحة وسط الأسرة، لكنه لم يكن ليخشى أن يصحب طيفها إلى سريره فيعانقها ويمتلكها جسداً شهياً ويضع رأسه بين نهديها العامرين ويشبع شهوته الجامحة ويغفو غارقاً بلذة سعادة منقوصة و يغمره فيض من النشوة حين تصحبه الفاتنة الأسطنبولية المفترضة في حلمه إلى فراديس باهرة الجمال...

دامت الرحلة على هذه الحال أربعاً وعشرين يوماً حتى وصلت القافلة إلى حلب، فأمضى المسافرون يومين في أحد الخانات للراحة والتزود بالمؤونة وتغيير القافلة بقافلة أخرى لمن يروم السفر إلى الأستانة من ميناء الإسكندرونة. كان لابد لصبحي كي يغدو أفندياً حقيقياً في عاصمة الخلافة أن يغير ملابسه في أقرب مدينة ؛ فقصد منذ الصباح تاجراً حلبياً يعرف عنوانه وهو من معارف والده، صحبه الرجل إلى سوق حلب الكبير، إشترى صبحي بدلة إفرنجية قاتمة ومعطفاً طويلاً كتلك الملابس التي كان يراها في صور المجلات، إرتدى الملابس و لبث يتملاها بإعجاب غير مصدق بما أضفته عليه من مهابة وهو الذي طالما تمنى أن يرتديها لتمنحه الحرية التي

يتشهى بعد أن خلع الملابس التي أتى بها من بغداد، تنهّد وشعر بأنه تحرر من عبءٍ ثقيل طال حمله واعتبر ملابسه البغدادية منذ تلك اللحظة أسمالَ زمنٍ لن يعود، وطلب من مالك المخزن أن يهبها لخادمه، إنتشى جسده الفتيّ وهو يلامس القميص القطني الرقيق بنعومته الفائقة وامتلأ زهواً والبائع يعلمه كيف يعقد الرباط الحريري الفرنساوي الصنع وكيف يعتمر طربوشه الجديد الذي يليق ببدلته الفاخرة، ولم يكتم مشاعر الفخر بالتغيير الذي حصل له وهو يرى هيأته الجديدة التي جعلته رجلاً ذا شخصية مختلفة تماماً وتناسب شاباً سيدرس في الأستانة..

بعد يومين مرهقين من سفر بين جبال الشام ووديانها وصلت القافلة إلى الإسكندرونة وانبهر صبحي برؤية البحر الأزرق الشاسع، أمضوا الليلة في الميناء وفي الصباح غادر مع أسعد الخطاط ومسافرين غرباء على متن باخرة تجارية فرنسية قديمة إسمها (باتريا) مرّت بهم على الجزر اليونانية (ساموس) و (وخيوس)، توقفت الباخرة في ميناء متليني في جزيرة ليسبوس لإنزال بعض المسافرين مع حمولة من الفستق الحلبي وأنسجة الحرير الدمشقية و البروكار(الدمقس) والفواكه المجففة والأثاث المطعّم بالصدف ومصنوعات الجلود الشامية ثم اتجهت الباخرة إلى مضيق الدردنيل حتى إجتازت بحر مرمرة ورست في ميناء آلتن بيونوز عند شروق الشمس بعد تسعة أيام مرعبة أمضوها في مواجهة أنواء البحر ومطر العواصف العاتية...

الأستانة

إستيقظْ من الكابوس ياصبحي: ها أنت في الأستانة، إستفق على الحلم الذي يفوق الفردوس سحراً، كان منظر المدينة من الباخرة مبهراً في الصباح الباكر ؛ بدت الأستانة غارقة في ذهب الشمس مثل حلم خرافي لم يكن ليخطر لي على بال في حياتي..

لم أصــدق ما أرى، توقفت برهة على سلم الباخرة وتلفتُ إلى الجهات كلها ورأيت بحــر مرمرة ورائي والمدينــة العظمى أمامي، تلفــتُّ ثانية لأطرد الشــك وأنا أردد غير مصدقٍ : أنا في الاستانة، أنا في الاستانة، أنا في الاستانة..

ضحك مني أسعد وهو يرى اندهاشي، لم يكن مصاباً بمرض الأحلام الموجع مثلي – أنا الذي تحولني أحلامي إلى كائن له ألف جناح وتتضارب في أعماقه ألف رغبة فينكرني رفيق سفري أسعد ويهتم بألوان الصدأ على حديد سُلّم الباخرة، ويتفحص حقيبته كل آونة ليتأكد من سلامة حاجياته وأدوات الخط...

بدت المدينــة المشيدة على التلال المرتفعة المطلة على بحر مرمرة ومضيق البوسفور مذهلــة لي أنا القادم مــن بغداد المنبسطة التي تغفو حزينة تمد جناحيها على ضفتي نهرها فيغافلها دجلــة بطوفان وغزاة، مدينتي العتيقة بأناسهــا المأسورين في البؤس والخانعين للمظالم، في تلك اللحظة إنهمرت دموعي فرحاً بالأستانة وتأسياً على بغداد..

أول مارأيــت مــن الأستانــة قبــاب جوامعها الفيروزيــة ومآذنهــا المستدقة التي تختلف عن مــآذن بغداد العباسية والمغولية الطرز التي طــال بعضها التلف والدمار على عهد ولاتها المختلفين ممن أعقبوا مدحت باشا، إرتجف فؤادي وانتشت روحي

وأنا أستنشق نسمات الصباح المحملة برطوبة البحر وملحه بينما كانت تضج حولنا صرخات النوارس الشرسة التي أحاطت بالسفينة قبل دخول الميناء.

غـادرتُ السفينة مع رفاق الرحلة وبينهم أسعد إلى فندق يطل على برج غالاتا، وقـررت البحث عن سكـن وسط المدينة القديمـة ليكون قريباً مـن المدرسة الملكية الشاهانية التي أتوق للدراسة فيها، طال بحثي حتى عثرت على منزل قديم في شارع (ديوان يولي) استأجرته مع زميلي أسعد وأهملت الإتصال بقريب رأفت..

نجـح أسعد في امتحان القبول للمدرسـة الملكية الشاهانية وانشغل بقية أيامه في التعرف إلى أساطين الخط في الأستانة وماعدت أراه إلا لماماً...

أخفقت في الإمتحـان، يالشماتة إسماعيل الكتبخاني لو علم بالأمر، لم أستسلم وقـررت أن أقدم امتحاناً للقبول في كلية الطب العسكرية: هذه الكلية التي عرفت بأنهـا كانت منطلقـاً لمؤسسي جمعية الإتحـاد والترقي - عبدالله عـزت وإسماعيل ساتروفا وغيرهما - ونجحت في امتحان القبول..

كانت تقام في تلك الكلية مسابقات تأريخية وسياسية وجغرافية واقتصادية عن الدولـة العثمانية وامتداداتها والدول الأوروبية وأحوالها، وتضم الكلية خليطاً من الطـلاب القادمين من بغداد والشام والبلقان ومصر وكريت وبلغاريا وجميع أنحاء السلطنـة، برزتُ مشاركاً دائمـاً في هذه المسابقات المسلية التـي أنعشت ذاكرتي بمعلوماتهـا وكشفـتْ عن قدراتي ومعـارفي الثريـة وبراعتي في اللغـة التركية أمام الطلاب والمدرسين..

إنسحـرت في الشهـور الأولى بقـراءة جميع الصحـف العثمانيـة الصادرة في أسطنبـول والأناضـول والروم إيلي - المنطقة الأوروبية مـن السلطنة - وكنت في بغـداد أقرأ الصحـف بعد أسابيع من صدورهـا فلم أنم في تلك الأوقـات إلا نادراً لأتمكن من التهام الصحف والكتب والمجلات..

أسير في شوارع اسطنبول وأبتسم لنفسي وأرى صبحي الحزين الخانق يجرجر الخُطا ورائي، أسمع شهقات دهشته، أسمع تنفسه، وألتفت إلى الوراء فلا أرى غير العابرين الغرباء ولاأثر لصبحي الذي يتبعني..

لم تكن المدينة كلها بالعظمة التي تخيلتها، فقد مررت بأزقة عتيقة ودور مهدمة الجدران وكلاب نابحة وأطفال يتسوّلون، ثم خرجت إلى شارع كبير تنتظم على جانبيه مبان شاهقة بطوابق عديدة وتكتنف المباني حدائق جميلة وأشجار وارفة، وهناك لم يعد صبحي الصغير المبهور خائفاً، بل كان يهمس لي:

– هل صدقت الآن؟ هل عرفت الآن أنك في الأستانة؟

كنت أتحدث إليه بصوت مرتفع:

– نعم أنا الآن في الأستانة..

فيهمس لي: حسناً أيها الشاب، سأدعك الآن وأعود إلى غرفة الشاي في انتظار عودتك..

أقول له: لاتتركني، سأحتاجك، أعلم أنني سأحتاجك..

فيهمس لي: سأكون قربك متى ما احتجت إلي..

لاحظتُ في قاعة المطالعة – بحسّي الحذر – طالباً تركياً من طلبة الصف الثاني كان يراقبني وأنا منهمك بقراءة الصحف والكتابة بعد ساعات الدراسة، وذات يوم بادرني بالتحية وقدم نفسه: عزيز فؤاد من أزمير..

– صبحي إسماعيل الكتبخاني من ولاية بغداد..

– أراك كثير الإهتمام بقراءة الجرائد والتعليق عليها في دفترك، هل تعدُّ نفسك لتكون كاتباً؟

– إنها هواية لازمتني منذ سن مبكرة، كنت أكتب ملاحظاتي ويومياتي من فرط الضجر، لم أفكر أن أكون كاتباً في يوم ما..

– لِمَ لا؟ بوسعك أن تكون كاتباً هنا..

– حسبي أن أدون ملاحظاتي عن الحياة والمدينة وما أحسه تجاه الأشياء.

– كيف وجدت الأستانة؟

– مدينة عظيمة لكنها من جهة أخرى مدينة لها ألف وجه ولاأستطيع الإلمام بكل مافيها، أتساءل أحياناً كيف لي أنا الشاب القادم من بغداد أن أكتشف وجوهها وأتعرف إلى أسرارها؟

– هل يروق لك أن أكون دليلك لأطلعك على أسرار الأستانة؟

– سيكون ذلك كرماً كبيراً منك..

– كن مستعداً عصر اليوم، سأصحبك إلى حيث نحتسي أفضل قهوة في الأستانة وبعدها نمضي إلى حيث نشاء..

– سأنتظرك..

وصلتني من رأفت إمداداتٌ من المال وصندوقٌ صغير من الشاي السيلاني عبر صديق لوالدي من التجار الأتراك، فسارعت لاقتناء الكتب التي كنت أحلم بقراءتها، وأمضيت الليالي ساهراً أقرأ وأدون ملاحظاتي، كنت مفتوناً بما أجد في الكتب من أفكار جريئة غريبة عما ألفته في بغداد وماعرفته من ضيق وتشدد في محيط أسرتي، سحرتني أجواء الاستانة ومقاهيها وشوارعها التي تعج بالحركة وكنت أستقل الترام الذي تجره الخيول وأمضي إلى مقاصدي فأكتشف كل يوم بعضاً من خبايا المدينة وأسرارها وسحرها..

صحبني عزيز إلى المقاهي الشهيرة التي تقدم أنواع الشاي والقهوة والبوظة كما أخذني إلى المساجد المدهشة بعمارتها الراقية وزخارفها ومساحاتها الشاسعة، وفي إحدى الليالي رافقني إلى التياترو الشرقي الذي يعج بالراقصات والمغنيات وهناك إكتشفت أسرار الحياة ومتعها التي ماتخيلتها أبداً، تعلقت بامرأة فاتنة صحبتني إلى بيتها وعرفت معها للمرة الآولى إختبار رجولتي، أخذت المرأة الفاتنة المدربة بيدي إلى سبل المتعة والمواساة الإنسانية الحاذقة مدفوعة الثمن وأسكرتني بالنشوة التي اكتشفتها معها بعد أن كنت أتخيلها مع بنفشة خاتون أو أحلم بها وأكتب عنها في مدوناتي البغدادية وحسب، واعترفتُ لنفسي أنني كنت فتى غِرّاً جاهلاً لايفقه شيئاً من أمور الهوى وسحر النساء وحقيقة المُتَع..

تساءلت: أهذا هو ما أسعى إليه حقاً، وما جئت للأستانة من أجله؟

إستفقت من حياة تشبه السبات ووقفت وسط المدينة أعلن حريتي وأعزّز أحلامي وأسعى لأحمي نفسي من التحلل في ركود الحياة الخاملة، كنت أتوهج وأشتعل وتتعالى من قلبي وجسدي ألسنة لهب تنبؤني حرارتها بأنني حي إلى أقصى حدود الحياة، وأن صبحي الصغير المسكين انصهر في هذا اللهب وتحول إلى كائن لاعلاقة له بذلك الفتى المأسور في غرفة الشاي..

صحبني عزيز فؤاد بعد أسبوعين من تعارفنا إلى مقهى (آهزك) وقدّم لي إثنين من أعضاء جماعة الإتحاد والترقي: محمد أمين و يغمور سليم، تبادلنا الأحاديث العامة والشائعات التي تطوف في أسطنبول كما الغيوم الرمادية، وسألوني عن أوضاع ولاية بغداد فكنت أجيب بردود مبتسرة، وتكلم يغمور سليم عن بلاد البلقان وتمردها وعن بلغاريا واحتمال انفصالها عن السلطنة، وعن الآمال التي يعلقها على الجيش الثالث المرابط في سالونيك لفرض الدستور في أرجاء السلطنة..

لم أتكلم ولم أعقب، كنت أنصت حسب وفي رأسي تدوم الأفكار المتضاربة،

وعرفت من عزيز فيما بعد أن يغمور أعجب بي وأنه مسرور بلقائي، ثم أخبرني بشيء من الحذر المتقن وبكلمات بسيطة مباشرة أن جماعة الاتحاد والترقي تأمل أن أكون عضواً فيها ؛ فأهدافها تعني الشباب المتحمس ولابد أنني أتوق لتحقيق العدالة وفرض القانون في بغداد حسب ما أعلِنَ في المشروطية الأولى، كما يرومون هم فرض ذلك في أنحاء السلطنة..

أعود كل ليلة إلى البيت الذي أقيم فيه مع صديقي أسعد، فأجده منهمكاً بتمارين الخط بعد زيارته للمساجد الكبرى التي يستلهم من زخارفها مواضيع لأعمال الخط، هاهو يجلس الآن بهيئته المتقشفة ووجهه الأسمر وأنفه العريض لايرفع رأسه فكأنه لايراني. كنت أجده أحياناً ينسخ قصار سور القرآن على ورق سميك ويزخرفها بألوان فيروزية وذهبية فيبهرني بالأشكال المنحنية الرقيقة للحروف المذهبة وكيفية تعامله معها بإجلال وقدسية حتى لكأنه يعانق الحروف والكلمات ويذوب فيها وكأنها كائنات حية تولد من بين أصابعه البارعة، وكان يذهلني بقدرته على موازنة السطور وألوانها وكيفية رسمه النقوش النباتية حول حواف الصفحات..

إنغمس أسعد في عشق الخط الذي اعتبره ملاذه الروحي وخلاصه وهو الذي يحرص كل لحظة على استثمار الزمن فينجز أجمل الخطوط للعبارات المأثورة والآيات القرآنية، ثم يؤطر بعض لوحاته التي انصهرت فيها روحه ويهديها إلى من يقدّرُ فنه وخطه من أساتذته..

أعددت الشاي مثل كل مساء فشكرني وهو يتذوق الشراب اللذيذ الذي لم يعتد على ترفه في بغداد.

سألني ذات مساء: مالذي تكتبه ياصبحي في دفاترك؟

- أسجل أفكاري عن الأحداث وآمالي التي تشغلني وأدون بعض مايعرض لي من أمور الدنيا..

- هل تدوّنُ أحداث التاريخ؟

- لا أدري ماذا أسمي عملي، لست كاتب تأريخ ولست كاتباً أصلاً إنما هو شغفٌ تملّك روحي منذ الصبا، أكتب لمتعتي دونما هدف محدد، فليكن تأريخاً أو شهادة أو اعترافات، ربما بوسعك أن تدعوها إعترافات لكني أكتبها أحياناً بلسان شخص آخر كأنه قريني..

- عملك يبقى ناقصاً..

- أعلم ذلك، كل مانقوم به يبقى ناقصاً دونما شهود عليه، خطوطك البارعة لها قيمة ثمينة لأنها تبهج الناظرين وتسرُّ القلوب بجمالها ومعانيها، لكن بهجتها عابرة ؛ فالناظر إليها يمضي وبعد برهة ينسى..

- لكنها تبقى موجودة ومرئية..

- تعني أن عملي غير مرئي ؛ لذا فهو غير ذي نفع..

- لم أقصد التقليل من شأن عملك، لكنه عمل خفي، لايدركه أحد ولايرى نتيجته بشر..

- لعلني أكتبه لزمن آخر..

- إذن أنت تحاول أن تكتب تأريخاً وتنكر ذلك، لكنك ياصبحي لاتملك عدّة المؤرخ، أنت تكتب ماتراه وتحسه لا ما يحدث حقيقة..

- أنت تعرّف التأريخ كما وصفه عالم البلاغة الشيخ محيي الدين محمد بن سليمان الكافيجي..

- وكيف وصفه الكافيجي؟

– قال: ا لتأريـخ تعريف الوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع كظهور ملّة، أو وقوع حادثة هائلة من طوفان أو زلزلة عظيمة..

– حقا، أنا أفهمه كما يقول الكافيجي..

– ماأبتغيه مختلف عن هذا، لا أروم تدوين الحوادث لأصنع تأريخاً، أريد أن تمتزج روحي وأحاسيسي بما أسجله وهذا غاية ما يطرب الروح..

إنصرف عني أسعد وأدركت أنه أراد قول شيء آخر لكن التردد حال بينه وبين الكلام، أحسست أنه يكتم أمراً يثقل على روحه، وهو أمر يتعلق بي، لبثتُ واقفاً أمامه وهو يرسم الكلمات بصورة طغراء ملتفة، تشبه تاجاً مرة أو مجموعة من الأفاعي مرّات، كانت الكلمات تنبض كالموسيقى وهي تتلوّن وتتوهّج على الورق، لم يرفع رأسه وهو يرسم بل تنهد وقال:

– صبحي، أنت بمثابة أخي، لابد أن أحذرك، لقد جاء اليوم أحد الأتراك وسألني قائلاً: هل يزور عزيز فؤاد صاحبك صبحي؟

– وماذا قلت له؟

– قلت له أنا لاأعرف من هو عزيز، ولم يزرنا أحد، أرجو أن تكون حذراً في صداقتك بهؤلاء الناس ؛ فلا تسبب لنا حرجاً أو تدفع الناس للأرتياب بنا..

– لاتخشَ شيئاً، لن أتسبب في حرج لك أو لسواك..

– نحن قاسينا الكثير وأنفقنا أموال أهلنا لنصل الأستانة ونكمل دراستنا، فلا تفرط بشيء من أجل أمور غير مضمونة..

– وما الذي تراه غير مضمون؟

– ما أنت فيه من انغماس في الخروج ولقاء الغرباء، أنت حر، فلست قريبك ولا أنا والدك ولكني أفكر بنفسي أيضاً ؛ فقد أُحاسَبُ بجريرة سواي..

– لم أفعل ما يستدعي مخاوفك..

– آمل ذلك..

قال هذا ونهض وعانقني:

– أغفر لي كل مانطقت به ؛ فإني أحرص عليك كما أحرص على نفسي..

لزمنا الصمت طويلاً، ثم طلبت منه أن يهيئ نفسه للذهاب معي إلى أحد المطاعم القريبة لنتناول عشاءنا ونعود، إستسلم أسعد لي وجمع أوراقه وقصبات الخط وزجاجات الحبر حيث كان يكتب في الشرفة المنيرة ووضعها على منضدة في غرفته، إرتدينا معاطفنا ؛ فقد كان الجو منذراً ببرد شديد والرياح تعول في الطرقات وكنا نسمع اصطفاق شرّاعات النوافذ المفتوحة، كان ثمة مطر خفيف، وفي المطعم طلبنا حساءً ساخناً وتناولنا بعده حلوى الخشخاش وعدنا إلى البيت مطرقين صامتين..

أمضيت عاماً في كلية الطب، وكان عاماً يكافيء ألف عام من الخبرة والتجارب وسط البشر والحوادث والنزاعات والمتع، وتيقّنتُ أنني لم أشأ أبداً أن أكون طبيباً، وجدت الحياة خارج جدران الكلية أوسع وأغنى ؛ فقد منحتني الكثير من التجارب ومعرفة الدنيا، وكنت غير معني تماماً بالتحضير للإمتحان، وهكذا أخفقت في سنتي الدراسية الأولى، وعاودت التقديم إلى المدرسة الملكية الشاهانية في شهر حزيران وتم قبولي وأمضيت عامين مثقلين بالواجبات والدروس والإلتزام التام بالنظام، لكني كنت أستغل أيام الجمع لألتقي بعزيز وأصدقائه الذين كانوا يزودونني بالصحف والمنشورات..

قلت لعزيز:

– حتى تلك اللحظة لم أكن أعرف ما أطمح إليه، كنت مشوش الفكر تتملكني

الحيرة وسط تنوع وجوه الحياة وألهث للحاق بتسارع الأحداث وتقلب الأوضاع في الأستانة وتأكدت أنني أهدر الوقت في أشياء لاتناسبني..

- إختر ياصديقي ماتحب ويثير فيك الحماسة..

لم أشأ الابتعاد عن عزيز فؤاد الذي كان مصباحي الكاشف عن غرائب المدينة الكبيرة وعادات أهلها العجيبة وطقوس حياتهم المختلفة عن حياتنا ؛ فهو الذي كان سبباً في لقائي بالخانم بيدار مالكة مقهى الطرب التي نادراً ماتظهر في المقهى، بل كانت تجلس في شرفة شقتها الإسطنبولية المشرفة على حديقة كبيرة تمتد حتى بحر مرمرة، وكانت تدخن النارجيلة كما يفعل الرجال ولاتضع الشرشف - الإزار المعروف الذي ترتديه غالبية النساء بل ترتدي الملابس الإفرنجية والقبعات المترفة التي تتحدّر تحتها شلالات شعرها الأشقر، كانت تعدّني صديقاً لها، وتطلب مني أن أحدثها عن بغداد التي تحلم بزيارتها وتخبرني أن جدتها من أهل بغداد، وكانت كلما زرتها تبالغ في إكرامي بضيافتها وترحيبها.

حملتُ معي علبة صغيرة من الشاي الفاخر وعلّمتها كيف تعدّه على طريقة الراهب البوذي، ودعوتها لنجمع قطرات الندى من الحديقة صباحاً ونعد شاياً ملكياً بماء الندى، ضحكتْ من هوسي بالشاي وقالت أنا لأ أصحو مبكرة، يمكنك أن تجمع قطرات الندى وحدك وتأتي بها إلي لنعدّ الشاي معاً. في اليوم التالي حملت قدحاً كبيراً من الزجاج له غطاء وذهبت إلى الحديقة الكبيرة وجمعت قطرات الطلّ فيه، كان الندى المتجمع فوق ورود الجوري أشهى رائحةً وصفاءً، أما الندى الملتصق بسنابل زهر الخزامى فكان فريداً من نوعه وكذلك الندى المتكثف على أوراق الزنبق..

ذهبتُ الى صديقتي الكبيرة بيدار خانم وأعددت لها الشاي الملكي الذي

وعدتها به بعد حديث ممتع عن كتاب الشاي وأحلامي عن معشوقة سأجدها في عالم الشاي، حدثتني عن عشقها للموسيقى ودراستها للبيانو في البندقية:

– ألا تحب أن تسمع شيئاً من عزفي؟

– هذا غاية المنى بيدار خانم..

نهضت من أريكتها الوثيرة المواجهة للشرفة وجلست أمام البيانو بأناقتها وحركتها المتقنة وقلبت أوراقاً عليها رموز الأصوات الموسيقية التي يسمونها النوتات وبدأت تلاعب ملامس البيانو وقالت بصوت رصين:

– هذه المقطوعة للموسيقار العظيم (روسيني)، إسمها السيدة الإيطالية في الجزائر..

جلست أنصت لعزفها: لم أكن في الحق متوائماً مع الموسيقى بل سحرني عزفها وجلستها وحركات أصابعها النحيلة الرقيقة على ملامس البيانو، وكانت ثمة شموع على البيانو تضيء وجهها الناصع، في تلك اللحظات أصبحت مفتوناً بأنوثتها وحركات يديها وعطرها، كنت أهيم في حلم مستحيل: أن تكون حبيبتي – المرأة الموعودة التي ترافق ظهورُها في أحلامي مع كتاب طريق الشاي – مكان هذه السيدة الكبيرة التي كانت مطمح رجال كثرٍ من ذوي الألقاب والمكانة..

توقفت عن العزف وقالت على نحو مباغت:

– صبحي أفندي، ألا تودّ السفر إلى سالونيك؟

– لم أفكر بهذا بيدار خانم ؛ فأنا معجب بالأستانة وأهلها وكل مافيها..

– ستعجبك سالونيك: هي مدينة يونانية عظيمة، قد تجد فيها ما لا تجده هنا..

قلت لها مازحاً:

- هل تعتزمين إبعادي عن الأستانة وعنكم بيدار خانم؟

- بل أريدك أن تكون أسطنبولياً تماماً، بإمكانك أن تتيقن من هذا الأمر الذي يعرفه عزيز فؤاد أفندي، لابد أن تتعرف على الحياة والناس في مدن أخرى، قال لي عزيز أنك تكتب عن الحياة والناس في السلطنة..

- لاأجدني متحمساً لمغادرة أسطنبول بيدار خانم..

- سيصحبك فؤاد وسنرتب الرحلة في عطلة الكلية هذا الصيف، لا تشغل نفسك بتكاليف الرحلة، دع ذلك لنا، وسوف تلتقي شباناً رائعين هناك...

عندما التقيت بعزيز فؤاد، بادرني:

- سنسافر معاً، نتمتع ببلاد اليونان ونتعرف إلى نساء سالونيك الساحرات..

- ولكن ما سرّ هذه الرحلة ياعزيز، لماذا أنا وأنت بالذات؟

- أنت شاب نابه ومتعلم وكاتب ممتاز، لابد أن تتعرف إلى العالم، الكتب وحدها لا تكفي، نحتاج إلى خبرة عملية مع الناس، وفضلاً عن ذلك سنلتقي بأهلي هناك - أبي ضابط في الجيش الثالث المتمركز في سالونيك، وسنتعرف إلى كثرة من الأصدقاء..

- أخشى أنني سأفشل في دراستي هذا العام وأعود خالي الوفاض كسير القلب إلى بغداد..

- لن تفشل، بل إن الرحلة ستفتح أمامك آفاقاً جديدة للحياة..

سالونيك

لم أكبح جماح نفسي

أطلقت العنان لها ومضيت

مضيتُ إلى تلك الملذات التي

تتأرجح بين الواقع والخيال...........

قسطنطين كفافيس

ليلـة الثامن من تمـوز سنة ١٩٠٦، القمر بدر نحاسي عمـلاق يتوسط السماء: نسائـم عذبة وليل صافٍ، وأنا أهيم بين أحلامي وتطلعاتـي المتشابكة والغبطة التي تمـلأ أعطافي والحوادث تترى بسرعة عجيبة ماكنت أتوقعها، كنت أرنو إلى أدنى من هذا ولابد لي الآن أن أشكر الله على نعمة أغدقها علي بعد سنوات القنوط والغضب من عبوديتي في بيـت أهلي بيت الكتبخاني،،، أين أنا الآن من منع حريتي وماتركته كتـب المفكرين والفلاسفة في عقلي وتكويني؟ كان الأجـدى لي أن أفقد كل شيء وأكسـب روحي وأحلامـي وأنجو من خلل وجودي بين مستعبـدي بيت إسماعيل الكتبخاني..

أين كنت في بغداد وأين أنا هذا المساء؟

ثمة سفينة صغيرة ستبحر مـن أسطنبول باتجاه سالونيك وفيها ستكون رحلتنا، دعانا محمد أمين ويغمور سليم لتناول العشاء في مطعم جميل مطلّ على البحر تتألق فيـه فوانيس ملونة تنعكس من أنوارهـا ألوان دافئة وتغمر أجواءه الحميمة موسيقى روحانية يعزفها عازف يوناني على السنطور، كنّا نجلس هناك نحن الأربعة أنا وعزيز ومحمـد أمين ويغمـور، ومالبثت أن وصلت بيدار خانم في عربتهـا ومعها فتاة رائعة الحسن، ترتدي الملابس الإفرنجية وتعتمر قبعة أنيقة من المخمل الأسود ينسدل منها خمـار من التول الرقيق علـى وجهها الفاتن ؛ الأمر الذي زادهـا غموضاً وسحراً، قدمتها بيدار خانم لنا:

– سـازكار، إبنة أخي تعتزم السفر إلى سالونيـك للقاء مدرس الموسيقى اليوناني الـذي سيرافقهـا إلى فيينا، وجدتُ من المفيد لها ولكمـا أن تصحباها في رحلتكما، ولأنني أثق بكما سأعهد بها إليكما ؛ فأنتما تحفظان الأمانة..

رفعت سازكار بأصابعها الشمعية الرقيقة خمار التول عن وجهها الفاتن ورأيتُ عينيها الخضراوين العميقتين اللتين تشع منهما وهجات ذهبية، لم تكن تنظر إلى أحد منا بل كانت نظرتها ساهمة غائمة ترنو إلى انعكاس البدر النحاسي في البحر وكأنها في ملكوت آخر، أحضر النادل أطباق الطعام: بسماشكات ويلنجي وسلطة البرغل الحامضة بشراب الرمان وسمكاً مشوياً. ماكنت قادراً على تناول الطعام – مع فرط الجـوع – لإنذهالي بجمال الفتاة اليافعة، لاحظت بيدار خانم إرتباكي فأخذت تقدّم لي لفائف اللحم بالرز – البسماشكات بيدها، شكرتُها وقد إزداد اضطرابي:

– عليك أن تأكل جيداً لتتحمل مشاق الرحلة البحرية..

–......

بالـكاد إستطعت ابتلاع اللقيمات التي أطعمتني إياها بيدار خانم، كان الزمن قد توقف أزاء وجه سازكار وماعدت أدرك سريانه، إرتبط كل شيء بحركات سازكار

ولفتاتهـا الأنيقة البريئة التي تكشف عن نزاهة أنثوية قد تقترب من السذاجة، لكنها سذاجة محببة وأصيلة. فكّرتُ: هل تشبه بنفشة خاتون هذه الخانم الأسطنبولية؟

لاحظ عزيز إرتباكي فهمس لي:

– صبحي أفندي، خير إن شاء الله؟

– لاشيء عزيز أفندي، لم أعتد مجالسة فتاة بهذا الجمال، إضطرب كياني كله....

– أتود أن أخطبها لك من عمتها؟

– دعك من المزاح الآن، إنهم يلاحظون حوارنا الهامس..

قالت بيدار خانم:

– أراكما تتهامسان، هل ثمة خطب؟

ضحكنا وقال عزيز:

– صبحي أفندي كان متردداً في السفر والآن أكّد لي سعادته التامة بالرحلة..

– صبحي أفندي لابد أن تجازف، الحياة لاتحلو إلا مع المغامرة..

– تمام بيدار خانم..

صباحاً كنا على متن السفينة، إعتكفتْ سازكار في قمرتها طوال الضحى وكنت متلهفـاً لرؤيتها والحديث معها، عند الظهيرة إلتحقت بنا على سطح السفينة، حيّتنا بخجـل وجلسـت قربنا نضرة كالربيع في ثيابها التي كانـت غاية في الأناقة والترف مـن الحرير التافتاه، وضعتْ على كتفيها جاكيتـاً صغيراً من الفراء الأبيض وربطت شعرها بوشاح حريري أزرق تجنباً لعبث رياح البحر بخصلات شعرها الأشقر..

، سألها عزيز: هل أفطرت سازكار خانم؟

– لا أفطر عادة بـل أحتسي القهوة حسب، جلستُ أستمع إلى الموسيقى المنبعثة من جهاز الفونوغراف في صالة السفينة، وانتعشتُ لسماع العزف على البيانو..

ما أن سمعت كلمـة فونوغراف حتى اعترتني هزة جارفة وتحرّك فضولي لسماع هذه الأعجوبة التي انشغلتُ بها طويلاً وكتبت عنها في مذكراتي...

قلت لها: هل يمكنك أن تصحبيني إلى حيث الفونوغراف آنسة سازكار خانم؟

– على الرحب، هيا فالقبطان مازال هناك يدير الآلة، ألا تسمع أصداء الموسيقى؟

هبطنـا سلّم السفينة إلى القاعـة التي تصدح فيها الموسيقـى، كان القبطان يُدير مقبضـاً يحـرّك الجهـاز العجيـب، وثمة بـوق كبير متصل بـذراع تحـرك أبرة على أسطوانـة أنبوبية فتنبعـث الموسيقى من البـوق. بهرَني الإنصـات للموسيقى دونما عازفـين، وعلمـت أن الموسيقى قد جرى حفظها مسبقاً علـى السلندرات المكسوة بصفيحـة قصدير رقيقة تـدور على محور وتمـر عليها إبرة تتحـرك في أخدود رفيع جـداً فينطلق الصوت من الحاكي، أذهلنـي الأمر تماماً وجلستُ على مقعد لأستعيد أنفاسي، فهنا العجيبة المدهشة: آلة الفونوغراف، وإلى جانبي تقف الحسناء سازكار في سفينـة تمخر عباب (مرمرة دنيزي) وأسمع اصطفاق الموج وهو يضرب جوانب السفينة، معي الموسيقى والموج والشمس والأمل..

أوقف القبطان الموسيقى وأعلن:

– قريبا سنجتاز مضيق (شنق قلعة بوغاز) لندخل (إيجه دنيزي)..

أحزنـي أنني لدى وصولنا سالونيك سأفقد هذه السعادة السماوية التي أنبتت لقلبـي جناحين وحلّقت بـي في الأعالي مع أجمل أمرأة رأيتهـا في حياتي، ستغادرنا

سازكار هذه النعمة الربانية وننشغل أنا وعزيز بلقاء جماعة تركيا الفتاة لنوحد مساعي جمعية الإتحاد والترقي مع جمعيتهم، نقمتُ على نفسي في لحظة من اللحظات: مالي وهذه الإنشغالات بالأحزاب وشؤون السياسة؟

نحيت عني ملامتي وقلت لنفسي حسبك طرح الاسئلة ياصبحي، عش اللحظة قبل أن تزول وتمتع ببهاء الأنثى التي أرسلها الله لتحيي روحك، تمتع بالنظر إلى رواء محياها وأنصت إلى نبرات صوتها الموسيقي وتنشّق عبيرها الذي يفوح من حركاتها وهفهفة ثيابها وفكّر بأنك طالما تؤمن بالحياة والجمال ستنال نصيبك منهما، طالما أنت تعشق الفن والجمال ستحظى بهما معاً وإعلم أن عالمنا ماوُجِد إلّا لتمر به حياتنا العابرة، عليك أن تفنى في الحب وعشق الجمال ولاتفرط بلحظة من حياتك الزائلة. أعرفُ أنني كثير الضلالات والأحلام لكنني نلت بفضل ذلك حريتي وهي سبيلي إلى إدراك إنسانيتي، وآخر تجلياتها لدي هو الحب، أجل، الحبّ الذي سيهب حياتي قيمتها ومعناها..

سألتُ سازكار:

– متى تغادرين إلى فينّا مع أستاذك؟

– لاأعلم تماماً. هو من يحدّد الموعد..

– وهل سنراكِ بعد وصولنا سالونيك؟

– لا أدري، لأني سأقيم في بيت الاستاذ نيكولا مع إبنته وزوجته حتى موعد سفرنا جميعاً. سوف يقيم الأستاذ وعائلته في فينا..

الليلة الأولى لنا في السفينة غابت عنا سازكار، بحثتُ عنها في القاعة ولم أجدها، وبعد ساعة أطلت علينا تحمل كتابا بالفرنسية عن (يوهان باخ)، سألتها من هو يوهان باخ:

- موسيقار ألماني سأدرس أعماله..

مررنا بجزر كثيرة وتوغّلت سفينتنا وسط شدة النوء والأمواج المتلاطمة فترنّحت بنا وأرغمتنا على أن نلوذ بقمراتنا، أصبنا بالدوار، نصحَنا الملاحون أن نتناول الجبن اليوناني المالح لتفادي الغثيان، لم أر سازكار خلال يومي العاصفة، كانت معتكفة في قمرتها حتى أوشكنا على الوصول الى سالونيك، وفي الميناء كان أستاذها نيكولا وعائلته في استقبالها، ودّعتنا بأدب جم وتمنّت لنا رحلة سعيدة فغادرتني السعادات أجمعها، أشار عزيز إلى شابّين أنيقين يقفان على رصيف الميناء ويلوّحان لنا وسرعان ما هبطنا من السفينة وصحبنا الشابان إلى أحد المطاعم، كنت في حالة شنيعة من الإرهاق والغم لغياب سازكار، طلب مضيفنا عبد المجيد أطباق الموساكا والسوفلاكي والمقبلات من الزيتون وأنواع الجبن والخضار، وبدأ هو وعزيز حديثاً عن وضع الإتحاد والترقي في الأستانة وأهمية أن أقوم أنا شخصياً بتنشيط عمل الشباب البغدادي في الجمعية بعد أن تندمج جمعيتنا مع جمعية تركيا الفتاة، كنت صامتاً أنصت لهما وأفكر بسازكار وبنفشة وأتمنى أن أهرب إلى سازكار وأتخلص من عبء هذه الرحلة التي ستكبّلني بالتزامات كبيرة قد تنفع في رفع معنوياتي من جانب وتشغلني عن أهواء قلبي من جانب آخر..

أقامت لنا عائلة عزيز في بيتهم الفخم مأدبة كأنها العيد، جالستنا والدته الأنيقة بحركاتها المتكلفة وثيابها الفرنسية الطراز، وسلّمت علينا شقيقتاه: الفاتنة الشقراء (نرمين) و (كرامت) السمراء التي تشبه النساء اليونانيات بحاجبيها الكثيفين وضفائرها الطويلة وعينيها السوداوين العميقتين، بالغ والده الضابط في إظهار كرمه وثرائه في تقديم أصناف عديدة من الأسماك واللحوم المقددة والمحشيات والسلطات الممزوجة بالجبن الأبيض والجوز، وتحدث طويلاً عن مآثر الجيش السلطاني الثالث وقوته وأسلحته الحديثة وحسن تدريبه على

الطريقة الألمانية، وأثنى على الضابط (الهر مانفريد كونراد) الذي قام بتدريب القطعات العثمانية المتقدمة تدريباً يتفوق على تدريبات القوات البريطانية.

تحدثت والدة عزيزعن إبنتيها ودراستهما اللغات والموسيقى في معاهد سالونيك وإتقانهما رقص الصالونات ورقصة الفالس - مثل فتيات النمسا - وتدريبهما على الرسم في معهد الرسام كافاليروس..

أمضينا أسبوعاً في فندق صغير قرب الميناء وكنا نلتقي عبد المجيد وآخرين من جمعية تركيا الفتاة، وعلمنا أن الجيش العثماني الثالث المرابط في سالونيك سيتحرك لإسناد أية ثورة تقوم بها الجمعيتان لإعلان المشروطية الثانية (الدستور)..

مساء اليوم السابق لعودتنا زارتنا سازكار مع أستاذها نيكولا وأرسلت معنا رسالة إلى عمتها بيدار خانم مع رزمة تحوي قفازات من المخمل الأرجواني وقبعة من النسيج ذاته مزينة بورود حريرية مع قطع من الدانتلا نسجتها نساء سالونيك البارعات في صنع الدانتلا خلال انتظارهن العشاق والأزواج المجندين لعلهم يعودون من حروب النزاعات الكبرى على المضائق وفي الجزر والبحار الحزينة، رأيت بعضهنّ جالسات عند عتبات البيوت والنوافذ والشرفات ينسجن الدانتيلا ويثرثرن أو يغنين أغنيات الحب.........

المُغنّي

لاتجزع من جرحك ؛ وإلا فكيف للنور أن يتسلل إلى أعماقك؟

جلال الدين الرومي

بعيداً عن تحولات الفصول في الأستانة وأحداث البلاد العثمانية: فيضان مهلك وكولـيرا في بغداد، واضطرابات في البلقان وثورات متعاقبة في أرضروم، وعودتي صريـعَ عشـق فاشل من سالونيك حامـلاً إخفاق قلبي الملتاع بفقـدان سازكار التي علقـت بها روحي وكأنها المرأة الممكنـة أمام مستحيل بنفشة،،، بعيداً عن كل ذلك كنـت أجلس في مقهـى آهزك كل مسـاء وأنصتُ لغناء المغنـي الأعمى تيمور وهو يرتجل القصائد ويهذي عشقاً ويعزف على الكمنجة بأنغام حزينة تفطر القلوب..

يحتفي بي تيمور بعد أن اكتشف أنني عاشق موجوع الفؤاد لإمرأة تتجسّد لي في نساء عديدات ؛ فصـار يغني لي أغاني العشق التي يبرع فيها ويشتهر بأدائها، دوزن أوتار الكمنجة وسحب القوس عليها وراح يغني:

الربيع تفتح في قلبي، وضحكة المعشوق

شعاع شمس من ذهب إبريز

مامِنْ فردوس يشبه لذة الحب

لكن الفراق ترك الشتاء لقلبي

آهاتي تحجب شموسي وتنشر السّحب السود

ودموعي تنهمر كأمطار كانون..............

كنت أحتسي القهوة حيناً أو أطلب من النادل جميل أن يحضر لي غليون تبغ ممزوجاً ببعض الأفيون، ثم أهرع الى بيدار خانم أهيء لها الشاي وأتربص بأخبار سازكار ؛ فكانت تحدثني عن وصول الفتاة إلى فينّا وتلقّيها الدروس على يد الموسيقار نيكولا وآخرين من النمسا. تحدّثني بيدار خانم أن والد سازكار يتطلع الى أن تتلقى إبنته تهذيباً على الطريقة الفرنسية كما كانت فتيات الأسر الثرية يفعلن ليحجزن لهن موقعاً في صدارة الحياة الاسطنبولية: زوجات ضباط أو وزراء أو قناصل ومبعوثين وتجار، يزهون بهن وبثقافتهن الإفرنجية التي تكتمل مع بعض التقاليد التركية..

إحتسينا الشاي مرات وقالت بيدار خانم:

- سازكار تكره الشاي ولاتقربه أبداً..

فزعت: كيف لإمرأة أحبها أن لا تشرب الشاي؟

أكانت بيدار خانم تحاول صرف قلبي عن هوى سازكار؟ هل حدست تعلقي اليائس بها وشرعت تحذّرني من أنّ الفتاة تهيىء نفسها ويعدُّها أهلها لتكون من سيدات أسطنبول المرموقات فلا أعلّق عليها آمالا خائبة؟ كنت أعود ليلاً إلى مقهى آهزك وألتقي بعزيز الذي يبلّغني بآخر أخبار الجمعية وتضاعف قوتها باندماجها مع جمعية تركيا الفتاة ثم نمضي سهرتنا في أحد بيوت المتعة المنتشرة على البحر في محاولة لدفن أحزان عشقي البائس للنساء بين أحضان أخريات خبيرات بالمتع وإسعاد الرجال، وفيما عدا ذلك كنت أحضر مع عزيز ويغمور واسماعيل

محاضرات يقدمها أشخاص ذوو مهابة اجتماعية ومكانة علمية مشهودة في أنحاء السلطنة، بينهم البروفيسور عبد العظيم رشدي الذي درس الفلسفة في جامعة هايدلبرغ الألمانية وحاضر في أعضاء الجمعية عن (إيمانويل كانت) الذي ركّز على دور العقل في الوصول إلى المعرفة، وأقترح أن نقرأ كتبه الأساسية وفي مقدمتها (مشروع السلام الدائم) وكتابه الكبير (نقد العقل الخالص) كما حدّثنا في محاضرة أخرى عن (فويرباخ) وكتابه مباديء فلسفة المستقبل ؛ فكنت أهرع بعد محاضرات الأستاذ عبد العظيم الى المكتبات بحثاً عن تلك الكتب الثمينة التي كنت أجد بعضها باللغة الانكليزية والآخر بالفرنسية، وبعد حين طاردت السلطة الأستاذ عبد العظيم ؛ فقد غضب منه أحد الوزراء إثر محاضراته في الشباب التركي فاختفى فترة ثم علمنا أنه سافر متنكراً إلى بلغاريا ومن هناك عاد إلى ألمانيا، فصرنا نحضر محاضرات - نتكتم عليها - للأستاذ عزالدين الإزميري أستاذ علم الاجتماع في قاعة من قاعات حزب الإتحاد والترقي السرية. حدّثنا الإزميري بأسلوبه الممتع وصوته الدافيء عن إميل دوركهايم واقترح أن نقرأ كتاب (علم الاجتماع) للفيلسوف الانكليزي هيربرت سبنسر، أصابتني المحاضرات بهوس جنونيّ فعكفت ليلي والنهار ألتهم الكتب المقترحة وأبحث عن المزيد في المكتبات الأسطنبولية حتى أن يغمور أرسل في طلب بعض الكتب النادرة من فينّا، كانت تلك الأيام العظيمة أيام يقظتي وانصرافي عن الدراسة في الكلية التي سئمت نظامها العسكري الصارم والعقوبات التي كانت تنزل بمن يتغيب أو يهمل تحضير المواد الدراسية المضجرة، وأدى هذا إلى إخفاقي تماماً في الدراسة بينما تخرّج صديقي الخطاط أسعد الذي كان موزعاً بين التعبد خلال الليل في تكية خان المولوي بمنطقة غلاطا والعكوف على قراءة كتب مولانا الرومي وتجويد فن الخط، وعرض عليّ أن نسافر إلى قونية لزيارة ضريح مولانا جلال الدين الرومي فاعترض يغمور على اندفاعي مع أسعد:

- مهمّتنا الآن تتحدد في نشر الفكر التنويري الأوروبي بين شباب الجمعية، دعك من أسعد ودراويشه وعش زمنك وتوجه إلى المستقبل....

وراح يغمور يمطرني بمزيد من كتب أوغست كونت وهيغل وفويرباخ التي غيرت بوصلة فكري وأنقذتني من حيرة العقل وتشتت المواقف...

أخبرني أسعد أنه سيسافر من أزمير إلى قونية بالقطار مع صحبة من دروايش خان المولوي وهذا يعني أن أتحمل أجرة البيت بمفردي، و سيواصل السفر من هناك إلى بلاد الشام ويعود إلى بغداد و قد يخبر إخوتي عن أحوالي، أمّا أنا فسأرتاد المقهى كلّ ليلة بعد أن تنهكني القراءة لتسع ساعات وسأطلب من المغني الأعمى تيمور أن يغني لي بعض الأغاني القديمة التي كنت أطرب لها، ولم يكن يغفل مرة عن ترديد أغنية (ياوردة فكري الرقيقة - فكريمن أنجي غولو) في مقام عجم كرد، الأغنية الحزينة التي لحّنها المعلم الأشهر إسماعيل حقي بيك:

ياوردة فكري الرقيقة

ياوردة قلبي الرقيقة

يابلبل قلبي المَرِح

ذلك اليوم الذي رأيتكِ فيه

أشعلت بي نيران العشق

مذ رأيتك أصبحت مجنوناً، صدقيني

ذلك اليوم الذي رأيتك فيه

أشعلت بي نيران العشق...............

تعرّفت في الشهر الأخير إلى الرسام الشهير (جاللي أبرام) الذي حدّثني عن المدارس الحديثة في الرسم الأوروبي وذكر لي أسماء بعض الفنانين الفرنسيين والأسبان: هنري ماتيس وبيكاسو ورينوار وغيرهم، وعن طريق الفنان جاللي إستطاعت جماعتنا اللقاء بفنان الكاريكاتير الشهير جمال بك الذي ساعدنا في توظيف بعض أعداد مجلته (جم) لنقد الأداء الإداري وبعض الشخصيات الضالعة في الحكم، وحصلت على أعداد المجلة التي سأحملها معي الى بغداد وأحاول طبع نسخ منها هناك..

الزمن يمضي بي دون أن أحقق شيئاً مما إشترطه والدي عندما وافق على سفري للدراسة، لكنني من جانب آخر وجدت ما أرجوه لنفسي بعد ضياع استبد بي: عرفت من أنا ووجدت ماكنت أبحث عنه، منحتني هذه المدينة مفاتيح الفكر والحياة معاً، عرفت فيها معنى وجود المرأة في حياة الرجل وقيمة أن تقرأ كتب الفلاسفة والمفكرين وتحدّد لك هدفا للغد، وإذ أنظر اليوم إلى نفسي في المرآة الموضوعة عند مدخل البيت أرى رجلاً آخر، تغيرت ملامحي وهيأتي ؛ فقد جعلت شاربي على الطريقة الغربية الشائعة، وقصصت شعري كما يفعل أهل الاستانة واستقرت قسمات وجهي ولم يعد أنفي يبدو كبيراً بعد أن امتلأ وجهي وسكنته ابتسامة زهو، واتسمت نظرتي بالحدة والقوة وأصبح فكي عريضاً ومنحني سمة رجولة ذات عزم...

وأنا أطوف بشواخص المدينة العظيمة وأتجول في شوارعها المضاءة بالغاز السائل وأسمع نداءات السقائين يحملون الماء من مشروع الحميدية الى البيوت أدرك كم أن المدنية أساسية لسعادة الناس، أعبر الجسر الخشبي القديم على الخليج الضيق - الذي يدعونه القرن الذهبي - إلى الأستانة الحديثة وأدفع لعبوري بضعة قروش وأتجول طوال ساعات بين الشوارع الحديثة والمتنزهات، ثم أعود إلى حيث الحياة المتوهجة في القسم القديم منها، أتأمل بيوتها الخشبية المقامة على هياكل

حجريـة والتي كنت أستأجـر بيتاً منها وخشيت أن يطالـه الحريق كما كان يحدث لتلـك البيوت الخشبية العتيقة ؛ فأحاذر أن أوقد ناراً في البيت لإعداد وجباتي ؛ لذا كنت أتناول طعامي في المطاعم الصغيرة، ولطالما شهدت الحرائق كل ليلة هنا وهناك فيهب المتطوعون مع عربة تحمل مضخة ماء يدوية لإطفاء الحريق...

قصـدت مع عزيز ويغمور وإسماعيل مسرح التمثيل وشاهدنا مسرحية البخيل لموليير وكانت كوميديا راقية قدمتها فرقة فرنساوية، وكنت أتمتع في بعض الليالي مع عزيـز بمشاهدة مسرح الدمى - القرقوز - الذي أغلقوه بأمر مدير البلدية بعد تقديم الفرقة لمسرحية كانت تسخر من الصدر الأعظم وتتحدث عن المظالم في السلطنة..

تحدثني بيدار خانم عن سازكار التي تتقدم في دراستها وتتعلم نمط الحياة الإفرنجية، وتـروي لي قصصاً عن مسابح خاصة بالنساء مسورة على شاطيء بحر مرمرة تشبه مسابح زيوريخ النسائية، وتقول إنها تتمتع هناك بسماع آخر الشائعات والفضائح وقصص الحب والخيانة والإعتقالات المباغتة والمخاوف من حرب وشيكة..

أكتشـفُ سحر الحياة في المدينة المترفة التي تصب في أسواقها خيرات الضواحي والبلـدان المجـاورة، وأنـا أتنقل دومـاً بالترام بين جهاتهـا أو استأجـر عربة تجرها الجيـاد أو أهيـم على وجهي في منطقـة شيشلي وسركجي وتقسيـم أو أغادرها إلى غابـة بلغراد على ظهـور الخيل، نقودي تكاد تنفد ولاأملك الجـرأة الكافية لأطلب المزيـد مـن أهلي، أحاول أن أنهي عامـي الدراسي دون أمـل في اجتياز الإمتحان ؛ فقد إنشغلت بدوركهايم وهيغل وفويرباخ وخطّطت لتغيير الأوضاع في بغداد قدر استطاعتـي حين عودتي، ولكن ماذا بوسعي أن أفعل وأنا محاطٌ بالعيون والأعداء في بيتي ومدينتي؟

إشتريـت مـن سـوق المجوهرات قرطـين وأسـورة مرصعة بالأحجـار الكريمة لوالدتـي التي تحب التزيـن بما هو ثمين من الحلي، وكان علـيّ أن أتخلص من بعض

الكتـــب التـــي ستثقل علي في رحلة العــودة وأحتفظ منها بما سيكــون مرشداً لي في بغــداد. زوّدني يغمور برسائــل إلى بعض الشباب النابهين في بغداد ممّن كانوا يوالون جمعيــة الإتحاد والترقي، وأعــددت العدة للرحيل وحجزت علــى الباخرة (حاجي أحمــد) التي ستبحر من ميناء سركجي إلى الإسكندرونة ومن هناك أمضي في طريق العودة من حلب........

مدينة النقائض

... كن وحيداً ولا تأمل برفقة أحد في هذه المدينة، كن في بغداد ولا تأمن وسادتك والرداء، كن في الحب ولا تعوّل على وفاء الحبيب، إحترس وتربص بكل من عداك، أزح كل آخر، خذ موقعه حياً وارقد في قبره ميتاً ؛ عندئذ ستكون جديراً بالعيش في بغداد، ومَنْ لا يعتد بهذه الوصايا عليه أن يهجر مدينة النقائض والفناء..........

حياة البابلي (سيدات زحل)

بغـداد في حزيران ٢٠١٤ ليسـت بغداد التي تعرفهـا نهى: البلاد ظلٌّ ممزق لصورة تتلاشى، بغداد تغيرت والعراق ليس هو العراق الذي غادرته فـي ٢٠٠٦ إلـى غرينوبل وعادت إليـه في ٢٠١٣، وجـدت نهى صعوبة فـي التآلـف مع طعم المـرارة القاتـل، المدينة في حالة انحـلال، الناس يغالب بعضهم بعضاً والقبح ينتشـر كوباء أسـود والزمن يتطاير من مطحنة الأحداث ويتبدّد على الوجوه، ولولا انشـغالها في تحقيق مذكرات جدّها الكبير صبحي الكتبخاني لتهاوت مثل مدينتها. ولكن ثمة شيئ ما يدعوها للتماسك، شيء خفيٌّ يهمس لها:

ـ لاتنساقي إلى قنوط الحشود، إبحثي عن نفسك وسط الحطام..

هاتفتها قريبتها حياة البابلي:

ـ سأزوركم غداً، أبلغي الوالدة أنني سأمضي النهار معكم..

ـ ننتظركِ..

تفكر نهى: حياة على مشارف الأربعين، شهدتْ كوارث عديدة في أسرتها وناضلت كثيراً من أجل أخوتها وعمها وصديقاتها، كافحت طويلاً من أجل البقاء ولم تفقد قوتها الروحية ولم تضعف أوتستسلم لليأس، يالها من إمرأة!! قد توجد الكثيرات مثيلاتها لكنها تختلف عنهن في جوهرها، خذلها من تحبّ أو أنه خشي سطوة شخصيتها المهيمنة فآثر أن يفلت من محنة الإرتباط بمن تفوقه قوة وحضوراً، ولكنها مازالت تأمل أن تجد رجلاً يليق بإمرأة قوية من طرازها،،، هل ستفلح حياة في ذلك؟

منذ سنوات لم تذهب حياة إلى حي المهندسين في شارع فلسطين، تنكر الشوارع في بغداد والشوارع تنكرها وهي لاتتذكر هذه المشاهد الغريبة، أهي التي تغيرت أم الشوارع؟ أمْ طال التغيير كل شيء وهي المعتكفة في بيتها بحي الداؤودي لاتخرج إلآ لضرورة؟ هذه الشعارات العنيفة الموجّهة ضد النساء تطعن قلبها: مصافحة النساء زنى، المتبرجات يعرضن أجسادهن للبيع، كاشفات الوجوه مصيرهن النار، عمل المرأة حرام، الجامعات المختلطة تمارس الفساد...

تسوق سيارتها الصغيرة ببطء في الشارع الرئيس، هذا ليس حي المهندسين؟، هذا حي غزته قبائل متوحشة: نساء يتربعن على الأرصفة يبعن السجائر أو بعض الأطعمة المكشوفة وثمة جزار يعلق الخراف المذبوحة، وعيون مستنكرة تنظر إليها شزراً ـ هي التي تجرؤ على دخول مملكتهم دونما حجاب، رمى عليها صبي حجارة وهو يزعق: سافرة فاجرة...

أسـرعت قليلاً لتتفادى الرجم بالحجارة، توقفت عند الإشارة الضوئية فأحاطت النسـاء المتسـولات والصبيان بالسـيارة، أغلقت زجاج النوافذ، نظرت حولها: شـرفات المبانـي تهاوت وحُجِبت بجـدران كونكريتية أو غلُفـت بقطع الكارتون المقـوّى أو رقائق الألومنيـوم الملونة في محاولة مبتذلة لتجميل مظهر المباني المرتجلة، النافورات مهملة وأحواضها غدت مكبات للنفايات، هذا ليس حي المهندسـين قطعاً، لعلني ضللت الطريق، أوقفت سيارتها وهاتفت نهى:

ـ نهـى أظنني ضللـت طريقي إليكم، أو أنني ضللت الطريق إلى بغداد التي أعرفها.

ـ أين أنت الآن؟

ـ قرب محطة الوقود..

ـ تقدمي قليلاً نحو ٥٠٠ متر وسترينني لدى باب البيت..

قادت سـيارتها ببطء، رأت نهى تلوّح لها، إطمأنت وأدخلت سـيارتها في مرآب البيت..

عانقتها نهى واستقبلتها السيدة ميادة بالدموع:

ـ وأخيراً ياحياة، وأخيراً ها أنت معنا وبيننا، وأخيراً..

قالت نهى: ماما تاهت حياة عن بيتنا..

ـ تتيه بالتأكيد ؛ فلا شيء بقي كما كان في ذاكرتها..

ـ نعم لم أزركم منذ زمن، قطيعة طويلة لامبرر لها سـوى ما أصابنا من

كـوارث، أهذا فعلاً حي المهندسـين؟ رأيت صور رجال معممين وغيرهم معلقـة على أعمدة الكهرباء وواجهات المنازل فشـككت في الأمر، قلت ربما أخطأت طريقي..

ـ أرأيت ياحياة؟ هذا أنموذج مصغر لخراب مدينتنا، تتذكرين جيداً أنه كان من الأحياء التي تميزهاعمارة منازلها وحدائقها الجميلة وهاهو يتحول اليوم إلى مايشبه العشوائيات التي كانت تحيط ببغداد ومناطقها الصناعية، با ع معظم ملاكّ البيوت الأوائل منازلهم لأثرياء المافيات الجديدة الذين يعملـون في شـركات ومنظمـات وهمية تعمل كغطاء لإسـتثمارات رجال الأحزاب السياسية...

ـ بلـد مختـل، محتل، مُخدّر، لاجـدوى من التوصيفـات، الأوصاف سلاح العاجز، نحن نصف الحالة لكننا لانجرؤ على فعل شيء..

قالت نهى: نحن نحيا هنا خارج الزمن، كل شيء بلون الرماد، تصوّري بدل المتسـلقات المزهرة والجهنميات غرسوا راياتٍ من أقمشة ملونة فوق السطوح مثل رايات القبائل، النظام القبلي زحف على أحياء بغداد وكأنه كان يتربص بها وهو مختفٍ تحت جلدها كما المرض الخبيث الذي ينتشر بغتة...

عقبت والدة نهى:

ـ ليست هذه هي المشكلة، كانت هناك قوانين تحدد مساحات البيوت والفواصـل الخضراء بينها، الآن يقـوم المالكون الجدد بتجريف الحدائق وقطع النخيل وأشـجار السـدر والآس والجهنميـات ويبيعون الأرض بعد تقسيمها الى وحدات صغيرة بخمسين متراً للوحدة الواحدة إلى المتاجرين بالمخدرات والأغذية الفاسدة والأدوية المغشوشة، وفوق كل هذا إستولى

البعض على الأرصفة وأقاموا أسيجة من الصفيح بين البيوت ومن يعترض يهددونه باللجوء إلى العشيرة والسلاح..

ـ أنتـم تفكرون بالتفاصيل الصغيرة، المعضلة أكبر مما ترون، المعضلة تكمن في محو ذاكرة كاملة لبلد مهدور..

تقدّم نهى القهوة، يقبل جابر الكتبخاني متأنقاً في بدلة رمادية وقميص أبيض ويحيي حياة البابلي ويشاركهن الجلسة في صالة البيت، يسأل حياة:

ـ أما من أخبار عن عمك الشيخ قيدار؟

ـ بلـى، هـو في قرية قرب دهوك مع صديقـه الأب جبرائيل وقد نجوا بأعجوبة من هجوم العصابات الإرهابية على القرى المسيحية..

ـ ألا يفكر بالمجيء إلى بغداد أبداً؟

ـ لاأظنه سيفعل، لقد ناله ضيم وحيف لايحتملان....

ـ كنت أشـاركه مهمة شراء المخطوطات الثمينة من أصحابها ليحفظها في أماكن آمنة وبخاصة المخطوطات التي تهتم بتأريخ بغداد..

ـ أعلم كم يؤرقه ويهمه الحفاظ على تلك المخطوطات، عمي مصاب بهوسٍ إســمه المخطوطـات المتعلقة ببغداد، البلاد تتلاشـى وهو يحفظ تراثها، أحيانا لاأرى أي جدوى من كل مانقوم به طالما البلاد تنحدر إلى الزوال..

ـ ماذا تعملين الآن؟ معذرة للسؤال عزيزتنا حياة..

ـ أعطـي دروسـا خصوصية لبعـض الفتيات في البيـت، وأقوم بعمل

تطوّعي في تعليم ورعاية مجموعة من الأيتام إحتضنتهم صديقة لي، وأقوم بتنسيق حدائق بعض معارفي مقابل أجور..

يعـود وليـد منهـكاً من ماراثونـه اليومي لإسـتخراج جوازَيْ سـفر له ولخطيبته..

يقبل جبين والدته: بشرني وليد، ماذا فعلت اليوم؟

ـ إصطادتني مافيا الجوازات ؛ فقد أوكلت المافيا لصاحب كشك يبيع الطوابع ويستنسخ الوثائق أن يفاتح طالبي الجوازات بقيامه بالمهمة مقابل أربعمائة دولار للجواز الواحد، تصوري أماه كنا خمسين شخصاً، في تلك الساعة وقعنا في الفخ الذي لايمكن تخطيه..

ـ وكيف وثقت به وسلّمته وثائقك؟

ـ يبـدو أنها الطريقـة الوحيدة لدخول مديرية الجوازات وسـوى ذلك سيستغرق الأمر شهوراً..

ـ وهل أعطيته المبلغ؟

ـ أعطيته نصف المبلغ والنصف الثاني عند تسلم الجوازين، إنها مافيا كبيرة جداً تعمل بمباركة موظفين كبار وتمتد أعمالها الى دوائر عديدة.

تطرق نهى أسـىً ثم تتأمل وجه أخيها الشاحب الذي عاد من ماراثونه المهين، تذرف دموعاً تخفيها عنه وتقول:

ـ أخـرج من هـذا البلد اللعين، لاتفكر بالعودة مثلي أبداً، أبداً، إذهب حيـث تأخـذك الريـاح، سـتكون محظوظاً لو عبـرت حدود هـذا الوطن التعيس، إياك أن تعود، إياك أن تعود..

كـررت العبارة مرتين وكأنها تبوح بندمهـا المرير لعودتها التي إعتبرتها الآن من حماقات الحنين التي تفضي إلى خسران الروح وضياع الأمل..

يُفاجأ وليد بوجود حياة:

ـ ست حياة، كم من السنوات لم ألتقِ بك؟

ـ وكـم من الحوادث شـهدنا؟ ولكـن لدينا ما نفرح بـه، خطبتك من سميراميس، كم أعتز بك وبموقفك..

ـ لم أفعل شـيئاً ذا شـأن، أحب سـميراميس ومن أجلها سأتخطى كل العوائق..

تنـادي الأم: أعلنوا فـي التلفزيون عن حدوث انفجـارات في أماكن مختلفة من

بغداد، ستبقين معنا حياة، لن تخرجي بسيارتك ليلاً وسط المخاطر..

ـ إعتدت مخاطر بغداد، أدمنت ذلك، لاتخشي عليّ..

ـ لالا، إبقيْ هذه الليلة.. أرجوك..لا تخرجي..

ـ سأبقى، في الأقل أمضي مزيداً من الوقت معكم..

إنزوت نهى وحياة في غرفة نهى، روت نهى لحياة قصة الحب الأحمق والزواج الفاشـل فـي غرينوبل وهي تضحك كأنها تـروي قصة هزلية عن إمرأة أخرى..

سألتها: أما زلت تؤمنين بفكرة الزواج؟

ـ لسـت أدري، لكنـي لن أكفـر بالحب، الأمـران مختلفان، قد أحب ثانية، وأنت حياة ماذا عنك؟

حدثتها حياة عن زواجها الغريب بحازم الذي كان نشطاً في مجال حقوق الانسان في التسعينيات فاعتقلته السلطة ولم يكتفوا بتعذيبه بل أخصوه مع آخرين كانوا يعملون معه.

وألمحت إلى قصة حبها مع ناجي:

ـ تأكدت جيداً أن الحب وحده غير مؤهل لإدامة حياة إنسانية، ثمة اشتراطات كثيرة تعزز الحب ولم يكن ناجي يملك أياً منها، إختبرته لسنوات ثلاث فلم أجده أهلاً للثقة، كذب علي طويلاً، وحالما اكتشفت ذلك حسمت الأمر بعد أن ناقشته مع عمي.

ـ هل ندمت لأنك أحببته طوال تلك السنوات؟

ـ أبداً، كان الحب حالة ممتعة، إجتزت أزمات كثيرة بقوة الحب، أما الآن فيخيل إلى أن امرأة أخرى وُلدت في أعماقي، تغيرتُ كثيراً، ماعدت أطيق صحبة رجل رغم توقي للحب والأمان والألفة، أريد أن يحبني من هو جدير بثقتي، هذا ما أرجوه، لكنني في اللحظة الحاسمة لاأجد في نفسي القدرة على العيش مع أي رجل أو أي كائن بشري بعدما حصل، إعتدت وحدتي واعتمادي على نفسي في كسب قوتي وتدبير ضرورات الحياة.. وأتساءل أحياناً إلى أي مدى سأواصل هذه الحياة الصعبة والحرة في الوقت ذاته؟؟ لاأعلم ما الذي سيأتي به الغد..

ـ سيأتيك الغد بأمل، بمفاجآت، أنا لاأتخذ قرارات حاسمة مثلك، أثق بأن الحياة قد لاتخذلنا طوال عمرنا، لابد من انفراج..

ـ يبدو لي أن النساء مثيلاتنا بحاجة إلى صحبة بعضهن، نحن قادرات على تفهم خلجات بعضنا، أترين أننا نعاقب أنفسنا باختيار الوحدة؟؟

ـ ربما، لعلنا بهذا نمارس قسوة مموهة بادعاء القوة واللامبالاة.. أنت من قلت لابد من قسوة وأنانية لنرتقي بأنفسنا..

ـ أجل، لابد من ذلك..

إحتفاء بقريبتها الأثيرة حياة البابلي أخرجت السيدة ميادة طقم أكواب الشاي العاجي اللون والمزخرف بنقوش ذهبية رقيقة من خزانة الصحون، كان الطقم هدية من والدتها عند زواجها، تذكرت أن أمها اشترته من مخازن أوروزدي باك، لم تستعمله منذ سنوات بعيدة وهي التي تحب استخدام المقتنيات الجميلة في الأوقات الخاصة، واليوم يوم خاص جداً بوجود حياة رغم كل مايحيط بهم من رعب وموت وتفجيرات، تقول لنفسها:

ـ لابأس، لنعِش حياتنا قدر مانستطيع..

لم يزرها ضيوف إلا فيما ندر وغالباً ماكانت تكتفي بتقديم القهوة أو المرطبات لزوارها أو تستخدم استكانات الشاي الزجاجية، سكبت الشاي المعطر بالهيل في الأكواب وقدّمته مع الكيك المحشو بالجوز والزبيب ونادت إبنها وليد الذي كان منهمكاً في مكالمة مع خطيبته ليطمئن عليها بعد الإنفجارات..

قامت نهى بتوزيع قطع الكيك في الأطباق الصغيرة ووضعت مع كل قطعة زهرة ياسمين جمعتها أمها من شجرتهم المعمرة، بينما نهض جابر الكتبخاني وبحث في الأسطوانات ثم اختار واحدة ووضعها على الغرامافون فانطلقت موسيقى شجية ناعمة..

فكرت حياة: ما أجمل أن يكون للمرء أجواء عائلية حميمة، شاي

وموسـيقى وحنان، ما الذي تريده الروح أكثر من هذه السـعادات البسيطة والصغيـرة؟ إنعكس إحسـاس حياة بالحيـف على ملامحهـا، وفي تلك اللحظـة حدث انفجـار في منطقة قريبة إهتزت له جـدران البيت وأصيب الجميع بالهلع باستثنائها هي التي قامت بتهدئتهم وقالت:

ـ بعد كل ما شهدنا ماعاد شيء يخيفنا، لاتهتموا كثيراً، لابد أن نعيش حياتنا..

قال جابر: لابد أن نعيش رغم كل شيء.

بعـد الإنفجار والصمت الذي غمر البيت لم يعد يسـمَعُ سـوى صوت ارتطام الأكواب وهي تعاد إلى صحونها وبعض كلمات مبتسرة من الأم..

ـ مزيد من الشاي؟؟ ألا تأكل قطعة الكيك؟؟ حياة ألاتريدين السكر؟؟ أووه بردَ الشـاي، سـأحضر الإبريق الآخر من المطبخ. كانوا يجيبون على عباراتها بهزة رأس أو إشـارة يـد أو طرفة جفن، كان الصمت ملاذهم بعد تداعيات الهلع وصور الموت والخراب التي أحدثها الإنفجار..

لم يَدُم الصمت طويلاً ؛ فقد اجتاحت المساء ضجة صاخبة:

مطـارق وأدوات معدنيـة ترتطـم ببعضهـا ومكائن تزمجـر، أطفأ جابر الكتبخانـي جهـاز التلفـاز واسـتأذنهم وغـادر إلى غرفتـه، نهضت نهى وأغلقت الشبابيك المفتوحة وأسدلت الستائر وأطلقت تنهيدة:

ـ كنت آمل أن لايحدث هذا الليلة، في الأقل لننام بهدوء..

تساءلت حياة: ماهذا؟؟ ما الذي يحدث؟؟

ـ الجيـران الجدد الذيـن يتاجرون بالمعدات الثقيلـة، لك أن تتخيلي

معاناتنا اليومية عندما تقطع المكائن المرتفعة أسلاك المولدة الأهلية التي تزودنـا بالكهرباء، يجلبون حادلات ومكائـن عملاقة ويقومون بتفكيكها ليلاً وكأنهم يفككون جسد بغداد وينثرون أشلاءها على الأرصفة...

ـ لماذا؟

ـ يقيمـون احتفاليـة الضجيـج القاتل كل ليلة فيتحـول ليل الحي إلى جحيـم حقيقي، وفي النهـار يقومون بتهريب الأجـزاء المفككة كأدوات احتياطيـة إلى دول الجوار عبر وسـطاء، لم يعلم أحـد من أين يأتون بهذه المعـدات العملاقـة وأغلب الظـن أنها مسـروقة من مؤسسـات حكومية بالتواطؤ مع مافيات متخصصة، أو أنها كانت تباع لهم بأسـعار وهمية من قبـل تلك المافيات التي تتعامل بمليارات الدولارات لتفكيك ماتبقى من ممتلكات العراق...

ـ لكن، ألا من أحد يفضح هذا؟؟

ـ إلى من نتوجه؟ الجميع شركاء في الصفقات، تحدثنا معهم بأسلوب ودي لكنهم هددوا تهديداً مبطناً باللجوء للعشيرة أو السلاح.

ـ يعني مافيات..

ـ أرى أن كلمة مافيا لاتصف الحال، اللغة عاجزة عن توصيف الأمور.

ـ كل ليلـة عندمـا أنهمـك بتدقيق مذكـرات الجد ويبـدأ الضجيج أو ينقطع التيار الكهربائي أشـعر بالإذلال، كيف أنحدر الوضع البشـري إلى هذا الجنون؟؟

ـ من هم هؤلاء الجيران؟

ـ لانعرفهم، إشتروا منزل جارنا المهندس مهدي الكاظمي بعد أن أضطر لبيعه وانتقل مع زوجته المتقاعدة ست نوال للعيش مع ابنهما وزوجته في شقة بشارع حيفا.

ـ يحدث هذا في منطقة الداوودي أيضاً قريباً من بيتي وفي حي المنصور ومناطق أخرى، إنتهت طبقة كاملة كانت تخفي ملامح البداوة والريف، يبدو لي أن التمدن كان قشرة سطحية سرعان ما تحطمت تحت وطأة التحولات التي بدأت مع بداية حرب الثمان سنوات، التمدن ليس مظاهر ومنازل فخمة ونمط حياة طارئة على بلد طحنه الإحتلال العثمائي ثم تشكل بإرادة بريطانية،،، التمدن هو تحديث الحياة كلها: زراعة حديثة، صناعة، جامعات وخدمات ورعاية صحية، تمدُّنُ العراق كان قشرياً لأنه لم يرتبط بوعي الحرية وحقوق البشر في حياة إنسانية، ولم يتدرج المجتمع في تطوره، وهانحن نشهد تفككه وانحداره في هزة الإحتلال..

قال جابر:

ـ لاتنسي ياحياة، ما نجت بغداد من محتل إلا لتقع تحت سطوة غازٍ جديد منذ المغول حتى اليوم، تحولت بغداد إلى مدينة الأشياء الأخيرة تماماً مثلما تنبأ الكاتب الأمريكي (بول أوستر) بالخراب الذي سيلحق ببلاد لم يسمّها في روايته السوداء (بلاد الأشياء الأخيرة) وكأن مخطط الخراب كان مهيأ في ذهن الكاتب ونفذته جيوش التحالف في حربها على العراق.

ـ لم أقرأ هذا الكتاب..

قالت نهى:

ـ سأعطيك إياه، وسأطلعكِ على مذكرات جدي. أتعلمين حياة؟؟

ـ ماذا؟؟

ـ لـولا انهماكـي بتدقيـق وطباعـة المذكـرات لما تحملـتُ كل هذا الخراب، تصوري دكان جزار على الرصيف وباعة غيارات السيارات أمام بيتنا، وإمرأة تخبز وتبيع الخبز قرب الجزار وبائعة الخضار، سوق عشوائي يخلف أكداسـاً من النفايات كل مسـاء ونقـوم كلّ ليلة بتنظيف الرصيف أمام بيتنا،،، في لحظة من اللحظات عزمت على العودة إلى غرينوبل..

ـ ووالدكِ؟؟

ـ هنا المعضلة، حبي له جعلني أتحمل كل هذا الذل من أجله..

في غرفة نهى تعرض حياة عليها فكرة لعمل مشترك:

ـ إسـمعي نهى: لدي كامرا إحترافية، وأعتزم تصوير كل هذه المشاهد وغيرهـا في بغداد بل وثقّتُ الكثيـر منها، هل تحبين التصوير؟؟ أفكر أن نهـيء ألبومات عن خراب بغداد ونجمع فيها صوراً قديمة لما كانت عليه مدينتنا..

ـ أحب التصوير وأجيده ولدي كامرا كانون، تبدو فكرة جيدة، متى ما أنتهي من مذكرات الجد نبدأ العمل..

ـ سأضع مخططاً للمشروع وأخبرك عنه، أحب أن نعمل بصمت..

ـ تعالي تفرجي على مجلدات جدي، خذي هذا..

ـ أووه إنها مجلدات مهترئة..

ـ لو تعلمين كم عانيت من انطماس الكتابة في صفحات كثيرة..

ـ وكيف تعاملت معها؟؟

ـ كنت أرطب الجزء المطموس بقطعة قطن مبلولة وأضع الورقة على سطح زجاج أملس فتغدو السطور شفافة وتسهل قراءتها وأطبعها لأبهج والدي كل صباح بما أنجزُهُ في الليل..

ـ هل تمتعتِ باكتشافك لهذا الجد؟؟

ـ نعم ؛ فعندما فكّكت ألغاز المجلد الأول عن طفولة الجد وشبابه ورحلته الى الاستانة إستمتعت كثيراً بسرده عن تلك الأيام الخوالي التي كانت فيها أوضاع الدولة العثمانية تنذر بالإنهيار وظهور حركات معارضة في أقاليم مختلفة من السلطنة و محاولة المعارضين إغتيال السلطان عبد الحميد للخلاص من إستبداده والعمل على إعلان الدستور المؤجل، تفشل خططهم ولكنهم يعودون لتنظيم صفوفهم عازمين على تغيير الأوضاع. لو كان جدي صبحي حياً لأصبح روائياً، لديه أسلوب جميل في سرد المذكرات.

ـ أراك تأثرت كثيراً بهذه المذكرات؟؟

ـ أتعلمين كنت في حالة فراغ وجداني بعد تجربتي المريعة في غرينوبل ؛ فوجدت في المذكرات ملاذاً لروحي، تأثرت بتمرده وتحولاته وجموحه وأحلامه، أحببته حين اكتشف الحياة على حقيقتها في الأستانة وسالونيك وبغداد وأراد تغيير شيء ما في بلاده، أحببته وأنا أتخيل هيأته الساحرة شبيهة هيئات الولاة والوزراء العثمانيين: رجل ممشوق القامة يعتمر طربوشاً ويرتدي بدلة إفرنجية وله شاربان مبرومان ويضع نظارات

مستديرة ويحدق في المدى بنظرات حادة محاولاً إختراق الحُجُب ومعرفة ماتخبئه له الأيام التالية من مفاجآت..

ـ فكّري جيداً بمشروع التصوير، إنه لايقل أهمية عن مذكرات جدك وعن مشــروع عمي الشــيخ قيدار في حفظ مخطوطات التراث العراقي،. في الأقل هذا ما نستطيع عمله لإنقاذ بعض ذاكرتنا..

ـ سنزورك حال انتهائي من تدقيق المذكرات ونشرع في العمل..

الطوفان

وعندما وقف زيوسيدرا إلى جانب الجدار سمع صوتاً:

قف قرب الجدار على يساري واسمع

سأقول كلاماً فاتبع كلامي

واعطِ أذناً صاغية لوصاياي

إنّا مُرسِلون طوفاناً من المطر

أسطورة الطوفان السومرية

قبـل أن تخلـد إلـى النوم قـرأت نهى روايـة قصيرة عنوانهـا (العرس السـري) لكاتب فرنسي مغمور إسـمه (جيرار كارامارو)، الرواية عن قصة حـب جامحة ميدانها الغابات والنهر والبـراري والهروب من عالم النفاق فـي المـدن الكبرى، راقت لهـا كلمات الأب جانجان فـي بداية الفصل الثاني وحديثه عن المطر:

«... قطـرات المـاء هذه تعلن عن قـدوم المطر، كان يرى أن السـماء الباكية ماهي إلا مرممة الطرقات، وهي الهدأة أثناء العمل، وفعلاً إنسكبت السماء بعد قليل كما توقع الأب جانجان وأغرقت البلاد منذ العشية وطوال الليل..»

لم تنم نهى قبل إنهاء الرواية بصفحاتها السبع والستّين، أغلقت الكتاب على العبارة الأخيرة: الحب والجنون ليسا إقتراناً سيئاً أبداً...

قررت أن تترك الليلة تدقيق مدونات الجد صبحي الكتبخاني وتواصل عملها في الصباح، ألقت رواية (العرس السري) وأوراقاً من مدونات الجد على السجادة الوبرية البيضاء ونامت على لوعة حب مستحيل تحلم به..

عند منتصف الليل دوّت رعود هادرة واخترق وميض البرق نافذتها، سحبت الغطاء وغطت رأسها ولاذت بحلم بدأ يتشكل في إغفاءتها اليانعة، إحتضنت حلمها وغابت فيه وماعادت أصوات السماء الباكية تبلغ أعماق حلمها، تعاظم هطول المطر وتفاقمت الأصوات بفعل الرياح الشديدة، أفاقت من حلمها وتقلبت في فراشها، لم تأبه للأمر، وماذا يعني المطر؟؟ فلطالما كان مطر بغداد رقيقاً حانياً يروي الأرض والنبات والقلوب ويرمم الحياة التي نالها اليباس وقحط الصيف، لذا حاولت أن تعود ثانية للنوم..

سمعت مواء قطط موجوعة تستغيث، أووه ياإلهي ماهذا؟؟ وفكرت أنها القطة الأم تبحث عن قطيطاتها حديثات الولادة في عتمة الليل والمطر، لكن المواء إزداد حدة ثم خفتت الأصوات وتحولت إلى أنين مكبوت وشهقات متسارعة..

إستيقظت صباحاً والمطر مازال يهطل ويضرب زجاج النوافذ بقوة، وأنزلت قدميها على السجادة فغاصت قدماها في الماء، أضاءت المصباح الجانبي فصعقت بطوفان ماء يغرق الغرفة، نظرت من النافذة فرأت جثث القطط الميتة تطفو منتفخة في الماء الذي بلغ ارتفاعه نحو عشرين سنتمتراً والقطة الأم تحتضر وتشهق قرب صغارها الغرقى ثم تلفظ أنفاسها وتلحق بالصغار، صاحت نهى:

ـ أمـي، أبي، وليد، أين أنتم، ماذا يحدث بحق الله؟؟ ماهذا الماء؟؟ أهو الطوفان؟؟ أين نحن؟؟ هل فاض نهر دجلة على حين غفلة؟؟

جاءت أمها تخوض في المياه التي غمرت الممر:

ـ أي دجلـة؟؟ لقـد غرقنا يانهى، تدفق مـاء المطر الغزير من الحديقة التـي تحولت إلى بحيرة، لم نشـأ أن نوقظك، أمضينـا الليل نحاول تفريغ البيت من الماء دون جدوى..

ـ لماذا يا أمي؟ كيف يحدث هذا؟؟

ـ هو بعض هذا الخراب الذي ترينه في العراق، كل شيء إلى خراب، منظومة مجاري بغداد معطلة ولاخدمات لإصلاحها، الشوارع تحولت إلى أنهار، وبيوت المنطقة غرقت بكاملها..

ـ وماذا سنفعل؟

ـ ماذا بوسـعنا أن نفعل؟؟ طلبتُ من والدك أن يصعد إلى غرفة وليد فـي الطابق الثاني لئلا ينشـغل بالمصيبة، وسـأحاول أنـا ووليد أن نفعل شيئاً..

ـ ماذا؟؟

ـ نغـرف المـاء من الصالـة والمطبخ ونلقيه في الحديقـة، وقد حملنا صندوقـي المجلـدات بعد أن وصـل الماء الى المكتبـة ووضعناهما على المنضدة، وواصلنا غرف الماء..

ـ لكن الماء أغرق الحديقة وغمر الممرات ووصل الى الجدران والمطر يهطل بغزارة، الماء بدأ يفور من فتحات المجاري في الحمام، رأيته الآن، لابد أن نفعل شيئا، أعرف أن جهدنا بلا جدوى..

ـ أووه لقد فقدتُ أوراق الجد التي تركتها على السجادة، إنتقعت بالماء وانطمست الكلمات، سوف يستاء أبي..

ـ لاتقولي له، أرجوك نهى خذي أشياءك والتحقي بوالدك ودعيني أنا ووليد..

ـ وأين وليد؟؟

ـ خرج يخوض في مياه الشارع لعله يجد مضخة لسحب المياه عند أحد الجيران..

ـ ماما إفتحي التلفزيون، لابد أن ثمة إجراء تقوم به البلدية لتفادي الغرق، هذا أمر غير معقول، غير معقول وغير إنساني..

ـ لم يتبق شيء إنساني في هذا البلد، نحن كائنات منذورة للفناء ولاجدوى من شكوانا، البلدية لم تفعل شيئاً وبغداد غرقت تماماً، هذا يعني أن على كل فرد إنقاذ نفسه وبيته بنفسه من الغرق، إنهارت بيوت كثيرة وقتِلَ سكانها تحت الأنقاض، الشوارع غدت أنهاراً..

ـ وماقصة مجاري بغداد التي كانت تشفط المياه بسرعة فيما مضى؟؟ لم يحدث شيء كهذا من قبل؟؟

ـ إنهارت مواقع كثيرة في الشوارع بعد الحرب بسبب سير الدبابات الأمريكية والمدرعات وتراكمت النفايات في فتحات المجاري ولم يهتم أحد بالأمر، أتذكر عندما كنت أعمل مهندسة في وزارة البلديات في الثمانينيات كانت شركة زبلن الألمانية التي أسست مجاري بغداد ترسل خبراءها لصيانة المشروع كل عام، الآن لا أحد معني بشيء في هذه البلاد الفانية، هذه بلاد تتلاشى..

ـ أنظري في التلفاز: الشوارع غرقى وبعض الناس يعبرون الأزقة بزوارق مطاطية.. أية مهزلة.. يا إلهي كيف يحدث هذا بفعل المطر؟؟

ـ نهى خذي أوراقك والتحقي بوالدك في الطابق الأعلى أرجوك، دعينا نتصرف أنا ووليد..

ـ سأذهب لأرى بابا ولكني سأعود، لابد أن أساعدكما..

وجدت نهى والدها يحمل جزءاً من موسوعة (تأريخ الحضارة) للباحث (وِل ديورانت) ويقرأ مهموماً مكدر القسمات:

ـ صباح الخير بابا..

ـ أي خير يا نهى؟ ومن أين يأتي الخير؟؟ كانت الأمطار فيما مضى خيراً عميماً، أما اليوم وفي زمن الخراب فقد أصبحت نقمة سوداء، تعالي أنظري ماذا يقول (ول ديورانت) عن أمطار العراق القديم وفيضان وادي الرافدين وما أسماه المؤرخون والمنقبون بالطوفان:

(.. الطوفان هو الفيضان الناشئ من سقوط الأمطار الشتوية، وكان هذا الفيضان ضاراً ونافعاً؛ فقد هدى السومريين إلى أن يوجهوا ماءه فيجري جرياناً أميناً في قنوات للري تخترق البلاد طولاً وعرضاً، هكذا وخلّدوا أخطاره الأولى بالقصص التي تتحدث عن فيضان عظيم طغى على الأرض ثم انحسر عنها آخر الأمر ونجا الناس من شره، وكان نظام الري المحكم الذي يرجع عهده إلى أربعة آلاف سنة ق. م. من أعظم الأعمال الإنشائية في الحضارة السومرية.........)

ـ من أين لنا الآن يا أبي بحكمة هؤلاء الأوائل الذين واجهوا الكارثة وطوعوا الطبيعة، ثم ألفوا قصة الطوفان؟ ها نحن وحدنا وسط الطوفان الأخرق والأسوار تتداعى مع الماء والمنازل تنهار وأنا أشم رائحة الدم

الطازج تفوح من الماء، إنها أضحيات الناس لإله الخراب وليس من سفينة تنقذ الجنس البشري اليائس، كيف ننجو إذن والماء يفور من الآرض والسماء ويفجر الدماء كالنوافير من قلوب الغرقى؟؟

ـ إبنتي، السفينة ملحمة بشرية متخيلة، قصة درامية نسجها الأسلاف لإيقاظ جذوة الأمل بالخلاص، أما الآن...

ـ أما الآن فحتى لو ظهرت السفينة فسوف يفتي عباقرة الزمان بأنها علامة القيامة وسيقولون: دعوا السفينة تغرق، ذلك شرط الخلاص، دعوا الطوفان يطغى، ذلك شرط ظهور المنقذ وقيامه من غيبته، دعوا الدم يلوّن المدن والناس والزمن..

ـ نهى، دعيني وحدي واذهبي لتساعدي والدتك ووليد، أنا لا أنفع في شيء وقواي تخونني، ولولا وجودك معي لكنت انتهيت، إذهبي وواجهي الطوفان معهم لعلك تجدين وسيلة لإنقاذ ما يصلح للإنقاذ..

يومان والصباح الثالث وهم محاصرون في البيت، لم يتناولوا وجبة طعام، إكتفوا باحتساء الشاي وبعض سندويتشات الجبن والبسكويت، ثلاثة نهارات وهم يخوضون في طوفان العصر الذميم، إنتكست صحة جابر الكتبخاني والد نهى لهول مارأى، بعد اليوم الثالث بدأت المياه تتراجع قليلاً، أحضر وليد مضخة لسحب المياه من الحديقة وضخِّها في الشارع الذي تحول الى سيل عارم، أصيبت نهى بالحمى ولكنها بقيت تقاوم لتساعد أمها وتسامر والدها المتعب، قالت له:

ـ أرأيت، لقد وفّرت لنا حكومتنا متعة لاتضاهى، أدخلت برك السباحة لكل بيت مجاناً بعون من السماء، صار كل بيت قاوم الطوفان سفينة نجاة وكل واحد منا أصبح (نوحاً) جديداً، لكن لم نحمل معنا سوى ذاكرة

مثقوبة.. لاتبتئس بابا ستجف المياه وسأعتني بالحديقة، وسنجلس معاً و نسخر من مهازل أيامنا.

حدّقت نهى من شباك غرفتها إلى الحديقة الغرقى بماء الطوفان ومازالت تشعر بدوار الحمى ومرارة الفم، بكت وهي تحرك خطاها في الماء العكر الذي أغرق أرض غرفتها وأوراقها، حمل وليد سجادتها الوبرية وأشياءها المنقوعة في الماء إلى سطح الطابق الثاني وجلست هي على سريرها وبين يديها أوراق مدونات الجد المبللة مع كتاب (العرس السري) الذي استعادت أحداثه في حلمها:

... عاشقان يهربان من المدينة الزائفة شبيهة حفل تنكري كريه ويختبئان في الغابة تحت المطر والعاصفة بعيداً عن عيون الحشود التي تراقب كل شيء وتدفع الثمن وتنتظر الثمن عن كل شيء، بينما العاشقان يتآخيان هنا مع النهر والشجرة والغيم ولاوسيط لهما مع العالم سوى الشيخ الذي آواهما في كوخه المكدّس بالكتب، كان عائماً في بحر الكتب: كوخه بحر كتب وهو ملّاح وحيد وحيد، كان يكتب لنفسه ويقرأ كتب الآخرين ويوغل في عزلته عن العالم بغير حاجة للتعامل مع عالم الغرور والمصالح، يعيش فردوسه وسط الغابة، وهما في حمايته........

تخيلت نفسها هاربة مع عاشق تباركهما آلهة الحب، لا، ليس الآن، لن تخوض التجربة ثانية، وقد تفكر بالعودة إلى غرينوبل، عليها الآن أن تنجز ما يسعد والدها الموشك على الرحيل، تمنحه فرحة الإطلاع على بعض أسرار أهله المطموسة طوال عقود،،، ستجفف الأوراق المبلولة على وهج المدفأة الكهربائية التي وضعتها فوق منضدة الزينة، تحاول أن تتملى سطورها المطموسة بعد أن تجف قليلاً وتضعها على سطح المرآة لعلها تتضح، وإن لم يجدِ الأمر نفعاً ستكون ثمة ثغرة في المدونات.....

الفصل الخامس

الفونوغراف


https://telegram.me/maktabatbaghdad

العــودة

تصــل نهــى إلى منتصــف المجلد الثانــي والجد صبحــي الكتبخاني يتحدث عن صدمة العودة إلى بغداد وآثار الفيضان المروع ماتزال واضحة تعلــن عن مدينــة خربة وقد تهاوت مئات البيــوت الطينية وامتلأت الأزقة بالأنقــاض وتحولت الطرق إلى مســتنقعات وانتشــرت جثــث الحيوانات النافقة هنا وهناك وظهر وباء الكوليرا مجتاحاً البلاد كلها..

... وصلت قافلتنا عصراً إلى بغداد وخضنا في برك الماء الآسن ورافقني صاحب الــدواب إلى بــاب منزلنا، طرقت باب الديوانخانة ففتــح لي البواب ولم يميزني لأول وهلــة في ملابسي الإفرنجية وهيأتي المختلفة، وقــف مذهولاً وتمتم بضع كلمات ثم قال:

– نعم أفندي، من تريد؟؟

حدق في وجهي ولم يعرفني بعد أن نما شاربي وتبدلت ملامحي واختلفت هيأتي...

أنقذته من حيرته: أنا صبحي.. صبحي

– صبحي أفندي أعذرني، ماعرفتك، ماشاء الله، ماشاء الله..

وصــاح بصوت يسمعه الجميع: وصل سيــدي صبحي، وصل سيدي صبحي.. حمــل مع الخادم شاهين أمتعتــي إلى غرفة الشاي، ودخلت مباشــرة إلى الحرم للقاء والدتي التي عانقتني وغصت بالنحيب..

قبلت رأسها ووجهها ويديها وأحاطت بي أختاي ألفت وبديعة، وجاءت أم نعمان وأحدثت ضجة بزغاريدها فزجرتها أمي..

– إهدأي أم نعمان كفى رعونة، إسماعيل بك نائم في غرفته، أصمتي..

أخذتني والدتي إلى غرفتها وقالت بشيء من الأسى:

– والدك غير راض عن عودتك وسمع بعض الأخبار عنك وأخشى أن يثير المشاكل، فكن هادئاً يابني واعتذر منه..

– أمي لم اقترف ذنباً لأعتذر..

– تبقى عنيداً، لقد حذرتك من غضبته..

أخرجتُ من جيب معطفي الطويل علبة المجوهرات وقدمتها لها:

– إقبلي هذا من إبنك الذي يحبك، هديتي لك من الأستانة..

– عودتك سالماً تكفيني، (وأخذت تتفحص القرطين والخاتم المزين بحبات الماس الكبيرة):

– صبحي، لماذا لاتحتفظ بهذه الحلي لزوجة المستقبل؟؟

– لن أتزوج الآن، وهي لك أنت وأعرف أنها تروق لك.

– إذهب إلى غرفتك وغير ملابسك وخذ قسطاً من الراحة ريثما يسخن شاهين الحمام..

نادت أم نعمان:

– أم نعمان، أبلغي الطباخ ليعدّ عشاء يليق بصبحي بسرعة وليذبح دجاجاً ويطبخ رزاً ويصنع حلويات ولاتحدثِي هرجاً كعادتك..

نمتُ نوماً عميقاً ولم أستقيظ حتى صباح اليوم التالي وماجرؤ أحد على إيقاظي

للعشـاء أو الاستحمـام، أحضـروا لي الفطـور، تناولته وحدي، وأخبرتنـي أمي أن والدي ينتظرني في غرفة الديوان..

سلّمـت علـى والدي وقبلـت يديه، ودعـاني لاحتسـاء القهوة، لكنـه لم يفتح موضوعاً للحوار بل قال بصوت حاسم:

– سأذهـب إلى عملـي في دار المعتمدية، وغداً أسافـر إلى المحمودية وقد تطول رحلتي، وسنتحدث عندما أعود..

كان غيـاب والـدي فرصة عظيمـة لي للقـاء الأشخاص الذيـن أوصاني يغمور وعزيز بلقائهم في بغداد ؛ فأمضيت معهم أوقاتاً مثمرة وتحدثنا عن إمكانات التعاون بيننـا لتحسين الأوضاع في ولاية بغداد والتبشير بالدستور الجديد، وكنت في بعض الأيـام أبيـتُ عند محمد بهجت أفنـدي الذي كان مسؤولاً عـن تنمية حركة الاتحاد والترقـي السرية في بغداد، أو أمضي ليلة أخرى في منزل التاجر التركي ضياء الدين كمـال الذي كان يمـد الحركة بالمال والمعلومات. كنّا في العـادة نسهر حتى الصباح ونحن نكتب المقالات المحرضة وننشرها في صحيفة تُوزّع سراً بأسماء مستعارة..

بعد شهر عـاد والدي من سفرته السرية المعتادة إلى المحمودية، ويبدو أنه أوكل لأحـد الخدم متابعـة خطواتي وتحركاتي خـارج البيت ولم أكن أحسـب لهذا الأمر حساباً..

طرقـت والدتي باب غرفتـي في السلاملك بعد أن خـرج حكمت الى المدرسة ونشـأت الى العمـل وانشغلـت البنات مـع المربية العجـوز أم نعمـان والخادمات الأخريات في شؤونهن الخاصة وذهب الخدم لشراء حاجيات البيت أو لرعاية الخيل في الإسطبل الملحق بالدار. أخبرتني والدتي بصوت مختنق:

– والـدك يريد التحدث معك وينتظرك في الديوان، أرجوك كن هادئاً ولاتزعج أباك..

كانت تحدس ماسيحصل بيني وبين والدي، حدسَتْ رائحة معركة ودخان غضب ؛ فقد سمعَتْ طرفاً من الحديث مع حكمت ونشأت حول خروجي ومبيتي خارج منزل الأسرة، كانت تصغي للحديث ولم تكن لتتدخل في الأمر ؛ فقد حرم والدي – بصرامته وقسوته – على نساء البيت المقموعات التدخل في أي نقاش يدور بين الرجال ذوي القلوب الحجرية والأصوات الجهيرة..

دخلت غرفة الديوان فوجدت الوالد يغلي كمرجل ينفث الزفرات، حييته ولم يرد التحية، نظر إلي نظرة نارية خلتها ستحرق ثيابي، أحسسته سيصرعني بكلماته التي انطلقت كالرجوم:

– صبحي، أنت تثير الشبهات حول أسرتنا بأعمالك الخسيسة وتحركاتك المسيئة للسلطان عبد الحميد خليفة المسلمين وللصدر الأعظم، أنت كافر مرتد..

– أبي مافعلت شيئاً يخالف العقل والضمير وليس بوسع أحد أن يمنعني من رؤية الحق والباطل. هل تحرم عليّ قول الحقائق التي شهدتها بنفسي في الأستانة؟؟ أنتم هنا لاتعرفون مايجري في العالم، الأستانة تنتفض غضباً وقد رأيت وسمعت وعرفت من الأسرار مايذهل العقول...

– وإذن، أنت تعترف أمامي بوقاحة ياولد ودون احترام لمكانتي، تريد الإنقلاب علينا وعلى ولاة الأمر..

– بل أسعى لأضع الحق في موضع الحق وأعمل لخير بغداد كما يعملون هم لخير الأستانة وحدها..

– أمسيت أخشى على الأسرة مما تدفعك إليه أعمالك الضالة وصحبتك لجماعة (الإتحاد والترقي)، بئس ما عدت به من الأستانة..

- دعني أعترف بوضوح أن بصيرتي تفتحت على مالم أكن أعرفه في هذا البيت..

- جميع من في بيت الكتبخاني وبيت زوج عمتك نجدت الخيامي بل وحتى الخدم يتهامسون بشأن سلوكك المخزي: أنت تحتفظ بجرائد تنشر أخباراً ملفقة عن مولانا السلطان وتصاحب المخمورين والعواهر، وإذا واصلت الخروج على قوانين هذا البيت و تقاليدنا وعصيت أوامري، فالأفضل أن تتركنا حفاظاً على سلامة الباقين..

- وإذن فأنت تطردني من بيت الأسرة؟؟

- إذا كنت حريصاً على الأسرة وعلى والدتك وأخواتك المصونات غادر البيت قبل صلاة المغرب، ولك أن تقيم في قصر المرحوم مدحت بك خال والدتك في بستان الشواكة وسآمر الحوذي وشاهين ليحملا حوائجك ويعبرا بها في الزورق الى القصر، ويمكنك أن تزور أمك عندما أكون خارج البيت. لا تدعني أرى وجهك بعد اليوم..

إقامتي في هذا البيت العتيق المعزول الذي يسمونه القصر - وماهو بقصر -كانت أمراً مثيراً للشبهات ؛ فقد تناثرت الأقاويل حول سكني وحيداً معزولاً في قصر مدحت بك وسط بستان الشواكة بكرخ بغداد: قيل لابد من وجود سر ما، أو أن هناك قصة كبيرة تختفي وراء هذا الأمر - أن يهجر صبحي منزل العائلة الكبير ويبتعد عن والديه وإخوته وأخواته، وقال آخرون أن لصبحي مزاجه الشهواني واندفاعاته في علاقاته بالنساء وهو ما جعل الكثيرين يبتكرون الحكايات والقصص الغريبة عني بخاصة خدم البيت وحراس والدي، وقيل أن لصبحي جماعة سرية وربما كانت له صحبة من الجن والأشباح بعد أن تعلّم في الأستانة علوم السحر وبدأ يسخر الجن والأشباح لغاياته ؛ فيجلب له الجن فتاة عذراء بين حين وآخر محمولة على أجنحة إوزة مسحورة أو يقوم رئيس الجن باكتشاف كنز ثمين في إحدى حجرات القصر المغلقة، وأن سحره كشف عن

وجود عظام أطفال مدفونين في شرفة القصر كانوا أبناء القريب الراحل مالك القصر الذي شاعت زوجته المجنونة أن تخنق أولادها حال ولادتهم وتدفنهم في الشرفة الشرقية للقصر،،،،، روى لي خادمي شاهين هذه الترهات وهو يضحك ساخراً منها لأنه كان يعرف بطلانها، وخمّن أن مصدر الإتهامات كانت إمرأة من قريباتنا طمحت إلى تزويج إبنتها لي..

عدت من الأستانة وذاكرتي محتشدة بأحداث عالَم موشك على الزوال كما شاهدته وتلمسته طيلة سنوات بقائي هناك، بينما كانت مخيلتي وأحلامي منبعاً لنبوءات عالم جديد لم يتشكل بعد: عالم غائم يسوده الاضطراب والتشوش، وما كنت أدري أي النبوءات أقرب إلى التحقق وأنا الذي تزدحم في رأسه الرؤى والمشاهد المستقبلية لتتحقق بعد حين على غير نظام أو ترابط فيما بينها. إنغمرت منذ وقت مبكر بشغف التدوين وأنا في في المدرسة الرشدية ثم الاعدادي ملكي التي هجرتها وسافرت إلى الأستانة وحملت معي كتبي الأثيرة في المحمل: رسائل أخوان الصفا ومقابسات التوحيدي وطوق الحمام في الألفة والألاف وكتاب طبائع النساء وروضة المحبين ونزهة المشتاقين...

قبل سفري الى الأستانة كنت أجمع الجرائد التركية الصادرة في الإستانة و المنشورات والفرمانات وصحف ولاية بغداد كصحيفة الزوراء والزهور و «تفكّر» و«تعاون» و«وجدان و «يلدرم» وغيرها مما كان يصل الى مكتب والدي المعتمد في بلدية الولاية ؛ فكنت أصنف أخبارها وأخصص للغة التركية و العربية مجلدات منفصلة – أرتب القصاصات التي تتعلق بأخبار وأحداث السلطنة في مجلد أحمر الغلاف وأحفظ الأخبار التي تخص الابتكارات والاكتشافات العلمية العالمية في مجلد ذي غلاف ذهبي ثمين، أما قصاصات حكايات الحب والغرام والفضائح المروية في الصحف عن نساء تركيات وفرنسيات وألمانيات ونمساويات وبلغاريات وفارسيات فكانت محفوظة في مجلد ذي غلاف أزرق، و

طوال سنوات وسنوات لبثت أضيف إلى قصاصاتي وأسجل تواريخها وعناوينها حتى غـدت ذاكرتي وسجلاتـي متحفاً متداخـلاً تتزاحم فيه الأرقـام والأسماء فاحتشـد عقلـي بالأحـداث والقصص والشهـوات. كنـت أدوّن الأحداث في انتظـار أن يحـدث أمر ما يغير حياتي إلى الأبـد أو أستسلم، لا، في الحقيقة أردت القول أو أموت دون غايتي. وهاقد مرت شهور وأنا أعيد تأسيس حياتي وحدي في القصر المعزول وكانت أمي تمدّني سراً ببعض المال ويسعى رأفت - زوج أختي - لتعيينـي موظفاً في قلم المكتوبـي التابع لإدارة ولاية بغـداد. كان رأفت محبوباً مُهـاب الجانـب في عمله وبين معارفه وله معرفة طيبة بـوالي بغداد (أبو بكر حازم بك) ونجح مسعـاه في تعييني رغم محاولة والدي ردع رأفت ومنعه من مساعدتي عقاباً لما أسماه خروجي عن طريق الطاعة...

الفونوغراف

... واعلم ياأخي أيدّك الله بروح منه، أن كل صناعة تُعمَلُ باليدين فإن الهيولى الموضوعة فيها هي أجسام طبيعية، ومصنوعاتها كلها أشكال جسمانية، إلا الصناعة الموسيقية ؛ فإن الهيولى الموضوعة فيها كلها جواهر روحانية ـ هي نفوس المستمعين، وتأثيراتها فيها كلها مظاهر روحانية أيضاً...............

رسائل إخوان الصفا

الرسالة الخامسة في الرياضيات والموسيقى

عرفتُ فن سماع الموسيقى لأول مرة في مقاهي الأستانة وتكاياها وفي شرفة بيدار خاتون التي كانت تعزف بعض المقطوعات على البيانو، وهناك اكتشفت سحر السماع من المغني الأعمى تيمور الذي حدثني بإفاضة عن كل نغمة وكل مقام، وكان يستبشر بوجودي في المقهى وقال سأعطيك دروساً في النغم لاتحصل عليها إلا من عالمٍ بالأصوات. غيّر سماع الموسيقى حياتي ونقلني من حال إلى حال ؛ ففي بيتنا كان المرح محرماً بأمر والدي الذي كان يمنع إقامة الأفراح وسماع الموسيقى ويعدُها من الشرور وينفر من بيت عمتي آل الخيامي لأنهم يقيمون الحفلات في مناسبات الزواج والختان وولادة الأطفال ويأتون بمغنية وعازفة عود لحفلات السيدات ؛ فنشأت جاهلا بفن السماع حتى حضرت في الأستانة مجلس ذكرٍ لدراويش المولوية

وسمعت عزف الناي وضرب الدفوف مع قصائد مولانا الرومي، وفي تلك اللحظة تغـيرت أحوالي وحلّقت بي الموسيقى إلى مراتب علوية وعرفت كم تبدد من عمري البائس بلا سماع ولا أنغام موسيقى، واكتشفت خواء عمري من كل قيمة: عرفت ساعتهـا أن الموسيقى سرٌ كونيٌ ربـاني، قرأت للفارابي والـرازي عن علم الموسيقى والرياضيـات وعرفت بعد هذا الكشف المبين أن مَنْ لا ينصت للموسيقى لا يعرف غبطـة الروح وتجاوز الحـزن والألم ومقاومة الفناء، وصرت كلمـا سمعت شيئاً من الموسيقـى أتحرر مـن الخوف وأثقال الحيـاة وترقّ روحي وترهـف حواسي فأسمع نداءات الكون. قال لي المغني المتصوف تيمور: ماتقول به هو لحظة التسامي

قلت له: أتسمي النشوة الفريدة تسامياً؟؟

– نعـم يـا صبحي أفنـدي، فمعها تكتشـفُ قوة الـروح وقدرتها علـى مغالبة الصعـاب.. ألا تراني أمامـك؟؟ هل استسلمت للعمى؟؟ أبـداً أبداً، سلمت مقادير حياتـي للموسيقـى فنجوت مـن العمـى والمطامع وعرفـت نوراً غير الـذي ترون بأبصاركم..

– كيف بالله عليك؟؟

– عندمـا أعزف وتتملكني نشـوة الموسيقى وأملكها أحلـق مثل الطير وأتوهج مثل الشمس.

– أغبطك على هذا..

– وإنك لتقدر على بلوغ هذا لو واصلت السماع...

– سأفعل، سأفعل أيها المعلم تيمور، زدني من أنغامك لأجد نفسي..

– إبحث أنت عن نفسك وستلتقي بها، إنها تنتظرك في الطريق..

- ماهو الطريق؟؟

- سبيلك إلى المعرفة والمحبة، سماع الموسيقى ومعرفة أسرار الفكر والكون، الموسيقى فن لا تخوم له..

أستعيد اللحظة درس تيمور البليغ الذي هداني إلى معرفة أقوال الرازي والفارابي في الموسيقى، ومنه عرفت فعلاً أنني على الطريق، سأتحرر وأحلق مثلك ياتيمور المعلم..

في مصادفة عجبت لها وحسبتها من تدابير القدر، أني قرأت في صحيفة (تصوير الأفكار) المهتمة بالعلوم والأفكار وأخبار الفنون خبراً عن وصول جوقة موسيقية - وكانوا يسمونها (أوركسترا) - من مدينة فينّا وستقدم عزفها في التياترو الكبير، إشترينا التذاكر أنا وعزيز وحضرنا الحفل الباهر، كانت الجوقة كبيرة جداً ويقودها رجل مهيب ذو شعر أشيب منسدل على منكبيه، وكان يحرك يديه ويؤشر بعصا رفيعة ليعزف كل عازف النغم المطلوب على آلته، وقرأنا في الأعلان المعلق في قاعة التياترو أن الفرقة إسمها (فينّا فيلهارمونيك اوركسترا) وأنها تأسست عام ١٨٤٢ وعجبت للأمر أنا الذي لم يسمح لي والدي الإستماع للموسيقى في بغداد - ولدينا موسيقيون وقراء مقام - حتى قدمت إلى الأستانة، كم يعرف اوئلك القوم من علوم وفنون لم أسمع بها وحرمنا منها بسبب إذعان أهلنا لأعراف بالية و تشدد ولاة الأمر عندنا وتساهلهم في الأستانة بشأن الفنون كلها..

عزفت الجوقة لكبار الموسيقين الألمان والنمساويين: بيتهوفن وباخ وموزارت وشتراوس وهايدن الذين كُتبتْ أسماؤهم في الإعلان ولم نكن قد سمعنا بهم ولاقرأنا عنهم من قبل، لم تكن استجابتي جيدة للموسيقى لكنني انبهرت بعظمة الجوقة وعزفها وإتقانها، وقال لي عزيز أن الموسيقى العظيمة مثال على تقدم الأمم، وصرنا ننتظر وصول الجوقات والفرق الإفرنجية لنتعلم الإصغاء للموسيقى، لكن

انشغالنا بأمور جمعية الإتحاد والترقي حَرَمنا في مناسبات كثيرة من حضور حفلات الموسيقى، وصادف أن اصطحبَنا يغمور وسليم إلى تكية مولوية أمضينا فيها ليلة عجيبة من السماع وبتنا في غرف التكية الحجرية، كان شيخ التكية من أقارب يغمور، للتكية باب ضخم من الخشب الخشن غير الصقيل يدور على محور حجري، وكان فناء التكية الواسع المرصوف بالحجارة الصقيلة مُسوّراً بسور مرتفع من الحجارة الجبلية ويطل عليه قمر بدر يضيء بنوره الفضي بينما كانت هناك مشاعل مثبتة في الجدران العالية، وفي وسط الفناء حيث مُدّتْ الأبسطة إجتمع عازفو الناي وضاربو الدفوف: كانوا مُسربلين بثياب بيضاء بدوا فيها أشبه بالطيور البحرية وهم يربطون على بطونهم الضامرة أنطقةً عريضةً من الجلد ويعتمرون طرابيشهم الطويلة المصنوعة من اللباد، وعندما بلغ بهم الوجد أقصى درجاته وتعالى صوت المنشدين أخذوا يشكّلون حلقة كبيرة ويدورون حول أنفسهم على ايقاع الموسيقى والإنشاد، دخلنا الحلقة أنا وعزيز بينما بقي رفيقانا جالسين، وانضممنا إلى الدوامة الدائرة ولبثنا ندور وعزف الناي يتعالى والإنشاد يخفت ويخفت حتى سقطنا مغشياً علينا بين الدراويش...

عند عودتنا همس لي يغمور:

- عملنا في الجمعية يشابه هذه الحلقة الدوارة، لابد أن نكون ملتمّين ومنفصلين، مترابطين ومنفردين، متأثرين بالحدث ومتعقلين في الآستجابة...

رويتُ لبيدار خانم قصة زيارتنا للتكية وإعجابي بحياة الدراويش، ضحكت ونظرت إليّ ملياً، ثم قالت:

- يابني، مالك ولهذه الأمور؟؟ إن أخذتك الدروشة سلبت منك الحياة ووضعتك على طريق تتطلب الزهد بالدنيا ومافيها، وأنت كما عرفتك لك آمال ومطامح دنيوية، كن مثلي: تمتع بالموسيقى ولاتدع طريقة حياة تستعبدك، أنصت

للموسيقى ولا تنصرف لها بكل حواسك، أنت كما أراك إبن الدنيا فلا تبدّد نفسك فيمـا ليس لك.. والآن سأسمعك معزوفة موسيقية من فالسات شتروس.. أنصت وتخيل دنيا جميلة تليق بك..

قامت إلى البيانـو وجلست على المقعد المخملي وشرعت تعـزف، وسحبتني الموسيقى إلى نعيـم وتخيلات حتى فاضت روحي بالغبطة، شكـرتُ بيدار خانم وعدت إلى البيت منتشياً........

قـرأت في الصحف قبل سفري للأستانـة عن إختراع الفونوغراف الذي يحفظ الأصوات وبحثت عن معنى إسمـه فوجدت أن معناه (كتابة الصوت) وآليت على نفسـي أن امتلك هـذه الآلة العجيبة، أمـا أول مرة سمعت فيهـا الفونوغراف فقد كانـت في السفينـة التي أخذتنـا إلى سالونيك، ومنذ ذلك الحـين زاد إصراري على امتـلاك الآلة التـي تحفظ الأصوات وتطـرب الناس بالموسيقى مهمـا كلفني الأمر، وعندمـا عدت إلى بغداد سمعت أن قريباً لنا إشترى جهاز فونوغراف صار أعجوبة في بغـداد، ولما سألته عنه قـال بإمكانك أن تطلبه من سـوق الجميل قرب البوسطة العثمانية في بيروت وسوف يصل بغداد في أقل من شهر واحد..

أدهشني وحيّرني أمر حفـظ الأصوات وإعادة سماعها، وقد عدّ الأقدمون هذا الأمـر من باب الخرافة. قـرأت أن الشيخ إبراهيم اليازجـي نقل مما جاء في عدد من مجلة ساتيريك لسنة ١٦٣٢م «أن أحد الربابنة عاد من سياحته في النواحي الجنوبية مـن العالم وكان نزل في بلد وجد فيـه ضرباً من الإسفنج يمسك الألفاظ والأصوات كمـا يمسك الماء وأن أهل تلك الناحية إذا أرادوا أن يبلغوا أمراً الى جهة من الجهات أو يستفهموا عن أمر عمدوا الى بعض من هذا الإسفنج فتلَوْا عليه الكلام وأرسلوه الى المكان المراد، كما ذكّر بما جاء في كلام سيرانو دو برجراك الذي عاش في القرن السابع عشر في كتابه المعنون (رحلة الى القمر)،، فذكر أن جنيّاً دفع إليه كتاباً في هيئة علبـة فيه شيء من المعدن مملوء بنوابض صغيرة ؛ فـإذا أراد أحد أن يقرأ فيه يعصب

الآلة بعصب دقيق ثم يدير الإبرة حتى تقع على ما يريد أن يسمعه فللحال تخرج منه جميع الأصوات التي يتخاطب بها أهل القمر كما تخرج من فم إنسان..»

فونوغراف أديسون هو الإسم الذي صار يعرف به الفونوغراف في بيروت كما روى لي قرينا، وقال رأيت العجب في بيروت عندما أحضر رجل ألماني الآلة الحاكية وأدهش وجهاء المدينة وتُجّارها ومبعوثيها، وطلب منهم أن يتحدثوا وينشدوا الأغاني و التراتيل والآلة ترسم أصواتهم على قالب الشمع الأسطواني وتعيدها، فاشترى قرينا الآلة دون تردد من شركة (فونوغراف أديسون) وأحضرها إلى بغداد وعدّ المتشددون المتديّنون االفونوغراف بدعة وبدأوا يناقشون ما يراه الشرع فيه..

روّعني خبرٌ نشرته جرائد الأستانة عن صدور فرمان سلطاني بتحريمه بعد أن انتشرت قوالب نقلت عليها آيات من القرآن في بيروت وحلب والشام، وخشيت أن يُحظر الفونوغراف في بغداد قبل وصوله ويصدر حكم من ذوي العقول التي لاتفقه أمور العلم والتطور بإتلاف الآلة الساحرة..

حالما انتقلت إلى قصر الشواكة أرسلت في طلب الفونوغراف من بيروت وطلبت معه مجموعة كبيرة من الاسطوانات المسجلة ومثلها من الأسطوانات الفارغة، ووصلني بعد شهر وهاهو أمامي بين يدي، كانت في الأسطوانات موسيقى عربية وألمانية وبعض الأغاني المعروفة في بيروت، زارني قرينا مالك أول فونوغراف في بغداد وعلّمني كيفية تسجيل الأصوات وأهداني دفتراً صغيراً يشرح طريقة حفظ الصوت على السلندرات..

ها أنا أستمع الى السحر، أنصت إلى الموسيقى فأجد نفسي في دنيا غير دنياي وأرى روحي في مدينة الخير والعدل، بعيداً بعيداً عن تزمت أبي ونفاق المحيطين به من أهل بغداد، وأنتظر أن يتحقق حلمي وتأتي بنفشة خاتون لتعيش معي في هذا البيت وأحفظ صوتها المغرد على الأسطوانة، أحفظ حديث القلب معها، أريد

أن أتــرك لأحفــادي كلمات عــن قصة عشقي لهــذه المرأة التي ستكــون أم ولدي، سأتزوجها وأعلم أنني سأثير غضب الأسرتين – أهلي وبيت عمتي وأخوالي، لست أبالي، فليغضبوا، فلينبذوني، ومــاذا عساي أفعل بالحياة دون بنفشة؟؟ لقد حرّم أبي سمــاع الموسيقى في بيتنا، فكيف سيتقبل زواجي مــن الجارية المغنية؟؟ هو من اعتبر جهاز الفونوغراف من وسائل اللهو التي تبعد الإنسان عن الأخلاق القويمة وخاصم قريبنــا الــذي كان أول من امتلك الجهــاز العجيب في بغداد ونعتــه بأحط النعوت، فمــاذا تــراه سيقول عني؟؟ أنا علــى يقين لو كنت أحضــرت الفونوغراف إلى منزل أهلــي لأعجبــت به شقيقاتي وأشقائــي ولوجدوا فيه تسليــة عظيمة وهم في سجن حياتهم المسورة بالمحظورات...

عندمــا أحضر شاهين الفونوغراف مــن قافلة التاجر الذي أتى به من بيروت قال لي أن صاحــب القافلة أحضر جهازاً آخــر سيبيعه لأحد الباشوات في بغداد، أصاب الذهول خادمي شاهين وهو ينصت إلى الموسيقى..

– تعال شاهين، قل كلمة لأسجل صوتك..

خــاف وتردد وكأننــي سوف أسلبــه الــروح، شجعته، ســوف أسجل صوتي وتسمعه، إقترب شاهين وسمع كلماتي معه فاستغرق في الضحك والدهشة:

– صبحي أفندي، هذا سحر ساحر..

– بل هو علمُ عالمٍ أيها المسكين، هذا اختراع أديسون، لاسحر فيه بل عقل يفكر ويتوصل الى صنع ما لا تعلمون..

– صبحي أفندي هذا شيء عجيب.. عجيب..

وضعت أبرة التسجيل على الشمع وقلت لشاهين:

- ستفهم يوماً ما، والآن أسرع جهز القهوة في الأوجاغ..

- حاضر صبحي أفندي.. حاضر..

أعدت التسجيل ؛ فما أن سمع صوتينا حتى ارتبك من جديد وتوقف كأنه تذكر شيئا وعاد إلي مسرعاً:

- صبحي أفندي، جاء رجب إبن وكيل الأملاك الى هنا وطلب أن يتحدث إليك وهو ينتظر في البستان..

- دعه يدخل..

- السلام عليكم صبحي أفندي..

- وعليكم السلام، خيراً رجب ما الذي أتى بك إلى هنا؟؟

- صبحي أفندي لديّ أمر أريد أن تعرفه مني وأقسم بالله أنني سأقول الحق..

- قل رجب، أنا منصت لك..

- الطفل، إبن الحبشية زوجتي، ليس إبني، هو إبن أخيك نشأت وقد اتهموني ظلماً وأنت تعرف كل شيء..

- وما الذي تريده الآن؟؟

- أريد أن تعرف أنت هذا السر ؛ فالولد إبنكم ومن دمكم وهو يشبه نشأت، وزوجتي غنم الحبشية توفيت في مخاض ولادة الطفل الثاني الذي أتى مختنقاً، أريد أن أبريء ذمتي من هذا السر..

- دع الأمر لي وسوف أتصرف وأكشف الحقيقة في حينها..

- أخشى أن لايصدقوك وأنت في قطيعة معهم..

- ماعليك، سأعمل كل جهدي وأوضح الأمر للعائلة

- ليحفظك الله..

أي جبان كنت حينها؟؟ رأيت أخي نشأت يخرج من غرفة نغم، وكان رجب موجوداً قرب المكان فاتهمه البواب، أي جبان أنت ياصبحي؟ والآن ماذا ستفعل ياصبحي؟؟ وكيف ستواجه أخاك ووالدك لتبريء (رجب) مما أتّهم به؟؟

عندما خرج رجب، إكتشفت انني تركت الأبرة تسجل حديثنا دونما قصد ولكني وجدتها أفضل طريقة للبرهان على نسب إبن نشأت، فاحتفظت بالاسطوانة، ولأتخلص من الإرباك الذي تسبب به حديث رجب معي جلست أنصت الى أسطوانة للمنشد داؤود حسني المصري أرسلها لي قريبنا صاحب الفونوغراف الأول في بغداد ووصفها بأنها من أجود الأغاني وأشجاها، كان صوت داؤود حسني رخيماً يفيض شجناً وهو يردد:

بالعشق أنا قلبي هني، على عشق الجمال إعتاد فؤادي

بنفشة خاتون

بوسع نهى الحكم على مدونات الجد صبحي الكتبخاني من وجهة نظر حفيدة معاصرة ترتاب بسلالتها مرة، ومن وجهة نظر امرأة غريبة تتفحص مذكرات رجل من عصر مختلف حطم بعض قيود التقاليد في زمنه وخرج على طاعة الأب، ولكن ماجدوى أحكامها المتأخرة على جد والدها؟؟ ووفق أية معايير تحكم عليه؟؟ هل على معايير عصرها؟؟ ولكن هل من حقها أساساً إصدار الأحكام على سلوك وأفكار أسلاف راحلين؟؟

تساءلت ماذا سيكون موقف صبحي الكتبخاني وهو يسمع عن أحفاد سلالته وتعاونهم مع الإحتلال الذي دمر البلاد ووصول أحدهم إلى البرلمان في زمن الطوائف المتناحرة وانغماس الثاني في تزمت ديني طائفي يتوسل عبره بلوغ منصب مرموق لايقل عن وزارة مهمة يدفع مقابلها ثمناً لقيادات أحزاب دينية متنافسة في عتمة الزمن التعيس؟؟ ماذا كنتَ ستقول ياجدّنا صبحي الكتبخاني؟؟

فتحت نهى مجلداً مذهّب الغلاف يحمل عنوان (بنفشة خاتون) ـ المغنية التي كتب عنها صبحي قبل سفره إلى الأستانة، شرعت تقرأ وتصحح الكلمات المطموسة، تمتعت بغراميات جد والدها وتمرداته على مجتمع غارق في العتمة العثمانية الأصولية، أدهشها ماكتبه الجد صبحي عن بنفشة خاتون وقصتها العجيبة التي تماثل قصص معظم الجواري وسبيات الحروب وما يلاقينه من عسف وظلم وذل: تباع إحداهن وتُشترى

مثل سلعة أو دابة أو قطعة أثاث ولم يجدن في الأعراف والعادات والتعاليم ما ينصف إنسانيتهن ويخفف من عنف المجتمع عليهن،،، حطّمت فؤادها قصة بنفشة خاتون...

تركت نهى كتاب جدها وأخذت تتذكر نتفا من تأريخ العبودية عبر الحضارات: المجتمع الزراعي هو أول من اخترع اقتصاد العبودية ؛ لطالما قرأت نهى أن هذه سمة العصور الشرقية والغربية كلهاعلى مر العصور منذ العصر السومري والبابلي والآشوري وحضارات الهند والصين والأغريق والعصر العباسي والأموي والعصور الوسطى في روسيا و أوروبا وأمريكا، كم بنى العالم اقتصاده على استعباد البشر؟؟ كم تمتع أصحاب السطوة والمال على مر الزمن بالنساء المستعبدات؟؟ يا إلهي كم من الظلم والعنف في عالمنا؟؟ قالت نهى: سافاجيء أبي، بعد أن أفرغ من تدقيق مدونات جده وأبيه سأكتب بحثاً عن تأريخ العبودية، سيسعده الأمر هو الذي تشغله قضية الحرية الانسانية. كم تغيرت أحوال العالم على مرّ العصور، لكن بقي سبي النساء قائماً في الحروب الدينية والطائفية والعرقية لإذلال العدو باغتصاب نسائه، تخيّلت نفسها سبية لدى جماعة متشددة كما حصل للنساء الأيزيديات عند احتلال العصابات المجرمة للقرى في سهل نينوى وسنجار، لالالا، الموت هو الحل الوحيد لذل العبودية، كنت سأنتحر، ولكن لماذا لم تنتحر الجواري والعبدات؟؟ لا تذكر القصص ولامدونات التأريخ شيئاً عن ذلك ؛ فمدوّنوها هم الرجال ولاتعنيهم قصص جارية أو عبدة رافضة للذل، سأعرف ذلك حين أجمع مصادري عن تأريخ العبودية..

الآن ينبغي لي أن اطبع فصل (بنفشة خاتون) وأقدمه لأبي هذا المساء..

أشرقت (بنفشة خاتون) - بنفسجة العشق كحلم فردوسي على حياتي أنا صبحي الكتبخاني في منتصف عام عودتي من الأستانة، تفتّح حسنُ بَنفشة خاتون وتجلت مواهبها في العزف والغناء ورواية الحكايات وقصص البلدان وتفسير الأحلام وكلمات الحكمة في حرملك الوالي (نامق باشا الصغير).

حدّثتني بنفشة خاتون فيما بعد عن يوم وصولها إلى بغداد حين أتوا بها وهي بعد طفلة في الثانية عشرة من عمرها، كانت ترى الأمر كابوساً موجعا كمنخس يوخز أحشاءها وقلبها ويفصد دماءها، أهداها للوالي أحد التجار المعروفين الطامعين بالجاه والمناصب ؛ فأحضر لها الوالي مربية أسطنبولية وأخرى فارسية علمتاها أصول السلوك في الصالونات الراقية على الطريقة العثمانية المتأثرة حينها بالصالونات الفرنسية، وعندما إكتمل إعدادها ونضج جمالها وبرعت فيما يتطلبه موقع الجارية المفضلة جعل لها الوالي مدرسين علّموها اللغات الهندية والفارسية والعربية الى جانب التركية، إنضمت إلى حريم الوالي الذي منحها مكانة المحظية الأولى في قصره بعد زوجاته الثلاث وبين جواريه الأخريات...

مرضت إبنته (سنا النور) بعد مقتل حبيبها برمح مسموم في رحلة له إلى بلاد القفقاس، فانصرفت إلى العبادة والصلاة والبكاء فأصابها الوسواس السوداوي ثم أشتد حزنها وهلعها وامتنعت عن الطعام ؛ فوصف الأطباء مرضها بأنه المالنخوليا - الكآبة السوداوية - حسب ماوصفه (إسحق إبن عمران) وأعطوها عقاقير وتوصيات مانفعتها، فتولت بنفشة خاتون أمر علاجها بالغناء والموسيقى ورواية الأقاصيص وأقوال الحكمة وأخرجتها من دوامة الكآبة ؛ فإذا بسنا النور تستعيد نفسها وتعود إلى طبيعتها ويشع وجهها برونق شبابها وتزف إلى عريس من حاشية الوالي، وعندما ظهر داء الصرع على ابن الوالي الفتى (رافع شاكر الدين) لم تفارقه بنفشه وكانت تعتني به كإبن لها وتسمعه الأحاديث الجميلة والموسيقى حتى تباعدت نوبات الصرع فأكرمها الوالي بالعطايا..

سرعـان مـا انشغل الوالي عنها بأحـداث هددت مكانتـه وصراعات سياسية طالـت ولاية بغداد وولايتي البصرة والموصل، وتوفيـت زوجة نامق باشا الأولى وأم ولـده البكـر رشيد بك فحـزن عليها واعتزل جواريه ولم يعـد يعنى بمحظيته الأولى فتضرعـت اليـه بنفشة ليعتقهـا إكراماً لها لشفاء ولديـه ويبعدها عن حياة الحـريم لتفعل ما تراه مناسباً لحياتها، ولم يخيّب نامق باشا الصغير رجاءها فمنحها قصـراً قرب متنزه النجيبية الـذي أنشأه مدحت باشا أثنـاء ولايته وعين له جوقاً موسيقياً تُعزف فيه كل يوم الألحان التركية والغربية..

بنفشـة التي سحـرت رجال زمنها مـن الـولاة والقناصل والمبعوثـين والتجار والشعـراء المعدمـين وأولاد وجهاء بغـداد الذين يحضـرون إلى صالونها - باحت لي بأحـد أحلامها التي رأتها بعد أن أعتقها الـوالي واحترفت الغناء في بغداد، قالت أنهـا رأت في حلمها إقدامها على المجازفة بما وصلت اليه من ثراء وشهرة وتعلقت بشاب له هيئة صبحي، قالت:

- نعم كنت تظهر لي في أحلامي..

لم تكن بنفشة خاتون تعلم أنني كنت أنتظر ذلك الحلم مذ التقت عيوننا في منزل أحـد تجار بغداد وكانت قد دُعِيـت للغناء في عرس أحد أبنائه فـازداد انبهاري بها وهي تغني بالتركية والفارسية والعربية وتطربُ الحاضرين بصوتها الشجي، وعندما أتيح لي الحديث معها سألتها:

- أتجيدين كل هذه اللغات بنفشة خاتون؟؟

أجابتني وهي ترمقني بدلالها المغوي:

- وأجيد أكثر منها لو تعلم..

- سبحـان الله، مع كل هـذا الجمال الذي لا يملكه أنس ولاجان وتحتاجين لعلوم البشر ولغاتهم؟؟

- لم أختر العلم واللغات بل هي التي دانت لي فشغفتُ بها..

- كيف ذلك خاتون؟؟

- تلك قصة طويلة وعجيبة، قد تعرفها في قابل الأيام..

- أتعنين أننا سنلتقي يوماً ما؟؟

- دع ذلك للقدر، أو للحظ، أو للدنيا التي تلعب بي وبك وبالجميع..

ولما قيّض لي لقاؤها في قصرها ذهبت محملاً بالهدايا وعلب شاي خشبية منقوشة بماء الذهب، قالت لي:

- ياصبحي بك، وعدتك ذات يوم أن تعرف عني مالم يعرفه الناس لأني وجدت لديك أماناً وجعلت قلبي يطمئن إلى عشرتك، فوالله لابد أن تعرف عني كل ماشهدت وماكابدت في حياتي القصيرة مذ فارقت أهلي وقريتي قرب سمرقند..

- إني منصتٌ إليك يا سيدة قلبي وبنفسجة الزمان..

خطفني أحد قطاع السبيل من قريتي عندما كنت أرعى الماعز مع صويحبات لي على سفوح معشبة في الخريف، كان إسمي الذي ناداني به أهلي (فرغانة)، عرضني الخاطف عارية وسط سوق مدينة مجاورة وأنا أبكي هلعاً وحياءً وقد أحاطني الرجال من شيوخ وفتيان وباعة وعيارين ومنادين راحوا يتلمسون جسمي ويتفحصون لحمي وضفائري وأنا أرتعش، ودفعوا أثماناً بخسة لطفلة مخطوفة لم تكتمل. إشتراني النخاس زين الدين عبد الخير في سوق سمرقند وأطلق علي إسم مرجانة، إشتراني بضعف ما عرضه المساومون الآخرون لسبب لاأعرفه ولعله بخبرته في الجواري رأى مالايراه الآخرون، ومرّت شهور وأنا مع الجواري الأخريات في بيت النخاس. أوكلَ لامرأة فارسية أمرُ تعليمنا أصول القراءة

والكتابة وحفظ الشعر والغناء، ثم بغتة أعدّ النخاس وحرّاسه العدة للسفر وألبسونا ثياباً مبهرجة ووضعونا في التختروانات، تحركت القافلة من مدينة سمرقند عند الغسق، وكانت الغيوم السود تحجب القمر والرياح تعصف حولنا، أمطرت السماء سيولاً وتعذر على الخيل والبغال التي تحمل التختروانات المضي في الرحلة ؛ فأنزلنا رئيس القافلة في خان على مشارف المدينة مكتظ بالبغايا الهنديات والصينيات والقوقازيات والمغوليات اللآئي يخدمن التجار على طريق التجارة، كنا سبع سبيات صغيرات، إكترى لنا النخاس حجرة مفروشة بالأبسطة الملونة التي إختصت بها مدينة هرات: المدينة التي جاءت منها أمي، وقد عُلّقت على جدران الغرفة قناديل الزيت والطنافس المصورة بحكايات العشق المغولية والهندية التي كنا نراها في السوق وبعض بيوت الأثرياء في بلدتنا. إستقبلتنا بعض نساء الخان بمرح بالغ وتشمّمن روائحنا كما تفعل الكلاب بينما أجهشت إحداهن بالبكاء حين رأتنا وتلمّست وجوهنا الصغيرة المرعوبة ومسحت دموعنا، لعلها تذكّرت سبْيَها وهي طفلة مثلنا، بكت ثم اختفت في حجرتها بعد أن وبّختها رئيسة الدار..

– توقفي عن البكاء، هذا بيت للمرح والأنس، إذهبي بعيداً واستعيدي ابتسامتك التي سرقتها نظرة النخاس وجواريه..

أظهرت النساء الخبيرات بالحياة والحيل العجيبة وإمتاع الرجال كرماً لم نألفه في منزل النخاس حيث أرهقتنا القهرمانة الفارسية (كشفر خانم) بالتدريب على التزين ومنادمة الرجال وإمتاعهم وكانت تعاقبنا بالحرمان من الطعام كلما تقاعسنا عن حضور تدريباتها المُشينة..

هيأت نساء الخان – بعون من العبيد المشرفين على بيت المتعة – الأرز البخاري وفطائر المنتو والزبيب والكوشت نان وقدمنه لنا نحن البناتُ الهزيلات، إلتهمنا صحاف الرز والخبز والزبيب والفطائر، بينما كانت النساء المسنات يدخّن غلايين

الأفيون وانشغلت الشابات منهن في العزف على السيتار والرقص وإلقاء الدعابات الماجنة على أسماعنا.

تسللت رئيسة دار المتعة إلى الحجرة التي لُذنا بها بعد التهامنا الطعام، عرّت أجساد الفتيات الضامرة من فرط جوع إمتدّ أشهراً في بيت النخاس وتفحّصت جدائلهن ونهودهن الصغيرة وعجيزاتهن وضفائرهن وكانت تثمّن أسعار بيعنا للنخاس وتخبره عن قيمة كل منا ومواهبها والنخّاس يسجل تعليماتها في دفتره المهترىء..

قالت له مديرة دار المتعة:

– يازين الدين، لاتجازف بالسفر بسرعة ؛ فالجواري متعبات وقد تهلك بعضهن في الطريق، تريث هنا أسبوعاً ولن تدفع كثيراً مقابل إطعامهن وتعليمهن بعض دروس إمتاع الرجال..

قال لها النخاس زين الدين:

– لن أدفع شيئاً..

– ستخسر أكثر إذا مات معظمهن على الطريق، ألا تفهم؟ إنهن منهكات هزيلات.

– كم تريدين؟؟

– عشرون ليرة ذهباً..

– هذا كثير، لن أدفع..

– هات خمسة عشر ليرة..

إنتهت أيام الإنتظار فساقنا النخاس إلى همدان وكرمنشاه ثم اتجهت بنا البغال والخيول بعد مسيرة شهر من الشرق نحو الجبال الصخرية ووديان الأنهار ومساقط الشلالات وسفوح تنمو عليها أشجار البلوط والبطم ثم عبرت قافلتنا سهولاً مزروعة بالقمح والتبغ. ماتت أصغر السبيات بنزيف بعد أن إغتصبها النخاس مراراً في محطات استراحة القافلة وفي خانات المسافرين، وقمنا بدفن الصغيرة فوق ربوة ونثرنا على قبرها العشب وبكينا نحن الأسيرات اللائي توقعن المصير الذي ينتظرهن في أسطنبول أو حلب أو بغداد، نهَرَنا النخاس وضربنا وهدّد برمينا للكلاب الجائعة والذئاب..

مررنا بقلعة كركوك ونزلت القافلة خارج البلدة قرب نار عظيمة كانت تفور من الأرض، هناك صلى زين الدين أمام النار ومنعنا من الإقتراب منها، إجتزنا البراري والقفار ومررنا بجانب نهر سريع قالوا إنه نهر ديالى ولم نتوقف في الليالي التاليات إلا لنأكل لقمة خبز يشتريها لنا النخاس من القرويات مع بعض قطع البطيخ واللبن..

وصلنا بغداد وأنزلَنا النخاس في خان يسمى خان النخلة، وهيأ لنا أطعمة جيدة واعتنى بنا على مدى أسبوعين حتى استعدنا قوانا بعد الرحلة الطويلة المضنية، وبعد نحو عشرين يوماً أو أكثر عرضَنا في سوق النخاسين حيث تباع الجواري المجلوبات من أنحاء الدنيا ومعهن الغلمان المخطوفون والعبيد، إشتراني التاجر الذي أبقاني في بيت صغير بعيداً عن أسرته ثم نقلني بعد شهور إلى بيت آخر ومعي خادمتي ويبدو أنه خشي من معرفة أبنائه وأسرته بوجودي في ذلك البيت، جلب لي الثياب الثمينة وبعض الحلي والبوابيج المصنوعة من الجلد الفاخر، وأمر الطباخة أن تطهو لي المهلبيات والغولاش الأفغاني والقطايف والمربيات وكنافة العسل والجبن السكري وأن تطعمني الرز البخاري وفطائر المنتو لتسمّنني ؛ فقد كنت هزيلة جداً. إمتلأ جسمي وبرز نهداي بعد نحو عام، جاءني الحيض للمرة الأولى في هذا

البيــت وعلّمتني الخادمة كل مايتعلق بالأمر من نظافة وعناية، وصار التاجر يدللني ويتقــرب مني حتى ظننت أنه سيجعلني محظية له وكان يناديني هزار خاتون، فقلت له:

- إسمي مرجانة، لماذا تناديني هزار؟؟

قال لي: صوتك جميل كصوت الهزار..

وصار يزورني في الليل ونام بعض الليالي عندي وافتضّ بكارتي، إنقطع حيضي فأخبـرت الخادمة الخبـيرة ففحصتني وأنبأتنــي بأنني حُبلى عندمــا أصابني الغثيان والدوار أول النهار، قال الرجل:

- ماكنت أريد أن يحدث هذا ولكنه قضاء الله وقدره..

مرت الشهور حتى بدأت أوجاع المخاض، وأتى لي التاجر بقابلة يهودية أسمها راحيل كانت رحوماً طيبة صــبرت على عسر ولادتي وهدأتني وسقتني الأعشاب والمغليــات لتسهيل الولادة، وكدت أموت لولا رحمة الله وعناية راحيل، وولدت صبيــاً، وتفجر الحليب في نهدي فرضع الصغير مني بضع رضعات ثم نمت وأفقت مــن ألم الوضع، طلبتُ مــن الخادمة أن تاتيني بوليدي فأخبرتنــي الخادمة: أن البيك أخــذه منذ الفجر ولا تعرف أين ذهب به، بكيــت وندبت حظي وأمومتي المقتولة، وحدث لي نزف شديد ؛ فأحضرت راحيل طبيباً يونانياً أعطاني العلاج وأمر بتغذيتي علـى أكباد العجول المطهية بالزبد والتوابل طيلة شهر، وانقطع الرجل والد الطفل عن زيارتي وبعد أن مرّت أربعون يوماً على ولادتي عاد وسألته عن الطفل، قال لي:

- ليس لك إبن، هذا ولدي..

قلت له: هو إبني كما هو إبنك، أريد أن أراه ولو مرة واحدة..

- لن ترينه، أنت لا تصلحين لتربية إبني، هو بين يدي مربية أمينة ولن تصلي اليه، هيئي نفسك وارتدي أجمل ثيابك وحليّك وتزيّني..

تبيّن لي أنه كان يهيؤني طوال العام الذي أمضيته لديه ليقدمني إلى الوالي نامق باشا الصغير الذي تقبلني هدية مقابل أن يسمح للتاجر باحتكار أصناف من التجارة القادمة من الهند وبلاد فارس، وأطلق علي الوالي إسم بنفشة خاتون أي سيدة البنفسج..

واليوم إذ أروي حكايتي وسرّي أريدك أن تناديني بأسمي الأول: فرغانة، لعلني أنسى سنوات الذل مع أسمائي الأخرى التي جعلتني لاأعرف نفسي ومَنْ أكون وأتمنى يوماً أن أجد طفلي الذي غدا عمره الآن نحو ست سنوات..

- بل سأناديكِ بنفشة خاتون ؛ فهو إسم يليق بك يا بنفسجة حياتي وعطر زمني.

شعرت بالأسى لحال أمومتها المحرومة، كنت مذهولاً بحسنها وعذب كلامها وغنائها وعزفها على العود بعد أن هِمْتُ بها عشقاً وصرت لاأطيق فراقها ؛ فكنت أتردد على بيتها فتستقبلني كعاشقة متيمة وتنفرد بي، إمتنعت تلك الأيام عن الغناء في البيوت ودور اللهو وحبست نفسها في منزلها، وأسرّتني:

- كل صباح أواجه نفسي وأتأمل حياتي وأطهّر روحي وقلبي مما علق بهما من هموم وأحزان وذل طوال سنوات لأكون نقية طاهرة لك وحدك وأراني قد شفيت من ذلك كله.

ها هي بنفشة خاتون التي أشرقت عليّ بجمالها وغنج الغانيات ودلال المنعّمات ؛ فتغيّر كل شيء في حياتي وأضاءت قصري الموصد على كآبته وسرت الحياة وأصوات الغناء بين نخيل بستان مدحت بك...

كان يزورها في منزلها بالنجيبية سراة القوم ووجهاء وأثرياء بغداد يتمتعون

بصوتها الرائق وغنائها الشجي ويكرمونها ويغدقون عليها الأموال والعطايا، فكانت تنفق على بيتها، تحدثت عنها المجالس وكتبت عن جمالها جرائد بغداد كلهاوتسابق الرجال في خطب ودها لكنها تمنعت وحفظت كرامتها مطربة لها مكانتها الرفيعة، ولم يحظ برؤية وجهها سواي أنا الذي رفعت بيدي نقابها البنفسجي الشفاف فهبّت عليّ أشذاء رحيق البنفسج وأذهلني جمالها الذي يشعُّ ألقاً وتناوبتني الحيرة من أمري وأمرها، قلت لها:

– تكرّمي علي بزيارة بيتي في البستان..

رنت اليّ بنظرة ولهى والتمعت الدموع في عينيها وقالت بصوت متحشرج:

– أرسِلْ لي من ينقلني اليك عصر الغد..

إعتبرتُ مساء الغد بدء الكون وولادة الحياة وبشارة الخيرات، نقشتُ يوم السابع والعشرين من آذار بلون اللهب في مجلداتي بين ركام الأحلام والأحزان و الحكايا وأسرار الحكام وأشجار النسب الملفقة وقصص الخوارق وكرامات الأولياء ؛ فقبل لقائي بها أمضيت سنواتي في جمع الأخبار وتبويبها وتمكّن مني هذا الشغف واستغرق ليلي ونهاري حتى في سنوات دراستي في الأستانة..

عبرت المعشوقة من الجانب الكبير – الرصافة إلى الكرخ بزورق يقوده ملّاح أبكم كنت أستخدمه لتنقلاتي بين صوبَيْ بغداد وأأتمنه على أمور حياتي، وهو يدين للأسرة بالولاء إذ ربّته والدتي بعد موت أمه وابيه بوباء الكوليرا ورعته منذ صغره معي ومع نشأت وحكمت وأخواتي وفيقة وبديعة وألفت، ثم زوّجناه من فتاة فقيرة وجعلناه يقوم بمهمة نقلنا بين الحيدرخانة والشواكة بقارب إشتريناه لهذه الغاية.

كانت ألسنة النيران في ذلك المساء حين وصلت بنفشة تلتهم منزلاً لعله أحد منازل التجار اليهود المطلة على شط دجلة، أو لربّما كان من تلك البيوت الخشبية

بشناشيلها المعلقة المزخرفة بالزجاج الملون والتي برع في إنشائها نجارون أرمن وبناؤون حلبيون وأسطوات أتراك، وخمّنت حسب معرفتي بمباني الضفة المقابلة ومواقعها أن الحريق يقع بين مبنى (الخسته خانة) – مستشفى المجيدية العسكري ومبنى القشلة، خشيت حينها أن يعيق الحريق الكبير عبور الزورق ووصول محبوبتي إلى القصر ذلك المساء، وتطيّرتُ تماماً ورحت أذرع الجّرف مهتاجاً لولا أنني رأيت الملّاح يلوّح لي من وسط النهر، لحظتها فكرت:

– لعلّ حظي في الحب سيكون أفضل من حظي كإبن منبوذ لعائلة الكتبخاني و أفضل من حظي في الدراسة.

توقف الزورق فهبط الملاح الى الماء وسحبه بحبل مجدول من الليف حتى الشاطيء، نهضت بنفشة خاتون فانتشرت أشذاء عطر البنفسج – سرّها وعلامة حضورها – من ثيابها التي عبثت بها الريح وفغمت حواسي، إنفرجت عباءة حرير الأطلس الزرقاء الموشاة بخيوط الذهب فظهر تحتها ثوب من قماش الستان

والشارميز الوردي وفوقه صاية من الحرير (الجيني) الصيني الأسود المنقوش برسومات غزلان وزهور وأطيار، يربطها حزام ذهبي تتدلى منه ليرات ذهبية وأجراس بفصوص، أسرعت في إنذهالي أمام سحرها وأخذت بكفها اللدنة والمختمة أصابعها بمحابس ذهبية مرصعة بالياقوت الهندي واللؤلؤ البحريني والزمرد الفارسي، ابتعد الملاح عنا وربط زورقه إلى جذمة شجرة صفصاف، سرنا كعروسين خجلين على الشاطيء فوق حصير من الخيزران مدّه شاهين على الرمل الرطب وثبته بجذوع نخل ثقيلة لئلا تحركه الريح أو ينزلق على طين الضفة اللزج...

كانبثاق معجزة في سكون ليل البساتين أضاءت بنفشة الليل الأسود الشاسع الذي احتضن بغداد تلك الليلة وسارت معي محفوفة بموسيقى غريبة هي مزيج من أصداء ارتطام أمواج دجلة بالضفاف واصطفاق سعف النخيل في الريح وهمهمات

الكائنات الليليـة في البستان الكبير، إرتقينا الدرج الحجري إلى ممشىً مزدانٍ بالورد الجوري المتسلق وشجـيرات الرازقي تظلله عريشة عنب تتدلى من أعمدتها فوانيس معدنية ذات جوانب زجاجية مستطيلة تتوهج شعلاتها وسط زجاجة بيضوية مضببة، إنزلقـت عبـاءة الحرير الزرقاء الموشاة بخيوط الذهب عـن جسدها الذي حدّده نور القمـر وكشف استدارة كتفيها وضمور خصرهـا، وشكّلت أشجار التين والبرتقال والتوت والكمثرى خلفية غامضة للجسد المشتهى، كان القمر سخياً في ليلته الثانية عشـرة فأضاء وجههـا الناصع ونحرها المزين بعقد اللـيرات الذهبية المطعم بالمرجان والتمع وَشْيُ العباءة الذهبي لينعكس في نظرتها الساحرة ؛ فخُيّل لي أن دموعاً تلتمع في مقلتيها..

كان جسدهـا الريـان – الـذي لم أر له نظيراً بـين نساء الأستانـة – يشعّ بضوئه الخاصـ وقوّتـه التي سيطرت بها علـى رجال بغداد وفرضت سطـوة فتنتها عليهم جميعاً، لحظتها أيقنـتُ أن هذه المرأة العجيبة وُجِدت قبل جميع الكائنات والأزمنة والأمكنـة من أجلي وحدي، قبل أن تُبنى بغداد أو يولد السلاطين أو تقوم الحروب أو تضـرب الطواعـين والكولـيرا مدينتـي الحزينة، كانـت وهي تدخـل إلى بستان مدحـت بك أشبه بنجمة هبطـت تواً من السماء فأضاءت عتمـة القصر والبستان، وأنـا في انسحاري سبقتُها بخطوة ثم التفتُ نحوها وهي تتثنى في الممشى الممتد بين أشجار النخيل وعرائش العنـب وسمعتُ حفيفاً وهمهمة وزقزقات غريبة حولنا ؛ استيقظـت الحياة في كل شيء: في نبات العليق وشجيرات الدفلى والورد وتنبهت الزواحـف التي كانت تنساب بين جذور النخل ونبـات الحلفاء وزقزقت العصافير وهبّت الحمائم من أعشاشها...

إمتـلأ الهـواء بعبير طلع النخيل وأفعِـمَ الجو المسائي بشـذاه المهيج الذي يوقظ الكائنـات من سبات الجسد، وبوجود بنفشة أحدث هذا المشهد انقلاباً في روحي: كنت أفيض شغفاً وتهتاج الرغبة في أعماقي وأرتعش، تذكرت عبق أجساد الخيول

ورائحة عرقهـا وهي تحمحم تشهياً للسفاد في الإسطبل المتصل بالخرابة وراء منزل الأسـرة الكبير قبل أن أغـادره إلى هذا القصر الذي كان نوعاً مـن البيوت التي تُقام في البساتـين كمنتجع موسمـي تؤمّه الأسرة في الأعيـاد أو تستقبل فيه ضيوفها من الأغراب بعد أن آل إلينا من عمّ والدتي الذي لم يُنجب..

فتحـتُ باب القصر على سعته أمام بنفشة خاتون وأمرت خادمي شاهين أن يُعِدّ عشـاء يليق بالسلطانة وطلبـت إليه أن يصرف الملاح ليأتـي صباحاً ويأخذ الخاتون إلى قصرهـا في النجيبيـة، وانصرفتُ أهيء متطلبات السهرة التـي ستشاركني إياها بنفسجة بغداد الفاتنة..

كان بنـاء البيت من الداخل على شيء من الغرابـة اللامتوقعة ؛ فمن الباب يمتد ممـر معتم يتلوى مثل متاهة يتجه يميناً وشمالاً حتـى يبلغ غرفة واسعة جداً تتدلّى من سقفهـا ثريا معدنيـة مثقلة بالكريستال وفيها شموع سحريـة، إلتقطتُ مرآة مذهبة الإطار وقربْتُها من الشموع فأتقـدت وتوهّجت بالتدريج وأضاءت المكان، تتوزع أبواب عديدة من الغرفة الكبيرة تؤدي إلى غرف النوم والمطبخ والحمام، وقد صُفت أرائـك أسطنبولية عتيقة مكسوة بالمخمل والحريـر الذي حال لونه، وتزين جدران غرفـة الصالون لوحاتٌ متعددة لسيـدة جميلة بوضعيات مختلفة ترتـدي ثياباً أنيقة علـى الطراز العثماني وتتزين بمجوهرات باذخة وهي التركية زوجة عم والدتي التي لم تنجِـبْ وكانـت لوحاتها متقنة وعجيبـة حتى لتبدو أنها تنظـر إلى المرء أينما تحرك في جوانـب الغرفة، وبـين اللوحات كانت شمعدانات فضيـة ترتكز على طاولات مرمرية مرتفعة وفيها شموع مطفأة، بينما كان دخان أزرق يتعالى من مبخرة نحاسية تتوسـط منضـدة مرمرية، في إحدى الزوايـا كان جهاز الفونوغـراف على منضدة خشبية مزخرفة القوائم وإلى جانبه رتّبت الآسطوانات الأنبوبية، في الزاوية الأخرى ثمـة مكتبة رُصفتُ على رفوفها كتبـي ومجلداتي وأمامها منضدة عليها محابر وريش كتابـة ومجلدات أخرى و قلم حبر عُدَّ أعجوبة في ذلك الزمان أهداه إلى والد رأفت

مهندس فرنسي جاء إلى بغداد مع مدحت باشا واشتغل في البلدية وبقي في بغداد وعمّر طويلاً وكان مُقرباً من عائلة الخيامي، وقدّم والد رأفت - زوج عمتي - القلم هدية لي أنا الذي عرفت بالكاتب المنهمك في كتابة أشياء لايعرف أحد عنها شيئاً..

جلست بنفشة خاتون على الأريكة الكبيرة ووضعت عباءتيها على ذراع الأريكة وتنهّدت، قلت لها:

- في هذا البيت عاشت قصة حب عجيبة بين عم والدتي وزوجته التركية الجميلة، وكان مولعاً بها إلى درجة أنه أرسل في طلب رسّام يوناني كان يقيم في بغداد ليخلّد له جمال محبوبته في هذه اللوحات، وعندما توفيت في عمر مبكر لحق بها بعد بضعة شهور وأوصى أن يُدَفنا في قبرين متجاورين في البستان..

قالت بنفشة: تنسى الناس كل القصص وتحيا حكايات الحب في ذاكرتهم، ترى من سيحفظ قصتنا؟؟

- سأكتبها أنا وستغنينها أنت وأسجل صوتك على الفونوغراف..

- ألا تُريني كيف يعمل هذا الفونوغراف الذي حدثتني عنه طويلاً؟؟

- سأهيئه الآن..

أدرتُ مقبضاً جانبياً ووضعت الأبرة على صفيحة القصدير، وفي الوقت ذاته وضعتُ جهازاً صغيراً أمام فم بنفشة وطلبتُ منها أن تغني قليلاً..

ضحكت بنفشة ضحكة رنانة، وقالت:

- لا أستطيع الغناء الآن، لا أستطيع، دع ذلك الآن، سأغني في وقت آخر..

أعدت وضع الأبرة على الأسطوانة فانطلقت ضحكة بنفشة وهي تردد: «لا أستطيع الغناء الآن، لاأستطيع، دع ذلك الآن، سأغني في وقت آخر..»

أصيبت بنفشة بالدهشة والفزع إذ سمعت صوتها..

- يالك من ساحر..

– العلم هو الساحر.. أتودّين التفرج على البيت ريثما يجهّز شاهين العشاء؟

سـارت معي وأنا أحمل شمعدانـاً موقَدَ الشموع وأدور بهـا بين غرف المنزل، فتحت نوافذ الغرف المطلة على البستان فانهمرت الأشذاء وأصوات بعض الطيور واصطفاق الموج في دجلة..

قالـت بنفشة خاتون: كأنه حلمي أنا، يا إلهـي كم رأيت هذا المكان في أحلامي، وكنت أُقول: هل سأجد هذا في حياتي؟؟

– أحقاً كنت ترين هذا في أحلامك؟

– كنت أعيش حلمي معك في هذا البيت وأرانا نرفل في السعادة، وفي أحلامي رأيتـك زاهـداً بالدنيا وما فيها ومكتفيـاً بالكتب واليسير من الـزاد، رأيتكَ تكتب طـوال النهار وآناء الليل وكأنك تحـاول تفريغ روحك على الورق. هل أنت كاتبٌ حقاً؟؟

إندهشـتُ وقلـت لها: أنت تروين مايحـدث حقاً في حياتـي ؛ فأنا عاكف على تدويـن مذكرات عن زمننا هذا وأعمل في ذلك ليلـي والنهار وتجدينني منقطعاً عن الناس بعد أن سكنت هذا القصر العتيق ولا أخرج لغير عملي الصباحي وأعود بعد الظهر لأنهمك بالكتابة..

فزعت المرأة: أنت ترى هذا الحلم ذاته أم تحياه؟؟

– هو ذاته أعيشه كما تصفينه، وأنا أيضاً رأيتكِ في حلمي كما أنت الآن..

– منذ صغري كنـت أرى أحلاماً أعيشها: حلمت مرة أن أبي أرسلني إلى سوق في أطراف سمرقند لأشتري من العطار صمغ الأنزروت لوالدتي التي التوى كاحلها وهـي تهبـط الدرج الحجري في بيتنـا، فشاهدت السوق أسـود محترقاً – الدكاكين سوداء وثياب الرجال ووجوههم طالها الحريق، رأيت كلاباً سوداء وقططاً وغزلاناً وأبقـاراً سوداء، كأن المـكان جزء من الليل المظلم مع أننا كنـا في الصباح، السوق وحـده كان مظلماً، وصلتُ دكان العطار وطلبت صمـغ الأنزروت: كانت جميع

الأعشـاب والعقاقـير لـدى العطار قد تحولـت إلى فحم، حمل الرجـل فحماً ناعماً كصمغ الأنزروت ووضعه في الميزان ثم لفّه في كاغد أسود وأعطاني إياه..

بعـد يومـين سقطت أمي من الـدرج والتوى كاحلهـا وتألمت طويـلاً فأرسلني والدي إلى السوق فلم أجد السوق ولا الناس ؛ كان السوق قد احترق عن آخره في الليلة الماضية ولم يتبقّ منه غير حطام متفحم..

–أحلامك تنبئ عن أحداث تقع في الأيام التالية، هل رأيتني في حلم مشابه؟؟

– نعم صبحي بك، رأيت ورأيت طوال ليال أننا التقينا وكان بيننا طفلان،وكأنني أنجبـتُ ولديـن، وأنـت أب أحدهمـا، الآخر كان يبكـي وكنـت لا أستطيع حمله وإرضاعه..

– هل لي أن أطلب إليكِ أمراً لا أرجو سواه في الحياة؟؟

– أنت تأمر وأنا أطيع..

– لا، لا، ليس الآن، سأرجيء الطلب إلى وقت آخر..

– صبحـي بك، لاتؤجّـل شيئاً ؛ فقـد علّمتني التجارب أن اللحظـة التي تمضي لاتُعوض، وهي أثمن من أموال الدنيا كلها..

– لنا الزمان كله..

– ألاتعلم كم هو غادرٌ هذا الزمان؟؟

– لاتؤجل ما بين أيدينا إلى ميعاد غير مضمون..

– صدقتِ، ولكني سأنتظر عودتك وأضمن أن الزمان لن يخوننا..

عُشّاق

بقيت الصخور وعيّنات التربة التي جمعها وليد من الأراضي العراقية المختلفة في الأنابيب المختبرية ـ مع مخططاته الجيولوجية ـ منزوية في غرفته التي كانت ملاذه ومختبره ومنبع متعته وأحلامه، كان اليوم الأخير قبل سفره أسوأ الأيام الفاصلة في حياته ـ هو الجيولوجي الذي يعشق الصخور وطبقات الأرض ويعرف الكثير عن الأماكن التي يحتمل أن يتفجر منها النفط أو تكتشف فيها المعادن الأخرى في السنوات القادمة ؛ يعرف عن الزلازل والصدوع الأرضية ولكنه لم يهتم بزلازل السياسة والصدوع الإجتماعية، يعرف أنواع الصخور النارية والمتحولة والرسوبية لكنه يجهل الكثير عن البشر وتحولاتهم في مجتمع يتفكك، يعرف المصاطب النهرية وأحواض الأنهار وإمكانات تفجر المياه الجوفية وبلاده يطالها الظمأ وتجف أنهارها وأهوارها، يتحدث عن الجيولوجيا كأنها تأريخ الانسان ومستقبله ويهمل حاضره ويرى في علامات وخطوط الصخر مصائر البشرية عامة ولا يعرف مآل مصيره الشخصي، إنه اليوم الأخير له وهو يقلّب بين يديه الصخور الملونة الجميلة التكوين بخطوطها المتعرجة وتركيبتها المعقدة: الحصى المموج الصقيل، الصخور الخضراء التي تنطوي على فلز النحاس، والحمراء التي تحوي الحديد والصفراء الكبريتية وعينات التراب المأخوذ من مناطق الجبال والسهول والضفاف، يقرأ تأريخها وارتباطها بتحوّلات المناخ والحياة في بلاده على مدى العصور،،، هاهو اليوم يجمع نثار تأريخه الشخصي في حقيبة ويحاول أن يكتب لنفسه مع حبيبته سميراميس مستقبلاً غامضاً عرضة

لشتى الإحتمالات، يغلق الحقيبة ويمضي إلى مستقبل مجهول قد يفضي إلى فشل متوقع..

آه، إنه الربيع وهو يشم نسائم محملة بأشذاء الزهور المختلطة بأريج غبار الطلع، إنه فصل يقظة الحواس الخامدة ؛ الحب يترنح في لحظة القرار الأخير، لحظة الفرار من بغداد، يترنّح كل شيء في الحيرة والتوتر، يخرج إلى الحديقة ويلمس أزهار شجرة المشمش الحريرية الناعسة، يتمنى أن ينتقل النسغ الحي إلى جسده الذي بات متوتراً بفعل الإشفاق من الرحيل المحتوم، يرفع يديه نحو السماء ويتخيل نفسه شجرة ريانة إستيقظت فيها الحياة، يدرك اللحظة كم هو مختلفٌ ملمس الصخور عن ملمس زهرة المشمش، يفهم ما كان والده يحدّثه به عن المعرفة الأخرى: عن الحب بوجهه المختلف، عن التفاني واختيار النجاة. كان يمكن أن تختلف الأمور لولا كارثة عائلة سميراميس، لولا هذا الطفل الصغير الذي ربطا به حياتهما، لولا أن بغداد لم تعُد آمنة لحياة البشر...

تفجّرت دموعه بغتة: هاهو يدفن حياته الماضية ويهجر والديه ويدعهما للوحشة والخذلان، يقف الآن وحيداً وسيواجه المجهول وحيداً وسيترك أهله لمجهول آخر،، مسح دموعه بأطراف أنامله ودخل البيت...

كان قد أتم إجراءات تبنّي الطفل واستخرج له جواز سفر، رفضت المحكمة الطلب أولا ثم استأنفاه واستعانا بمحامية خبيرة من معارفهما، وبعد شهور تمت الموافقة وغادرا مع الصغير إلى تركيا حيث سيقدمان طلباً للجوء إلى مفوضية الأمم المتحدة..

غداة سفرهم تعرّض الأب إلى انتكاسة صحية متوقعة ورقد في المستشفى أسبوعاً وانشغلت نهى ووالدتها برعايته، إستعاد صحته وغادر المستشفى وهو يكظم ألم روحه بفقدان إبنيه: الموت فقدان، والغربة فقدان، والبقاء فقدان

محتمل، ولابد للمرء من التشبث بأسباب الحياة، فلينقذ كل امرءٍ نفسه من دوامة الثقوب السوداء التي تدور في البلاد وتبتلع كل شيء...

من نافذة غرفته نظر جابر الكتبخاني إلى الحديقة وتناوبته الأفكار:

ـ الحياة سجننا، الغباء البشري حاكمنا، الأرض تنبض بالألم من أفعالنا، لولا ذلك لبقي وليد معي، الغائبون أشدّ حضوراً من سواهم. فؤاد ووليد، لماذا تخطفكما الأهوال مني؟ كم تتحمل أيها القلب المتعب؟؟ لولا الغباء والشر البشري لاطمأنت الروح إلى نهايتها، لولا تواطؤ الناس مع الخراب لأصبحنا في حال أخرى...

دخلت نهى غرفته وهي تحمل قدحاً مترعاً بعصير البرتقال:

ـ تفضل بابا، أم تراك تفضِل قدحاً من الشاي الساخن في هذا الوقت؟؟

ـ وهل أردّ كرمك؟؟

ـ بابا، عملت طوال ليلة أمس وبقي لدي مجلّدان لم أدققهما بعد، أحدهما لجدك صبحي والآخر لولده فؤاد والدك ـ جدي الذي لم أتعرف إليه، لكني مصممة اليوم على فتح الصندوق الثاني لأرى مافيه ولن أتعبك معي، إبقَ أنت في سريرك وسأقوم بما يلزم...

ـ سيكون عليكِ كشف جميع الأسرار..

ـ وهل عدتُ من تلك البلاد لغير هذا؟

فوجئت نهى عندما فتحت الصندوق بوجود جهاز فونوغراف عتيق الطراز، بل هو فونوغراف أديسون الأول ذاته الذي وصفه الجدّ صبحي الكتبخاني في مذكراته: كان الصندوق كبيراً يتسع للآلة الغريبة وبعض الأسطوانات ـ السليندرات ـ المكسوة بغشاء من القصدير الرقيق الذي طاله بعض التلف،

كان ينقــص الفونوغراف ذراع الأبرة التــي تعمل على إطلاق الأصوات كما هو معروف في عمل الفونوغرافات والغراموفونات. حملت نهى السليندرات المعدنية السبعة ووضعتها في صندوق كارتون كبير فرشته بالقش والقطن لئلا تتعرض للخدش، إحتارت فيما ستفعله بهذا الجهاز المعاق الذي فقد ذراعه، حرّكــت مقبض الذراع التي تُدار باليد للتشــغيل فلم تتحرك، أحضرت مزيّتة ووضعت زيتاً في مفاصل الآلة، لكنها لم تستجب أيضاً، بحثت في الإنترنيت عن محلات تتعامل مع الفونوغرافات العتيقة فلم تتوصل إلى شــيء، إتصلت بخالتها هناء التي تعرف كل صغيرة وكبيرة في بغداد بسبب وحدتها وفضولها الجارف:

ـ خالتي هناء، أنت تعرفين أشــياء كثيرة عن خفايا بغداد القديمة، دلّيني كيف أجد من يصلّح فونوغرافاً عاطلاً؟؟

ـ أيّ فونوغراف؟؟ مابك نهى؟ تسـألين عن أشــياء منقرضة، شــيء غير معقول..

ـ أووه يــا خالتــي لا تتشــاطري علــى نهــى، إذا كنت لاتملكيــن جواباً، دعيني..

ـ ربما تجدين أحدهم في بقايا سوق الهرج أو في محل تحفيات وأنتيكات قرب المدرسة المستنصرية في تلك الأسواق الخلفية المنسية..

ـ وكيف سأذهب إلى هناك؟؟

ـ ما رأيك أن أصحبك غداً بسيارتي؟؟

ـ إتفقنا، كنت أعلم أنك لن تدعيني في حيرتي، أنتظرك صباحاً

كيف ستشــرح الأمــر للرجل لو وجدته؟؟ هل ســتصحبه إلى البيت ليقوم

بتصليح الفونوغراف؟؟ ليس من ذلك بد، ستصف له الجهاز وتصحبه مع خالتها إلى البيت، ولعله سينجح في إيجاد ذراع لأبرة الجهاز العتيق. مضت هناء بسيارتها التويوتا البيضاء من شارع فلسطين نحو الباب الشرقي عبر ساحة الطيران، واجهتها جدارية السلام للفنان فائق حسن مكسوّة بالغبار وآثار الدخان حتى لتكاد تفاصيلها تتلاشى تحت طبقة السخام والتراب الأحمر، قالت لنهى:

ـ أحب هذه الجدارية الجميلة، آه كم مررنا من هنا وكم حدّثني عن أستاذه فائق حسن، أتعلمين نهى؟؟ سأعترف لك بقصة حبي الفاشلة، أحبني رسام شاب وأنا بعد في سنتي الثالثة في الكلية، كان رجلاً عاطفياً جداً وسريع الإبتهاج والغضب والمبادرة وكان قارئاً نهماً، وكنا نتبادل الكتب: يزوّدني بالكتب الممنوعة، يقول أقرأي لتعرفي مصير عالمنا، لم أكن أحب تلك الكتب المريعة الجافة، كنت أعيدها له دون قراءة واحدٍ منها، تجوّلنا معاً في غاليريهات الفن في بغداد، رسمني في بورتريهات رائعة، كانت له غرفة مرسم في أحد صالات العرض، أعترف لك أنه رسمني شبه عارية وأخفى وجهي تحت شعري المنسدل، عرضها في معرضه الأول وأهداني بورتريهاً محتشماً واحتفظ بالرسمتين الأخريين، كانت تلك الغرفة ملاذ حبنا في ظهيرات بغداد، هناك عرّفني على الفنان الكبير فائق حسن ـ مثله الأعلى الذي دعانا لإحتساء القهوة في مرسمه، ورسم تخطيطاً مدهشاً لوجهي لازلت أحتفظ به، وبعدها كنا نذهب إلى السينما، شاهدنا أفلاماً عظيمة، كان يضجرني كثيراً بتحليل الفلم فنياً ونفسياً وتفسير اللقطات الغامضة ؛ فيفوّت علي متعة الإندماج الوجداني، قلت له لاتفعل ذلك لاتتباهى أمامي، أعلم أنك فنان لك معرفة بالسينما والرسم والنحت، حدّثني عما سنفعل بحياتنا الموعودة؟

ـ نحن معاً، وماذا ننتظر أكثر من هذا النعيم؟؟ نحن نلتقي في المعارض

ونجالس أصدقاءنا في نادي الكلية ويذهب كل منا إلى بيته، إنها لحياة مثالية كاملة لاتثقلها المسؤوليات والمتاعب. ما الذي تحلمين به أكثر من ذلك؟؟

لم أقل شيئاً، وافترقنا ذلك المساء وماالتقينا بعدها، ثم اكتشفت أنه كان متزوجاً وهجر زوجته وطفليه وسافر إلى بلغاريا سنة ١٩٧٩ وماعدت أعرف شيئاً عنه..

إستدارت هناء بسيارتها حول ساحة التحرير ثم اتجهت نحو شارع الرشيد، كان الخراب مكتملاً: معظم المحلات التجارية مهجورة، باعة متجولون يحتلون الأروقة ذات الأعمدة وحولهم تجمعت الأتربة وأكداس النفايات، ثمة متسولون تموضعوا في المناطق الرئيسية من الشارع عند مدخل جسر السنك وتوزّعوا على امتداد الشارع، بعض المشرّدين ناموا أمام مداخل العمارات القديمة التي انهارت شرفاتها، لا دار سينما بقيت ولا مقهى. أمام المبنى المهجور لمخازن (أوروزدي باك) ـ التي تأسست في نحو ١٩٣٣ ثم أممتها الحكومة في أوائل السبعينيات ـ ثمة أكداس من النفايات المتحللة والكارتونات والأوراق المتطايرة وإطارات السيارات التالفة، همهمت هناء: مِنْ أوروزدي باك كنا نشتري أفخر الثياب والعطور والكتب وأسطوانات الموسيقى، إشتريت مجموعة أغاني (أنغلبرت همبردنغ) وأغاني (عبد الحليم حافظ)، كان هنا صالون الشاي يطل على نهر دجلة تخدم فيه فتيات جميلات...

ـ ممكن أسأل.. كم عمرك خالة هناء؟؟

ـ أنا لاأحسب عمري بالسنوات بل بالندوب التي بقيت في روحي..

ـ وكم من الندوب لديك؟؟

ـ أوووه كثيرة جداً لا يمكن أن أعدّدها، أنا صيادة كوارث، إمرأة فاشلة، أنا أصغر من أمك بعامين فقط..

ـ تبدين أصغر منها بسنوات، هل تعرف المرأة الفاشلة خالتي الجميلة كيف ندخل إلى منطقة سوق الهرج؟

ـ علينا أن نجد مكاناً لإيقاف السيارة في ساحة الميدان وبعدها نسأل عن مقصدنا..

ـ إبقي في السيارة هاهنا وسوف أسأل ذلك الشيخ الجالس أمام محلّ الأثاث في مدخل السوق..

ـ لاتذهبي وحدك، المنطقة مريبة.. نهى حاذري...

ـ لا تخشي شيئاً، سأعود بسرعة..

إقتربت نهى من الرجل العجوز الذي يتلفع بغترة بيضاء ويدخن النركيلة غافلاً عن الدنيا ومَن فيها أمام دكان بيع الأثاث:

ـ مرحباً عمو، هل تعرف محلاً يبيع الفونوغراف أو يصلّح الفونوغرافات العتيقة ـ أو مايسمونه « الصندوق أبو البوق «؟ قيل لنا إنه هنا؟؟

ـ كان هنا قبل عشر سنوات، الرجل توفي وباع أولاده الدكان من زمن بعيد.

ـ ألا يوجد غيره؟؟

ـ السوق صار مخصصاً للأثاث والأخشاب،، عمّو هذه أشياء إنقرضت..

عادت نهى مخذولة وقالت لخالتها:

ـ لاجدوى من مجيئنا خالتي هناء، نحن نحلم بزمن غابر، الرجل مات منذ

سنوات، نحن كائنات منقرضة تبحث عن أشياء منقرضة... كم أنا موهومة..

ـ نهى، كفّي عن هذا العبث، ماذا تفعلين بالفونوغراف العتيق؟؟ توقفي عن هذا الهراء، والدك بطران أيضاً، يريد معرفة أسرار جده، وماذا نفعل بالأسرار؟؟ هل ستغير حياتنا؟؟ أبداً، معرفة بعض الأسرار تنغّص أيامنا، لن تتغير مصائركم مهما عرفتم من أسرار الأسلاف، أتفهمين؟ منذ شهور وأنت تنقبين في المجلدات العتيقة، ماهي النتيجة؟؟ لاشيء، مجرد مذكرات لرجل مات منذ عقود وكتبها ليشغلكم بها..

ـ الآن أصبحت أكثر إصراراً على تصليح الفونوغراف.. لابد أن أجد طريقة ما، صار الأمر شاغلي الوحيد..

ـ نهى، لم أعرفك بهذا العناد..

ـ ساعديني بأية طريقة، فكري معي، خالتي أنت من يحلّ المشاكل المعقدة في عائلتنا..

ـ لاتسخري مني، أنا كائن مصنوع من سبيكة مشاكل، لكنني سأفعل ما بوسعي.

ـ أعتمدُ عليك، لاأعرف أحداً سواك، وليد غادرنا، وأمي وأبي يعيشان عزلة تامة.

ـ إسمعي نهى، صديقتي منال حدّثتني عن شقيقها الفيزيائي الذي يهوى صناعة الآلات الغريبة،، هو أشبه بمتصوف معتكف، سوف أسألها إن كنت تستطيعين لقاءه، لعلنا نجد الحل لديه، من يدري؟

ـ أنتظر ذلك،عسانا ننجح في معرفة ماتبقى من أسرار الجد صبحي الكتبخاني...

رؤيا الخاتم

تمشّط نهى شعرها الكستنائي الغزير، ترى إلى انعكاس صورتها في المرآة الثلاثيـة لمنضدة الزينة: ثلاثة وجوه مختلفة لها، هي التي ولدت أول الحرب ـ ١٩٨٠ ـ فـي أيلول شـهر الحرب المقيت، وصمة الحـرب متوضّعة كبقعة سوداء في ذاكرتها العميقة وخلاياها، هي من أبناء الحرب المرصودين للحظ السيء والمكابدات المضنية والتجارب الجارحة، لطالما قالت لها أمها:

ـ ولدتكِ مع إعلان الحرب، كنتِ البشـارة الجميلة في وقت الرعب الذي داهمنا ولم نكن نتحسب له، قلت لوالدك:

ـ حمداً لله إنها بنت، لو أنجبنا ولداً لكان من نصيب الحرب التي لاتشبع من لحم البشر، لكنها بنت ومن نصيب الحياة، حمدا لله..

تردد نهى: أنا من نصيب الحياة؟؟؟

تنظـر إلـى المـرآة تتأمل جبينهـا العريـض، أهدابهـا الكثيفـة، حاجبيها المقوّسين، تقول لنفسها:

ـ عفـواً أيتها المرأة الجميلـة مُبدّدَة الحياة، من أنت الآن؟؟ أتقولين أنك أنا؟ أنت أخرى!!، ولك الوجوه كلها، أما أنا فبوجهي الأسيان هذا أجتاز الزمان والأمكنة التي أنكرها وتنكرني، من أنت ياترى؟؟ أنا لاأعرفك اللحظة لأنك لاتشبهينني في لوعة اللاحب واللاوجود، لاتشبهينني في وحشة الجسد، أنت محض انعكاس خادع ووهم زائف مُفرّغ من الروح، أنت لاتسمعين ما أسمع

ولاتشمّين الأشذاء والروائح التي أشم، أنت لاخبرة لك بالحياة الحلوة الشهية بل بالحياة القاسـية القاتلة، أنت شـبح زائل، أنا إبنة الحروب كلها، أنا المرأة الجميلة التي تمشي على جمر النهايات، أنظري يا نهى إلى ملامحك، مشّطي شـعرك واسـحبيه إلـى الخلف هكذا ليبـزغ وجهك القمـري وتتألق عيناك، إفتحـي أزرار قميصك الأزرق لتكشـفي عن عنقك الطويـل ومنبت نهديك، تألقي لنفسك بنفسك، أحبي نهى، أحبيها، كونيها، انصتي إلى موسيقى الليل الخفيـة التي تنبعث من أعماق الزمن البعيدة، موسـيقى لـم يؤلفها أحد إنما هي من همهمات النسـاء وأشواقهن الدهرية ـ النساء المخصيّات إن جاز لي التعبيـر، أعنـي اللائي روّضن أنفسـهن على العيـش دون رجل، دون جنس، دون حمل وولادة، أنصتي جيداً إلى أصوات السـكون ؛ ثمة أنين يتضافر مع الآهات وشهقات النشيج والنشوة وترنيمات الشوق واللهفة، أنصتي لموسيقى الليل التي تنهمر عليك يعزفها الشـوق المكبوح والأرواح المكسورة والقلوب المحطمة أو تعزفها الأرواح الباسـلة التي تنـال ماتهوى وتجازف بالحياة من أجل أهوائها، أنصتي للمعزوفة الليلية ولتهدأ أشـواقك السـجينة أو تنفلت من حيث لاتملكين لجْمَها أو إيقافها، ستعلو الموسيقى حينما تطفئين المصابيح و تعومين كالشـبح العاجـز في بحر العتمة المخملية مثل إمرأة تعيسـة تحاول اصطياد وهجة من سـعادة مسـتحيلة، كوني أنت، كوني الأقوى، لاتستسلمي لإخفـاق، لاترتضـي بحبّ مبتور أو أنوثـة مقتولة، كوني إمرأة باسـلة، كوني أنت.........

إبتسـمت لنفسـها في المـرآة، راق لها جمالهـا المتوثب وبريـق عينيها، إبتسـمت ثانية وارتسـمت على ملامحها وداعة الرضا وزهو الانتصارالممتزج بشيء من انكسار الجسد، إبتعدت عن منضدة الزينة، إختفت صورتها الثلاثية فـي المرايـا، أخذت مجلد مذكرات الجد صبحـي الكتبخاني، تأملت غلافه

الجلدي المتشقق ففاحت رائحة الجلد العتيق التي تذكّرها برائحة الأسواق البغدادية القديمة: سوق الصاغة وسوق الجلود وسوق النحاس، سوق الأبسطة المنقوشة بموتيفات سومرية، سوق العباءات القديم، سوق السراي الذي يعج بمجلدي الكتب، سوق الأقمشة حيث المخمل والحرير والكتان والصوف والدانتيل بالألوان والنقوش العجيبة، رائحة المجلد العتيق تدور بها في الأزقة المنسية وترى الأبواب المطلسمة والمطارق النحاسية بشكل نجمة وهلال أو يد بشرية تطرق الباب الموصد، تشمّ رائحة ماء الورد تنتشر من الشناشيل المطلية بالأزرق مع الأشباح والظلال، مع الجنيات اللائي كنّ عاشقات سيئات الحظ وتحولن إلى أرواح هائمة تتجول في الليل وتطرق نوافذ العشاق لتوقظهم على لوعة الشوق أو حسرة الخذلان..

رائحة الكتاب توقظها اللحظة على حقيقة أنها في بغداد وليست في مدينة أخرى، تهدأ روحها التي جالت بها في أنحاء مدينتها،، نظرت متفرسة إلى غلاف المجلد وفتحته، وانبثقت الرؤيا: ظهر لها صبحي الكتبخاني بقامته الفارعة وأناقته العثمانية، بمعطفه الأسود الطويل وشاربيه المفتولين وطربوشه، وقف أمامها مبتسماً مزهواً وهي ترتعش من المباغتة التي أرعبتها، أغلقت الكتاب، قال لها:

ـ لاتغلقيه ؛ فأنا موجود فيك، في دمك ولحمك يا نهى إبنة حفيدي، لاتخافي، دعينا نتحدث قليلاً، أنا معجب بإصرارك على متابعة مدوّناتي ورغبتك الجارفة لكشف أسراري، ولكنك أيتها الحفيدة الجميلة تبدّدين عمرك في ما لاينفع حياتك، ترى ما الذي تخططينه لمستقبلك أيتها الفتاة المسكينة؟؟

ـ لست مسكينة يا جدي، أنا اخترت كل شيء في حياتي وقبلت هذا الأمر وسأنهيه على أحسن وجه..

ـ أنت تخادعين نفسك، لاأحد يقبل بحياة مبتورة، المرأة للرجل والرجل للمرأة، إنتهت حياتي عندما...

ـ ماذا؟

ـ لاشـيء لاشيء، هل سـتطبعين مذكراتي في كتاب ليقرأه الغرباء؟؟ ما نفـع ذلك؟؟ وماذا عنك؟؟ أنت تبددين سـنوات شـبابك التي سـتؤول إلى غـروب، دعينـي ودعي مذكراتي فقد ندمت لأنني دونتها وكشـفت فيها عن أسرار تخصّ أنساب أسرتنا، إنسي الأمر واحرقي المجلدات ؛ فلا جدوى من إيقاظ الماضي واستعادته، عيشي يومك وتمردي علينا نحن أسلافك، وانسيْ هذا العِرق اللعين مختلط ألانساب..

ـ لـن أتوقف عما شـرعت فيه، المدونات لم تعد مُلـكاً لك بل هي إرث أبي...

ـ أريـدك أن تحيَـيْ وتحبي وتسـعدي، هـل تدرين مقدار تعاسـتك التي تتغافلين عنها؟؟

ـ أنا أدرى بما أريد وأعرف ما أفعل بحياتي..

ـ عنيدة وجريئة مثلها..

ـ مثل من؟؟

ـ خذي، إليك بهذا الخاتم، إنه يليق بجمالك، هذا خاتمها...

أخـذَت الخاتم الذهبي العريض المنقوش بطلاسـم وأوراق نباتية مرصعة بحبيبات من الماس والياقوت الأحمر، تفحصته في النورالشـحيح الآتي من النافذة ثم وضعته في إصبعها..

ـ خاتم من هذا؟؟ أين أنت؟؟

إختفى صبحي الكتبخاني وتلاشى، صاحت: أين أنت؟؟

جاءها الصوت من أعماق سحيقة:

ـ لقـد حذرتـك، لقد حذرتك، دعـي المجلدات ففيهـا مايوجع القلب وعيشي حياتك..

ـ وهـل سـأرى فـي المدوّنات أشـنع مما شـهدت في سـنوات عمري الثلاثين؟؟

تهاوت نهى على سريرها غير مصدقة بما جرى، إنهمرت دموعها وبدأت تنشج:

ـ رأيته وتحدثت إليه، كان هو كما تخيلته، رأيته، حقاً رأيته...

أضـاءت مصابيح الغرفة فرأت الخاتم المطلسـم في بنصرها وأخرسـتها المفاجأة..

ـ يـا إلهي، كيف أفسـر هذا، أكان حلمـاً؟؟ أكان رؤيا؟.أكان وهماً؟؟ وهذا الخاتم من أين أتى؟؟، أكاد أجنّ، لابد أن شيئاً عجيباً حدث لي، هل اخترقتُ الزمن؟؟ أم أن الجد إنبثق من مخيلتي؟؟ وماذا عن الخاتم؟؟ هل ينبثق الذهب والماس من مخيلتنا؟؟

صمتـت وأغمضت عينيها على دموع إنهمـرت منهما، وأخذت تتلمس نقوش الخاتم المطلسم وتتحسّس حبيبات الماس والياقوت...

ـ ما أغرب هذا العالم الذي لاأجد تفسيراً لعجائبه..

دخلت أمها الغرفة مستغربة بقاءها في السرير:

ـ نهى، ألن تتناولي العشاء معنا؟؟

ـ دعيني ماما أنا متعبة، لاشهية لي..

ـ نهى، مابك؟؟ هل أنت محمومة؟؟ أرى وجهك شاحباً يا ابنتي..

جسّت الأم جبين نهى وعنقها..

ـ نهى حرارتك مرتفعة، سأحضر لك البانادول، غيّري ملابسك وارتاحي، هل أصحبك إلى الطبيب أم ننتظر حتى الصباح؟؟

ـ ماما مابي من شيء، أنا مرهقة حسب، أريد أن أنام..

ـ خذي البانادول ونامي..

ـ ماما هل رأيت هذا الخاتم؟؟

ـ نعم، رأيته عندما فتح والدك صندوق الفونوغراف لأول مرة فوجده ملفوفاً بقطعة مخمل ومربوطاً بخيط حرير، عرفت أنك ستعثرين عليه..

ـ تعنين أنه كان في الصندوق؟؟

ـ نعم نهى، ما الغرابة في ذلك؟؟

ـ لاشيء أمي، إنه خاتم جميل جداً وقديم جداً وفريد من طرازه، لم أرَ مثله في أيامنا..

ـ هذا هو الشيء الثمين الوحيد الذي عثرنا عليه مع المجلدات المهترئة والفونوغراف العاطل..

ـ كيف لم تعثر عليه زوجة عمي؟؟

ـ وهــل كانت ســتتركه؟؟ كان موضوعاً داخل الفونوغراف، فتح والدك الجهاز محاولاً تشغيله فعثر عليه..

ـ ماما، ليس هو الشيء الوحيد الثمين، المذكرات ثمينة أيضاً..

ـ عســى أن تكــون نافعة في شــيء، نامي نهى إرتاحــي، تصبحين على خير..

ـ شكراً أمي، فعلاً أريد أن أنام نوماً عميقاً، كأنني لم أنَمْ منذ دهور..

نبدأ بنا فيتغير العالم

السماع منشأ الوجود، فإن كل موجود يهتز.......

الشيخ محيي الدين إبن عربي

ظهيرة اليوم التالي تقوم نهى من وعكة الحمى التي ألمت بها ليلاً وكأنها تصحو من كابوس أثقل على روحها، تعاود العمل في مدونات الجد، أمامها قدح الشاي وخبز ساخن وقطعة من الجبن، تحتسي الشاي وتعاف نفسها الخبز والجبن، تشعر بظمأ مضاعف فتشرب قدحاً مترعاً بالماء، تشغّل جهاز الأقراص المضغوطة وتصغي لعزف على العود وأغنية صوفية لفرقة (إبن عربي المغربية) أهدتها إياها صديقتها مليكة الجزائرية:

ولقد خَلَوْتُ مع الحَبيب وبَيْنَنا   سِرٌّ أرَقّ منَ النسيمِ إذا سرى

وأباحَ طَرْفِي نَظْرةً أمَلْتُها   فَغَدَوْتُ معروفاً وكُنْتُ مُنَكَّرا

فَدُهِشْتُ بينَ جمالِهِ وجَلالِهِ   وغدا لسانُ الحال عنّي مُخْبِرا

في تلك اللحظات تذكرت رؤيا الرجل الذي تراه بين حين وآخر وعندما تتلاشى الرؤيا ترى إثرها نوراً يفعم روحها بالبهجة والسكينة، بانت لها ملامحه بوضوح لم تألفه، وخمنت أنها تستحضر وجوهاً تعرفها

وتنسبها لرجل الرؤيا، تتذكر جدها صبحي الكتبخاني واكتشافَه الموسيقى في الأستانة، وتعلقَه بالسماع، تضحك وتردد لنفسهاَ:

ـ كم كانت بغداد منسية في ركام الأزمنة ومحرومة من أنساغ الحياة في زمنك ياجدي صبحي!.. لو عدت الآن لسعدت بسماع عجائب الموسيقى شرقيها وغربيها..

تفتح المجلد وتقرأ وتصحّح بعض الكلمات المطموسة اعتماداً على السياق وتهمل ما لاتستطيع قراءته:

... يزورني رأفت إبن عمتي وزوج أختي الأثيرة وفيقة في قصر الشواكة، نسهر ليلتها ونحن نصغي إلى الموسيقى والأغاني من الفونوغراف، يسألني رأفت:

– لاتعتبر سؤالي تدخلاً في مواقف شخصية: ماجدوى حماستك لجمعية الإتحاد والترقي وتركيا الفتاة؟ ما الذي سينفع بلادنا من هذه الجمعيات ذات التوجه القومي التركي؟؟

– كنت أظن أنها ستفيدنا في حالة إعلان الدستور، قد يخف استبداد الولاة أو قد نعلن الاستقلال عن الدولة العثمانية كما فعلت كريت مثلاً..

– تعلم أن كريت لم تعلن استقلالها إلا بعد ثورة كبيرة وعصيان ومطالبات بالانضمام إلى اليونان، وأن حرباً دامت ثلاثين يوماً أعلنتها الدولة العثمانية على المملكة اليونانية بعد استجابة الجيش اليوناني لمطالب الثوار وقيامه باحتلال جزيرة كريت، لكن مملكة الإنكليز وفرنسا تدخلتا وأقنعتا السلطان عبد الحميد بضرورة منح الحكم الذاتي للجزيرة على أن تبقى نوعاً ما تابعة للسلطنة، وختم السلطان وملك اليونان قسطنطين الأول على بنود معاهدة اسطنبول. سؤالي لك الآن: هل لدينا في بغداد – المنهكة من الفيضان والكوليرا والإستبداد – قدرةٌ على إعلان العصيان والثورة؟؟

- أستبعد ذلك، الأمر يحتاج إلى تنظيم وجيش قوي يسند أي ثورة..

- فماذا ترى في جماعة الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة وهم يعلنون بلا مواربة عن سعيهم لتتريك جميع مقاطعات الدولة العثمانية شرقاً وغرباً..

- لم يعلنوا ذلك، ولم أسمع مثل هذا،،

- منذ أيام وصلت إلى الولاية صحف أسطنبولية وفيها أخبار عن تحركات تركيا الفتاة وانضمام جميع منتسبي الجيش الثالث في سالونيك إلى التنظيم وإعلانهم السعي لتطبيق الدستور وعزل السلطان، حدثت إغتيالات كثيرة وحركات عصيان في الجيش...

- ماعلمته منهم وماكانوا يتحدثون به في الاجتماعات أنهم متأثرون بأفكار الثورة الفرنسية وهي الأفكار ذاتها التي تأثرت بها قبل سفري إلى الاستانة، وأنهم يعتزمون تطبيق مبادئها في عموم أقاليم السلطنة: الحرية والإخاء والمساواة..

- لكنهم على مايبدو شرعوا يطبقون المساواة في الأناضول والأستانة حسب؛ فلا إخاء ولانفحة من حرية في الأقاليم الأخرى، بدأ مناصروهم في بلاد الشام بحظر تعليم اللغة العربية، نحن بحاجة إلى التعليم، أنا وأنت درسنا في الأستانة وتنوّرت أفكارنا بالاختلاط مع شعوب أخرى واطلعنا على منجزات العلوم الحديثة، فماذا فعلنا بما عرفناه؟؟ لاشيء، عدنا لنعمل كموظفين كتبة في الولاية. كان الأجدر بنا أن ننصرف للتعليم وتطوير المدارس، سترى عندما يسيطر جماعة تركيا الفتاة سيفصلوننا من وظائفنا وستُسند جميع وظائف الدولة إلى موظفين أتراك، أهذا ماتريد تطبيقه في بغداد؟؟

- ليتني أستطيع العمل في التعليم، أظنني كنت مخدوعاً بأوهامي عنهم، ربما بسبب حماستي للتغيير..

- هل تريد ذلك حقاً؟؟ أعني العمل في التعليم؟؟

- ليس السؤال، هل أريد، بل هل سنستطيع القيام بالخطة؟

- سأسعى لك في هذا وأتحدث مع مدير التعليم، ماجدوى عملك موظفاً في مكتوبي الولاية؟؟ ماذا ستغير؟؟

- التغيير هدفي الأول في حياتي، كنت أعوّل كثيراً على جماعة الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة، كم كنت واهماً، ألاتريد أن نشرب الشاي؟؟ دقيقة واحدة سأطلب من شاهين إعداد السماور وتهيئة الشاي والحلويات..

- سمعتُ من وفيقة أن شاهين يعدّ الشاي بطريقة ملوكية..

- وهو مايليق بك ياعزيزي رأفت..

- في المدرسة ستغيّر عقول مائة تلميذ، ستنقلهم من حالة العتمة إلى النور، ستمنحهم الأمل بحياة انسانية، وسيغير هؤلاء أهاليهم وأبناءهم، مباديء الثورة الفرنسية يمكن تطبيقها بجرأة في حياتنا اليومية لتغدو حياة إخاء ومساواة وحرية، نبدأ بأنفسنا فنغيّر العالم..

- أجل نبدأ بأنفسنا، وسأبوح لك بسر: سأتزوج قريباً..

- هذه مفاجأة كبيرة: أن يتزوج إبن خالي صبحي حقاً، إنها لمفاجأة، من هي العروس؟؟

- ستعرف حينها لأنك ستكون شاهد زواجي..

- والعائلة؟؟ هل تعلم العائلة بالأمر؟؟

- لا، وأفضّل أن لايعرف أحد سواك، لا شأن لهم بحياتي بعد أن انفصلت

عنهـم وعشت هنا، وحتى لوعرفـوا لاأظنهم سيباركون زواجـي، أريدك أن تحفظ أمـر الـزواج سراً ولاتعلنه حتى لأختـي وفيقة، والدي لايزال غاضبـاً مني وماضياً في تزمتـه ومشـدداً على تقاليـده البالية، بيتنا مثـل منزل للعبيد: الخـدم والحراس والخادمات مستعبـدون تماماً، وأمي وأخواتي سجينات ولايمكـن أن يُبدين رأياً في أمـور حياتهن وهن أميات جاهـلات حتى أنه منعهنّ من تعلم القـراءة في الكتّاب، رأيـت نساء الأستانة القويات متعلمات يعرفن اللغات الأجنبية ويساندن الأحزاب والجمعيـات ويشاركن فيها، وبعضهن يرتدين الملابس الافرنجية ويرتدين الشرشف في أوقـات معينة، لهن أفكارهنّ الحـرة ويسافرن إلى أوروبـا للدراسة، وأبي يطبّق التقاليد العثمانية المتزمتة التي تجاوزها الأتراك أنفسهم ويرفض عاداتهم الجديدة.

– لاتلُمْـه ؛ فهـو موظف عثمـاني عتيق ولم يدرسـ مادرسنـا، متمسك بعادات وتقاليـد أمـه التركية، كيف تنتظر منه أن يتغير؟؟ هـو لم يطلع على الحياة الجديدة في الأستانة..

– وددت أن استفســر منك عن سر سفـرات والدي المتقطعة إلى المحمودية، هل تعرف شيئاً عن هذا الأمر؟؟

– تعلـم أنني أحترم خـالي، ولكني لاأستطيـع التبسّط معـه في الأحاديث، وقد عرفت شيئاً عنه وليس منه، وفي الحق لست متيقناً مما يقال، أخبرني أحد خدمكم من الذيـن أثـق بهم أن والدك لديه زوجة هناك أنجبت له ولـداً، سمع ذلك من الحوذي الذي يرافق خالي في سفراته إلى المحمودية وهو من إدعى أنه شاهد الصبي الذي بدا له إبن سنوات ست...

– غير معقول، لا أصدق..

– وانا أيضاً لم أصدق، ستنكشف الأسرار يوماً ما..

- كم في عائلتنا من أسرار...

- ولعلمك أن والدك قريب من جماعة (الحرية والائتلاف) السرية المعادية لجماعة الإتحاد والترقي وأن الاتحاديين يكنون العداء له ؛ لذا إعتبرك خالي في عداد أعدائه، هل فهمت الموقف الآن؟؟

- لكني لم أنشط هنا في بغداد إلا فترة محدودة عند عودتي من الأستانة، كنت أحضر اجتماعاتهم في الأستانة لرغبتي في التغيير والتحرر، وها أنا منزوٍ في هذا القصر العتيق، وقد عرفت منك الآن أن مبادئهم المعلنة غير التي يسعون لتطبيقها في ولايتنا وعموم السلطنة..

- صبحي، عزيزي نحن في عمر متقارب وبيننا ود و تفاهم موصول منذ نشأنا معا، أنا أمين أسرارك وأنت بمثابة أخ لي وما تفكر به حول أوضاعنا في ولاية بغداد والموصل والبصرة هو ذاته مايشغلني ويشغل كثيراً من الشباب الذين ألتقي بهم، وعلينا أن نفعل شيئاً. أنت لاتعلم الآن مقدار اشتداد العداء بيننا وبين الأتراك ولابد أن نستغل هذا التصاعد في رفض هيمنة السلطنة..

- مازلت أرى التناقض في الأمور كلها ؛ فدولة السلطنة كما رأيتها في الأستانة غير ماهي عليه هنا رغم وجود الإستبداد في كل مكان، غير أن الناس هناك يتنعّمون بالعيش الرغيد والرفاه العجيب..

- لأن أموال الأقاليم كلها تصب في الأستانة، أظنك تعرف أن معظم أملاك الولاة والموظفين العثمانيين الكبار هنا هي اغتصاب لأملاك أهلنا، كل والٍ جديد يزور التجار والمتنفذين ويطلب العون المالي لإدارة الولاية، تبرّع والدي بخان من الخانات لينفق الوالي من ايجاره، كما منح والدك أحد بيوته في محلة الدنكجية للوالي الآخر الذي جاءه يستجدي العون المالي وهكذا فعل التجار وملاك الدكاكين في أنحاء بغداد..

- سأطلعك على صحف جماعة الاتحاد والترقي ومجلة الكاريكاتير التي يصدرونها، قد نستفيد من خبرتهم ؛ لذا ستبيت الليلة هنا، فلا آمن عليك عبور النهر بالقفة ليلاً..

- وهل جئت لغير هذا؟؟ سأبيت عندك ونصحو على أصوات الطيور واصطفاق الأمواج في الشط، وقد أبلغت وفيقة ببقائي معك..

- حسن جداً..

كنت أخشى بعد حديث رأفت عن أمور عديدة البقاء بمفردي مع أفكاري الخاطئة وأحكامي المتسرعة، لذلك خفف بقاؤه من ارتباكي ووحشتي ؛ فقد لزمت بنفشة بيتها بالنجيبية حتى نتم إجراءات الزواج كما اتفقنا..

هيأ شاهين غرفة الضيوف في الطابق الثاني وهي غرفة واسعة تطل من جانبها الشرقي على النهر، أوقد فانوساً وحمله ليضيء الطريق لرأفت الذي تبعه على السلّم..

دارت بي الأفكار طوال الليل: أبي وبنفشة ورأفت وأفكاره العملية في مواجهة الأستبداد وزوجة أبي وولدها ووضع الدولة المنهارة واحتمال فقداني لوظيفتي إذا استولى الاتحاديون على السلطة، لم أنم إلا قليلاً، أحاط بي حفيف سعف النخل والشجر وعويل الرياح الليلية وكنت أسمع عواء بنات آوى ونباح كلاب الحراسة وسعال الحراس لدى الباب، وأفزعني صوت إطلاقة بندقية عن بعد في البساتين المجاورة..

صحونا في الصباح على ضوء الشمس الذهبي المنعكس فوق مياه دجلة وغمرتنا أغاريد الطيور والبلابل بالبهجة، أوقد شاهين الفحم في السماور النحاسي ليعدّ الشاي، وهيأ لنا بعض عسلٍ وجبناً وخبزاً ساخناً خبزته زوجته أم حميد التي تهتم

بنظافـة القصر وتطبخ لي أحياناً بعض الوجبات، بعد الفطور استأذنني رأفت للعودة بالقفـة إلى منزلـه القريب مـن بيت أهلي في محلـة الحيدرخانة وأخـذ معه الصحف الأسطنبولية، قال وهو يهبط الجرف:

- إن وددت حضـور اللقـاء مـع الشبـاب سأرسـل لـك من ينقلـك إلى مكان الإجتماع..

الفصل السادس

عروس القصر


https://telegram.me/maktabatbaghdad

عروس القصر

مانحن إلا ذكرياتنا والمسؤولية التي نتحملها ؛ فمن غير ذكرى لاوجود لنا، ومن غير مسؤولية لانستحق الحياة......

خوسيه ساراماغو

تفكــر نهــى أن أحوالها في بلدهــا تتماثل مع أحــوال الكثيرين ؛ فهم مهمومون بالحاضر ومتطلباته العسيرة وأمانه المفقود وتعلم أنّ من لايبالي بالمســتقبل فمصيره الفناء. هل ســتبالي بالغد؟؟ وماذا يعني الغد لأناس أغتيلــت أحلامهم؟ بمــاذا يصنعون الغــد؟؟ باللامبالاة؟ أم بالتشــكي؟ أم بالإنصــراف لاســتحضار الماضــي في صيغــة طقــوس أو مذكرات أو أوجــاع؟؟ نحيا كأشــباح، ونمــوت كظلال، لاأحد معنــي حتى بإحصاء عددنــا المهــول، نحن الضحايا، نحن أشــباح الكائنــات التي مرت بهذه البلاد التعيســة، آه يا الهي، لي أب مريض محتضر وأم تســتدرج النهاية، وأخ اغتالوه وآخر غادرَنا وكأنه لم يكن، وأنا أنقب في دفاتر الموتى، هل نحمل شــارات الموتى فوق جباهنا منذ ولدنا؟ هل قَدَرُ هذه الملايين أن تفنى بالموت المباغت ـ بالسم، بالتلوث، بالسيارات الملغومة، بالأحزمة الناســفة، بالطعام الفاسد؟ بالأدوية منتهية الصلاحية؟؟ ماذا أفعل هنا؟؟ لماذا عدت إلى زمن الموتى؟؟ ولكن هل كنت حية هناك في غرينوبل؟

أية حياة، أية حياة.. كفى.. فلأعمل وأنسى أسئلتي السخيفة، وأنسى موتنا، العمل يضيؤني، يكنس ظلال العتمة التي تكبلني، لسنا صادقين مع أنفسنا، كلنا نكذب على كلِنا وعلى أنفسنا.. نحن الموتى..

تفتح مجلد الجد صبحي الكتبخاني وتقرأ:

... زعزعني الشوق لأمي، إشتقت لأختيّ بديعة وألفت وأخي حكمت، أما نشأت فقد أبدى إمتعاضاً مني تضامناً مع والدي مذ غادرت البيت مطروداً، كانت أمي طوال عام كامل ترسل لي المال والشاي ومؤونة البيت مع خادمي شاهين، قررت هذا الصباح أن أغادر ترددي، أن أفعل شيئاً مختلفاً عن أيامي الماضيات: مغادرة القصر العتيق في البستان والتوجه لزيارة أمي، وجدتها مريضة شاحبة مهمومة، عانقتها وبكينا معاً، كان أبي قد خرج إلى عمله في الولاية وذهب نشأت إلى دكان تجارة الشاي والحبوب في سوق (المولة خانة)، أما حكمت فإنه لايزال يواصل دراسته في المدرسة الرشدية، أسرعت بديعة وألفت نحوي واختنقتا بالنشيج وهما تعانقانني، جلسنا جميعاً في غرفة والدتي، وضعت أم نعمان صينية الشاي أمامنا، و قبلت رأسي ويديّ:

–صبحي أفندي، ما شاء الله ما شاء الله، ردت لي روحي لما شفتك..

طلبت منها والدتي أن توجه الطباخ لإعداد الأطباق التي أحبها ؛ فعند أمي يكون منتهى الحنان و الدلال أن تهدينا الأطعمة التي نحب، قلت لها:

– أمي سأغادر بعد قليل، لاأحب أن أثير المشاكل هنا وتنعكس عليك هموماً..

– إبني صبحي، همومي أكبر مما تظن: أبوك وسفراته المستمرة إلى المحمودية، رفضه زواج بديعة من أحد الموظفين لأنه من عائلة لاتمت إلينا بصلة نسب ولأنه من

غـير ذوي الجاه في الولاية، نشأت الـذي بدأ يتحكم بالبيت وأملاك أبيك في بغداد والحلة وسامراء وبعقوبة على هواه، ألفت التي أصابها الإحتصار وهي تبكي طوال النهـار ولاتنام ليـلاً إلا إذا شربت مغلـي الخشخاش، أحضرنا لهـا الطبيب التركي فنصـح بأن تغـير الجو، وهذا يعني أن تسافر إلى البساتـين في الحلة أو بعقوبة، ولابد أن أكون بصحبتها..

أختـي الجميلـة ألفـت في التاسعة عشـرة من عمرهـا، في أوج إزدهـار الجسد والرغبـات، لم تكـن تتكلـم كثـيراً بل تجلـس قبالة الجميـع ساهمة لا أحـد يعلم بمَ تفكـر، أعلم مقـدار عذابها لأنني كنت مثلهـا، أشعر بظلم الحياة لهـا ولنا جميعاً، أختـي الجميلة ألفت تذبل كل يوم في هذا السجـن ولا أحد معني بها، تتنفس هواء البيـت العتيق وليس من نافذة تطل منها على دنيا الناس، تنام وتصحو على الوجوه ذاتها وتعلم أنها منذورة للنسيان وظلم الأب وربما لزوج يختاره أبوها وترغم على الاقتران به..

قلـت لأمـي: لماذا لاتخرجين مـع ألفت وبديعة لزيـارة وفيقة أو لزيـارة أقاربنا الآخرين؟؟

قالـت: أوووه ياصبحـي، مشاغلـي لاتنتهـي، ثـم إن والدك يـرى في خروجنا إنتقاصاً من هيبته، تعرف أنه لايتقبل خروج النساء من البيت ويعدّه نوعاً من إنعدام الحياء والخروج على عاداتنا..

– هو يخرج ويسافر وبيده مفاتيح الدنيا، يتحكم بالجميع كما يشاء..

– خرجـت معي بديعة مرة واحدة دون علمـه من أجل نذر وفيقة، سأحكي لك قصة النذور في وقت آخر..

- وهل تمتعت بديعة بالخروج معكما؟؟

- كانت مثل طفلة في العيد..

- لماذا لا تأتي ألفت إلى قصر مدحت بك وتقيم معي فترة من الزمن؟؟

- وهل تظن أن إسماعيل بك الكتبخاني سيوافق وهو الذي لايطيق ذكر إسمك في البيت؟

- إذن رافقيها إلى بيتنا في بستان الحلة، لاتدعي ألفت تذوي وتتآكل روحها بفعل الحزن والوحدة، دعي بديعة وأم نعمان تتكفلان بأمور البيت..

- لن يوافق والدك، وتعلم أن الفيضان خرّب أجزاءً كبيرة من منزلنا هناك وسقطت بعض سقوف الغرف...

- وأخي حكمت؟؟

- حكمت كان الوحيد الذي لم يسبب لي هماً وألماً، لكنني سمعته يتحدث مع والدك عن جرائد يقرأها، وعن جمعية الائتلاف ومظاهرات وأشياء لم أفهمها، زجره والدك وقال له: عليك أن تهتم بدراستك ولا تتبع طريق صبحي، لاتقرأ الجرائد بعد اليوم، يكفينا صبحي واحد في العائلة..

- متى يعود من المدرسة؟؟

- عند الظهر، إبق فإنه يتوق لرؤيتك..

- فليأت لزيارتي في أي وقت..

- لن يسمح له والدك..

- ومتى يعود أبي؟؟

– لا يعود قبل الغروب، يخرج من دار المعتمدية ويذهب إلى السوق ليتابع تجارته ثم يلتقي أصحابه في مقهى موشي كعادته...

– أمي لدي أمر أريد أن أسرّك به وحدك..

– بديعة، ألفت، أتركانا وحدنا أنا وصبحي..

تلكأت البنتان في المغادرة، وجهت إليهما الأم نظرة آمرة فخرجتا مسرعتين من الغرفة وأغلقتا الباب..

– أمي، عزمت على الزواج..

– خير ما تفعل، هل أخطب لك فتاة من أسرة طيبة؟؟

– بل أنا خطبت وأخترت، ولاتسأليني الآن من هي، فالأمر يخصني وحدي..

– صبحي هل حقاً ما تقول؟؟ تخطب من لانعرفها؟؟ كيف؟ هل أنت بتمام عقلك؟؟ لايجوز أبداً ولن نقبل ما تقوم به..

– إنها حياتي يا أمي...

– وحياتك مرتبطة بنا سواء كنت بعيداً عنا أو معنا، أنت لاتملك الحق في الإساءة للعائلة لمجرّد كونك تعيش بعيداً عنها..

– وأبي لايملك أمر طردي من بيتنا مثلما يطرد الغرباء ويمنعني من زيارة البيت..

تخيلت حينذاك بنفشة تخطر أمامنا مزهوة بجمالها وهنّ ينظرن إلى جسدها الفاره بخصرها الواهن وردفيها المترجرجين وصدرها العامر، أخالها تمشي في الفناء وتعود تجالس أمي وأخواتي وأنا أنتظر حكم النساء الثلاث عليها وهن مبهورات بثيابها وحليها وغدائر شعرها الطويل، وقد تسمِعُهُنّ أغنية من أغنياتها، ياللحظ

السعيد لو تستمع ألفت إلى غناء بنفشة ؛ إذن لشُفِيت من حزنها واحتصارها ولجعلت بنفشة كلّ من في البيت يعيد النظر بحياته، لا لا، لايمكن أن يحدث هذا ؛ فهنا نشأت وحكمت والخدم، أتخيل مالا يمكن حدوثه..لا، لا، لايمكن أن تأتي بنفشة إلى هنا أبداً..

– صبحي، صبحي، أين تسرح بك خواطرك؟؟ هل تتعمد إثارة المشاكل في عائلتنا؟؟

– بل أتمنى أن أعيش كما أريد لا كما يشاء والدي..

– ولكن، ياصبحي ماذا عن أبيك و بيت نجدت الخيامي، هل تتزوج سراً؟؟ هذا عار على الأسرتين.. لا يمكن..أبداً لا يمكن..

– إذا كان ثمة عار في أمر زواجي فليلحق بي وحدي..

– العار يعمُّ حين يبدأ..

– أمي لم أشأ الزواج قبل إخبارك أنت بالذات، لذا أستأذن الآن..

– ألن تتناول غداءك معي؟؟ ألن تنتظر حكمت؟؟

– لاأظنني أستطيع البقاء يا أماه، لدي مشاغل أخرى هذا اليوم..

– إذن خذ هذه الليرات ولا تتردد في إخباري عن كل ماتحتاجه، أرسل لي شاهين وأنا أتدبر لك ماتريد، لن أتخلى عنك أبداً يا ولدي..

قبلتُ رأسها ويديها وغادرتها وهي تكفكف عبراتها...

كنت قد رافقت رأفت قبل يومين إلى لقاء بعض الأشخاص الذين يناهضون جماعة الاتحاد والترقي ويرفضون عنصريتها التركية ويدعون إلى حركة محلية تعمل على استقلال ولاياتنا عن الدولة العثمانية، وفوجئت بأن المجموعة كانت على علم بجميع نشاطاتي مع جمعية الاتحاد والترقي في الأستانة وسالونيك وبغداد،

أوضحوا لي أن مهمتنا تنحصر الآن في إيقاظ الناس على حقيقة بؤسهم وجهلهم وعلينا أن نتطوع للتعليم في المدارس كلٌّ حسب دراسته وقدرته، وسيضمن رأفت إيجاد وظائف تعليمية لنا بعلاقاته ومكانته الإجتماعية وسنبدأ توعية الناس في المقاهي والمدارس ؛ فقد إستولت جماعة الإتحاد والترقي على المساجد وهناك صاروا يلقون الخطابات ويوزعون الجرائد..

بعد اللقاء رافقني رأفت إلى سوق الصاغة القريب من خان جغان لشراء هدية تليق بالعروس، كان يعرف صائغاً فائق المهارة إسمه صالح عايش وهو صابئي من فناني الصياغة الذين ذاع صيتهم في بغداد، عرض علينا مصوغات جميلة منها الحجول والخلاخيل والخواتم والزناديات التي تزيّن الذراع، وأساور مضفورة كالحصير، وأخرى ملوية بروؤس أفاعٍ، وكردانات وعقود لها أسماء عجيبة: عاشق بند وقوردون والبراق، إخترت لعروسي سواراً من الذهب المزين با لفيروز والياقوت تتدلى من سلسلة قفله ليرة صغيرة، وقال لي الصائغ:

- إذا لم يعجب السوار العروس يمكن أن تستبدله بشيء آخر..

إتفقتُ مع رأفت أن يحضر غداً مع أحد القضاة من معارفه لتوثيق عقد زواجي، وسيكون هو وشاهين شاهِدَيْن على العقد..

إكتريت عربة إلى منطقة النجيبية حيث منزل بنفشة، طرقت الباب وفتحت لي خادمتها، فوجئت بنفشة بزيارتي ؛ فلم يكن من عادتي أن أزورها في غير أيام الجمع، عانقتني ولاحظت أن وجهها قد إزداد إشراقاً وبدا جسمها أكثر امتلاءً مذ إلتقينا قبل أسبوعين، تحدثنا وضحكنا وأحضرت لي كأساً من الزنجبيل المحلى بالعسل وماء الورد والمطيب بالزعفران، وقالت:

- من أجل حبيبي هذا شراب الحب، ترياق دوام العشق..

وضعتُ الكأس جانباً وأخرجت اللفافة من جيب معطفي، وقدمتها لها..

فتحتها ورأت الإسورة فبوغتت: ماهذا؟؟

- هدية خطبتي لك..

نظرت إلى بعينين خضلتهما الدموع ولم تقل شيئاً، تفحّصت الإسورة بعين خبيرة تدرك مواطن الجمال في الحلية ودهشت لإتقان صنعتها وجمال صياغتها، وضعتها وهي تشرق بابتسامتها الساحرة في معصم يدها اليسرى وعرضتها أمامي مزهوة بها...

- كم تليق بمعصمك الجميل..!!!

قبلتني إمتناناً وهمست: هذه أجمل الحليّ التي رأيتها في حياتي لأنها منك، تعلم أن لديّ الكثير من الجواهر والحلي الذهبية، لكنها حلي لاتجلب البهجة لأنها تذكّرُني بأحزان حياتي قبل أن التقيك..

- متى نتزوج يابنفشة؟؟

- قل متى نتزوج يافرغانة، نادِني باسم طفولتي ؛ فهو إسمٌ ناداني به أبي وأمي..

- متى نتزوج يافرغانة؟؟

- متى ما يأمرك القلب..

- إذن جهّزي نفسك اليوم لمرافقتي ؛ فالزورق ينتظرنا بعد الظهر لنعبر إلى البيت، وغداً نعقد زواجنا..

- سأدع خادمتي في هذا البيت وآتي معك..

- بل دعي الحارس وزوجته هنا ولتأت خادمتك معنا لتعتني بك ؛ فزوجة شاهين إمرأة ريفية تجهل أمر العناية بالنساء الجميلات والعرائس......

نـــذور

ذهبتُ لزيارة أختي وفيقة في غرفتها - غرفة المرايا كما يسمونها، إنهمر شعاع الشمس من النافذة المرتفعة في أعلى الجدار،عُلِّقت على جدران الغرفة ثلاث مرايا كبيرة مؤطرة بإطارات مذهبة جيء بها من أسطنبول ربما لتعكس ترف أسرة الخيامي في بيت يرنو الى زمن آخر لم تتضح معالمه بعد، بدت المرايا ذوات شخصيات مستقلة كأنها تعيش حياتها لوحدها دون ارتباط بسكان البيت، علّقوها هنا عندما رتبوا جهاز عرس رأفت ووفيقة قبل خمس سنوات، ولم تتغير مواضع الأشياء إلا أن انعكاسات الوجوه عليها صارت أقل وضوحاً، لم يحدث شيء في حياة وفيقة سوى غمائم الحزن التي تفاقمت حول وجهها القمحي النحيل وتكاثفت في عينيها الشهلاوين، وجدتها على غير ما اعتدته منها وأحزنتني نبرة صوتها اليائسة، لم أسألها خشية أن أثير كوامن الأسى في روحها الرقيقة التي أعرف...

فكّرت: هل هذه وفيقة التي تخاطبني بالنظرة فأدرك مرادها؟؟ وحين تبتسم أعرف أن الدنيا مقبلة عليها؟ ما لي أراها مغلولة الروح وعاجزة عن إظهار عاطفتها المألوفة؟ ثمة حاجز خفي يقوم بيننا ويحجب عني مايدور في خلد أختي المحبوبة، أتراها تتحسب للعواقب الموجعة التي تؤول إليها مصائر النساء العواقرعندنا؟ أبدى لي رأفت هذا الخوف وهو يشفق من أفكاره اليائسة حول مستقبلهما، وخشي من تدخلات أمه وقسوة ذكور العائلة وعادات أهله القاسية..

بعد عشرة شهور روت لي أمي قصة النذور وحمل وفيقة:

– أبـدت خالتـك شفيقة – التـي قدمت حديثاً مـن اسطنبـول – إستغرابها من صمتنا على حال وفيقة التي لم تنجب حتى الآن. قالت بصوتها الحازم:

– وفيقة بحاجة إلينا جميعاً. أية أمٍ أنت؟؟ لابد أن نبحث لها عن علاج..

– ننتظر رحمة الله..

– لابد أن نفعل شيئاً في انتظار الرحمة، لو أن وفيقة تقتنع وتطيعني فسأحضر لها علاجات من أعشاب تفيد في تسريع الانجاب وقد جربتها لبناتي وزوجات أولادي، أعلـم أنها عنيدة وخوافة ولكن لاعليكم، سأطلب من حكمت شراء الأعشاب من مجيد العطار ولا أريد أن يعلم رأفت بالأمر، أم نعمان إذهبي وانظري إن كان حكمت في بيت الديوانخانة.

إستغـرب حكمت أن تدعوه خالته إلى الحـرم في هذا الوقت المبكر حيث تجتمع النساء لتناول الفطور الصباحي، قالت له:

– إسمـع ياولـد، أنت المؤتمن على أسرار أختك ؛ لا تقـل هذا لأحد، تعال هات ريشتـك والمحـبرة واكتب في الكاغـد: أوقيتان كمـون مطحون، أوقيتـان قرنفل مسحوق، أوقيتــان فلفل أسود مطحون، وثلاثة فناجين بـزر الرشّاد، هذا للوصفة الأولانيـة، الثانيـة: أوقية غبار طلع النخيـل مخلوطة بعسل الجبـل، الوصفة الثالثة: ثلاث أوقيات دارسين مطحون ومثلها حب السمسم، وللوصفة الرابعة: مسحوق اللوز والجوز مخلوطاً ببذر الكتان والعسل وبذور الفجل المطحونة..

إنهمكـت الخالـة الحكيمة بتهيئة الوصفات في صُرَرٍ مـن القماش وذهبنا لزيارة وفيقة، ضحكت وفيقة طويلاً وقالت:

– خالتي دعي الأمر لإرادة الله، لأأريد ان أتعجل في ما يرزقني ربي..

- خمس سنوات ولاتتعجلين؟؟!! إبنتي أنت في وضع خطر والقريبات من النساء يلوّحن لرأفت بعرائس من بناتهن الشابات، قد يتزوج رأفت وعندها ستندمين، توكلي على الله يا ابنتي، الرجل لا يصبر على عقم المرأة..

توالت شهور الشتاء والربيع ولم تحمل وفيقة، عالجتها خالتك ثانية بخليط من أوراق التين والدارسين تشرب مغليه على الريق طيلة شهر، فلم ينفع، أخيراً قلت لها وقد تذكرت ما سمعته عن كنيسة أم الأحزان:

- مابقى علينا ياإبنتي إلا أن نزور كنيسة أم الأحزان وننذر نذراً ونشعل شموعاً لمريم العذراء وإن شاء الله يحصل المراد وتهنأ قلوبنا وتقر عيوننا.

إحتجّت وفيقة: لن يسمح لي رأفت بالخروج، سيغضب إن سمع بالأمر ويخاصمني وأنا لا أطيق خصامه وغضبه..

- لابأس عليك، لن يعرف رأفت وأريدك أن تداومي على تناول خلطات الأعشاب، لاتتركيها حتى تشعري ببوادر الحمل، لاتخشي شيئاً، نخرج من بيتنا ولن يرانا الخدم ولاحراس بيت رأفت، سآخذك اليوم إلى الكنيسة، لاتقلقي لن يعلم رأفت، وإذا انكشف أمرنا دعيه لي..

إرتديت أنا وبديعة ووفيقة طبقتين من العباءات الحريرية فوق ثيابنا الطويلة وأسدلنا خُمُراً سوداء على وجوهنا فلا يعود بوسع أحد معرفتنا في الطريق، وهيأ لنا الحوذي حميدان العربة الصغيرة التي يسعها المرور عبر الأزقة الضيقة الملتوية، سمعنا الباعة ينادون على بضاعتهم في كل الأزقة: حار يا سحلب، نبق الكرادة ياولد، قايماقلي دوندرما، همست وفيقة لي:

- يُمّا، إشتهيت نبق الكرادة..

قلت لها:

- عند عودتنا سيشتري لنا حميدان من سوق المولة خانة..

- يُما دخت من ريحة الخيل.. نفسي غمّت عليّ..

- تحمّلي وفيقة، وصلنا، هذه هي الكنيسة...

هبطنا من العربة، داخت وفيقة فاتكأت على كتفي، ولدى باب الكنيسة شعرت وفيقة بالرهبة والإرتباك ؛ فهذه هي المرة الأولى التي تخرج من البيت لغير بيت أهلها دون علم رأفت، والمرة الأولى التي تدخل فيها كنيسة أم الأحزان، إرتعش قلبها وأحست بخفقان متسارع فيه، رفعنا الخُمُر السوداء ووقفنا حائرات لدى الباب فرآنا القس وكان برفقته شاب بهي الطلعة يحمل في يده آلة العود التي رأيتها في عرس شقيق رأفت عندما عزفت عليها المغنية اليهودية قال القسّ للشمّاس الشاب:

- إبني سعيد نادِ الأخت رينة من الدير المجاور لتتحدث مع الخواتين..

جاءت الأخت رينة وهي راهبة مسنة لكنها تبدو صلبة قوية الجسم منتصبة القامة لها وجه سمح القسمات وصوت حنون، رحّبت بنا وأخبرتها عن سبب الزيارة:

- أتينا نتبارك بالسيدة العذراء ونطلب مرادنا من أم سيدنا عيسى..

أعطت الأخت رينة الشموع لوفيقة لتوقدها وتضعها على المذبح، كانت يدها ترتجف وهي تشعل الشموع السبعة من شمعة كبيرة مشتعلة على جانب المذبح، ركعت أمام تمثال مريم العذراء وقالت:

- يا أم المسيح مانحة البركة ياعذراء يا مباركة، سأطلق إسم عيسى على الطفل إن جاء صبياً وسأدعوها مريم إذا جاءت بنتاً، وعليّ نذور أخرى لك كل عام عندما يولد لي طفل ببركتك..

لو كنت أعلم ماسوف يحدث لما صحبت معنا بديعة إلى الكنيسة ؛ وقفت بديعة

والشــاب الذي يحمل العود قرب الأخت رينة ولمحــت بديعة والشاب ينظران إلى بعضهمــا، رأيت في عينــي إبنتي نظرة غريبة وهــي تبتسم للشــاب فطلبت منها أن تســدل خمارهــا على وجهها، إبتعد الفتــى وراء المذبح برهة وعــاد مسرعاً ووقف قرب بديعة، نادتني وفيقة لأساعدها على النهوض وخيّل إلي وأنا أذهب نحو وفيقة أن الشاب قد أعطى شيئاً ما لبديعة..

– وهل عرفتِ ما أعطاها؟؟

– فتشــت في غرفتهــا بعد أيــام فوجدت كاغداً صغــيراً مكتوبــاً عليه بخط غير واضــح، لم أستطــع معرفة مامكتوب فيه ولاأدري هل كان مــن الشاب أو أنه شيء آخر..

– وهل سألتِها؟؟

– لا، لــو كنــت سألتهــا لأدركت أننــي أرتاب بهــا، لكني لاحظــت أنها بدت ساهمــة، مشوشة الفكر أحياناً ومتورّدة الوجــه منفتحة تضحك وتمازح من حولها أحياناً أخرى..

لاتعلــم وفيقة ولا أحد يعلم إن كانــت العلاجات الشعبية التي أوصت بها خالتها الحكيمــة هي السبب في حملها أم أنها بركة السيــدة العذراء، ولاتدري إن كانت في أول حملهــا عندما زارت الكنيسة ؛ فقد أصيبت بالــدوار والغثيان في العربة ولعلها كانت بوادر حمل لم تكتشفها...

إمتلأ بيت الحرم بالقريبات اللائي جلبن الحلويات والهدايا فاكتظّت بها حجرات الحــرم والرواق بعدما أعلنوا للأقارب أن وفيقة حامل في شهرها الرابع، خرج رأفت طلــق المحيا مضطرباً من قسم الديوان خانة ليسلّم علــى القريبات اللائي أتين لمباركة حمــل وفيقــة، دخل غرفــة ضيوف الحــرم وقبّل أيــدي الكبيرات المسنــات وانحنى

أمام الأخريات. قدّمت الخادمة بدرية الشاي والكعك للضيفات اللائي إستثارهن موضوع حمل وفيقة والفرحة التي عمّت دارنا ودار الخيامي وهن اللائي كن يتناقلن أخباراً مشتهاة عن قرب زواج رأفت من عروس جديدة ربما تكون إحدى بناتهن طلباً للإنجاب، عانقن وفيقة وهي في ثوبها الحريري الأبيض المطرز بأسلاك الفضة وبدت عروساً وهي تزين عنقها بعقد طويل من حلقات ذهبية وقصبات مزخرفة من الذهب وقد برز بطنها المكوّر تحت رقة الثوب الناعم وتضخّم نهداها، علا ضجيج النسوة وزغاريدهن، وبغتة شحب وجه وفيقة وتفصد جبينها بالعرق إذ عاودها الغثيان الصباحي وتقلصت معدتها فوضعت يدها على بطنها في محاولة إخفاء اضطرابها أو التخفيف من غثيانها، أسندتها المربّية أم نعمان واحدى الشابات وأوصلنها إلى حجرتها فتبعتُهما، مسحت أم نعمان وجه وفيقة بمنديل مبلل بماء الورد وفركت يديها به وقرأت تعويذاتها ومسحت على شعرها بيدها المعروقة وهمست لها:

- لاتهتمي ؛ فكثرة الغثيان تشير إلى أنك ستُرزقين بولد، أبشري ياوفيقة...

إحترت كيف أخبر رأفت بأنني وإبنتي نذرنا أن نطلق إسم عيسى على المولود، فقلت لابأس من كذبة صغيرة،أخبرته أنني رأيت حلماً ظهرت فيه السيدة العذراء مريم بنت عمران وبشرتني بصبي تنجبه وفيقة، ولما سألتها ما إسم الولد قالت العذراء: ببركة الله إسمه عيسى ودعتنا لزيارة كنيسة أم الأحزان لنشعل لها الشموع، رضخ رأفت للأمر وقال:

- ندعوه عيسى جمال الدين على مادرجت عليه عادة العائلات عندنا، لايكفي إسم عيسى وحده، لابد أن يكون الأسم ملحقا بكنية أخرى..

وسجّلوا ميلاده في سجل العائلة (وُلِد عيسى جمال الدين رأفت نجدت الخيامي في الأول من شهر حزيران سنة ١٩٠٨)...

أقيمت الإحتفالات طوال سبعة أيام ووزعت الصدقات على المحتاجين،

واجتمع أفراد الأسرتين في اليوم السابع لإقامة حفل الختان ودُعِي وجهاء بغداد وأقارب الأسرتين وذبحت الخراف وأنهمك الطباخون بإعداد الوليمة طوال النهار، وما أن حلّ المساء حتى مُدَّ السماط في غرفة الديوانخانة وتصدّر المجلس نجدت بك الخيامي وإسماعيل بك الكتبخاني وإلى جانبهما جلس والي بغداد أبو بكر حازم بك وحاشيته وكبار العائلات البغدادية المقرّبة من آل الكتبخاني وآل الخيامي.......

الجـــراد

في السنة ذاتها التي أعلن فيها الدستور العثماني في ٢٣ تموز ١٩٠٨ وُلِد عيسى جمال الدين إبن رأفت، مرضت عمتي أم رأفت مرضاً شديداً وسرعان ماتوفيت وأرادوا نقل جثمانها حسب وصيتها إلى مقبرة أسرتها في سامراء، وحال دون ذلك أكتساح أسراب الجراد لسامراء ومايحيط بها من قرى إكتساحاً مروّعاً لم يسبق له مثيل في تأريخ البلاد ؛ قضى الجراد على المزارع والبساتين وجرّد النخيل من السعف وعذوق التمر الفجة والتهم كل شيء مر عليه: الملابس والحبوب والأطعمة والأفرشة والحصران والسجاد والحطب، ثم هجم بعد كل هذا مثل عاصفة لهب على الجدران وأكل الأبواب الخشبية والجص الذي يغطي الجدران، وواصلت الإدارة مكافحته مع أهالي المدينة والقرى وأصحاب البساتين طوال شهر دون أن يتمكنوا من القضاء عليه حتى رحلت أسرابه الهوجاء نحو مناطق أخرى مخلّفةً وراءها خراباً وخسائر ومجاعة ضربت المنطقة كلها..

ومع محنة الجراد أمر والي بغداد أبو بكر حازم بك بإقامة الاحتفالات وتزيين دوائر الولاية بمناسبة إعلان الدستور ؛ فاجتاحت بغداد أمواج من الحماسة النادرة أملاً في تغيير أوضاعها، أما أنا فقد رافقت رأفت وأخوته لدفن والدته في مقبرة السلام في النجف حسب ما قرّر والده نجدت الخيامي، وتركتُ بنفشة في القصر مع خادمتها وشاهين وزوجته، وعندما عدنا إلى بغداد كانت الأحوال على غير ماننتظر ونتمنى: هيمنت جماعة الاتحاد والترقي على الأمور في الأستانة، وفي بغداد جرى فصل عدد كبير من الموظفين العرب وعيّنوا بدلاً عنهم موظفين ذوي أصول تركية

أو من أبناء العوائل الثرية الموالية للأتراك أو المتصاهرة معهم كعائلتنا ذات الأصول المختلطة ؛ فاحتفظ أبي ورأفت بمكانتيهما بل وحتى إلتقى بهما ناظم باشا وكيل الوالي ومنحهما ثقته في محاولة لكسب ولاء البغداديين ضد حركة الإتحاد والترقّي التي تناهض السلطان وتعتزم الإنقلاب عليه...

كان من الصعب عليّ متابعة تطورات الحوادث الخاصة في أسرتنا وأحوال بغداد العامة ؛ فقد تناهى إليّ أن أخي نشأت أراد توسيع تجارة والدي من الحبوب ودفع عربوناً كبيراً لمزارعين من سامراء فأتى الجراد على المحاصيل وتكبد والدي ونشأت خسائر كبيرة، فانصرف نشأت لتعويض أحزانه إلى البحث عن زوجة ينشغل بها ؛ فخطبوا له إبنة عمتنا أخت رأفت الجميلة (بهية) وأقاموا حفل زفاف لم أحضره، بينما إزدادت حالة ألفت سوءً واعتادت أن تحبس نفسها في غرفتها وتغلق الباب فلا تخرج لأيام عديدة وتعاف الطعام حتى هزل جسدها الجميل وبدأ شعرها الأشقر يتساقط، ولم تملك أمي سوى الندب والبكاء وسلّمت مقادير الأمور للقدر دون أن تحاول الخروج من سجنها وإنقاذ إبنتيها..

قالت أم نعمان: لايشفي هذه البنت سوى الزواج، مابالكم ترفضون كلّ الخُطّاب؟؟ ستفقدون البنتين الشابتين وتعضّون أصابع الندم..

قالت أمي أن والدي زجر أم نعمان وقال لها: لن تتزوج إبنتاي سوى من يليق بعائلتنا، ولاتتدخلي بأمورنا واعرفي حدودك، أتعرفين من أنت؟؟ أنت مُربّية غريبة فقط ولست عمة للأولاد أو خالة لهم، إلزمي حدودك أو إرحلي عن بيتنا..

بكت أم نعمان طوال أيام وأقسمت أن لاتتذوق خبز هذا البيت ناكر الجميل، وذات صباح قررت مغادرة البيت من غير عودة منتظرة هذه المرة، وأبلغت أمي فتشبثت بها وتوسّلت إليها أن تبقى ولاتدعها وحدها تواجه المصائب، لم تتراجع أم نعمان ولم تلامس قلبها الجريح تضرّعات أمي بل غادرت مع إبنها إلى النعمانية وهي

تحمل ذكـرى عشرات الجراح التي نالتها من إهانات أهلـي، وبرحيل أم نعمان فقد البيت آخر من يدافع عن المظلومين فيه ؛ فقد أبدت والدتي ضعفاً عجيباً إزاء سطوة أبـي، وكنت أعجب كيف لأمرأة أن تتقبل كل هذا مـع علمي أن كثيراً من قريباتها كُنّ عارفات وحازمات ولهن مكانة مرموقة في أسرهن..

إنعكـس غياب أم نعمـان على حالة ألفت التي كانت تطمئـن إليها وتحدّثها عن كوابيسهـا وهواجسها، وماعاد هناك مـن أحد يأخذ بيدها إلى حيث ترى نفسها في النور وتعرف ماتريد نفسها الموجوعة وما تكابده روحها الرقيقة...

لبثنـا أنا ورأفت نعمل للّقـاء بالمعلمين وتدريبهم على نشر فكرة الإستقلال التام عـن السلطنة سواء بقي السلطـان أو استولى مناهضوه على السلطة ؛ فالأمر يخص الأتـراك وحدهم ونحن ندفـع للسلطنة أمـوالاً طائلة وضرائب تذهـب إلى الولاة والضباط ليشتروا بها قصوراً ومعامل في الأستانة ومزارع حول بغداد.

تركت رأفـت يعمل منفرداً وانصرفت للعناية بزوجتـي بنفشة التي كانت تعاني من متاعب شهـور الحمل الأولى بينما كانت بغداد يعمّها الاضطراب والمظاهرات، إستقـال الـوالي أبوبكر حـازم لاختلافه مع جماعـة الإتحاد والترقّـي وتسلّم وكالة الولايـة ناظـم باشا، وحدثت في بغـداد أعمـال تخريب ونهب وعمّـت الفوضى لأيـام عدة وهجم بعضـ الجياع على الدكاكـين وسلبوها وأحرقـوا بعضها فوضع أخي نشأت حراسـاً مسلحين على محلات أبي التي تخصّصت ببيع الشاي والقهوة والحبوب والأقمشة الهندية..

ذات ظهيرة جـاءني الحارس داوود في الزورق يدعوني لزيارة أمي المكلومة بعد محاولـة أختي ألفت الإنتحار بإحـراق نفسها ونجاتها في اللحظـات الأخيرة بعد أن تمكّنوا من إطفـاء النيران وإنقاذها. عانقت أمي وبكينا طويلاً ووجدت أختي بديعة في حـال من الهلع والحـزن وهي ترى تشوّه جسد أختهـا الجميلة وتسمع تأوهات

الألم، لم تكن بديعة لتعي تماماً حقيقة أنّ إمرأة من هذا البيت أعلنت إحتجاجها بطلب الموت وحاولت التخلص من حياتها والهرب من هذا العالم الظالم الذي تتحكم فيه إرادات رجال قساة مثل أبي. قالت بديعة: إن ألفت جُنّت..

قلت لها: الظلم يقود إلى الجنون..

فقالت وهي تغالب عبراتها: ليست وحدها المظلومة، ها أنا أمامك، هل كنتُ سأحرق نفسي؟؟

- ألفت لم تتحمل وضعها، أنت أقوى منها وأكثر تحملاً..

- معك حق، ولكن هل تظنّني سأواصل التحمل؟؟

- إعترضي، قولي لا لمن يظلمك..

- قد أفعلها في قادمات الأيام..

- لاتدعي أمي وحدها، عليك ملازمتها في غرفتها حتى عودة أبي من المحمودية....

حاولتُ التحدث إلى ألفت التي كانت تنتحب وتتأوه، لكنها لم تستجب لي، بل أشاحت بوجهها عني، ولعلها عدّتني واحداً من أسباب شقائها لأنني أثرت غضب أبي فطردني من البيت، ولو كنت موجوداً لما أقدمت على محاولة الإنتحار؛ إذ كانت هي وبديعة تعدانني حامياً لهما. وجدتها محقة في إتهامنا جميعاً نحن رجال البيت؛ فكلٌ منا منشغل بما يهوى ومنصرف إلى نفسه ورغباته: نشأت إلى التجارة وجشع الكسب السريع حتى لو إستدعى الأمر سرقة حقوق الآخرين ونهب أملاك أبي، وأبي منشغل بسفراته المريبة وموالاته لمن يناصر السلطان عبد الحميد طمعاً في مزيد من الجاه والمكاسب، وأخي الأصغر حكمت لا نفع فيه؛ فهو مدلل الأسرة

الـذي يخدمه الجميع – مُدلّل أمي العاجز عن تحمل تبعـات الحياة، وأنا الذي كنت فيما مضى منهمكاً بتدوين مذكراتـي ومنغمساً في المطالعة ونسج أحلامي الهائمة، هجـرتُ بغـداد إلى الأستانة وعدت إليها لألتقي ببنفشة التـي غيّرت عالمي وحياتي وأمست سبباً لإستمراري في تحدّي المصاعب ومواصلة كفاحي في الحياة..

طلبـت أمي من الحارس داوود أن يذهـب إلى النعمانية مع أحد الخدم في محاولة لإعـادة أم نعمان التي ستخفف عـن ألفت متاعبها وأحزانها، وبعد أيام عاد بصحبة المربية العجوز التي تفرّغت للعناية بألفت ومعالجة حروقها والتخفيف عنها..

فكـرت أن أواجه أبي لإذلالـه أمي وظلمه لأختيّ، وحرّضـت والدتي على أن تعلـن ثورتها وغضبها وتتوقف عن مواصلة هذا الرضـوخ المهين، فوجدتها رافضة لفكرتـي وخائفة من إثارة غضب والدي، كانت على الضد من خالتي شفيقة القوية الحازمة والشريرة أحياناً والتـي تتحكم بحياتها وحياة أسرتها وتفرض إرادتها على الجميـع برجاحة عقلهـا ووعيها لأهمية مكانتها الأمومية ؛ لـذا قرّرت زيارة خالتي شفيقـة ورجوتها ملازمة أمي وشدّ أزرها وإسنادهـا وهي القادرة على ذلك أفضل منـي فوعدتني أنهـا ستذهب إليها هذا اليـوم، أما أنا فقد عـدت إلى قصر الشواكة لملازمة بنفشة في أيام حملها الأخيرة.....

أهواء القلب

يانفسي لاتتوقي إلى المطلق بل استنفدي كل حيز الممكنات.........

الشاعر الأغريقي بندار

لا الدموع ولا مقاومة الروح ولا أحزان القلب بقادرة على تغيير مسارات القدر الغامضة ؛ ففي بغداد تباغتكَ الرزايا والبشائر، تفاجئك المصيبة بقدر ما تفاجئك الأقدار الفاتنة وتحملك فيما وراء التوقعات، ترى نجوماً ذهبية تمطر ضوءاً وغيوماً تشـكّل مشـهداً عجيباً لأمواج ملونة أو هضابٍ غسقية اللون في سماوات مسحورة، لاشيء ممكن قدر الأعاجيب التي لايتحسّب لهـا حدسُ المرء ولا تعززها فكرة الإحتمالات،،، بغتة تتلقّى نهى مكالمة هاتفيـة مـن خالتها هناء تخبِرهـا فيها عن موعد كانت تظنه مسـتحيلاً مع ذلك الرجل المعتزل شـبه المتصوف المهتم بصناعة آلات غريبة من بقايا مخلّفات ميكانيكية قديمة: عاشـق الفيزياء الذي تقول عنه أخته منال أن غرفتـه تحفل بلوحات كثيـرة يكتب عليها رموز معادلاته الكوسـمولوجية وأفكاره المتعلقة بالرياضيات المتقدّمة والفيزياء،،، ستذهبان إليه من أجل الفونوغراف العاطل لعله ينجح في صنع ذراع جديدة لأبرة الحاكي العتيق فتفكّ بعض أسرار أسلافها المسجلة في تلك الأسطوانات المهجورة..

إعتـزل نـادر العالم مذ اكتشـف حقـارة ذلك العالم فـي الحرب التي

خاضهـا بعـد تخرّجـه من الجامعـة، وصـارت تجربته المروعة شـبه مرآة مقعرة تكشـف بشـاعة البشـر ونزعاتهـم العدوانية وأسـوا ماتنطوي عليه النفـوس، وبعد بضعة أعوام في التدريـس تضاعف مايراه من قبح نفوس البشـر وتشـوهاتهم ونزعاتهم العنيفة ـ ثمة تشوهات تتماثل رغم إختلاف مصادرها والمؤثرات التي تفضي إليها، إسـتقال من وظيفته دونما تردّد أو ندم مدركاً تماماً أن البلاد تضمحل وأن المدارس تنهار ؛ فالنظام التعليمي آخذ بالتدهور، والمناهج تقوم على أسس ومفاهيم بالية، و فئة المدرّسين والمعلميـن وأسـاتذة الجامعات لاتسـتطيع التأثير في صياغة شـخصيات التلاميـذ وإبراز المواهب وتمييز العقول المبدعة، بل إنها لا تريد حتى أن تبدو مؤثرة في سـياق الأحداث التي تضرب المجتمع المتخاصم المنقسم علـى أحـداث ماضيه وطوائفـه وأعراقه ؛ لـذا إعتزل هـذا العالم واكتفى بالتعامل معه من بعيد وعلى نحو غير مباشـر عبر متحسّسـاته الميتافيزيقية أو النافذة الألكترونية لحاسوبه، واعتبر العالم كائناً مشوهاً مصاباً بالجذام ينبغـي النـأيُ عنه وتجنبه، وحَسْـبُ المرء ـ كما يرى نـادر ـ أن يتحمل إحساسـه الصامت بالخزي مـن هذا العالم المتوحش ـ ذلك الإحسـاس المُهين لإنسانية الناس أجمعين، إحساس باهض يحول بينهم وبين اجتناء المباهـج أو التناغـم مع الحياة المتاحة لهم ويحرمهم من نشـوة الحلم بما يستحقون من هبات الجمال...

تؤرق نادر كلُّ هذه الأضحيات البشـرية التي تقدم صباح ومسـاء على مذبـح العقائـد والسياسـات ؛ فيعمد فـي أحيان كثيرة إلـى إغلاق منافذ الاتصال بالعالم الخارجي ويمتنع عن مقابلة أصدقائه المعدودين الخُلّص ويسـتغرق في قراءات مسـتفيضة عن الكون وفلسـفة العلم ومسـتجدات الفيزيـاء ـ وبخاصـة فيزياء الكمّ وفيزياء المـواد النانوية « الفائقة الصغر

« ـ ليبتعد بعض الوقت عن عالم تلتهمه غباوة البشر وجشعهم، ويتجاهل غالباً مرور الزمن ؛ فهو يتعامل مع فكرة الزمان والمكان بمفهومات تخفف عن روحه وعقله وقع تعاقب الأيام وتغير الأوضاع وتحول طبائع الناس وانهماكهم في التغالب والتنافس الضاري كوحوش نهمة أمام فرائس طازجة. أخبرته أخته منال أن ثمة ضيفة ستأتي بحاجة إلى معونة ترجوها منه، لم يرحّب نادر بالأمر ولم يرفضه، إكتسى وجهه بتعبير محايد لا يوحي بشيء محدد، سار بضع خطوات في صالة البيت ثم ارتقى السلّم إلى غرفته..

ـ هل ستقابلها؟؟

سألت منال بنفاد صبر وهي المتورطة بتحديد الموعد، لم يردّ عليها، نادته ثانية: نادر هل ستقابل ضيفتنا؟؟

أجابها من غرفته: ربما.. في الحقيقة لاأدري..

أنجزت نهى تدوين مقاطع جديدة من مذكّرات جدّ والدها حول أسرته وزواجه والتغيرات التي حصلت في بغداد خلال عام ١٩٠٨ وأعطت الأوراق المطبوعة لوالدها الذي كان ينتظر مُتلهفاً هذه الأجزاء المثيرة من مذكرات سلفه،،، هيأت له قدح شاي ساخن وفتحت له نافذة غرفته المطلة على أحواض الزنبق والورد والجهنّميات المشتعلة بزهورها النارية وحوض النافورة الصغير الذي تتقافز فيه العصافير مُستحمّة فيتناثر الماء من أجنحتها الراعشة وهي تعاود التحليق..

إرتدت نهى قميصاً أبيض موشحاً بأزاهير صغيرة ملونة مع بنطلون الجينز القاتم الزرقة، وعقدت شعرها الطويل وراء عنقها وجلست تنتظر وصول خالتها هناء لتصحبها إلى المكان المأمول ـ بيت نادر. بضجتها

المعهـودة أعلنت هناء وصولهـا، أطلقت منبه سـيارتها على إيقاع خاص تعرفه نهى: توت تتوت توووت...... هبطت من سـيارتها وضغطت جرس البـاب ضغطات متتاليات كشـخص نافد الصبر، ولـم تكتفِ بهذا كله بل نادت من وراء الباب: نهى، نهى، هيا أسرعي..

خرجت إليها نهى، عانقتها وانطلقتا بالسيارة.

ـ سـنذهب لبيت صديقتي منال وسـأعرّفكِ إليها هي وأخيها الأسـتاذ نادر، هما يعيشـان وحدهما بعد وفاة والديهما وهجرة شـقيقتهما الكبرى وزوجهـا إلـى كندا ولجوء شـقيقهما الطبيب إلى ألمانيـا، ورفض الإثنان عـروض الهجـرة ؛ إذ لم تشـأ منال ترك وظيفتهـا فـي وزارة الزراعة، أما نـادر فإنه مصمّـم على عدم اقتلاع نفسـه من العراق ويـردد دائماً: رغم معاناتـي كلّ أنـواع الرعب والخـوف والعزلة وتوقّع ماهو أسـوأ كل يوم، لكني لاأسـتطيع العيش بعيداً عن هذا البيت،،، سـأدعك هناك لأنّ لديّ موعداً مع طبيب الأسنان، لاأريد التأخرعن موعدي، وعندما أنتهي سأعود لأصحبـك، ولكن ليكن في علمك: قد يعتذر نادرعن مقابلتك لسـببٍ أو لغيرما سـببٍ من الأسـباب التي تخطر على بالنا، لاتيأسـي كما قالت لي أخته منال، قد يسـتقبلك في يوم آخر عندمـا يكون في مزاج يتيح له لقاء الأغراب..

هبطت الإثنتان من السيارة، وضغطت هناء جرس الباب الخارجي، كان الوقت عصراً وثمة نسائم عطرة تهبُّ من الحديقة وأصوات موسيقى تتسلل مـن إحـدى النوافذ، وروائح فطائر شـهية تؤكد وجود منـال في مطبخها، إنتظرت هنـاء لحظات حتى انفتح الباب وأطلت منه منال بقامتها النحيلة وشعرها الأحمر المتوهج وابتسامتها التي لاتكاد تبين..

قالت منال: مرحباً نهى، وأخيراً إلتقينا، لم أركِ مذ كنتِ في المدرسة الثانوية،،، كم غدوتِ جميلة..

إحمرّ وجه نهى للإطراء المفاجيء وابتسمت بحياء..

قالت منال: تفضّلا..

أعلنت هناء: سأدع نهى هنا فلدي موعد عند طبيب الأسنان..

علّقت منال: أنت هكذا دائماً ـ مواعيد متشابكة وأعذار متوفرة..

ـ سأعود بعد حوالي الساعة وأحتسي القهوة معكم..

إصطحبت منال ضيفتها نهى إلى غرفة الضيوف، تحدّثتا قليلاً عن آخر الأخبار والانفجارات وانعدام الكهرباء والطوفان الذي اجتاح مناطق بغداد، إستأذنتها لإعداد القهوة وإبلاغ نادر بوصولها..

إنكمشت نهى على مقعدها في غرفة الضيوف وهي تحمل ذراع الفونوغراف المحطمة في كيس بلاستيكي سميك، أدارت بصرها في الغرفة، رأت مكتبة عامرة بالكتب فنهضت لتطلع عليها، أحسّت بنوع من الرضا والابتهاج إذ وجدت بين الكتب كتباً قرأتها وأحبتها: (الكون الغامض) للسير جيمس جينز، كتاب (موجز تاريخ الزمن) لستيفن هوكنغ، وكتاب (تطور الفيزياء) لألبرت آينشتاين، ولمحت كتباً تعشقها لإبن عربي وفريد الدين العطار وشهاب الدين السهروردي وروايات دوستويفسكي وهيرمان هيسه وتوماس مان، وثمة لوحتان تجريديتان رُسِمَتا بالألوان الزيتية على الجدار المقابل لها، وفوق الطاولة الزجاجية التي تتوسط الغرفة إلتمعت تماثيل حيوانات صغيرة من الكريستال: زرافات وحيتان

ودببة وطيور وفقمات، وعلى طرف الطاولة ثمة مزهرية شفافة فيها باقة من زنابق برتقالية اللون تحيط بها أوراقها الرمحية الخضراء.....

سمعت نهى صوت منال وهي تنادي أخاها:

ـ نادر، ألن تنزل، وصلت ضيفتنا.. أسرِعْ لتتناول القهوة معنا..

جاء صوت الرجل من الأعلى: أنا آتٍ..

وصل نادر ومدّ يده مصافحاً نهى وهي لاتزال في وقفتها أمام المكتبة:

ـ نادر..

ـ نهى جابر الكتبخاني..

بهتت نهى ولم تقل شيئاً: كانت لنادر ملامح رجل الرؤيا الذي طالما ظهر لها في رؤاها العابرة وأحلامها، ربّما تبدلت ملامحه وتغيرت سحنته لكنه يستعيد قسماته الأولى عندما تطيل التحديق في وجهه. هل يمكن أن يحدث هذا: أن ينبثق رجل الرؤيا ويمثل أمامها كائناً حياً؟؟ لبثت نهى مستغرقة في اضطراب أفكارها ودهشتها، فكّرت كيف ستبدأ حديثها مع نادر وقد أربكها التشابه بينه وبين رجل خيالها، حدّقت إلى الرجل الماثل أمامها ورأت في نظرته غياباً وغموضاً وهو ينظر إليها ولاينظر على عكس رجل الرؤيا الذي كان ينظر إليها نظرات مستقيمة واضحة، وحكمت عليه بأنه شخص مترمّت متصلّب فقرّرت أن تستحضر خزين شجاعتها لتتحدث إليه..

ـ لديك مكتبة غنية أستاذ نادر، وبخاصة أنها تحوي كتباً أساسية عن

التصـوف وأخرى عن الفيزيـاء والرياضيات والموسـيقى وهي أمور أميل إليها وأجدها في غاية الأهمية لإنسان زمننا بل وكل الأزمنة..

ـ تفضلـي اجلسـي، لمَ تبقين واقفة هنا؟؟ حقـاً إنها في غاية الأهمية لي على الأقل

إتّخذت مكانها على الأريكة الكبيرة المكسـوة بالمخمل البني القاتم والتي رُصّت عليها وسائد ملونة من الحرير..

ـ تشرّفتُ بلقائك أستاذ نادر، وأنا ممتنة حقاً لأني سأقتطع بعض وقتك الثمين، سمعت عنك أشياء مدهشة من خالتي هناء..

ـ قد تبالغ سـت هناء قليلاً كعادتها، ليس لدي مايدهش حقاً، ووقتي ليـس ثميناً إلى هـذه الدرجة التي تتخيلين، إنه زمن يمضي على كل حال ونحـاول أن نمـلأه أحياناً بأفكار أو بأعمال أو نقـوم بأمور لاجدوى منها كأننا نلعب، تعلمين أن الحياة مجرد لعبة، وهي حقيقة تغيب عن الكثيرين ممـن يتعاملون معها في منتهى الجد. بمناسـبة هذا الـكلام، هل تعلمين أن كلّ أفعالنـا فـي هذه الحيـاة لها نموذج رياضياتيّ دقيق تدرسـه نظرية الألعاب؟

ـ لم أطلّع على نظرية الألعاب من قبل.

ـ كل أفعالنـا يقابلها نموذج دقيق في علـم الرياضيات..لو كان لديك بعـض الفضول للتعرف على النظرية سـأعطيك كتاب جـون فون نيومان و أوسـكار مورغن شـتيرن (نظرية الألعاب والسـلوك الإقتصادي) بقصد الإطـلاع على مبادئها الأولية ولا تأبهـي بالتفاصيل التقنية او المعادلات بل ركزي على الافكار والمفاهيم حسب..

ـ ممتنة لك ويسعدني ذلك ـ سمعت أنك مهتمٌّ بأجهزة الفونوغراف العتيقة ـ بخاصة فونوغراف أديسون ؛ ولهذا طلبت لقاءك. لكنْ ماسِرُّ اهتمامكَ بالفونوغراف؟؟

ـ لديّ فونوغراف أحدث طرازاً يعمل على الأسطوانات المسطحة، ولم أحظَ بفونوغراف أديسون رغم بحثي الطويل عنه، ويعود سبب اهتمامي الواضح بهذا الأمر لإرتباط ظهور آلة الفونوغراف بمرحلة مهمة من تطور الفيزياء ؛ فمع ظهوره والبدء بتصنيعه وتسجيل الأصوات عليه أعلن آينشتاين النظرية النسبية، فضلاً عن أن الناس الذين عاصروا ظهور الفونوغراف كانت لديهم أحلامٌ لإقتناص أصوات العظماء الراحلين من الفضاء بناءً على أن الصوت طاقة لا تفنى، وقد جرت محاولات شتى منذ ذلك الحين حتى اليوم دون التوصل إلى نتيجة حاسمة.

ـ وعلام اهتمامهم بأصوات العظماء؟؟

ـ ضربٌ من الفضول البشري لتأكيد تصورات معينة عنهم..

ـ وأنت هل حاولت؟؟

ـ أبداً، إنصبّت محاولاتي على ولعي الميكانيكي وشغفي بالموسيقى حتى عندما كنت طالباً في كلية العلوم..

ـ كنتَ في كلية العلوم؟؟ هل إلتقيت بأخي وليد الكتبخاني في الكلية؟؟ كان في قسم الجيولوجي وشرع يعدُّ رسالته للماجستير لكنّ ظروفه سارت باتجاه معاكس فهاجر إلى خارج العراق..

ـ لم التقِ به مع الأسف، ربما أتى إلى الكلية بعدي..

ـ هل تسـمح لي بسـؤال بدافع الفضول، لماذا درست الفيزياء في بلد لايقدّرُ العلم والعلماء، ماذا كنت تنتظر؟؟ هل قادك معدلك في البكالوريا الثانوية إلى اختيار الفيزياء؟؟

ـ بـل كان معدّلـي يقارب المائـة ويؤهلني لدخول كليـة الطب ؛ فقد كنـت الثاني علـى العراق في إمتحان البكالوريـا الثانوية، ولكني إخترتُ الذهـاب إلـى كلية العلوم لأن شـغفي بالفيزياء لايمكنني المسـاومة عليه أوالتنازل عنه..

ـ أيعني هذا انك تخصّصت في فرع من فروع الفيزياء التطبيقية؟؟

ـ بالعكس، تخصّصت في الفيزياء النظرية لأنها أقرب إلى عالم الأفكار ؛ فأنـا أحب الرموز ولاأطيق الـكلام الفائض واللغة البلاغية والثرثرة التي تغـرق حياتنا الآن وتكاد تخنقنا وهي تنهـال علينا من التلفاز أو من أفواه البشـر ممّـن لايقدرون قيمة الزمـن، أمّا الرياضيات فهي شـغفي الموازي الآخـر لأنها تختزل لنـا العالم في رموز محددة وبطريقة سـاحرة ليس لها نظير..

ـ يبدو أن تخميناتي خاطئة كلها..

ـ لا، بـل إن أوضاعي لا يمكن التكهن بها بسـهولة ؛ فأنا مهتم بصنع آلات غريبـة مع أنني معنيٌّ بالأفكار أكثر مـن التطبيق.. لاعليكِ من هذه المفارقة..

ـ كلنا لدينا هذه التقاطعات اللامنطقية في توجهاتنا..

ـ وماهي اهتماماتكِ؟؟

ـ حالياً أهتم بتدقيق وطباعة مدونات جد والدي تحقيقاً لرغبته، لا عمل لدي الآن سوى ذلك، أقرأ بعض الكتب، أستمع للموسيقى.. بإختصار هي حياة لاتنطوي على أية جدوى..

ـ وماهي الجدوى بنظرك؟؟ هل لابد من عمل منظور النتائج؟؟ أنت تحققين الآن فائدتين: إسعاد والدك، ومتعتك الشخصية في اكتشاف المدونات...

ـ وهل يكفي هذا؟؟

ـ تعلمتُ من دروس حياتي أن لاأطلب المستحيل، وأتمثلُ دوماً قول الشاعر الأغريقي بندار: **يانفسي لاتتوقي إلى المطلق بل استنفدي كل حيز الممكنات..**

ـ في هذا البلد حتى الممكنات البسيطة أمست في عداد المستحيلات.. ياللمفارقة، سعيت إلى المطلق ففقدت الممكنات كلها..

ـ أنت على حق ؛ فحياتنا هنا ليست حياة إنسانية سوية....

قدّمت منال القهوة التي فاح عبيرها الدافيء العطِر في الغرفة فانتشت نهى بالرائحة الطيبة وتنبهت إلى أنها نسيت عبور الزمن في حديثها المتشعب مع نادر، تناولت قدح القهوة الوردي المزخرف بنتوءات بارزة، قدّمت لها منال طبقاً فيه حبات من البندق المكسوة بالشيكولاتة، تناولت حبة وقضمتها بالتذاذ..

قالت منال:

ـ سعدتُ جداً بلقائك نهى، شكراً للفونوغراف المكسور ؛ إذ لولاه لما إلتقينا..

ـ شكرا منال، أظنكِ سمعت بسفر أخي وليد، وهذا يلقي عليّ مسؤولية مضاعفة للاعتناء بأبي ومساندة أمي..

ـ أجل حدثتني هناء عن زواجه وتبني الطفل وسفره مع عروسه، هذا لايمنع من خروجك أحياناً، لا تعتزلي الدنيا مثل أخي نادر، إنطلقي في الحياة..

ـ أيةُ حياةٍ هنا لأنطلق فيها يامنال؟؟

عقّب نادر: نحن محكومون بما يحيطنا، لسنا أحراراً أبداً، نحن رهائن لظروف فُرِضت علينا، والعزلة ليست الخيار الأمثل ولكنها نوع من درع يحمينا حتى من أنفسنا ـ آلية دفاعية إبتكرها عقلنا للحفاظ على الخزين المتبقي من طاقتنا الحيوية وعدم تبديدها في العبث اليومي اللامجدي. ربّما ستندهشون لو أخبرتكم أن مسألة الحتمية والإرادة الحرّة صارت موضوعاتٍ يتناولها الباحثون الفيزيائيون بعد أن كانت مقصورة في حلقات الفلاسفة الكلاسيكيين...

فكّرت منال وقد أدركت إنفتاح نادر في الحوار مع نهى: لم أرَه هكذا منفتحاً مع أحد منذ زمن بعيد..

ـ أدعكما تتحدثان عن الآلات وأذهب لإتمام حلوى الجوز والعسل والتفاح، ستعجبك نهى..

ـ شكراً منال.. ممتنة لكرمك واحتفائك بي..

كان نادر يرشف ثمالة القهوة في قدحه ويحدق في الفراغ عندما سألته نهى:

ـ أستاذ نادرهل سأثقل عليك بطلبي؟؟ هذه ذراع فونوغراف أديسون يعود الى سنة ١٩٠٢ وكان ملكاً لجدّ والدي، الذراع محطمة وتحتاج إلى تصليح وربط الأبرة بها لتشغيل الجهاز وسماع السليندرات العتيقة الأصلية المكسوة بالقصدير، ونأمل أن نكتشف ماهو مسجل عليها، وجدنا السليندرات الأخرى المكسوّة بالشمع تالفة تماماً ولا أمل فيها..

ـ هل يمكن أن أطرح عليك سؤالاً؟؟

ـ تفضل..

ـ علامَ هذا الإهتمام بماضي أهلك؟؟

ـ وجّهتُ هذا السؤال ذاته إلى أبي أول الأمر، وكنت مدفوعة بفضول كبير لمعرفة مسوّغات اهتمامه بمذكِّرات الجد لكنّي مع العمل على المجلدات إكتشفتُ أهميتها كمرايا عاكسة لأوضاع المجتمع آنذاك وتمتعت بمتابعتها كفلم سينمائي، ومع أنني لست بكاتبة ولا أريد أن أكون، لكنّ أية سيرة أو مذكرات إنما هي طريقة لكشف خفايا لانتوقعها عن الحالات النفسية والعاطفية وتشوقات الناس وأحلامهم وإعادة تركيب شظايا حياتهم المبعثرة...

ـ رغم كل هذا أجد أن تمضية الوقت في تدقيق مدونات عتيقة هو تبديد للحياة..

ـ أظن أن نظرتنا للحياة تختلف في هذه الحالة، حياتنا ليست باليسر الذي نتخيله ؛ فوجود مشروع نعمل عليه ـ مهما كانت أهميته ـ نوع من علاج مهديء أو مسكّن لآلام هذه الحياة وخوائها..

ـ إذن، يمكنني أنا أيضاً أن أدون مذكراتي لأصون ماهو مُتاحٌ لي من حياة مبتورة..

ـ لـمَ لا؟؟ بوسـع أي أنسـان تدوين تجربـة مروره فـي الحياة، لكني شخصياً لن أفعلها ؛ فتجربتي محدودة وتشبه كثيراً من تجارب نساء جيلي، ولاأرى أنها ذات قيمة..

ـ لكل حادث في حياتنا قيمة..

تفحّص نادر ذراع الفونوغراف المكسورة، قلّبها بين يديه، قال:

ـ قـد أحتـاج للبحث عن معدات تسـاعدني على إعـادة الحياة لهذه الذراع..

ـ لاأريد أن أتعبك أستاذ نادر..

ـ بل هذه متعة مضافة لي: الاشتغال على الفونوغراف، لم أكن أتخيل وجود هذا الجهاز لدى أحد من الناس..

ـ يؤسفني أنني سأشغلك كثيراً..

ـ لن تشغليني، بل ستحميني من غواية الباب، أترين هذا الباب؟؟

ـ أجل..

ـ البـاب يناديني، أنصـت لندائه وهو يدعوني لاجتيـازه كلّ صباح ؛ البـاب عتبة أقدارنا، ووراءه تكمن المفاجآت وقد لا يوجد سـوى العدم، وربمـا تنهال عليّ الأسـئلة، وربما أمضي إلى محنة وربمـا يصيبني الهلع وأرى نفسي مقذوفاً إلى مجهول مخيف وأفزع ممّا حلّ بالناس والمدينة، ولكني إكتشفت الآن أن للباب عطايا لم أتحسّب لها..

ـ هل كنت تنتظر شيئاً؟؟

ـ وهل يمكننا العيش دونما انتظارات؟؟ منذ رأيتك واقفة أمام المكتبة تتأملين كتبي أدركت أن شيئاً ما سيتغير في عالمي..

إرتبكت نهى لعبارته المباغتة ؛ فلم يتوقع أحد أن يقال ماقيل اللحظة، إضطربت وفكّرت فيما ستقوله، هل سبر هذا الرجل المستوحد سرّ أنوثتها؟؟ هل أدرك أبعاد ماتفكر فيه وماترنو إليه روحها الحذرة؟؟ وبمَ سترد عليه وقد أحرِجت تماماً؟؟

علت وجهها إبتسامةٌ نضرة أضاءت عينيها وقالت بنبرة أرادتها أن تكون واضحة الصدق:

ـ أيحقٌّ لي أن أفخر بنفسي لهذا؟؟

ـ ستندمين إن لم تفعلي..

باغتتها ثانية عبارته الغامضة: ستندمين إن لم تفعلي، إنها عبارة ملغومة وتتحمل التأويلات المختلفة، على أي شيء ستندم؟؟ أعلى كونها لم تفخر بنفسها حين غيّرت فيه شيئاً؟؟ أم لأنها ستبدّد فرصة التواصل معه؟؟

نظرت إليه، كان مُطرقاً وهو يمسك بذراع الفونوغراف، تأمّلته بحنو خفي: بدا لها أنها تعرفه منذ ألف عام ؛ ففي ملامحه شبه عظيم برجل الرؤيا الذي سحَرَها، لكأنّها تعرف هاتين العينين الأسيانتين وهذا الفم المزموم وهذا الجبين العريض وهذه النظرة الشاردة التي تزيده غموضاً وخَفاءً،.. هي تعرف هاتين اليدين المتوترتين وأصابعهما المرهفة، راقَ لها أنها خمّنت نبرة صوته قبل أن يكلمها وتأكّدت من صدق حدسها، أحسّت اللحظة أنّها تزدهر مثلما شجرة في مقتبل الربيع، وأن ريحاً لامرئية تهزّها وتطوّح بها وتدعها على مفترق طرق وعرة وعليها أن تمضي في

أحدها دون تردد، وتساءلت مرة أخيرة: هل تجسّد لها رجل الرؤيا في هيئة نادر؟؟؟

فكـرَتْ: كم نعقّـدُ حياتنا بأيدينا وندعها تتحـول إلى كوابيس مريعة!! لمـاذا لانقول مباشـرة مايختلج فـي أعماقنا؟؟ علامَ هـذا التواري خلف الأقنعة؟؟ علام لاأعترف له بأنه كان يحتلّ رؤاي؟؟

قال: سـوف أسأل صديقاً لي عن حِرَفيّ نعرفه ليصنع لنا ذراعاً معدنية كهذه..

ـ إذن أظنك ستجتاز عتبة الباب؟؟

ـ نعم، سوف أستسلم لغواية الباب!! ألا تصدقين؟؟

ـ بل أصدق، ولكن منذ متى لم تخرج إلى المدينة؟؟

ـ منذ سنة ٢٠٠٩...

ـ وهل قرّرت اليوم أن تحطم عزلتك؟؟

ـ أجـل، أخـرج مـن عزلتـي الصغيرة إلـى العزلـة الكبـرى: نحن ـ المستوحدين ـ نبقى وحدنا، سواء إندغمنا بالجموع أو إنفردنا بأنفسنا..

ـ وماجدوى الخروج إذن؟؟

لم يقل شـيئاً، إبتسم إبتسـامة لاتكاد تبين وهو يحدّق إلى الأرض وبدا كأنه يتفرس بنقوش السـجادة الدقيقة وألوانها المتداخلة ووبرها الصوفي الناعـم، ولعلّـه كان بصـدد ابتكار نظريةٍ ما يسـتلهم فكرتهـا من النقوش الشرقية التي تزين السجادة، لعله يفكر بالنسبة الذهبية، أو بشكل الماندالا،

أو بالرموز الغامضة لعلاقة الزخارف بالزمن والأمكنة وسحر الرياضيات..

عليها أن تعيد النظر في حكمها الأول عليه حين رأت فيه رجلاً متزمتاً متصلباً، إعترفت لنفسها أنها تهوّرت بإصدار حكم متعجل بناءً على رؤية قاصرة ؛ فالإنسان يجنح دوماً إلى إصدار الأحكام المبتسرة المتسرّعة مدفوعاً بإنطباع الرأي المتكون من النظرة الأولى، ويحاول غالباً أن يدافع عن جنوحه هذا..

رفع نادر رأسه وقال بنبرة هادئة فيها شيء من التردد:

ـ قد أخرج بعد غد..

ـ لماذا لاتنتظرني فنخرج معاً، وتكون قد عرفت أخباراً من صديقك عن ذلك الحِرَفي، ستوصلنا خالتي هناء..

ـ بل اذا خرجنا سنمشي طويلاً، أنا رجل مشّاء، كنت أسير ساعات طويلة، أتشرّد في الشوارع وأتأمل هذا العالم مستسلماً لأفكاري ومستعيداً قراءاتي. ثمّة علاقة أكيدة كما تعلمين بين المشي والتفكير الصائب، كما أن المشي يجدّد طاقات المرء الجسدية والإبداعية، فهل ستتحمّلين أن تسيري معي طويلاً أنا المحروم من السير في شوارع مكتظة بالبشر؟؟ أريد أن أتنفس كل الروائح وأرى كل المشاهد حلوها وقبيحها، أنا أعاني من فقر بصري عتيق، والمشاهد المتاحة لي محدودة جداً ولاأرى سوى جدران بيتي والحديقة مذ قرّرت اعتزال العالم، أغبطكِ لأنك تجوّلتِ وسافرتِ وعدتِ،،، ستأتين لنمشي معاً...

ـ سآتي في الموعد..

ـ ستكونين سندي إذا صعقتني مشاهد مدينتنا أو فوجئتُ بما حدث

لها، في الأقل ستحولين بيني وبين الهلع المَرَضيّ الذي أخشى أن ينتابني بعد كل هذه السنوات من الوحدة..

رأت نهى في كل ماحدث أمراً غرائبياً يسحبها نحو مكان مختلف وزمان آخر غير زمانها، وأيقظ زهوها أن (نادر) وضع ثقته فيها وعليها أن تكون جديرة بهذه الثقة، كان يكبرها بنحو عشر سنوات، هكذا خمّنت، لكنه للحظات كان يبدو أكبر من ذلك، نظرت إليه وهو يتحدّث فأثارت حنوّها هذه الغضون الرقيقة حول عينيه وحول فمه، قالت لنفسها: إنه مثل طفل عنيد، إنه مثل رجل يعاقب الحياة وتعاقبه في دورة لاتنتهي، إنه مثل سجين يتلذذ بسجنه. هل هذا حكم متسرّع؟؟ هل أخطأت ثانية؟؟

طرقت هناء الباب وصاحت: منال، نهى، إفتحوا الباب..

أسرعت منال وفتحت الباب، دخلت هناء تسبقها ضجتها:

ـ مساء الخير نادر، هيا منال هاتِ القهوة بسرعة، تعبت من ألم الأسنان، ماهذا؟ بدأت أشيخ قبل الجميع، أنتم ماتزالون شباباً، لالالا، هذا غبن وظلم، قال الطبيب سأخلع ضرسكِ، هل أصبحت عجوزاً بهذه السرعة؟ إلهي قليلاً من العدالة مع المحرومين أمثالي... قالت منال:

ـ كفاكِ شكوى، ماتزالين فتية حلوة، إهدأي قليلاً، سيعاودك ألم الأسنان، سأحضرُ مع القهوة حلوى الجوز والعسل والتفاح، رائعة جداً، ستعجبك..

ـ لاأستطيع تناول شيء إلا بعد ساعتين..

ذهبت منال وعادت تحمل صينية القهوة وفيها طبق من فطائر التفاح

بالجوز وضعته أمام نهى ونادر وقدّمت لهناء علبة صغيرة من الكارتون...

ـ هذه لك لتتذوقيها في البيت..

قالت هناء: أحسدكَ على هذه الأخت السخية الحنون يانادر..

ردّ نادر: وأنا أغبطكِ على مرحك الجميل ؛ فأينما تكونين تُثيرين حولك جواً من الحماسة والفكاهة مذ عرفتك صديقة لمنال..

ـ الحمد لله، لي مايغبطني عليه الناس، هل وجدت حلاً للمعضلة الفونوغرافية التي شغلت الجميع وكادت أن تصبح معضلة دولية في بيت أختي؟؟

ـ وهل ترين الأمر صعباً على نادر؟؟

ـ إذن، أنا لم أخطِئ في تقديري لك وإخبار نهى عنك..

ـ سنخرج أنا ونهى بعد غد لنحلّ المعضلة..

أزمنة أخرى

عندما أرى روحا باسلة يتملكني إحساس مدهش، أرتبك وأضطرب وأشعر بالجوع والحب معاً، بالجسد والروح معاً، أنا غير معنيّ بالثروات والهدف والخلاص، أهتمّ بحاجتي إلى تأجيج الشرارة: تلك القوة اللاواعية التي تنطلق من أعماقنا........

نيكوس كازانتزاكيس

عـادت نهى إلى البيت مزدهـرة طِلقة المحيا متوهجـة النظرة، عانقت أمها، وذهبت إلى والدها في غرفته وقبّلته..

ـ بابا، سنعيد الحياة للفونوغراف، رحّب الرجل بي ووعدني أن نخرج معاً من أجل هذا..

ـ ألم نثقل عليه بطلبنا وهو المعتزل لعالمنا كما عرفت من هناء؟؟

ـ كان الرجل في غاية الكرم ولم يتوانَ عن المساعدة..

ـ لابد أن أقابله لأشكره بنفسي..

ـ ليس الآن، سـأصحبه إلى بيتنا عندما ننجز المهمة وتشـكره بنفسك، والآن سـأرى إن كانت ماما بحاجة للمساعدة في إعداد العشاء، ثم بعدها أنصرف للعمل. هل تريد شيئاً؟

ـ شكرا نهى، أتمنى أن أراك كل يوم سعيدة كما أنت اليوم...

كان المجلد الكبير الأخير مكرساً في أغلبه لسنوات السلطة العثمانية الأخيرة في

العراق: سنوات متسارعة وتغييرات متلاحقة وحوادث لامتوقعة، أغراها مزاجها المتوهج وفضولها أن تشرع بالعمل لتنجز قدراً معقولاً من تدقيق الصفحات، كانت في حالة من النشوة التي لم تألفها وهي تتفجر طاقة عجيبة، إستعادت حديث نادر وعبارته الغريبة: (**ستندمين إن لم تفعلي**)، كانت العبارة أشبه بشرارة إصطدمت بجسدها الخامد وحرّرته من سباته وأطلقت نيرانه، فكّرَتْ:

ـ أنا سعيدة حدّ أنني اليوم لاأعرفني، لاأعرف نهى..

إستمعت إلى أغنيات وموسيقى مبهجة، رقصت منتشية ونظرت مراراً إلى نفسها في المرايا، كان وجهها مشتعلاً ومن عينيها يومض برق، إندمجت في حلمها المبهج، أدركت أن كيمياءً من الرغبة إنبثقت في جسدها المهمل، غافلتها هذه الكيمياء المتسلطة واستحوذت على الحواس كلها وتكاثفت مادتها في الدم واللحم وتسبّبت في تسارع النبض ونوبات الخفقان، حاولت كبح اشتعالها بالدوران حول نفسها، شربت قدح ماء كأنها تطفيء لهباً إتقد في أعماقها، قالت:

ـ عليّ أن أكافح هذا الأمر قبل أن يتملكني تماماً..

ثمّ أردفت:

ـ لا، لن أعارض هذا الجنون الذي اكتسحني، لايمكن مغالبة الطبيعة المهدورة وهي تستفيق بعد خمود، «**في أعماق الجسد بئر وفي البئر معبد**

وفي المعبد مصباح وعندما يضاء المصباح بالحب يضاء الجسد» ـ هذا ماقالته خالتي الراحلة مديحة. لا، ليس كذلك، الأمر أكبر من مصباح، أشعر أن جسدي صار شمساً مذ نظر إليّ نادر وأكتشف في اللحظة الأولى بأن حياته ستتغير إلى الأبد. كان ثمة أفق مزدهر بالوعود يلوح لها بالهناءات والآمال، إندمجت في حلمها السري أكثر وخلعت شرنقة الخوف وتعرّت أمام طبيعتها المتطلبة التي استيقظت بنظرة من نادر المعتزل..

رأتهما معاً: نهى ونادر، في كوخ صغير وسط بساتين تلفّها زرقة المساء، وثمة نار تتقد في موقد، وهناك قطة صغيرة تسترخي أمام النار، رأت نفسها المرأة التي سكنتها روح القطة البرية، تعلّمت من أمها وجدة أمها في طفولتها أشياء كثيرة عن النهر وكيف بوسع المرء سماع هدير الأعماق المائية، ومن الحقول التي كانوا يخرجون إليها في العطلات عرفت حاجة النبات للحوار فكانت تحدّث الزهور البرية وتنصت لحفيف أوراق الشجر في النسيم، كانوا يوقدون نيراناً للشواء فتعلّمت أن النار تناشد البشر إيقاظ أرواحهم التي سلبها العيش في المدينة إنطلاقتها غير المقيّدة...

إستيقظت روحها على نيران خفية أشعلها حوارها مع نادر: رأته يعانقها، ثمة طعم قبلة خفيفة على الشفتين، قبلة كلمس جناح فراشة مغموس بالعسل، مرّرت لسانها على شفتيها لتحتفظ ذاكرتها بطعم ذلك العسل المُشتهى، في الرؤيا ذاتها إمتدّت مسافة من التوتر بينهما، بين جسدها وجسده، لم تتعرف إلى حميمية العلاقة بين كائن بشري وآخر، تجربة زواجها الفاشلة كانت بين رجل يستولي ويؤذي ويأخذ مايريد وبين إمرأة تُغتَصب، اليوم تشعر بمتعة فردوسية ممتدة وهي تفكر بنادر، فهل ستكون علاقتهما ـ لو إرتبطا ـ متكافئة على الضد من علاقات كثير من النساء والرجال التي تهيمن فيها الذكورة وتخسرالأنوثة وجودها وتستسلم

لزيف الرضا؟ كم شغلتها شؤون الحياة ومعضلاتها عن طبيعتها الأنثوية؟ لطالما شعرت بأنها مخلوق لانفع فيه لشيء، مخلوق لايصلح لغير الكفاح من أجل البقاء كما هي أمها وخالتها هناء ومنال شقيقة نادر وآلاف النساء أمثالهنّ..

سمعت حفيف الرياح، أطلّ قمر من بين غيوم شفافة، إنهمرت عليها أشذاء لم تميز مصدرها، كأنها كانت تصوغ لها هرباً من واقعها، تقترح لها رومانسية المشهد لتشغلها عن انبثاق التشهيات، فتحت نافذة غرفتها، إستمرّت الرياح تعصف في الليل، تساءلت:

ـ هل الحلم بالحب أجمل من الحب؟؟ ها إنني بفضل الحلم أزدهر وحدي، هل يحلم نادر الحلم ذاته؟ وهل عرف سواي من النساء ـ هو المتوحد المنشغل بما لاينشغل به رجال زمنه؟؟

أرادت الليلة أن تحتفظ بهذه الجرعة الهائلة من السعادة فلا تبددها بالنوم، وإذن لابد أن تواصل العمل حتى الصباح وهي مشحونة بهذه الطاقة العظيمة..

قرأت في المجلد ماكتبه الجد صبحي الكتبخاني:

... بلغ عمر ولدي فؤاد عامين وبدأ يتلفظ الأسماء والكلمات على نحو مضحك ويتبعني في تحركاتي داخل القصر والبستان وأنا أعلّمه أسماء الأشجار والنباتات والحشرات التي تطير هنا وهناك والفراشات الملونة: الفراشة المبقعة بالأسود هي فراشة دودة شجرة التين، الفراشة الملونة بالأصفر هي فراشة دودة شجرة المشمش، فراشة دودة الحرير بيضاء طحينية قبيحة لها قرون، حدثته عن العسل وذهبنا إلى حوض الورود لأريه النحل، قطفت له حبات عنب الثعلب من بين الحشائش وهلّل للونها الأحمر، أكلناها معا وضحكنا، وعجبتُ لحالي كيف

تركت كلّ مايربطني بالعالم وأمور السلطنة والجماعات المتناحرة وأهلي وراء أسوار البستان وانصرفت لحياتي الهانئة مع معشوقتي بنفشة وإبني الوحيد، هل تراني هُزِمت؟ هل أتحدث الآن عن هزائم وانتصارات؟؟ أعترف أنني تحرّرت ولم أهزم، تحررت من عالم التنافس والتغالب والجشع، في الأستانة كانت حياتي شيئاً مختلفاً عن علاقات الناس المعقدة ومصالحهم المتعارضة، في بغداد وجدتني شبحاً بين وحوش تتصارع على الثروة والنساء والجاه، حماني ماتعلمته من كتب العلم وكتب العارفين من دخول المعترك الذي أحتقره، واكتفيت بانتشال جوهرتي النفيسة بنفشة من ماضيها التعيس وشفيتها من ذكرياتها البشعة وحررتها من لوثة الإحساس بالإثم التي نغّصت عليها كثيراً من لياليها، كنت رجلا أعزل وسط وحوش تتصارع على مالا يستهوينى، وكانت إمرأة عزلاء وسط وحوش تتناهب صوتها وجسدها وروحها، هكذا إلتقى الأعزلان وامتلكا القوة لإختيار مصيرهما وأقاما مدينة الحب العزلاء في بستان على أطراف بغداد بينما ظلت بغداد مدينة بائسة محرومة من الأمان والجمال والنعمة إذا قارنتُها بالأستانة التي تنصبّ إليها الموارد من بغداد وسواها من أقاليم السلطنة، تعيش بغداد الواهبة على حدود الصراعات مرةً ومرة في أتونها ولاتفيض إليها سوى الكوارث والكوليرا والطوفان وصراعات الأحزاب والولاة وتقع دوماً بأيدي ورثة فاتكين من هنا وهناك، شعرتُ بالراحة لأنني هجرت جماعة الاتحاد والترقي، وتركت كل مايمتّ بالصراعات ورائي، مانفع ذلك لحياتي؟؟

ذات ليلة فاجأتني بنفشة بارتدائها ثوباً من الموسلين الأزرق الشفاف على جسمها اللدن الممتلئ، وكانت تضع على أسفل بطنها سلسلة ذهبية متينة لها قفل ومفتاح وتتدلى من وسطها قطعة ذهبية مثلثة مطعّمة بأنواع الأحجار الكريمة تغطي منفرج الساقين، خلعت الثوب الشفاف وبهرتني بجسدها ذي الجمال الربّاني، لكني كرهت الحلية الذهبية التي كانت تبرق أسفل سُرّتها..

همست لي: ألا تروق لك؟؟

عانقتها وقبّلت جبينهـا وفمها وقلت لها بصوت هادىء: إنزعيها، إنها حلية الجـواري والمحظيات وليست زينـة الزوجات المعشوقات، أنـت لستِ بحاجة لأدوات غواية، يكفيني جمالك وحنانك يا بنفشة..

إرتبكـت وفتحت قفل السلسلة ووضعـت الحلية على السرير، هيّج الموقف حنقـي وغيرتي عليها: تـرى من هو الرجل الذي أهداها هـذه الحلية ورآها على جسدهـا هذا؟؟ أهو الوالي نامق باشا الصغير؟؟ أم ذلك التاجر الذي قدّمها هدية للوالي؟ أحسست بالغيظ يفور في أعماقي، غير أني تماسكت وهمست لها:

– هذا أفضل وأجمل لإمرأة حرة..

دمعت عيناهـا وارتدت ثوب نومها القطني المزين بالمُخرّمات، واتجهت نحو خزانـة الثيـاب وأخرجـت صندوقاً صغيراً مـن خشب مدهون باللـك الصيني الأحمر الرمّاني المزخرف بنقوشـ ذهبية وفتحته أمامي: رأيت أساور وخلاخيل وأقراطاً وسلاسل وخواتم. قالت بحزم:

– أرجـوك أريـدك أن تبيـع كل هـذه الحلي، لايهنـأ لي بال بعـد اليوم وهذه المصوغـات والمجوهرات في بيتنا، خذها إلى الصائغ موشي ؛ فهو خبير بأسعارها وقيمتهـا واحتفـظْ بثمنها لولدنـا فؤاد لعلّـه سيسافر للدراسـة عندما يكبر كما سافرتَ أنت للأستانة ودرست هناك، ثم واصلت القول:

– لن نرسل ولدنا إلى الكُتّاب، سأعلمه اللغة العربية والتركية وأحكي له القصص كمـا كانت أم نعمان تحكي لكم، سأجعله أسعـد الأولاد وسأحميه من الظلم الذي طالني في طفولتي...

بـدأت تعلّمه اللغات التي تعرفها وتغني له بالفارسية والتركية وهو ينصت إليها ويعبـث بجدائـل شعرها ويغفو على ترنيمـات صوتها الشجي فتحملـه إلى سريره وتقبل جبينه وتأتي لتنام إلى جانبي..

كنت أدعهما في القصر وأزور أمي بين حين وآخر لأتفقد أحوال بديعة وألفت اللتين لبثتا دون زواج تحت سلطة أبي وأخويّ نشأت وحكمت وأعود من هناك محملاً بهدايا والدتي الثمينة لزوجتي التي لاتعرفها ولإبني الذي لم ترَه..

إعتدتُ أن أخرج مع بنفشة لنتنزه في البستان، وكانت تضع في قدميها خلخالاً من الذهب إشتريته لها بعد زواجنا، وكانت تصدر منه خشخشات عذبة مع كل خطوة تخطوها ممّا يجعل قلبي ينتفض على إيقاع خشخشات خلخالها بينما تفوح من أعطافها أشذاء البنفسج الذي أشتهرت به وأخذتْ منه إسمها باللفظ الفارسي (بنفشة)، كنا نهبط إلى شاطيء النهر في أمسيات الصيف الندية، وهناك يفرش لنا شاهين الأبسطة والوسائد و يحضّر لنا الشاي في السماور....

ونحن نحتسي الشاي يوماً ونتمع بمنظر الغروب على دجلة، قالت بنفشة:

– لاأحب احتساء الشاي إلا برفقتك ؛ فأنت تجعله يبدو شراباً من أشربة الجنة. لم أحب الشاي يوماً إلا وأنا معك، فبيني وبينه غصة كبيرة. هنا سألتها:

– ترى ما هي هذه الغصة؟؟

صمتت ولم تُجِب..

عجبت كم تمضي الحياة متعجلة وتأخذنا إلى أقدار لم نتحسب لها ونحن نجهد للتحرر ممّا يكبّل أرواحنا من أصفاد الدنيا وأطماعها، ساعدتني روح بنفشة الكريمة الحنون على تنمية روحي وازدهارها، وأعانني حبها على نيل السعادة المشتهاة التي حُرِمتُ منها في بيت أهلي منذ صباي...

كانت ولاية بغداد تتلقى الحوادث المتسارعة بتوجس تارة وبنوع من الإستبشار تارة أخرى ولايعرف أهلها حقيقة ما يجري من صراعات، قرأ لي رأفت في صحيفة (بغداد) التي تصدرها جماعة الاتحاد والترقي أخباراً حول خلع السلطان عبد

الحميـد وتعيين أخيـه السلطان محمـد رشاد مكانـه، خرجت مظاهـرات الإبتهاج منتصرة لمحمود شوكت باشا الذي كان له دور كبير في خلع السلطان عبد الحميد، وهتـف المتظاهرون بحياته كما نقل لي رأفت وبعدها خرجت مظاهرات تندّد بخلع خليفـة المسلمين ونُهِبت المحـلات في الأستانة وبغداد وهجـم الرعاع على دوائر الحكومة التي سيطر عليها الإتحاديون..

فتحت شركة الهند الشرقية فرعاً لها في بغداد، زارني رأفت وأخبرني أن أبي صار يستورد الشـاي والتوابل والأقمشة الهندية عن طريق الشركـة، وأمست البضائع تصلـه بواسطة البواخـر الصغيرة القادمة من البصـرة ؛ فازدهرت تجارته وتراكمت أموالـه وتبعاً لذلك توثقت علاقاته مع الوالي الجديد حسـين ناظم باشا فكان يتبرع لصندوق المال مما أكسبه رضا الوالي والصدر الأعظم محمود شوكت باشا..

كنـت أذهـب إلى عملـي في دائرة المكتوبي التـي يرأسها رأفـت وأقوم بتحرير المراسـلات الصـادرة من الوالي ومجلس إدارة الولاية، وتتبـع دائرة المكتوبي دوائر مهمة معنية بالتعليم والطابو والطرق والمواصلات، وفي تلك الأيام تأسس مشروع الـبرق والبريـد ؛ فكنت معروفاً بتحريـر البرقيات الموجزة التي كانـت تكلفني بها الدوائـر الأخرى، ولم أكن ألتقـي أحداً سوى رأفت وأعود بعـد الظهر عابراً النهر بواسطة قاربي الذي ينتظرني فيه ملّاحي الأخرس...

قـال رأفت: هل سمعت؟ إنهـا علامات الختام والنهايـة، ألم أقل لك لكل شيء نهاية؟ هاهـي السلطة العثمانية التي تقف على حافة الهاوية تقدم الرشاوى للعوائل الثرية وتمنحها إقطاعيات كبيرة من الأراضي الزراعية وقد نال والدك أراضي خصبة واسعة قرب سلمان باك وشـرع بزراعتها، وعمد الوالي إلى إغراء العشائر المتمردة بتوزيـع الأراضـي على زارعيها بسعـر رمزي قدره عشرة قروش لكل دونم شرط أن يزرعـوا الأشجار على حدود أراضيهم ويسجلوا أسماءهم وعوائلهم في دوائر تسجيل النفوس ويقبلوا بقانون التجنيد العام..

– تلـوح في الأفق ملامح صـراع قادم على هذه البلاد، وإلا لـمـا تبرّعت السلطة بألأراضـي الأميريـة مستجديـة دعم الأهالي لهـا في الصراع المتوقـع، فما حاجتهم للتجنيد العام لولا الإستعداد لحرب آتية؟؟

– أخبرتنـي وفيقة أن والـدك ووالدتك سافرا أمسـ إلى منزلكم في الحلة وبقي نشـأت وحكمـت وبديعة وألفت مـع أم نعمان، أخمّن أنه شعـر بخطر يتهدده من جماعة الإتحاد والترقي وهو الذي يقف مع الإئتلافيين..

– أخشى على والدتي من كل هذا الذي يقوم به والدي..

– كانـت حُجّة الوالد أنه ذاهـب أولاً إلى الصويرة لإعـادة الفلاحين و ليساعد في إيجـاد حل لمشكلة جفـاف نهر الحلة وانهيار سدة الهنديـة بعد أن هاجر فلاحو أراضيكـم إلى الصويرة بسبب الجفاف وتركوا الأملاك في عهدة الوكيل جاسم أبو رجب..

– لاأدري أيّ الأمريـن أصدّق: أنـت تعرفه كما أعرفه، لايتحمل خسارة شيء، ومن جهة أخرى أجده متمسكاً بموقفه ضد الإتحاديين الذين هيمنوا على السلطة في الأستانة، وهذا لعمري سيعرّضه لخسارة موقعه كمعتمد في الولاية وبخاصة بعد أن ساءت علاقته مع الوالي ناظم باشا بسبب الضرائب المفروضة على تجارته..

– الحقيقـة التي أعرفهـا أن والدك حاول تهريب أطنان من الحنطة إلى البصرة في وقـت يُحتَمل فيه قيام حرب وحدوث مجاعـات ؛ فأصدر الوالي حظراً على تصدير الحبوب وخروجها من بغداد..

– ربما كان هذا هو سبب الخلاف بينهما...

– أرى أن مغادرته بغداد – مهما كانت الأسباب – أسلم له ؛ فقد وقعت حوادث جسيمـة في بغداد وقام المتظاهرون بحرق الأسواق ونهب المحلات، بعضهم يناصر

الإئتلافيين وبعضهم الآخر يقف مع الإتحاديين، وقد تصدّى لهم العسكر والجندرمة وحبسوا أعداداً كبيرة منهم ومن بينهم الشاعر معروف الرصافي وبعض أعيان بغداد..

جاء شاهين يخبرنا أن الخاتون تنتظرنا على مائدة العشاء، فاعتذر رأفت:

- لابد أن أغادر قبل حلول الظلام لأعبر النهر ؛ فحميد ينتظرني عند مرساة النهر..

مرّ عامان على هذا اللقاء، وتم عزل الوالي حسين ناظم باشا الذي هام عشقاً بفتاة أرمنية حسناء من أسرة ثرية شاهدها في حفل للقنصلية البريطانية وطلبها للزواج فرفضت ولبث يلاحقها عاماً كاملاً حتى شاعت القصة بين الناس وساعدها القنصل الروسي في البصرة والمقيم البريطاني في المحمرة السير بيرسي كوكس على السفر متنكرة إلى باريس، وبعد عزل الوالي سافر بالباخرة إلى البصرة ومن هناك سافر بباخرة تجارية كبيرة إلى الأستانة...

علم أبي أن أخي شوكت كان يرتاد الملاهي ويصاحب الراقصات والمغنيات وأنه أهمل زوجته إبنة عمتي وشقيقة رأفت تماماً وأتخذ له محظية من فرقة الراقصات البلغاريات القادمات من الأستانة وأفرد لها بيتاً وأنفق عليها أموالاً طائلة مما أثار غضب والدي..

بعد إعلان الدستور إفتتح التاجر اليهودي خضوري أبو الذهب ملهى ليلياً، واستقدم مغنيات وراقصات من الأستانة وكريت وحلب وبلغاريا يدربن فتيات بغداديات على الغناء والرقص ومنادمة الرجال، وخصّص جوقاً موسيقياً يعزف كل ليلة في الملهى، تزاحم البغداديون على ارتياد الملاهي فتحولت كثير من المقاهي إلى تياترو ليلي تغني فيه المطربات مع فرق الرقص، ولم يعد ثمة مقهى دون جوق موسيقي وقرّاء مقامات ومغنيات وراقصات..

عمد والدي إلى حرمان نشأت من مشاركته في التجارة ؛ لذا ماعاد نشأت يملك المال للإنفاق على ملذاته وعاد إلى البيت معلناً ندمه وتوبته وركع أمام أبي:

- سامحني يا أبي، نعم أنا إبن عاق وقد خنت الأمانة وسوف أتحمل قصاصك مهما كان قاسياً..

- عُدْ إلى زوجتك وطفليك، لكنك لن تعود شريكاً في العمل كسابق عهدك، سأعطيك مصروف بيتك شهرياً حتى ألمس استقامتك وحسن سلوكك وانصرافك عن معاشرة العاهرات، وعندها فحسب سنتحدث في أمر عودتك للعمل معي ومع عمك إبراهيم في أمور التجارة..

- تبتُ ياوالدي، فأرجو أن تقبل توبتي وتسامحني..

- ستكون أمامك مهلة شهور أرى خلالها ما يثبت صدق نيتك في التوبة عمّا اقترفت، وعندها سأتخذ قراري..

صدرت صحف كثيرة في بغداد، وعرض عليّ رأفت أن أكتب في إحدى الصحف التي تدعو إلى استقلال الولايات العراقية وتعارض الإتحاديين، لم أعتذر لسبب لا أدركه ووعدته أن أفكر في الأمر..

قلت لنفسي: لِمَ لا؟؟

إعترضت بنفشة على موضوع الكتابة للصحف في تلك الأيام المضطربة:

- مالَكَ وهؤلاء ياصبحي؟؟ هم فرقٌ متصارعة من أجل مصالحها كما تعلم، فماذا ستجني من كتابتك عن فلان وفلان؟؟ دعنا لحياتنا الهانئة بعيداً عن المطامع وحروب الحكام: ستكون كبش فداء إن كتبت ماتؤمن به، وستكون منافقاً لو كتبت مايريدون..

- لن أكتب إلا ما أؤمن به..

- لـن تنجح ولـن يسمحوا لك، لمـاذا يدعونـك الآن للعمل معهـم؟؟ يريدون توريطك بأمور لايقومون بها علانية..

- هل ترين الأمرِ كذلك؟؟

- يدعونـك للعمل عندما يحتاجونك، ثـم يجرّدونك من كل شيء ويتقاسمون المناصب، ترى هل تطمع في منصب أو جاه؟؟

- أبداً، أبداً، معاذ الله، حسبي معاشي من وظيفتي..

- لو قلتَ الحقّ ستصبح هدفاً سهلاً لجميع المتناحرين على ولاية بغداد، وستنهال رماح الجميع على صدرك..

- أنت على حق في نظرتك الصائبة ؛ فأنت ترين مالم أتحسّب له..

تناوبتي الأفـكار والظنون بشأن أبي وموقفه مني، ولم أجد سبباً معقولاً واضحاً سـوى مـاكان بيننا من خلاف يخصُّ سياسة الدولة العثمانية، ومـا كنت أبديه من إمتعاض لتعامله الفظ مع أمي وأخواتي ورغبتي في اتخاذ العادات الحديثة في العيش بدلاً من التمسك الصارم بعاداته الغابرة. أيمكن لمثل هذا الأختلافات أن توغر صدر أب علـى إبنـه ليحرمه مـن الميراث في حياته؟ أتـراه علم بزواجي مـن المغنية بنفشة ووضعه هذا الأمر في مأزق أخلاقي لا يحسَدُ عليه بين وجهاء بغداد وبخاصة عائلة الخيامي؟؟ كيف لإبن مستشار الوالي أن يقترن بجارية مغنية؟؟...............

الفصل السابع

الأفــول


https://telegram.me/maktabatbaghdad

غروب وشيك

سافـر رأفت إلى الأستانة مع مرافقي الـوالي حسين ناظم باشا وعاد بعد شهرين وهنـاك أتيحت له فرصة مقابلة الصدر الأعظم حسين حلمي باشا الذي كان رئيساً لجماعة الإتحاد والترقي...

أسّرني رأفـت أن أموراً كثيرة تخصّ ولايات العراق جـرى التفاهم حولها منها كسب ود العوائل الكبيرة بمنح مزيد من الأراضي والمناصب لأبنائها إبتغاء وقوفهم مـع سلطة الدولة العثمانية ضد النفوذ البريطاني المتزايـد والأنشطة السرية والعلنية التـي تقـوم بهـا القنصلية البريطانيـة في بغداد وماتقـوم به فرق البحـث عن النفط وأنشطة شركة الهند الشرقية والصراع بين الألمان والانكليز في ولايات العراق..

– مـا أعرفه يا رأفـت وماسجلته في مذكراتي نقلاً عن صحف الأستانة أن امتياز البحث عن النفط مُنِح لشركة الأناضول المملوكة للبنك الألماني للتنقيب عن المعادن على جانبي سكة حديد بغداد – برلين، لكنها لم تقدم تقريرها المتفق عليه خلال عام فالغت السلطنة الإمتياز، هذا ماقيل ظاهرياً على الأقل..

– وصلـت للصدر الأعظـم تقارير عن أعمال سرية يقوم بهـا البريطانيون بينهم رحالـة ومنقبون عن الآثار مثل المس غرترود بيل وتجار وقناصل وهدفهم هو النفط وحده..

– أيعني هذا أن الصراع قادم لا محالة من أجل النفط؟؟

- ليس من ذلك مهرب متى ما تقاطعت مصالح الدول ومطامعها..

- أكاد أرى شبح الحرب متربصاً وراء الباب..

- المخيف في الأمر أن السلطنة لاتملك تلك القوة التي كنا مخدوعين بها ؛ فهي على وشك الإنهيار والجيش متعدّد الولاءات والولاة ينهبون أموال الناس ويرغمونهم على دفع الأتاوات بحجج مختلفة، والحكومة لاتملك الموارد الكافية للمواجهة ؛ فقد إستنفدت أموال الأقاليم في سدّ تكاليف قصور السلطان العديدة وبهرج الحياة السلطانية وبناء الجوامع الكبيرة والإنفاق على بيوت الحريم ومتعها..

- ونحن ما الذي سينتظرنا؟؟

- من نحن؟؟

- نحن أهل ولاية بغداد، أو نحن كعائلات مقربة من الولاة وأولي الأمر..

- ستثقل كاهلنا الضرائب: أمر الصدر الأعظم بجمع الأموال لمساندة الجيش العثماني من واردات المقاطعات والبساتين والتجارة، والأمر المخيف الثاني الذي لم تعرفه بعد أنه صدر الأمر السلطاني بتعيين جمال باشا والياً على بغداد بديلاً عن حسين ناظم باشا، وجمال باشا من أكبر مناصري الإتحاد والترقي المتعصبين للعنصرالتركي وحده، وعلى هذا فكلّنا مُهدّدون..

- علينا أن نقوم بشيء لا أعرف ماهو حقاً، أتمنى أن نستطيع فعل شيء..

- لدي سر آخر لا أستطيع تحمل كتمانه فهو يرافقني ليل نهار لأنني مسؤول عنه وأريد ان تشاركني مسؤوليته...

- أنا مستعد لتحمل أية مسؤولية معك..

- منذ شهرين تسبّب والدك في زجّ بعض الأبرياء في السجن، إدّعى أنهم سرقوا

بعض تجارته، ولكن الجندرمة لم يجدوا معهم شيئاً وما استطاع الرجال الثلاثة إثبات براءتهم إزاء ثعالب الولاية المرتشين وتواطؤ القاضي، حبسوهم لأن الوالي شاء إظهار اهتمامه بالأمان وإرضاء والدك والحصول على رشوة كبيرة منه. كان هؤلاء الثلاثة البؤساء جياعاً نصف عراة، تمزّق فؤادي حزناً وشفقة عليهم حين رأيتهم وهم يُساقون كالبهائم إلى الحبس..

– وماذا بوسعك أن تفعل وقد حيكت القضية ضدهم؟؟

– قمت خلال الشهرين الماضيين بإرسال الطعام لهؤلاء المساكين في السجن سراً لا لشيء إلآ ليقيني ببراءتهم ؛ فهم غرباء ولم يسأل عنهم أحد، أتوا من الأرياف البعيدة للعمل حمالين في السوق لسد رمقهم، واليوم منعوا حارسي من إيصال الطعام لهم بأمر القاضي. أنا في شك مما حصل، لعل خالي عرف بالأمر ولم يشأ مفاتحتي فأبلغ القاضي..

– وماذا بوسعي أن أفعل؟؟

– لاشيء، ولكن البوح بالسر يخفف عن النفس..

– يالروحك الكريمة، أنت استجبت لنداء ضميرك وتماثل فعلك مع فكرك، أنت أكثرنا جرأة ومبادرة. هل ستفاتح والدي بالأمر؟؟

– لوشئتُ الدفاع عن نزاهتي سأفعل، لكني سأحرجكم جميعاً..

– إهمل الأمر وتجاوزه..

– لابد من ذلك فأوضاع والدك في غاية السوء..

– رأفت، هل تعرف شيئا عن صفقة احتكار أبي لتجارة الشاي؟؟

– أبدا، ماذا يعنيك من الأمر؟؟

- لاشيء، سمعت من بعض الناس عندما كنت في بيت أهلي أنه أهدى جاريته للوالي ضماناً لاحتكاره تجارة الشاي..

- ماسمعت شيئاً من هذا، لكنه أمر محتمل ؛ فالتجارة والسياسة متشابكتان في المصالح، ولكن لماذا تسأل؟ مايعنيك من هذا؟؟

- لاشيء، لاشيء، أردت معرفة أساليب أبي في بلوغ أهدافه وتحقيق مصالحه..................

عاشقان

العِشْقُ (هو) والشَّوْقُ (أنت): إبْتِداءُ العِشْقِ الشَّوْقُ، وانْتِهاءُ الشَّوْقِ العِشْقُ.. فافْهَم ذلك.........

محيي الدين إبن عربي

منـذ أن فوجـيء بها في بيته ـ أمام خزانة كتبه ـ هو الذي كان يحكم بقسـوة التجربة على النساء، شغلت نهى وعي نادر وأحلامه: إمرأة تتوهج في اكتمال الأنوثة وبهاء الشـباب، بهرته حيويتها وعنفوان حضورها وظن أنها لم تختبر مرارات الحياة حين وجدها مهمومة على نحو بطِر بمذكرات أسـلافها، وهو رجل يحيـا لزمن قادم غير زمانه، ويحلـم بزمن يتجول فيه الإنسان كما يتجول في المكان، ويعرف ـ من غير أن يجزم ـ بأن الزمن يحيط بكل شـيء ولاشـيء يحيط بالزمن. خيّل إليه أن هـذه المرأة التي إقتحمت عزلته بمحض مصادفة غريبة ستلبث في زمنه وتطيل المكوث فيه ؛ فوجودها يماثل الموسيقى، والموسيقى فعل فيزيائي داخل البرهة الزمنية يتلبث في الذاكرة، كذلك أنوثة هذه المرأة سـتبقى في أوج ازدهارها ولن تتهـاوى فتنتها أمام الزمن، لم تكن ذات حسـن باهـر وإنما كانت جميلة علـى وفق معايير خاصة به أيقظت روحه ورغباته وجعلته يزدهر في لحظة خارقة، هذا ما يتمنى أن يعمل عليه مستقبلاً في معمل أحلامه المستقبلية:

تثبيت لحظة الإزدهـار والنضج والإحتفاظ بها حتى النهاية دونما انحدار نحو هاوية الذبول المحتوم والتحلل النهائي، تماماً مثلما تفعل الموسيقى في سعيها لتخليد الزمن...

بعد يومين أعقبا لقاءهما الأول وصلت نهى متعجلة لتصحبه في جولة إتفقـا عليها مسـبقاً، رحّب بهـا مرتبكا،، تمتم بضع كلمات مهموسـة لم تسمعها، ثم قال:

ـ لـن أخـرج عزيزتي نهـى، يتعذر علي مغـادرة عزلتي بعـد كل هذه السـنوات، أعطيت ذراع الفونوغراف مع رسـم توضيحي للذراع الأصلي لأحد أصدقائي المقربين وتعهد أن ينجز تصليحه بأسرع وقت، أنا مشتبك بالمـكان مثل شـجرة عتيقة تمد جذورهـا إلى أبعد الأعماق، لاأسـتطيع فكاكاً من ارتباطي بتربتي، فمعذرة لأنني خيبت أملك بالخروج ووعدتك أن نمشـي طويلاً في بغداد، وكنت تواقاً لذلك فعلاً وهيأت نفسي لإعادة اكتشـاف مدينتنـا معك حتى أنني رسـمت خارطة لمسـيرتنا تبدأ من هنا وتمضـي في شـارع القناة ثـم تتجه إلى سـاحة الطيران وتمـر في الباب الشـرقي وتمضي إلى شـارع الرشـيد لتنتهي فـي البـاب المعظم، لكنني عجزت عن إقناع نفسـي بفكرة الخروج، الأمر بحاجة إلى وقت ومازلت غير مستعدّ لذلك...

ـ تأكـدت الآن أنك تؤمن بالعلم النظـري ولاتعمد إلى التطبيق، قلتَ أنك مشّاءٌ كبير، ولكنك الآن تعتذر عن ممارسة المشي، ماجدوى النظريات دون تطبيقات محددة تخدم البشـرية؟؟ أنت تهاب الخروج لأنه يستدعي إرتقـاء بصيرتنا وقوانا إلى حد المشـاركة مع العالـم الخارجي، وأنت في أعماقك ترفض هذا، ترفض الخوض في المشاركة وليس المشي وحده..

ـ إعتبـري موقفي هزيمة أمام وعدٍ لـم أنجزه وهذا حق، بعض الهزائم ـ كما قال الكاتب ميشـيل دي مونتيـن ـ أعظم مجداً من الإنتصارات ؛ ففي اتسـاع الأمكنة وبين الحشود قد لا أستطيع الإلمام بك وبحضورك، وأعـرف أن ذلك سـيحصل، ولاتجدي معه المحاولة وأعلم بأني سـأهزَمُ بسـيولة المـكان وضجة الحشـد، هنا أملـك الحاضر والمـكان وتكونين بكاملك فيه فأنتصر بك ومعك...

ـ أنـت تـرى الخارج عدائياً ولهـذا اعتزلته، ولكن متـى كان الخارج متوافقاً معنا؟؟ المسـألة أنك لاتريـد المجازفة بالوقت في مكان غير آمن ولامضمـون وأعلمُ أنّ مَنْ يريد أن يغير شـيئاً عليه أن يغامر قليلاً ويجازف وإلا تخطته الحوادث...

ـ نعـم، لاأريد لهذا الوقت الثمين الـذي يجمعنا أن يفلت، هنا نعيش اللحظة ونتحكم بها، أما في الخارج فتتحكَم بنا الأمكنة والآخرون...

ـ أعدُكَ أنّ هذا الوقت الثمين لن يفلت ولن يتبدد بل سيتمدد، هكذا نمسك بالأبد، نتشبّث به بأيدينا دون عون من آلة مصنعة أو علم عتيد..

ـ لا تنسـيْ أن العلم (ميزة جميلة وأداة عظيمة النفع) كما قال مونتين، ماعلينـا، تعالـي الآن إلى معملي الصغير أو على وجـه الدقة إلى مختبري المتواضع لنتحدّث وأريك شيئاً..

نـادى أخته منـال وهما يرتقيان السـلّم إلى غرفة المعمـل في الطابق الثاني:

ـ منال لو تتفضلين علينا بتهيئة الشـاي، سـأكون ممتناً، نحن في غرفة المعمل...

بدت الغرفة المضاءة بشـمس العصر منظّمة بدقة محسـوبة: كلّ شـيء فـي مكانه المحدد، الآلات الغريبة الصغيـرة مصنفة ببطاقات وعلامات، المعـدات موضوعة على الجدار بنظام صارم، المنضدة مرتبة وعليها كتب المصـادر، وثمـة أريكة مريحة تواجـه النافذة والسـماء وبجانبها نبتة ظل وارفة كثيفة الأغصان تخفف من جفاف جو المعمل ويواجه الأريكة مقعد وثير تحت النافذة..

ـ أرجوك إجلسي هنا لتواجهي الضوء فأسعد برؤية وجهك، هل تعلمين أن أغلب الاكتشافات العظيمة التي ننعم بها الآن قام بها فيزيائيون نظريون ولم يتوقعوا أن تجد أفكارهم ونظرياتهم مجالاً للتطبيق، لكنه سحر العلم، العلم مفهوم سحري حقاً: أن تعمل دون توقع ماالذي يخبئه لك المستقبل لآنك لحظتها تكون عابراً لحاجز الزمان..

ـ أعود فأتسـاءل: علام تشـبُّثك بالمكان إلى حد الإنفصال التام عمّا هو خارجك؟؟

ـ لعـل الأمـر يعود إلى عامل نفسـي معين ؛ فالخـارج ملغوم ومروّع، والمكان الداخلي محميٌّ في الأقل بجدران وأناس نعرفهم ولايسـببون لنا الأذى..

ـ لكنـك كما حدثتني في لقائنا الأول معنيٌّ كثيراً بمشـكلات عالمنا، فكيف نوائم بين الأمرين؟؟

ـ إهتمامـي بإيجاد حلول لمعضلات علمية تخدم الانسـان لايتناقض مع عزلتي، حقاً أنا مهموم بمشـكلات عالمنا الراهنة: الإنفجار السكاني، نقص الغذاء، محدودية مصادر المياه الصالحة للشرب، التصحّر، الإحتباس الحراري، معضلة الطاقة ومايتنتج عنها من تلوث بيئي..

ـ ثمة معضلات أكثر مساساً بحياتنا اليومية هنا في هذا الزمان والمكان، فلماذا نذهب بعيداً إلى المعضلات الكبرى؟؟

ـ أنا أؤمن بماقاله الشاعرغوته: **(لا تحلموا أحلاماً صغيرة إذ ليس لها تلك القوة التي تحرّك بها قلوب الناس)**....

ـ الأحلام الكبيرة سيف ذو حدين: إذا خسرناها تكسرنا وإذا ربحناها تعلو بنا..

ـ تماماً، ومع ذلك لدي إحتياطي من أحلام صغيرة ؛ فأنا أجري تجارب علمية على مشكلة الطاقة التي نعاني منها كل ساعة..

ساد صمت طويل بينهما، واستغرق كلٌّ منهما في أفكاره، سألته نهى:

ـ مابك، نادر؟؟

إقترب نادر منها حيث تجلس على الأريكة وأمسك يدها وتأمل أظفارها المنمقة وتلمس أصابعها النحيلة، وتعثرت أصابعه بخاتم صغير من الفضة له حجر زمردي أخضر، قال لها:

ـ جميل هذا الخاتم الذي يزيّن إصبعك، ماهذا الحجر الذي يشعّ بموجة ضوئية خضراء؟

ـ الزمرّد، وجدته في دكان صيني يوم كنت في فرنسا، قالت لي المرأة الصينية أن إشعاع الزمرد يحقق التناغم الروحاني، وأغوتنا أنا وصديقتي بحديث متشعّب عن إشعاع كل حجر كريم وتأثيره اللوني في النفس والفكر ؛ فاشترينا من أحجارها الجميلة. ألستَ ملماً بالأحجار؟؟

ـ لست جيولوجياً ولست صينياً كما ترين، ولاأعرف شيئاً عن الموجات الإشعاعية للأحجار..

ـ لكنـك فيزيائـي بارع تثير فضولـي بحديثـك. أودّ أن أعرف ماهي جهودك التطبيقية فعلاً لإيجاد حلول عملية لمشـكلات الحياة اليومية؟؟ أعني حياتنا هنا..

ـ أمضـي وقتـاً طويلاً في البحث عـن إمكانية الحصـول على مصدر متجـدد للطاقة النظيفة بوسـيلة الإندماج النووي البـارد، وقد تمكنت من إستخدام النبضة الليزرية فائقة الطاقة للحصول على اندماج نووي بارد قد يكون قاعدة للبحوث المستقبلية في ميدان الطاقة النظيفة..

ـ حاذر أن يسمعك أحدهم، فيفهم أنك تجري تجارب نووية..

ـ تجـارب نوويـة في معمل فقيـر؟ ياللجنون!! ليتنـي أعمل فعلاً في مؤسسة علمية حقيقية. لحظة، سأريك شيئاً..

نهض وأحضر جهازاً صغيراً من فوق المنضدة:

ـ أنظري هذا هو جهاز النبضة الليزرية الفائقة التردّد..

تفحّصت نهى الجهاز الصغير ونظرت إليه وابتسمت بحنان:

ـ أنـت أفنيـت عمرك وأجهدت فكرك في مسـألة لايمكن تطبيقها أو تصنيعها في بلد مثل بلدنا..

ـ أنا أرنو لما سيأتي: قد يأتي شاب من جيل جديد ويعمل على وضع فكرتي موضع التطبيق، ليس ذلك بالأمر المستبعد..

ـ أفضّـل أن تبتكر لنا ماييسّـر حياتنا اليومية فـي يومنا هذا، لاصبرَ لي على ماسيحدث في المستقبل..

ـ هذا جهاز النبضة الليزرية فائقة التردّد، ضعي عدسته موجّهة نحوك ثم أنظري ماذا ترين في الهواء أمامك؟؟

ـ ماهذا؟؟ صورتي مجسمة؟؟ أووه، شيء رائع..

ـ صورة فراغية ثلاثية الأبعاد (هولوغرام Hologram) مجسّمة في الهواء، وهذه الفكرة ستخدمنا في التشخيصات الطبية الصعبة، إنها الصورة الفراغية..

ـ نادر، أنت حالم كبير، العراق بيئة طاردة للعلم والإبتكار. من سيهتمُّ باختراعك هذا؟؟

ـ أؤمن أننا بالحب نستطيع إنجاز الكثير، الحب قوة دافعة عظيمة. أتؤمنين بما أفعل؟؟

ـ أؤمن تماماً..

ـ حتى الآن حسبي إيمانك بي..

ـ نحن إزاء الهوس العنفي الذي يسود بلادنا، وكل فئة تريد إثبات امتلاكها للحقيقة المطلقة حول صراعات تأريخية مضت عليها قرون وقرون، لايسعنا أن ننغمس في رؤى مستقبلية تخدم على المديات البعيدة، الطوائف تتناحر والأعراق في مأزق، السياسات تعمل على إبادة من يختلف معها، والناس منشغلون بتدبير أدنى متطلبات العيش البدائية..

ـ لو إمتلك هؤلاء قدرة ولو يسيرة على الحب لما حدث الذي يحدث في زمننا المروع. أنا أراهن على قوة الحبّ الخلاقة..

وصلت منال وقدّمت لهما الشاي مع كيك تفوح رائحتها الشهية العطرة، قالت:

ـ هل توصّلتما إلى نتيجة من نقاشكما هذا؟؟

ردّ نادر:

ـ نعم، الحب هو القوة الدافعة لكل إنجاز بشري والكراهية تنطوي على بذرة الفناء

ـ خير نتيجة وأجمل خاتمة..

تضحك نهى، تحمل قدح الشاي وترشف منه رشفات بطيئة..

ـ شاي منعش، شكراً منال..

ـ تذوّقي كيكة التوابل، صنعتها اليوم من أجلك، غشّشتني خالتك هناء، قالت أنك تحبين كيكة التوابل..

ـ خالتي هناء لاتؤتَمَنُ على أمر...

ـ إتّصلت بي قبل قليل وقالت ستحضر بعد ساعة..

قال نادر: آه، هذا ماكنت أخشاه، هناء رغم فضلها الكبير تمثل لي الآن سلطة الخارج المتحكّم بنا...

نهض وفتح النافذة ونظر إلى الحديقة وبدا نافد الصبر، ثم عاد وجلس قرب نهى ومنال، إحتسى شايه بهدوء والتزم الصمت. حملت منال صينية الشاي وغادرت الغرفة..

إلتفت نادر إلى نهى:

ـ نهى أنت مدينة لي بالحديث عن نفسك، أنت تعرفين الكثيرعني من هناء ومن حديثي الطويل الذي خشيت أن يكون مضجراً لك..

ـ أمامنا الزمن كله، سنلتقي وسأصحبك لرؤية والدي كما طلب مني. ترى هل ستعتذرعن ذلك حين تتمُّ تصليح ذراع الفونوغراف؟؟

ـ أعدكِ، لن أتراجع، سأفعلها وسأكون سعيداً بلقاء والدك..

ـ ومتى تحدّثينني عن نهى؟؟

ـ ماالذي تود معرفته؟؟

ـ كلُّ ما لايعرفه الآخرون...

ـ تعرّضتُ لمحاولة اختطاف وهاجرت وعملت مدرسة للغة العربية في مدرسة اللغات الدولية في غرينوبل، تزوّجتُ زواجاً تراجيدياً لم يدُمْ أكثر من شهر وانفصلت، وعدت لرؤية أبي المريض وتدقيق مذكّرات جدّ والدي وتوالت الحوادث هنا وها أنت تراني أمامك..

ـ لقد أختصرتِ كل شيء بهذه الكلمات، ما أردت هذا، ماذا عن روحكِ أنت؟؟ ـ أنا متصالحة مع نفسي، لاأمارس الندم، أقرّ بحماقاتي وأعيش فترة نقاهة من تجربة الهجرة والزواج البائس، مازلت قادرة على الحلم لكنني أحسُّ برعب مما يجري حولنا: أرى كوابيس غريبة، وعلى عكس النساء لاأعيش في الماضي، ورغم حماقاتي الكثيرة أرنو إلى الحاضر والغد...

ـ مامِنْ أحد دونما حماقات، نحن صنيعة كل حماقاتنا وتجاربنا وسقطاتنا وهَوَسِنا وبدون ذلك لانكون سوى ظلال واهية. أتعلمين نهى؟؟

ـ ماذا؟

ـ أنت نجحتِ في تحفيزي لإستعادة توازني الروحي..

ضحكت نهى: قد يكون هذا بفعل الزمرّد، من يدري؟؟

- بل بفعل شـــيء آخــر تماماً، لا الزمرد بقادر علــى اجتراحه ولاجهاز الليزر ذي النبضات الفائقة الطاقة ولاالنظريات العلمية كلها..

نادت منال: وصلت هناء..

ضحكت نهى: سنكمل حديثنا في يوم آخر..

- متى؟؟

- أتظنني أستســلم بسهولة؟ ســتقتنع ونخرج معاً مهما حاولتَ التنصّل من وعدك. سأنجح في إخراجك من عُزلتك..

- يدهشني إصرارك، لكني غير واثق ممّا سأقدِم عليه..

الخوف

... إن كنت أتكلم جميع لغات البشر ولاأجيد المحبة فإني أشبه جرساً مزعجاً أو صنجاً منفّراً، وإن كنت عارفاً بجميع الأسرار ولي قدرة التنبؤ ولايخفى عني أمر، وبي من الإيمان مايزلزل الجبال ولم تعمّر قلبي المحبة فلستُ بإنسان، لاشيء يجعلني إنساناً ذا قيمة مالم أمتلك هذه النعَم الثلاث: الإيمان والرجاء والمحبة، وأعظمها وأجلّها ـ لو تعلم ـ هي المحبة........

تتساءل نهى: هل حقا نعرف مانريد؟؟ أم أننا جميعا غارقون في حلم ضبابي إبتغاء خلاصٍ من خرابٍ يأكل أيامنا حتى نسينا مايريد الإنسان فينا؟؟ ماذا تتشهى روحي؟؟ مالذي يتشّهّاه نادر؟؟ الأمان؟؟ أم الحب؟؟ الحب لايسعه العيش في المغلقات مثل نبات الظل، عليه أن يغامر ويخرج للشمس والهواء ويعرّض نفسه لخطر المجازفة، الحبّ يذوي بين الجدران ويتلاشى تحت ضغط المخاوف..

لاأحد يبوح بما يختلج في روحه، ثمة أشياء كثيرة لكنها لا تتاح لهما إنما بوسعهما إجتناءها ببعض جرأة، حياتهما عثرات متعاقبة ورغبات مقتولة وهما مثل طفلين عاجزين يلتحفان بالخوف، يرجئان أشواق القلب وتشوقات الجسد، فكيف سينمو الحب بين جدران الخوف؟؟

فكّرت نهى: نحن في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين وأحوال البلاد تمضي نحو المجهول ولا أحد يضمن يومه القادم، فعلامَ انتظارنا؟؟ لاوقت لدينا للإنتحاب وندب حظوظنا وزمننا، قل إقتربي، وسأقول لك: هيا إلى الحياة..

نادر يحلّق في فضاء أحلامه الكبيرة المستحيلة ومشاريعه التي يخطّط لها ويدعها للزمن، والحب يتربّص بهما في النظرة ونبرة الصوت والكلمات المهموسة ورشفة الشاي والآهة الحبيسة، الحبُّ يستدعي الجسارة والحلم معاً، ستساعده على كسر القوقعة الصلبة التي يختبئ في تلافيفها، ستمنحه ثقتها وتعوّضه عن فقدان ثقته بالعالم الذي خذله، ستسنده ليواجه المدينة وأناسها والنهارات المضطربة والشوارع التي يجتاحها المسلحون على حين غفلة، ستقوده بحنانها إلى عالمها المتفتح على المخاطر ومباهج الطبيعة وحنان الأنوثة، تحدثه عن كل ماتعلمته من تجاربها، عن الرياح التي تجعل السماء تعانق الجدران والأبواب بذراعين من نور، عن الزهور التي تتفتح ليلاً وتنغلق نهاراً، عن الأعشاب العطرة التي بدأت بزراعتها في الحديقة إحياءً لتقليدٍ أوجدته جدة أمها، عن الزواحف التي تراها في كوابيسها، عن أحلامها الصغيرة، ستفكّك عقدته وعقدتها، تعترف له بالأذى الذي تسبّب به الزوج الفاسق، سيعترف لها بمخاوفه ورغباته، بالأيام التي عمل فيها واصطدم بفساد العالم واختلال الناس، سيتّحد الجسدان والروحان في عناق سرمدي، كلاهما محكومان بمخاوف جمّة في مدينة تستولد الخوف من الهواء والغيم والكلمات والنظرات والروائح، ستأخذ بيده وتنتشله بالحب من وساوسه وهلعه و بالحب ستشفيه من حيرة القلب وتوجّسات العقل، ستمنحه حباً لايُسمّى ولايُقال ولايوصف ولا يمكن لمسه لأنه منسوج من النور وخفقة الدم والأنفاس وألوان الشفق

ورحيـق الفجر، حبّها له حالة مشـتبكة مع الخوف والرغبة، سـتكون مثل ذلك الجد الذي حطّم أصفاد التقاليد في زمن صعب فعشق إمرأة مرفوضة مـن مجتمعه وجعلها سـيدة حياته، سـتحطّم أغلال خوفهـا وخوف نادر، ستفعل، ستفعل...

فكّـرت أن تكاتبه لكونها خبِرت الحياة خـارج القواقع كلها: تمرّدت وعاشت تجاربها وحدها، تكتب له رسالة تستولد الجسارة وتوقظ تشهّيات الحـب، سـتكتب له الليلة ؛ فقـد لاتجرؤ ولا يجرؤ هـو الآخر على البوح بشـغفه وتشـهّياته، لمَ لاتبادر؟؟ فلتبادر هي وليكن الرجل متلقياً وتلميذاً فـي تجربة الحـب، فلتقل له مالم يسـمعه بكلمات بسـيطة، نضرة وطرية كالورد المتفتح تحت ألق شـمس الصباح، سـتأخذ بيده إلى وليمة الحب المكرسـة بألفٍ من أصناف الجمال والموسيقى والمذاقات والألوان، إن لم يكن في بغداد فليذهبا بعيداً، بعيداً جداً، وليغيّرا إهابهما وحياتهما كما تغير الأفعى جلدها وتبرز لحمها للنور، سـيكون حضورها معه أشـبه بلهب مقدس يحرق كل شـيء ليتجاوز كل شـيء، ستعلّمه كيف يحطم أصفاده، سـتكون له العاشـقة والمعشـوقة ـ الأم الأولى والشـافية الأزلية، ستعلمه ألفباء العشـق ويرتقيان معاً في مدارج الهوى، سـتكتب له لتحطّم شـبكة الصمت الفولاذية التي حُبسا بين أسلاكها الشائكة...

قالت لها أمّها وهما تتناولان العشاء معاً:

ـ كيف كان اللقاء مع الأستاذ نادر؟؟

ـ وماذا تتوقعين؟؟

ـ أجدك فرحة متألقة وتأكلين بشهية غريبة..

ـ حقـاً إنّي لكذلك لسـبب بسـيط: وجدت من أتحـاور معه، خرجت من عزلتي وصمتي، تعلمين أنني منذ عدت لبغداد وأنا حبيسـة غرفتي مع مجلدات الجد، أرسـلني أبي لزمن غادره الناس وحبسـني فيه وارتضيت ذلـك مـن أجله. هـل تصدّقين أنني كدت أنسـى من أكون طيلة الشـهور الماضية؟؟

ـ وهل أعادك الحديث مع نادر إلى نفسك؟؟

ـ بـدأت أفكـر بمـا أنا عليه وبما يجـب أن أكون عليه لأغدو إنسـانة مكتملة..

ـ أنا قلقة بشأنك..

ـ لاتقلقي، لن يحدث لي أسوأ مما حدث، شكراً أمّي على هذه الوجبة الشـهية: صينية الباذنجان والرز وسـلاطة الخس وحلاوة الجزر، سأباشـر العمل الآن في المجلدات وسنشرب الشاي معاً بعد ساعتين...

إنحراف التأريخ

التأريخ حصيلة كبرى لأعمال الإنحراف والجنون بما في ذلك من حروب واضطهاد وتعذيب وعسف غاشم...

أرنستو ساباتو

فتحت نهى المُجلد ذا الغلاف الأزرق، وقرأت:

إنتشرت الأخبار في الصحف التركية والبغدادية عن فضائح الوالي مع نساء بغداديات ورقصه مع زوجة القنصل البريطاني في الحفلات االتي تقيمها القنصلية البريطانية مما كان مستغرباً ومستهجناً في بغداد: مجون ذكوري ومحظيات يتحكّمن بإدارة بعض أمور الولاية، تجار وضباط أتراك ذوو أطوار شاذة يقتنون الجواري والغلمان، وثمة في بعض الصحف إشارات إلى رجال من أسر ثرية مرموقة يخوضون في فضائح لاتخطر على بال، ما أدراني؟؟ ربما كان والدي واحداً منهم؟؟

عملتْ في الملاهي خادمات مستعبدات وفتيات باعهن نخّاسون إلى أصحاب التياترو، مجتمع يتفتح من جهة على العلم والتعليم والاستنارة ويتهاوى من جانب آخر، نهاية حقبة مديدة من تزمست الهيمنة العثمانية وتجارة الرقيق المصاحبة لدنيا المتع المطلوبة في حريم الولاة والسلاطين..

إرتبكت أحوالنا واضطربت بغداد باضطراب الدولة العثمانية واستولى

الائتلافيون على السلطة واغتيل محمود شوكت باشا الصدر الأعظم فظنّ الناس أنّ الائتلافيين قد هُزِموا...

أسمع من رأفت أن أبي حاول السفر إلى الأستانة لكن الوالي جمال باشا حال دون ذلك. فُجِعتُ بمرض أخي الأصغر حكمت مرضاً لا يرجى معه شفاء فأرسله والدي إلى الأستانة للعلاج صحبة إبن عمتي كمال شقيق رأفت، وبعد شهور من علاج لم ينفع مالبث حكمت أن توفي هناك وعاد كمال وحيداً من مهمة مروعة.

زرت والدتي المفجوعة بولدها وانتحبنا وبكيت على صدرها، فأخبرتني أن والدي أحضر إبنه الذي لانعرفه ولانعرف أمه من المحمودية وطلب إليها أن ترعاه كأولادها لعله يشغلها عن فاجعة فقدان حكمت وتجرأت رغم رهبتها من والدي في لحظة زايلها فيها الخوف أن تفصح عمّا يساورها من شك وحيف وقالت له:

– ألا نعرف من هي أمه؟ من حقك أن تتزوج ومن حقك أن تعدل بين زوجاتك ولكن ليس من حقك أن تحرم الولد من أمه، لماذا بعد كل هذه السنوات وقد بلغ عمر الفتى عشر سنوات تنتزعه من أحضان أمه؟؟

– هذا ليس من شأنك يا أم صبحي..

– كيف يطاوعك قلبك أن تحرم أماً من إبنها؟؟

– أمه ماتت حين ولادته..

– وأين كان طوال هذه السنوات؟؟

– عند مربية من معارفنا..

– سبحان الله، ولماذا لم تحضره إلينا لنعتني به مع أولادنا؟ أليس إبنك؟؟

– أتحاكمينني يا أم صبحي؟؟

- لاأحاكمك بل أنتصف للولد اليتيم..

- أنت أمه وأنا أبوه، وهو ليس بيتيم..

- هذا الولد اليتيم، من يكون؟؟

لم يردّ على تساؤلها الأخير.....

تقلّب نهى أوراق المجلد فتكتشف أن أوراقاً كثيرة جرى اقتطاعها، ثمة ثغرات تخفي أجزاء من المدونات، الأحداث كانت تتوالى بسرعة في المجلد الأخير وبدا صبحي مُربَكاً بين هذه الحوادث وغرابة ما أحاق بالأسرة من ملابسات...

... تكتب الجرائد في تشرين الأول عام ١٩١٤، عن نشوب الحرب العالمية الأولى وانضمام الدولة العثمانية إلى ألمانيا، إنها الحرب العظمى والخوف يعمُّ جميع البلاد، البرقيات تردنا من ولاية البصرة:

(احتلت القوات البريطانية القادمة من بومباي منطقة الفاو جنوب البصرة بقيادة الجنرال باريت واشتبكت مع الجيش العثماني، والمعارك مستمرة..)

البرقيات اللاحقة أشارت إلى أن ثمة أمل (بطرد البريطانيين ؛ فقد نشطت حركة مقاومة في منطقة الشعيبة....)،، (إشتدت المعارك بين الجيش العثماني والإنكليز وحُسم الموقف بهزيمة الجيش العثماني وانتحار االقائد سليمان عسكري بك الذي دُفِن في خيمته)...

لاأدري أين يمضي بنا الزمان، نحن ضالّون في متاهاته، ذاهلون لأننا لانملك قوة تحمل أحلامنا إلى الغد، مَنْ نحن؟ بأي شيء ندافع عن حياتنا؟؟ الدم المسفوح يغرق كل شيء،من يعرف كم من الضحايا إلتهمت هذه الحرب؟؟ كلٌّ ماحولنا يعادينا

ويمتص رحيق أرواحنا، وأنا أتساءل: هل المحبة درب خلاصنا مما نحن فيه؟؟

أعـترف أنني لست مصاباً بجنـون البطولة التـي يسجلها التاريـخ ويفخر بها الأحفاد، بطولتي الوحيدة هي رفضي للظلم ونجاتي بنفسي من أغلال أبي، وجدت في الكتب والحبّ حقيقتي وراحة روحي، بينما لم يجد أبي لنفسه أية دروب للنجاة ؛ فهـو متورط في عشق المناصـب والمال والجاه والنساء، كان يـردد: المال والبنون زينـة الحياة الدنيا، ويغفل أمر النساء جالبات الأبنـاء، ربّما سيظهر لنا إخوة آخرون مـن جواريه ومحظياته السرّيات، سمعت أنـه كان مرتبكاً جداً في الأيام الأخيرة بعد أن تملّكـت عقله شهوات الجشع التي لاترتوي فانتـزع أراضي وخيولاً من فلاحين كان يقرضهـم الأمـوال، واستولى على عقارات المعدومين ممـن أدينوا في صراعات الإتحاديـين والإئتلافيين، ذهب قبل عام إلى الحج وكان يصوم رمضان ويدفع الزكاة للفقـراء ويراقب كل من في البيـت ليؤدوا الفرائض كلها علانيـة، ويواصل حياته السرية بين محظيّاته في قصر كبير نجهل مكانه كما تناهى إلينا من بعض معارفنا..

حمـدت الله انني لم أرث شهوات أبي وظلمـه وجشعه الذي انحـدر إلى أخي نشأت شبيهه ولجأت إلى الحب وحده وهو ما لا أشك فيه، لكن الحبّ لم يكن قادراً لينجينا مما يجري حولنا..

أذهـب إلى عملـي كل صباح في الـزورق ومن هناك أتوجـه إلى مقر الولاية في القشلـة، الحوادث تتـوالى وتضاعف مخاوفنـا، ترى أين نذهـب؟؟ الحرائق تمتد هنا وهنـاك في المعسكرات ومخـازن الأسلحة، الأفـق يشتعل وبغداد مهـددة بالقحط والمجاعـة، بـدأت سلطة الولاية بتحشيـد جيوش مرتجلة مـن آلاف الشباب الذين أختطفـوا بالإكـراه من بيوتهـم أو مزارعهم وأرسلـوا إلى منطقـة القفقاس لإسناد الجيشـ العثمـاني في حربه ضد روسيا، وهنـاك دفنت الثلـوج الآلاف من المقاتلين الجياع بينما تكفلت القوات الروسية بقتل من تبقى منهم...

دعـاني رأفـت في أحد الأيام لتنـاول الغداء معه ولرؤية أختـي وفيقة التي تتوق للقائي، إبنهما عيسى بلغ الخامسة من عمره وهو قرين إبني فؤاد، أعود مساء فأجد بنفشة وصغيري يمرحان وهما يسجّلان كلامهما بواسطة الفونوغراف ويستغرقان في الضحك و يعيدان سماع صوتيهما، أعانقهما وأقول لبنفشة:

– هـذا أمر يسعدني: أن تتعلمي تسجيل الصوت على الفونوغراف أنت وفؤاد، إحكي قصتك و قصتنا ليسمعها فؤاد عندما يكبر..

قبيـل المساء صحبتُها لنتنزه في البستـان، سرنا طويلاً بين النخيل وشجر الرمان والتـين والنارنج، ألوان الغسق فاضت حمرة وذهباً وانهمرت كالنيران الذائبة على الأشجار والنهر، سمعتُ صوت غناء إمتزج مع الريح وأصوات الطيور واصطفاق الموج على الشاطيء، قلت لها:

– أترين هذا النـور؟؟ إنه مثل نـورك أنت عندمـا تفرحين وتصدحـين بالغناء، أسمِعيني الآن بعضاً من غناء الروح..

– آه، لـو تدري، منـذ الفجر وأنا أردد مع نفسي قصيـدة إبن عربي التي علّمني إياها أستاذ العود يوحنا البغدادي قبل سنوات:

شمسُ الهوى في النفوسِ لاحت فأشرقـتْ عندهـا القلـوبُ

الحـبُّ أشهى إليّ ممّـــا يقولـه العـارفُ اللبيـبُ

يا حبّ مـولاي لا تـُـولّ عنـي فالعيش لايطيـبُ

لا أنسَ يصـفو للقلـبِ إلاّ إذا تجلّـى لـه الحبيـبُ

ردّدت أبيات إبن عربي بلحن يفيض خشوعاً ورِقّة فترقرقت الدموع في مآقيها، إحتضنتها ومرّغت شفتيّ على وجهها وارتشفتُ دموعها ثم لثمتُ ثغرها..

بعـد أن أفقنا من نشوة العناق نظـرت بنفشة نحو السماء وأعالي النخل المضرج بحمرة الشفـق وأجهشت بالبكاء، إهتز جسدها كسعفة في الريح، شعّ من وجهها بريق ذهب فبدت مثل شعلة وهاجة، عانقتها ثانية ورشفت فمها العذب ثم افترشنا العشب وطوقتها بذراعي وكأننا في ليلة عرس، لاذت الطيور بأعشاشها قبل المغيب وتماوجـت الريح بين أشجـار النخل والنارنج، وضعت بنفشـة رأسها على صدري وأغمضت عينيها، وأخذت كفّي ومرّرتها فوق وجهها وعنقها، وقالت لي

– هل تراني؟؟

– أراك كأنك أنا، أنتِ إمرأتي ومرآتي..

– هل تذكر عندما غنيتك قصيدة إبن الفارض يوم التقينا هنا أول مرة؟؟

– وهـل أنسـى ذلك المساء؟؟ هل لـك أن تغمريني بفيوض إبـن الفارض وبهاء صوتك السماوي...

فشرعت تغنّي:

قلْبي يُحـدّثُني بأنّكَ مُتلِفـي	روحـي فـداكَ عرفـتَ أمْ لَمْ تعـرفِ
لَم أقضِ حقَّ هَوَاكَ إن كُنتُ الذي	لَم أقضِ فيـهِ أسىً، ومِثلي مَـن يَفي
ما لي سـِوى روحي وباذِلُ نفسهِ	في حـبّ مـن يهـواه ليسَ بمُسـرفِ
فَلَئنْ رَضيتَ بهـا، فقد أسْعَفْتَني	يـا خيبـة المسـعى إذا لَمْ تُسـعِفِ
إن لم يكُنْ وَصْـلٌ لَديكَ، فَعِدْ به	أملـي وماطِـلْ إنْ وعـدتَ ولا تفـي
أخفيتُ حبَّكمُ فأخـفاني أسىً	حتـى، لعَمـري، كِدتُ عنيّ أختَـفي

– الله، الله، يـا سبحان الله، ماهذا الجـلال، سمعتها مرة من تيمور الأعمى بلحن

مختلـف، ومنك بلحن أرَّقَ وأشهى، غير أنك غنيتها اليوم بصوت لم أسمع نظيراً له، إني الآن لفـي نعيـم محسود، فما مِنْ عاشق ببغداد يبلغ مـا أنا فيه من نعمة العشق،،، أتساءل كل صباح:

– هل سيدوم نعيمنا أنا وصبحي؟ فتجتاحني رجفة خوف..

– سيدوم، لابد أن يدوم..

– عندمـا تخرج صباحاً للعمل وأبقى هنا مـع الخادمة وشاهين والحراس ينتابني رعب: ماذا لو لم ترجع إلينا؟؟ ماذا أفعل بحياتي وإبني؟؟

– إنـه الخاطر اللعين ذاته الذي يلاحقني، ما الذي سيصيبك لو حدث لي شيء؟؟ أفكر وأنا أحرّر البرقيات في مكتبي أنني قد أصابُ بمرض أو أتعرض للقتل وأنا أعبر النهر في هذه الأيام الصعبة، ثم أبعِدُ هذا الخاطر المخيف..

– سمعـتُ من الحرّاس أن رجلاً غريباً مـرّ بحصانه أمام بوابة البستان منذ يومين ثم عرفنا أنه ومن معه كانوا يلقون القبض على الرجال ويسوقونهم إلى الحرب..

– نعم بنفشـة، أعلنوا النفير العام واليوم جرى إعدام مئات الهاربين من التجنيد في محلات بغداد كلها وأقيمت المشانق في مداخل الأزقة..

– أخشى عليك من كل هذا.. ياإلهي إرحمنا بلطفك..

– لاتخشي شيئاً ؛ أنا موظف سلطاني ولن يخطفني رجال الوالي..

جعلنـي كلام بنفشة أغوص في رعبي ؛ فقد يأتـي يوم ويحدث ما لا نتوقّعه، مَنْ يضمـن لي الأمـان في هذا العالم؟؟ أنا – رغم عزلتـي – على خلاف مع الذين خارج حـدود البستان: و ما يحـدث يجعلني أرتاب بكل شيء وكلّ أحد حتى بحُرّاسي ؛ فقد تفعل الرشوة فعلها..

لســت مع أبي ولســت مع العثمانيين ولست مع الباطـل وسلب أموال الناس، ولســت مع البريطانيين ولا أنا مع مقاتلي العشائر الذي انقسموا بين موالين للأتراك وبـين مرحّبين بالإنكليز، لست مـع أيٍّ منهم في صراعاتهم، أنا مـع الحياة، والحياة غـير مايفعلـون كما اكتشفتهـا في الأستانـة وكما أعيشهـا مع محبوبتـي وإبني، ما الـذي يربطني بكل اوئلك؟؟ ما الذي كنت أرجوه حـين انتميت إلى جماعة الإتحاد والترقـي؟؟ الحمـد لله أنني عثرت علـى ماترجوه نفســي، سأقاتل مـن أجل حياتي وولدي ومحبوبتي بنفشة، لاشئ لي في عالم أبي وأهلي وحروب بني عثمان وجيوش الإنكليـز، لاشيء لي غير هذيـن: بنفشة وفؤاد وهذه الكتـب الثمينة وفونوغراف الموسيقى وماسوى ذلك لايعنيني في شيء...

سمعنـا في إحدى الليالي أصوات إطـلاق رصاص في البستان، هل كنت أعيش في أمـان خادع؟ هل كنت مهدّداً ممّن لاأعـرف؟؟ أحكمنا إغلاق الأبواب وحملتُ بندقيتـي ولبثت أراقـب ما يجري من نافـذة في الطابق الثاني، توغـل أحد الحرّاس في البستـان كعادتـه كل ليلة ليرى ما يجري، إنتظرت عودته ولكنـه لم يَعُد.. لم أشأ المجازفـة بالخـروج في الليل فأتـرك زوجتي وولدي وحيدين مـع شاهين، إنتظرتُ حتـى الصباح وأرسلت شاهين للبحث عن الحارس، عاد شاهين مرعوباً وقد غاض الدم من وجهه:

– سيـدي، سيـدى صبحي بك سيـدي، وجدتُ الحارس مشنوقـاً في شجرة، وجدتـه عارياً، سلبـوه بندقيته وثيابه.. سيـدي رأيته المسكين، لاحـول ولاقوة إلا بالله.. رأيته معلقاً في الشجرة..

أيقنـت ساعتها أن هناك من يتربص بنا، كنت مخدوعاً بالسلام الذي ظننتُ أنني ضمنته لأسرتي في قصرالبستان، لاأمان لنا في هذه الولاية التعيسة..

هل كان علي – لأحمي حياتي وأسرتي – أن أرحل بعيداً عن بغداد ومن فيها؟؟

ومـن تراه له اليد الطولى ليتجرأ عليّ؟؟ ولكن أين أذهب والحرب تستعر نيرانها في كل مكان؟؟

في الليلـة التاليـة كنت مُشوشـاً وقد تملكتني الحيرة والشكـوك، جعلت بنفشة وفـؤاد ينامان في الطابق الثاني ولبثتُ مع الحراس نراقب مايجري من سطح البيت، عنـد منتصـف الليل شبّ حريق في طرف البستان الشمـالي لكن النيران لم تمتد ؛ إذ كانت الريـاح جنوبية الإتجاه، ومأأن بزغ نور الفجر حتى طلبتُ من بنفشة أن تهيىء نفسها وإبننا وخادمتها لأصحبهم معي في الزورق ونذهب إلى بيتها في محلة النجيبية ؛ فلا ملاذ لنا سواه..

إعترضت بنفشة: لن أغادر بيتنا، لعل قتل الحارس كان انتقاماً لثأرٍ ما ولربما لسنا المقصودين ياصبحي، والحريق قد يحدث في أي مكان، ألا تذكر الحريق يوم جئتك أول مرة هنا؟؟ لا شيء، قلبي يقول لي: لاتخافي..

– لابـد أن نتحسّـب لمـا لايخطر علـى بالنـا، هيا إلى الـزورق، لامجـال للنقاش والتردد..

رافقتنـي على مضضٍ وحملت الخادمـة حوائج بنفشة وفـؤاد وبعض الأطعمة وبندقيتـي وتركنا كل شيء في عهدة شاهـين، أوصلتهم إلى بيت النجيبية وحذّرتُ الحارسَ أن يتكتـمّ علـى وجودهـم وإلا كان عقابه شديـداً إذا تعرضـوا لمكروه، وذهبت إلى عملي في دائرة المكتوبي..

رويـت لرأفت حـوادث الليلتين الماضيتـين وأخبرته أنني غير آمـن على سلامة عائلتـي في بيت النجيبية ؛ فقد كنت أعـرف أن بعض وجهاء بغداد وأثرياءها كانوا يترددون على جلسات الطرب فيه، قلت له أخيراً:

– ساعـدني في بيع المنزل لتاجر إسمه سراج الدين فرج الله كان قد عرض شراءه

قبل فترة ولم نكن نعتزم البيع حينها، ولعلك تعرفه، فإذا بعناه الآن علينا أن نعثر على منزل في منطقة آمنة بعيداً عن أهلنا ومعارفنا..

- أعرف سراج الدين، وسأذهب إليه اليوم، وقد أعثر لك على منزل مناسب في الوقت نفسه، لدي معارف ممّن يعملون في بيع وشراء العقارات، لكن لاتعد إلى القصر..

- كيف أترك منزلي وما أملكه فيه؟؟

- نذهب غداً أنت وأنا ونجلب أشياءك الثمينة ونحفظها في بيتي، الأوضاع تسوء في بغداد كل لحظة، الجيش البريطاني بقيادة تاونسند إحتلّ الكوت وضربت القوات التركية حصاراً على المدينة، الناس يموتون جوعاً بعد أن استولى الجيش البريطاني على المؤن من الأسواق والبيوت وحلّت المجاعة والأوبئة في البلدة، و سمعنا أن قوات نهرية بريطانية تتجه إلى بغداد. أخطأ والدك بتسفير أهلك إلى الحلة وأظنه لم يسمع بقيام ثورة في النجف وكربلاء ضد الأتراك ستمتد حتماً إلى الحلة..

- ألا تبلّغ والدي بالأمر؟ أرجوك أطلب إليه أن يعيد أمي وأخواتي إلى بغداد..

- سأفعل، سأفعل، من جهة أخرى فإنّ والدك يجعلني في حيرة من أمره، كيف يفكر وكيف يتصرف؟؟ هو الذي كان مُقرّباً من الوالي السابق وهاهو يتقرّب من الوالي الجديد نور الدين باي وكأنه لا يستطيب العيش دون أن يكون تحت جناح السلطة أو قريباً منها..

- منذ صباي المبكر وأنا في مواجهة معه من أجل هذا رغم ادعائه أنه غير معني بالسلطة ولديه مايكفيه من المال والجاه..

- هو الذي كان ينادي بنشر الصحف في بغداد يوم كان مُقرباً من الإئتلافيين، كيف يسكت الآن على ماقام به نور الدين باي من إغلاق جميع الصحف البغدادية ونفي أصحابها إلى أماكن نائية؟؟ كيف يسكت ويمالئ سلطة الوالي المتجبّر؟؟

– لعلـه وعدَهُ بمنصب كبير مـع أنه يرى اشتداد الصراع بـين الانكليز والأتراك ومن يواليهم، لديه حسابات نجهلها..

– الناس في حالـة جنون ياصبحي، حدثت أعمال نهـب وقتل، الحرمان يورث الهيـاج ويدفع إلى سفك الدمـاء، وبغداد في حالة اضطراب وثـوران وقد أغارت بعض قبائل البدو على أطراف منها وسلبت وقتلت، لا تعُدْ إلى القصر ؛ فهذه المنطقة ستكون في خطر من جهة أطراف الكرخ وقد تصبح في مرمى النيران إذا ما استخدم الإنكليز القوارب الحربية كما فعلوا في الكوت..

– أظـن أن الأنكليز لن يكتفوا باحتـلال ولاية البصرة والكوت ولن يتوقفوا مالم يصلوا إلى بغداد ؛ فالحرب ماقامت إلّا من أجل الهيمنة التامة على هذه البلاد..

– لـن يتم الأمر بسرعة كما يخيّلُ إليك، الأستانة أرسلت تعزيزات عسكرية مع قادة ألمـان لمواجهة الانكليز، ولآ أظنهم يسلّمون بغـداد بسهولة رغم انشغالهم في معركة غاليبولي مع الفرنسيين والانكليز..

وهي تدقّق أوراق الجد، قارنت نهى بين ماحدث أيام الحرب العالمية الأولـى وأحتلال بغداد وهزيمـة العثمانيين وماجرى في سـنة ٢٠٠٣ في البصرة من معارك دموية ضد قوات التحالف، قالت لوالدها:

ـ أهكذا تعود دورة التاريخ؟؟ إنه لأمرٌ يثير العجب..

ـ إبنتـي، علـى مرالعصورظـلّ العـراق ممراً لجيـوش الغـزو ومطمعاً للإمبراطوريات، حتى الأغريق لم نسلم منهم، ألم يصل الإسكندر بجيوشه إلـى هنا؟؟ وكانـت وفاته في بابل مصـدر حيرة للجميع وهـو في الثانية والثلاثيـن مـن عمره، قيـل لربما مات مسـموماً أو بسـبب إصابته بحمّى

التيفوئيد أو لأنه شـرب ماء من مياه نهر سـتيكس التي تحوي مواد قاتلة، والغريب أن أحد العرّافين في بابل تنبأ في أحد النصوص:

(... البلاد التي يموت فيها الإسـكندر سـتعرف السعادة والراحة طيلة الزمن ولن يقوى أحدٌ على قهرها وهزيمتها.........)

ـ أيّ عراف أعمى البصيرة هذا!!

ـ أجـل يانهى، حصـل العكسُ، توالت الغـزوات والهزائم والحروب الهمجيـة علـى هـذا البلـد حتـى يومنا هـذا، وكأن نبـؤة العراف سـحرٌ أسود.......

تصاريف العشق

الهوى يتجلى حيث يخفى...

من التراث الصوفي

تنتاب نهى رغبة مستبدة للإستغراق في الحب حتى الفناء، فما الحب إلا نبع إنبثق من أغوار سحيقة مجهولة وتدفق عذباً سخياً ليروي عالمها القاحل، زوّدها الحب بصفاء البصيرة ومنحها نضجاً مباغتاً وقوىً لم تكن لتدرك امتلاكها، لطالما تمنت أن تغدق ترياق السعادة على إنسان تصطفيه الروح عشقاً وارتقاءً فتسمو به ويسمو بها وتكافيء أقدارُه أقدَارَها...

تمكّن منها الشغف وزايلها التحسّب والحذر، شغفٌ تتبدل مراميه كل ساعة: فهو يتجلى مرة مثل حبٍ أمومي متناهٍ لا يرتجي عوَضاً، ومرة يغدوعشقاً لا تحدّه تخوم ولاتوقف مدّهُ الجبال، تنام وتصحوعلى تهجدات تتعالى في جسدها وتتردد أصداؤها في أمداء الروح، ترتعش جوارحها وهي تعوم في فيوض من المتعة والرضا والتخوف والأمل وانهمارات الشوق..

أهكذا هو الحب عندما يكون حباً؟؟

ماذا تسمّي ذلك الشيء المدمر الذي ظنته حباً وهي وحيدة في غرينوبل؟؟

لاشـك أنه العمى العاطفي الذي عاشـته في برهـة جنون، ولعله جنوح العقـل في وحشـة الغربة أو ظمـأ القلب للحنان، وهو فـي حقيقته فقدان للتبصر تحت ضغوط الوحدة ومسؤولية مواجهة قسوة العالم دونما عون أو سـند، شـاءت حينها أن تكون محبة ومحبوبة ونثرت بذور حبها في أرض سبخة نتنة...

ياللحمـق، لـم تكـن تعرف أن للحـبّ ألف صورة وألـف وجه، هاهو يكشـف لها عن وجهه الكوني الذي ينضح منـه الجمال والألفة والحنان والتفانـي والصبر و تتجلـى فيه أمومة المرأة وأنوثة عشـقها، ويتمازج فيه عشق الرجل ببهاء رجولته ورعايته..

تأكّـدت هـذا الصباح أنها عاشـقة حـد الهيام حين أفاقـت من النوم ولاح لهـا وجه نادر في آخر حلم تذكرته، أحسّـت أنها وُهبت فرصة حياةٍ جديدة: صباح فردوسـي وشمس تفيض ذهباً، أغاريد طيور وأشذاء وطاقة خارقة تسري في عروقها وتدفعها للتحليق والرقص والجنون، هيّأت الشاي لوالديهـا، قطفت زهوراً من الحديقة، وضعت قرصـاً مدمجاً دون أن تميز عنوانـه في جهاز الموسـيقى فانطلقـت أغنيـة (كل ماتحتاجه هوالحب) لفريـق البيتلز، أغنيـة من مفضّلات والدها يوم كان شـاباً ولبث يسـمعها طوال سنوات، أنعشها الإيقاع الراقص المرح فتفتحت في جسدها جنائن مـن أقواس قزح وألحان سـماوية وشـعرت للحظـة أن جلدها يضيق على انفعالات الجسـد المسـتفيق وأنها غدت خفيفة حتـى لتكاد تحلّق كمثل أمواج النور وسط الأنغام والنسائم..

يطيب لمشـاعر الحب أحياناً أن تطيل لعبة التخفي والمراوغة، تعرف هـذه الحقيقـة، فمنـذ لقائهـا الأول مـع نـادر تحامى كلاهمـا بالصمت

والكلمات الملغزة، لماذا يبدّدان الزمن؟؟ فلتبادر وتهشّم تلك القشرة التي يتخفّـى تحتها وهج الحب ووقدة الرغبة، أوحى لها نادر أن الهوى يتجلّى حيـث يخفى، ولكن حتى متـى يدوم الخفاء وهي التـي ترنو إلى ابتكار فردوس من هناءات الحب وحنوّ الأنوثة ووعود السعادة ؛ فالزمن لا يؤتَمَنُ فـي أوضاع بلدها المضطربة ولن يترفّق بهما. هل تدع الأمور تجري كما ترتبها الأقدار؟ هل يحقّ لها أن تبادر؟؟ هل يخشـى المجازف في البحر غرقاً في اللجة؟؟ حسـناً فليكن، الحسـم أهون من هـذا التردّد الصبياني الذي يمارسانه كمراهقين عاجزين..

ستكتب له رسالة الكترونية، تذكّرت أن عنوانه مكتوب على ظهر كتاب استعارته من مكتبته في الزيارة الأخيرة، هل كان يتوقع أن تكتب له؟؟

To: Nader- yousif@ gmail.com

From: nuha-iraq@yahoo.com

نادر...

دع عنك هذا التحصن وراء اللغة الملغزة، كن أنت الذي أرى وأعرف، أفصح ولا تتوانَ، كل لحظة نبددها في التردد لن تستعاد أبداً، قل الكلمة الصغيرة العذبة شـبيهة قطرة الماء أو النجمة المشـتعلة، الكلمة التي تغصُّ بها كلما نظرت إليّ، هل تتوقع أن أنطقها قبلك؟؟ لم لا؟؟ سأقولها لك، وسـترددها أنت بطريقـة أو بأخرى، وتكرّر عبارتك الأثيـرة: **الهوى يتجلى حيث يخفى**، حسـناً، دعـه يتجلى بعيداً عن الخفـاء، يقنص النور ويتوهج بيننـا، القـول كمثل وضع البلسـم على موضع الألـم , وكلانا مريض بهذا العالم، إذن دعنا نقف على ضفة الحياة نحيا ونستنطق الأمل، أقدّر صمتك وخشـيتك من هذا العالم الفاسـد وعليك أن تقدّر معنى ضياع الزمان في

بلد الموت والزوال، غداً سأزورك صباحاً وسأقرأ على وجهك الكلمة التي أنتظر، ليس مطلوباً أن تنطقها كما ينطقها الآخرون بالشفاه والصوت واللغة المستهلكة بل عليك أن تبتكر أسلوبك كما تبتكر نظرياتك، فاجئني بما لاأتوقعه، قلها دون أن يتردّد صداها في المكان، دع الروح تنسج قصيدتها، دع النظرة ترتل أنشودتها، دع الضحكة تسرد الحكاية وتشرع في نسج رداء الغد، إنتظرني ولا تقل شيئاً..

نهى

بعد ساعتين فتحت بريدها الألكتروني فوجدت رسالة نادر، كانت رسالة قصيرة مقتضبة..

To: nuha-iraq@yahoo.com

عزيزتي نهى

ليلة سعيدة،

أبهجتني رسالتك.. أعدت قراءتها مرات لاتحصى وحفظت كلماتها.. شكراً لكل شيء، نتحدث عنها حين لقائنا، لدينا من الوقت مايكفي لتحقيق الأحلام كلها...

سيأتي صديقي بذراع الفونوغراف مساء الغد، لذا سأنتظرك بعد غد وأرافقك لزيارة والدك وتركيب ذراع الفونوغراف، حصلتُ على خريطة لفونوغراف أديسون من موقع ألكتروني...

نادر

دروب الأسى

إنما أُحادثك لترى ؛ فإذا رأيت، فلا حديث...

النفّري

أحبطت رسالة نادر المبتسرة نهى واحتارت في طريقة تفكيره واسترخائه العجيب في هذا الزمن التعيس الذي تتدفق إليه أنهار الدم من جهات العالم كلها ويفاجئ الموت الناس في كل منعطف وزاوية..

ـ كيف لأحدنا أن يستغرق في اللامبالاة ويستسلم للأقدار تسيّر حياته وتحدد مصيره على هذا النحو؟؟ ليس ثمة غد مضمون، فعلام يراهن نادر؟؟ لماذا لايسارع البشر لعيش لحظتهم وإن كانت هي اللحظة الأخيرة؟؟

قرأت يوماً عن آلاف حفلات الزفاف التي جرت في روسيا خلال الحرب العالمية الثانية بعد إعلان التعبئة العامة وترحيل الجنود إلى الجبهات المستعرة، وكان من المستبعد حينها أن يعود الرجال من ساحات الموت، حينها إرتضت آلاف الخطيبات والحبيبات أن يصبحن أرامل بعد أن يتزوجن ليوم واحد ويرقصن وهنّ مزيناتٌ بالورود والمناديل المطرزة معقودةً حول أعناقهن، تقبلن فكرة أن يغادرهن الأزواج إلى حيث لاعودة

صباح ليلة الزفاف، عقدت أولئك العرائس آمالهن على حياة إنسانية يمكن أن تتكشف في ليلة حب واحدة كمثل رغبة المحكوم بالإعدام عندما يطلب متعة أخيرة ليستعيد بها إنسانيته الثمينة قبل أن يفارق الحياة..

خيُّل إليها أن رسالتها لم تصِبْ هدفها، لكنها لم تندم، لعلها سائرة في السراب ورغم ذلك لن تغرق في القنوط، فهي تعرف ماتحب في نادر وماتريد أن تمنحه من أمان الأنوثة وحنانها، غايتها أن تنتشله من عزلته المثبطة وحياته المهدوزة وتشركه في تحديات الحياة، وهي عازمة على إنجاح مهمتها..

ستواصل هذه الليلة العمل على ماتبقى من مجلدات جدها وترنو إلى ما يأتي به الغد، تفتح المجلد وتهمهم:

ـ أيها الجد أغثني، قل شيئاً، إنني منصتة إليك..

نطقت تلك العبارات وكأنها تستشير عرافاً مختبئاً في كتاب الجد صبحي الكتبخاني وشرعت تقرأ وتصحح الكلمات المطموسة ثم أعادت طباعتها على الكومبيوتر:

... بعد أن نامت بنفشة وصغيرنا فؤاد وكانت ليلة خانقة والأجواء مغبرة والرياح شديدة العصف، لذت بمكتبتي، قلّبت الكتب العتيقة والحديثة التي جلبتها من الأستانة، أردت أن أجد تفسيراً للحوادث المتلاحقة التي تتوالى على حياتنا، أردت سبر معنى الحرب والهزيمة التي مُنيت بها القوات التركية والحياة ذاتها، الهزيمة ليست جنوداً قتلى أو أسرى وليست خراباً يحلّ بالبلدات وبيوت الناس، كما أنها ليست النساء المنتحبات اللواتي أذبلهن انتظار الأزواج والأبناء، الهزيمة كما أراها تعني إنهيار عالم عتيق وولادة عالم جديد مضرّج بدماء الولادة وصيحات الثأر، الهزيمة تعني أن حياتنا مرتبطة بالمهزوم والمنتصر معاً ونحن من يدفع ثمن الهزيمة أو

النصر ؛ فكلاهما محفوف بالأرامل والأيتام وآلاف الجثث وأنهار الدماء. أتساءل عن المتسبب في هلاكنا وتعريضنا للموت والمجاعة، فأراني أنتهي إلى نتيجة واحدة - هم جميعاً: أبي وأمثاله والسلطان والصدر الأعظم والوالي والتجار والجيش العثماني والجيش البريطاني والقبائل التي كانت تغير على القرى والبلدات وتنهب وتسلب حال انسحاب الجيش العثماني منها وقبل أن تدخلها القوات البريطانية..

سرت طويلاً قرب نهر دجلة الذي كان متلألئاً يعكس ضوء شمس ساطعة ويبدو كأنه نهر من ضوء وماء، وكأن مياهه لم تمتزج على مر العصور بدماء الضحايا وآهات الغرقى، كم هو عجيب هذا النهر الذي شهد عذابات البشر وعبرت بين ضفتيه الجيوش الغازية ومرّ به الناجون من المهالك وابتلعت دواماته الكثير من الغرقى..

مثل جميع الآخرين الخائفين في بغداد كنت بحاجة إلى التكاتف مع قريب أو صديق لفهم مايجري من حوادث متلاحقة، وأنا منغمس بأفكاري ومخاوفي سمعت عند أحد الأبواب صرخات إمرأة موجوعة، تبعها بكاء وليد صغير وزغاريد نسوة، ما أغرب الحياة وما أعجب تناقضاتها!! أمدّتني هذه الإشارة العابرة ببعض الأمل فأسرعت إلى مقر عملي في القشلة لأجد كومة برقيات تنتظر الرد أو الإبلاغ، قرأت أول برقية وكان محتواها يشير إلى أن قيادة القوات التركية نجحت في استعادة السيطرة على الكوت بعد حصار دام شهوراً للقوات البريطانية التي مُنِيت بالهزيمة وقد أرسِلَ الأسرى وقادتهم إلى بغداد للنظر في أمرهم..

روى لنا أحد الناجين من حصار الكوت وقد وصل إلى بغداد على فرسه المنهكة، أن الناس هلكوا جوعاً وافترست الكلاب جثث الرضع الذين ماتوا بموت أمهاتهم، وكان العجزة يزحفون في الطرقات بحثاً عن عشبة أو ورقة نبات يقتاتون بها، واذا وجدوا حيواناً نافقاً كانوا يقطعون لحمه بكسر الفخار والحجارة ويأكلونه. أخبرَنا الرجل أيضاً أن الضباط الانكليز أسروا فتيات يافعات ونساء كبيرات ووضعوهن

في المعسكرات للترفيه عن الجنود، وحين اجتاحت القوات التركية المعسكرات البريطانية هربت المحتجزات وهام معظمهن في البراري وهلكن عطشاً وجوعاً وبادر الفلاحون والأعراب إلى دفن الجثث وأقاموا عليها صلاة الميت..

صباح اليوم التالي هيأت بنفشة فطورنا، كنت مرتبكاً وحزينا وتخيّلت مايحتمل حدوثه لو وقعت بغداد تحت الحصار، إحتسيت قدح الشاي متعجلاً وقلت لها:

- لو حدث وحاصروا بغداد سأصحبكم إلى منزل أختي وفيقة لأضمن سلامتكم..

قالت بنفشة: لاتتحسب لأمر لم يحدث، لايمكن محاصرة بغداد، دع كل شيء لأوانه..

- كونوا حذرين واغلقوا الأبواب واعتمدي على الحارس إبراهيم فيما تحتاجينه..

ذهبت إلى عملي في دائرة المكتوبي لأقوم بتحرير بعض المراسلات الجديدة الصادرة من الوالي وإطلاع رأفت عليها، وجدت رأفت مهموماً على غير عادته، قال:

- إتخذ الأتراك أمراً في غاية الخطورة ؛ فمنذ قيام ثورة الحسين في الحجاز بدأوا بإناطة رئاسة الوحدات المدنية والعسكرية بالأتراك لذلك صدرت الأوامر اليوم بإزاحتنا أنت وأنا عن وظيفتنا وإلحاقنا بمكتب الدفتردار..

إلتحقنا بوظيفتنا كاتبين في مكتب الدفتردار ولم توكل لنا أية مهمات، وقبيل الظهر سمعنا ضجة الأبواق والطبول وخرجنا جميعاً لنشهد استعراض أعداد كبيرة من الأسرى الإنكليز الذين جُلِبوا من الكوت..

بـدا الأسرى في غاية الهزال بسبب المجاعة التي تعرّضت لها القوات البريطانية خلال شهور الحصـار، ساروا حفاةً وقد جفّ الطين على أقدامهم وملابسهم وعلا الغبـار وجوههم التي غطتها الكدمات والدم المتيبس، ربطت رؤوس الجرحى منهم بخـرق قذرة مدماة واتكأ البعض ممن أصيبت أرجلهم على أكتاف رفاقهم، أحاطت بهـم حشود من الرجال والصبيان وأخذوا يرمون الحجارة و الطين والنفايات على الأسـرى مطأطأي الرؤوس ويشتمونهم بينمـا مر الموكب الذي نقـل فيه الجنرال البريطاني طاوزند ومعاونوه المأسورون إلى القنصلية الإيطالية ألتي تعهدت لبريطانيا بحمايتهـم هم والجنرالين ديلامين وميليس، ولجأت بضع أسر بريطانية إلى القنصلية عند انفلات الوضع في بغداد وبداية أعمال النهب والقتل والحرائق..

تملّكنـي الحزن على أحوال البشر الذين مسختهم الحروب والكراهية وأفقدتهم إنسانيتهم: الحشود التي انطلق جنونها ووحشيتها بفعل ولاء أعمى مشكوك بأمره، والأسـرى الذين تحولوا إلى هيـاكل بشرية مُهانة من أجل مصالـح سادتهم، لابد أن لهـذا الجنـدي الأشقر الشعـر زوجةً أو أمـاً أو حبيبة تنتظر عودته، مـا أفظع قسوة الإنسـان على الإنسان!!، ما أبشعك أيها الكائـن البشري مشعل الحروب!! رأيت أحدهم يبكي ويمسح خطوط الطين التي خدّدت وجهه الأبيض فبكيـت: ياإلهي قد يكون أبا لصبي بعمر ولدي فؤاد..

ألا يا الهي، علامَ هذه الحروب التي تفني خلائقك؟؟

إنخـدع الوالي خليل باشا ومستشاروه بهذا الإنتصار الكبير في الكوت وعدّوه انتصارهـم الحاسـم ؛ فخرجـت عائلاتهم مـع الخـدم والحراس إلى مواقـع النزهة في بساتـين الأعظميـة وسلمـان باك ونصبـوا الخيـام والجواسق وأوقـدوا النيران للإستضـاءة، وشـاء الـوالي أن يعلن رسميـاً قوة السلطنـة وسطوتهـا إزاء الحملة البريطانية فأقام الإحتفالات وعزفت فرق الجيش الموسيقى في محلات بغداد.. نادى المنادون في جنبات رصافة بغداد:

(... بأمر الوالي خليل باشا، بلدية ولاية بغداد تفتح جادة كبيرة وعلى الناس الذين تقع بيوتهم في طريق الجادة من الباب المعظم إلى الباب الشرقي أن يبتعدوا عن طريق الجادة.. أيها الناس أحملوا أغراض بيوتكم وابتعدوا، ومن لاينفذ أمر الوالي ستهدم داره على رأسه ولاعذر لكم.. أيها الناس أخرجوا من بيوتكم قبل الليل، سيبدأ هدم المباني وشق الجادة لمرور الجيش السلطاني المنتصر بإذن الله...)......

أطلِقَ على الشارع إسم (خليل باشا جادة سي) وتسببت إجراءاته التعسفية بهدم البيوت خلال الليل على رؤوس أهليها وتدمير الأسواق والحوانيت ونهب محتوياتها، هربت الأسَرُ التي استطاعت حمل بعض نفائس الممتلكات والأطفال ولجأت أسرة من أقاربنا إلى منزل أهلي وأفردَ لها والدي غرفاً في الفناء المحيط بالبستان وخصّص لها خادماً يقوم بتجهيز الطعام، وأشرفت والدتي على مساعدة الأم وأطفالها وزودتها بالثياب اللازمة بعد أن تركت الأم كل شيء في البيت الذي جرى تدميره..

ضجّ الناس بالتذمر وقدّم الأثرياء رشاوى ليتجنبوا هدم دورهم وعقاراتهم كما اعترض قناصل الدول الاجنبية الذين كانت مقراتهم أقرب إلى الباب الشرقي ؛ الأمر الذي أدّى إلى انحرافات كثيرة في استقامة الشارع، فهدِمت بيوت الفقراء أولاً ومن كان غائباً عن بيته تلك الليلة..

سرنا أنا ورأفت وسط ذلك الخراب الذي أحدثه تهديم المنازل والأبنية، كان مشهدا مخيفاً وكأن المنطقة باتت أنقاض حرب طاحنة: بيوت منهارة وحجارة متناثرة وتلال من الأتربة والأنقاض وقد افترش بعض الرجال والنساء والأطفال الأرض أمام أنقاض البيوت وهم في حالة من البؤس والجوع، إشترى لهم رأفت قربة ماء من أحد السقائين...

كان تغيير وظائفنا إنذاراً باحتمال فصلنا من عملنا ويالها من ورطة!!، قالت

بنفشـة: دعنا نعرض البيت للبيـع ونشتري بيتاً صغيراً ونحتفـظ بالمال المتبقي..
تحدثـت مع مختار محلة النجيبية بهذا الشأن فعرض أن يشتري البيت بثمن وجدته بخسـاً ؛ فقصدت دلالاً للعقارات عرض علـي ثمناً معقولاً، إشتريت بيتاً صغيراً مـن طابقين إنتقلنا إليه في اليوم التالي مع حرّاسنا، وبعد عناء تلك الأيام ومخاوفي المتزايدة نمـت تلك الليلة مندسّاً في أحضان بنفشـة، كان جسدها الحنون يفوح برائحـة الصابون والبنفسج وخفقات الشـوق، إحتضنتني بقوة كما لم تفعل من قبـل، كنت خائفاً عليها وعلى ولدي، قبلتهـا ورشفت روحها، منحني جسدها الدافـئ المكتنـز أماناً وأملاً ومتعـة وقوة، وفي تلك الليلـة العجيبة ونحن نواجه المجهـول والمـوت إكتشفت اللذة كمـا لم أذقها معها من قبـل، حينها عرفت أن لاشيء في هذا العالم القاسي أثمن وأعظم من حنان المرأة المحبة الذي لاتدانيه أية نعمة في حياة الرجل، وأدركت أننا يمكن أن نرتاب بقيمة أشياء كثيرة أو نبخسها حقهـا في الوصف إلا حنان المـرأة ؛ فهو أعظم هبة ربانية لنا، لا كنزَ أغلى وأثمن من حضن بنفشة الفواح بعطر البنفسج ورائحة الأنثى العجيبة..

أفقت صباحاً وأنا أتساءل:

– ما الذي ستصير إليه مدينتنا الحزينة؟؟ ما الذي سيحدث لنا جميعاً؟؟

كان صباح يوم ٦ آذار ١٩١٧ عندما وصلت مبنى القشلة وصادفت رأفت خارجـاً مع جمع مكفهر الوجوه من الموظفين، إمتطى بعضهم الخيول بينما غادر الآخرون في العربات، ومضى الآخرون راجلين وسط الزحام..

– مـا الذي أتى بك ياصبحي؟ كان الأجدر بك أن تلزم البيت مع عائلتك، لا نعلم ماسيحدث من أهوال خلال الأيام القادمة، وقد قرر الوالي صرف الموظفين إلى ميعـاد غير معلوم، اليوم حلقت طائـرات الإنكليز فوق بغداد، إرتعب الناس الذيـن لم يـروا شيئـاً كهذا وشرعـوا يطلقون النار مـن فوق المنائـر والسطوح،

دعنـي أوصلك بعربتي ؛ فالناس في هياج وجنـون، وأرى أن تأتوا إلى بيتنا لضمان سلامتكم...

- سنبقى في البيت ؛ فلدينا حارسان مسلحان، لاتقلق يا رأفت، سنكون بأمان..

كنت أكذب ؛ فلم يكن أحد بأمان في تلك الأيام، لكنني أعلم أن بنفشة سترفض الإنتقـال إلى منـزل أختي وهي التـي لم تتعرف إلى أحد من أهلـي سوى رأفت زوج أختي، وكنت أتوقع أن تزداد الأحوال سوءً ونحن محاصرون في بيوتنا، وقد أوشك المـاء الذي يزوّدنا به السقاّء على النفـاد، لكن حكمة النساء كانت أقدر على تدبير الأمور في مثل هذه الكوارث ؛ إذ خطر لبنفشة أن تشتري كميات كبيرة من البرتقال والليمـون الحلو وطلبت من الحارس أن يهيىء حفـرة في الحديقة التي تتوسط الفناء ويدفـن فيها البرتقال والليمون كما كنا نفعل كل شتـاء، وبدأت بنفشة توزّع علينا أرباع البرتقال لتفادي العطش..

كانـت بنفشة رغم كل مايحدث عاكفة على تعليم فؤاد دروس الحساب واللغة العربية مستعينة بكتب مدرسية عتيقة مما تبقى لدي، والخادمة منهمكة بإعداد وجبة من البرغل والعدس، سمعنا قرقعة عجلات عربة وطرقاً على الباب، لم نفتح، إستمرّ الطرق: أنا رأفت إفتح ياصبحي.. إفتح..

فتحت الباب ودخل رأفت ووراءه خادمه حاملاً قربتين جلديتين مملوءتين ماءً...

- أعلم أن ماءكم سينفد، وقلت لن أدعكم تهلكون عطشاً، فليفرّغها الرجل في الزير الأزرق الكبير تفادياً لتبخر الماء..

- إجلس يارأفت، أراك متعباً، ما الأمر؟

- الأحوال مخيفة في بغداد، لاتخرجوا من البيت...

- ما أخبار أهلي؟؟

- الجميع بخير، لاخوف عليهم ؛ فبيتهم محصّن تماماً مثل بيتنا..

بعد يومين إنسحبت القـوات التركية من بغداد، إتفق الوالي والقادة الأتراك إثر جدل طويل على عدم خوض معركة غير متكافئة مع البريطانيين، وخلال الإنسحاب أحرق الجيش المنشآت العسكرية ومخازن الأسلحة في باب الطلسم وسمعنا صوت الأنفجـار الهائـل في مستودع البـارود وشاهدنا نـيران الحرائـق في جهات بغداد الشرقيـة وفي أسـواق المولـة خانة والسراي وسـوق البزّازين ومخـزن الكمارك في المدرسـة المستنصرية، وبدأت أعمال السلب والنهـب في غياب السلطة المنسحبة: أحرقت الحشـود الهائجة مخازن الوقود ونُهِبت المتاجـر والبيوت، هجم اللصوص علـى محلتنا فطلبـت من بنفشـة أن تختبئ هي وصغيرنـا فؤاد والخادمـة في الطابق الثاني وبقيـت أنا مع الحارسين في الطابق الأرضـي، أحكمنا إغلاق الباب ووضعنا خزانـة كبيرة ومقاعد ثقيلة وراءه ثم صعدنا إلى سطح البيت، أطلق اللصوص نيران بنادقهـم علـى الباب لكنهم لم يفلحوا في فتحه وعلمنـا أن هناك أخطاراً لم نتحسّب لهـا ؛ فقد أغارت جموع من البـدو على مناطق بغداد الأخرى فتحصن السكان في بيوتهم وهرب بعضهم إلى القرى القريبة بينما لقي آخرون حتفهم بهجوم عصابات السلّابـين عليهـم في الطريق، لم نـنـم في تلك الليـالي الفاصلة بـين عهدين، وكنت أحاول إخفاء قلقي عـن بنفشة وصغيرنا حتى أنني كنت ألقي الفكاهات وأجعلهما يستغرقان في الضحك وكنـت أواري قلقي بالثرثرة، طلبت من بنفشة أن تعزف لي على العود وتغني لي إحدى أغانيها، تمنّعت وقالت:

- لايمكنني الغناء، لالا، ليس هذا وقت الغناء..

- بل هو وقته، نحتاج الغناء حين تحدّق بنا المخاطر..

- لـك ماتشـاء ولكن لاتلمنـي أن غصصـت بعبراتي وقد لايـروق لك صوتي المختنق

- لاعليك، أحب صوتك محزوناً ومبتهجاً..

أحضـرت العـود وحرّكت الريشـة على الأوتار، وبـدأت تغني أبياتـاً للشريف الرضي:

لأشكرنّك ما ناحت مطوّقة	وإن عجـزتُ عـن الحقّ الـذي وجبا
فما التفتُّ إلى نعماء سابغةٍ	إلا رأيتـك فيهـا الأصـل والسّببـــا
أخدَمْتني نُوَبَ الأيام طائعةً	وكان كلُ الرضـى أن آمـنَ النّوَبا

تحـدّرت الدموع على وجنتها وهي تغني، نهضتُ وقبّلتُ رأسها وجبينها امتناناً لما إختارت من شعر ولِما صدح به صوتها من أنغام شجية..

إدلهمّــت السماء مساء وهبت رياح شديدة واجتاحت بغداد عاصفة لم نشهد مثيلا لهـا من قبل ليلـة ١١ آذار، إقتلعت سرعة الرياح الأشجـار وأعمدة الفوانيس وأسيجة السطـوح والسقـوف وأطاحت ببعض المآذن فتساقـط القرميد على فنـاءات البيوت القريبـة. أوقفت العاصفة أعمال النهب والقتل تلـك الليلة حتى إذا انجلى الليل فوجئنا ذلـك الصباح بدخول مشاة القـوات البريطانية تتقدمهم فرقة مـن الخيالة وفرقة تعزف موسيقى القِرَب..

ذُهلنـا لموقـف القـوات التركية التـي يسّـرَت بانسحابهـا السريع دخـول القوات البريطانيـة، خـرج بعض الناس مـن البيوت وتبعـوا مسيرة القوات المنتصـرة إلى منطقة القشلـة ليشهـدوا إنزال العلم التركـي ورفع العلم البريطاني على بـرج الساعة - أعلى برج في بغداد، إنخرط بعض الرجال ممن كانوا يوالون الأتراك بالبكاء وشتموا الإنكليز علانية وهم يرون رايتهم ترفرف على مبنى القشلة..

بعـد يومين طـرق المختار أبواب البيوت وطلب أن يخـرج الرجال ويجتمعوا قرب بيتـه ليقرأ عليهـم خطاب الجنرال مود قائد القوات البريطانية الـذي ناشد فيه الناس أن

يتعاونـوا مع السلطـات العسكرية لإدارة البـلاد وحفظ الأمن ولهـم أن يطمئنوا إلى أن حكومة جلالة الملك جورج الخامس لاتعتزم فرض أنظمة لايرتضيها أهل بلاد الرافدين ؛ (فنحن لسنا أعداء لكم بل جئنا محررين لا فاتحين)..

نفـد خزيننـا من الطعام و ظهـرت آثار الهـزال علينا وكانت بنفشة تـذرف الدموع بينمـا كنت أثور لمجرد بكاء الطفل، ماكنت أستطيع الرؤية بوضوح وفي لحظات الصفاء النادرة كنت أقول: هذا كابوس مؤقت سيزول، عليّ أن أواصل الصبر فلا أظهر انفعالي وغضبـي أمام بنفشة وطفلنـا، كنت أقف كل صباح أمام البـاب وأحاول الخروج لعلني أجـد ماينقـذ أرواحنا مـن الهلاك جوعاً لكـن بنفشة كانت تحول بيني وبـين الخروج إلى العـالم الهائـج. كنا نؤثِرُ صغيرنا بما لدينا من طعام شحيـح ولم يتبق لدينا غير بعض السمن والطحـين: كنا نصنع منه عصيدة ونتقاسـم حصصنا الهزيلة، عمّت المجاعة بغداد طوال الأسابيـع التـي تلت دخول الإنكليز ثـم حصلنا على شهادة من المختـار تتيح لنا إستلام أرغفة خبز بعدد أفراد العائلة من المخبز الحكومي (الأكمكخانة) فكنت أقوم برحلة يومية مع أحد الحارسين إلى الأكمكخانة للحصول على كفاف يومنا من خبز المخبز العسكري.

علمـت مـن رأفت أن والـدي غاب طويلاً عن بغـداد، وعندما عاد عرفنـا أنه سافر إلى حلـب للقـاء القادة الأتراك الذين استقر بعضهم في حلـب لإدارة العمليات الحربية، وكانت أغلب المواقع العسكرية العثمانية تُدار من قبل قادة أتراك وجنرالات ألمان، وأخبر والـدي رأفت أنـه التقى الجنرال الألماني (فـون بابن) وروى له وقائـع الحرب في العراق وأضاف أنه تمكّن من لقاء الفريق (مصطفى كمال) الذي كان قادماً مع الفيلق الثالث من دياربكـر. لم أفهـم ما الذي كان يخطط له أبي إسماعيل بـك الكتبخاني: فبعد عودته لزم البيـت لبضعة شهور حتى تتضح الأمـور في بغداد ؛ مّما منعني من زيارة والدتي، ثم خرج أخيراً عندما طلبه أحد القادة الإنكليز وأوكل له مؤقتاً إدارة مؤسسة الأوقاف الإسلامية والإشـراف علـى بعض المساجد – التي كانـت تنظّمُ فيها المظاهـرات ضد البريطانيين – ريثما يهيئ له منصباً يليق بكفاءته، ولم يرفض والدي الأمر بل قبله مُرحبّاً.....

الفونوغراف ٢

المحبة أغصان تُغرس في القلب فتثمر على قدر العقول

إبن عطاء الصوفي

المحبة هي دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المُحبّ

الجنيد البـــغدادي

في لحظة اسـتبصار خارقة أدرك نادر أن حياته استنارت واتسعت بعد لقائه بنهى، كان قبلها أشبه بيرقة الحرير التي تلوذ بشرنقتها وتعتزل الوجود لتفـوز بجناحين، وهاهو يحظى بجناحي الحب الرقيقين وتحلق روحه في الأعالــي، يقرر جازماً أن المحبة بأبعادها الثلاثة: العقل والروح والجســد هي غير الحب النزويّ المقترن بشــهوة عمياء ترّجّ الجســد ولاتدوم سوى لمحة وامضة وتفضي ـ إذ تزول ـ إلى كآبات وخواء روح وظمأ مستديم..

خــاض نادر تجربــة صاخبة مع إمرأة عابرة ترى في نفســها وجســدها محــض أضحية ينحرها الآخــرون ويلوّثون كرامتها مقابــل ثمن أو بدونه، إكتشــف معها قبل ســنوات ـ إذ كانت تزوره عند ذهاب منال إلى عملها ـ أن الجنس أشبه بهاوية ظلماء تسحبه إلى أعماق سحيقة موحلة بدل أن تســمو به إلى بروق اللذة المنعمة التي تغذي جسده بالنور، أورثته التجربة

القصيرة الأمد مع تلك المرأة نوعاً من جفاف الروح وانخذالها، لم يشعر بحنان إمرأة سوية ولا رائحتها، كانت تضع عطراً صاخباً طغى على رائحة جسدها وعرقها، ولاحظ أن ملابسها الداخلية من طراز متهتك مما يراه في إعلانات الانترنيت عن صفحات إباحية أو صفحات المواعدة التي تشغلها فتيات من دول أوروبا الشرقية وفتيات من جنوب شرق آسيا. ماهكذا أراد المرأة وماهكذا حلم بها تأخذ وتعطي بثمن وتتقلّب بين أهواء مبدّدة، ماهكذا أراد الحب محض رجّة صاخبة يرتعش لها الجسد ولاتستبقي بعدها سوى الظمأ المخزي وظلمة في القلب...

هاهو يحيا الآن وسط نبع رقراق من حنان نهى وحديثها وأنوثتها التي تسطع من رائحة جسدها الشبيهة برائحة ثمار الكمثرى، هكذا تنشّق في حضورها رائحة كمثرى ناضجة حلوة، وعندما اقترب منها وأخذ يدها في يده إكتشف أن لجسدها المتناسق رائحة ناعمة ومسكرة هي مزيج بين رائحة ياسمين ربيعي وصابون أطفال ماركة (جونسون أند جونسون) كانت أمه الراحلة تحمّمه به وهو صغير، إستعاد سعادات الطفولة العذبة المسورة بحنان الأمومة والمقترنة بتلبية الرغبات الصغيرة، لبث يستخدم صابون الأطفال (جونسون أند جونسون) حتى الصف الخامس الابتدائي لأن والدته كانت تود الإحتفاظ بطفولته إلى أبعد مدى ليعوضها عن خواء حياتها كزوجة وأم إستنفد الكفاح روحها التواقة للجمال، لكنه تخلى عن نزعاته الطفولية في الصف السادس الابتدائي عندما أثار لديه معلم مادة العلوم الرغبة في متابعة أخبار آينشتاين بعدما عرض للصف فلماً وثائقياً بالأسود والأبيض عن مواقف محددة من حياة العالم الذي أطلق النظرية النسبية ورفض التعاون في مشروع مانهاتن الذي أطلقه بنفسه لإنتاج القنبلة الذرية ووقف بالضد من ضرب اليابان بالسلاح الذري بل اشترك

في سنة ١٩٥٧ ـ هو وتسعة علماء ـ باصدار بيان حول الآمن والسلام في العالم، وبقي انشتاين يحارب طوال حياته من أجل السلام..

عـاد نـادر ظهر ذلك اليـوم إلى البيـت و اختلى بغرفته وبكـى متأثراً بمواقف آينشـتاين وامتنع عن تناول الطعام وهو يتذكر قول آينشتاين حين سئِل عن نوع الأسلحة التي سوف تستخدم في حرب عالمية قادمة وتصوّر مصير البشرية المروع: « **لا أستطيع أن أحدّد نوع الأسلحة التي سوف تستخدم في الحرب العالمية الثالثة، لكنني واثق أن سلاح الحرب العالمية الرابعة سيكون العصي والحجارة....**»...

إجتاحت نادر قشعريرة وحمى وهو يفكر بالرجل المثال الذي هزّ عالمه الراكد وحفّز مخيلته ليكون في مقتبل عمره عالماً مرموقاً لايقل شـأناً عن آينشـتاين وسـواه، وحصل يوماً على كتاب (فلسـفة الفيزياء) من إحدى المكتبـات ـ ذلك الكتاب الصغير الصادر ضمن الموسـوعة الصغيرة في أيلول ١٩٧٧ وقرأه نحو عشر مرات وهمس لوالدته: سأكون مثل آينشتاين..

قالت أمه: ومن هو آينشتاين هذا؟؟

ـ آينشتاين عالم عظيم إستطاع أن يغيّر العالم..

ـ حسناً يابني، إذن ستكون...

شـرع يقتنـي الكتب مـن مصروفه اليومـي أو يسـتأجرها بثمن بخس من مكتبة قريبة ويمضي الأمسـيات يقرأ ويقرأ وتنشـطّ به مخيلته فيتقمص أبطالها ويكتب ملاحظاته، لاحظت أمّه هوسه بقراءة الكتب فكانت تنفحه نقوداً ضعـف ماتعطيه لإخوته، ولطالما وفّرت له أمه تلك النقود الإضافية بعد ضغطها لنفقات عائلتها الكبيرة التي تعتاش على راتب أب يعمل في التدريس...

قالت لوالده: نادر سيكون له مستقبل عظيم..

ـ فليدرس الطبّ أو الهندسة..

ـ بل هو يحلم أن يكون عالماً مثل آينشتاين..

ـ أنتِ من يشجّعه على هذه الشطحات، أين نحن من آينشتاين؟؟ الولد متفوق، مالنا والأحلام؟ فليكن طبيباً، ذلك خير له ولنا..

كان يهمس لوالدته:

ـ أمي، سأكون عالماً ومخترعاً وسألتقي كبار علماء العالم الذين أقرأ عنهم وسأحدثهم عن نظرياتي..

عندما اختار دراسة الفيزياء لم يخطر له أنه سيبقى محض مدرسٍ يقوم ببعض التجارب الصغيرة لطلبته في مختبر المدرسة وينتهي به الأمر إلى هذا الأفق المغلق، إنكسر حلمه الذي عاش يغذيه ويرعاه طوال أعوام الصبا والشباب، قدّم طلباً لإكمال دراسته العليا في معهد ماساتشوستس التقني MIT الذائع الصيت لعله يجد منفذاً لتحقيق بعض أحلامه فرفضوا طلبه لكونه خاضعاً للتجنيد الإلزامي، ومع انكسار الحلم تهاوى شيء ما في أعماقه وتمزّقت صلته بالعالم الخارجي، إستقال من التعليم وعاش عزلة رافضة لمجتمع قاتل للأرواح والأحلام..

تسللت نهى شبه نبع رقراق إلى جدب حياته بسبب فونوغراف أديسون المنقرض، أدرك أن لأديسون دوراً في استعادته لقدرة الحلم والتخيل، ألمْ يخترعْ أديسون أشياء كثيرة أنارت عالمنا وغيرت هيكلة الحياة؟؟ عندما زارته نهى آخر مرة في غرفة مختبره فوجئت بصورة أديسون معلقة إلى جانب صور فيزيائيين عظام: آينشتاين وفاينمان ونيلز

بور وشرودنغر، إبتسمت ولم تعلّق، لاحظ إبتسامتها المتواطئة وهي تتأمّل صورة أديسون..

أحبّ نادر إعتداد نهى بنفسها واعتزازها به وبقدراته وإيمانها بجدوى الحب في عالم خرّبته الحروب والإقتتال وحقارة السياسة، منحه الحب منظاراً يرى عبره العالم بأبعاد متعددة فيشكل صورة مجسدة للوجود، دخول نهى إلى حياته منحه وعداً بحياة أخرى غير تلك الحياة التي كان يعرفها مؤطرة بحدود نافذته ومحصورة بين آلاته الصغيرة ونظرياته وأحلامه المحبَطَة.. قال لنهى من بين ماقاله لها: ـ ـ أنت أشد مضاء وعزيمة مني لأنك خضتِ معترك الحياة غرباً وشرقاً وحسمتِ أمر زواجك البائس بإرادة فعالة دونما تردد أو مراوغة، أمّا أنا فلم أجرّب المجازفات إلا كجندي مُرغم على خوض حرب لايؤمن بها وكان عليه أن يهرب منذ يومه الأول في المعسكر، وها أنتِ ترين انعكاس آثار الحروب والعوز والعنف الأهلي على حياة هذا الذي كان فيزيائياً حالماً يوماً ما، ولطالما كنت أشفق من تغيير نمط حياتي لولا أنك بزغتِ كالشمس في أفقي المعتم وأيقظتِ بي شهوة الحياة ذاتها..

عصرهذا اليوم إتصل به صديقه فراس ليخبره أنه أنجز تصليح ذراع الفونوغراف وسيأتي في الساعة السابعة ويحضر معه سمكة ليقوموا بشيّها في فرن البيت بعون من منال، يعلم نادر أن ثمة قدراً من الاستلطاف يبديه فراس نحو منال، وهما من بيئة اجتماعية واحدة ويناسبان بعضهما في المواصفات العامة، غير أن أخته منال تجهر برفضها القاطع للإرتباط قبل أن يتزوج نادر ويجد إمرأة محبة تليق به وتبهج حياته بدل أن تشقيها...

في اليوم التالي كان على هناء ونهى الذهاب لإصطحاب نادر وأخته

منال إلى بيت نهى، الريح غدت وديعة بعد نهار عاصف وشمس نيسان الرقيقة تلامس بأشعتها الأشجار والعشب وزهور اللاتينيا والمنثور وتهيج أشذاء الحدائق طوال النهار وتدفع بدفئها الحميم مجموعات من الطيور إلى التقافز وإطلاق الضجيج وهي تتأهب للتزاوج في يقظة الربيع. إنهمكت والدة نهى بعد ذهابهما بإكمال متطلبات وليمة العشاء وإعداد المائدة في انتظار زوّارها، تأنقت وقالت لجابر: أنا سعيدة إذ أراك فَرِحاً بزوارنا، قال جابر:

ـ أليس جميلاً أن نعود للحياة الطبيعية ونستقبل ضيوفاً بعد عزلة طويلة؟

إستقبل نادر ضيفتيه نهى وهناء وهيأ القهوة وطبق الحلوى، قال لهما:

ـ منال ترتدي ملابسها، وستأتي بعد قليل...

قرّرت منال أن وجودها مع نادر سيخفّف من حرجه بين أناسٍ يراهم للمرة الأولى وهي تقدّر حجم إحساسه بالغربة مع الآخرين منذ أن إستغرق في عزلته التي أختارها رداً على اختلال الأوضاع واندحار الإنسان في بلاده..

بدا نادر مسترخياً ومَرِحاً في قميصه الأصفر وسرواله الرمادي، شعرت نهى بالرضا والبهجة الغامرة عندما رأته مستعداً للخروج دونما تملص أو أعذار كما حصل في المرات السابقة، حمل كيساً من البلاستك وأخرج ذراع الفونوغراف بيده وقدمه لها، همست له:

ـ ممتنة لكل شئ، ممتنة لك نادر...

أطلّت منال وبدت في غاية الأناقة وهي ترتدي بدلة من جاكيت وبنطلون باللون البيج مع قميص وردي...

صاحت هناء: الله، الله، ما أجملك منال..

علقت نهى: كم أنا سعيدة لأنكما ستزوران بيتنا..

ردّت منال: منذ سنوات لم التقِ بالست ميادة، كم أتوق لرؤيتها..

قال نادر: منال ألا تشربين قهوتك؟؟

أصـدرت هناء أوامرهـا: كفاكما مجاملات، تأخرنا، سنشـرب القهوة هناك من يد نهى، هيا هيا، أسرعوا، أكملوا حديثكم في السيارة...

عقبت منال: ياللك من متجبرة ياهناء، تتحكّمين بنا كما تشائين..

أطلقـت هنـاء ضحكتهـا المجلجلة: أن أعمل سـائقة لكـم أمر يتطلب الإلتزام بأوامري، الوقت يداهمنا، لايصحُّ أن نتأخر أكثر عن وليمة أختي..

قدّمت نهى ضيفها نادر إلى والدها فرحّب به وشكره لإهتمامه بموضوع الفونوغـراف، دخلت والدة نهى، نهض نادر وسـلّم عليها وعانقتها منال وقالت:

ـ كم أنا آسـفة سـت ميادة لأنـي انقطعت عن زيارتكم منذ سـنوات بسبب إنشغالاتي وسفر إخوتي، لكني كنت أتابع أخباركم من هناء..

قالت ميادة: لاتأسـفي عزيزتي منال، كلنـا مُقصّرون، أوضاعنا المربكة تتحكم بنا ومشاكلنا تتعقد كل يوم، متاعبنا بعمر نهى...

تدخّلت هناء: حسـبكما شكوى، هيا دعونا لانلتفت للمتاعب والأسف ولننظر إلى الغد... والتفتت إلى جابر الكتبخاني وقالت بنبرة مرحة:

ـ زوج أختي الغالي أستاذ جابر، ما الذي تطلبه بعد؟؟ هاقد حقق لك نادر أمنيتك بتصليح ذراع الفونوغراف، فماذا ستفعل؟؟

ضحك جابر ونهض: أقلُّ مايمكن أن أفعله دعوتكم الآن للعشاء، وصلت الإشارة من ميادة، هيا إلى غرفة الطعام..

أخذ بيد نادر واتّجه به نحو غرفة الطعام:

ـ أشعر بالامتنان لجدي صبحي الكتبخاني صاحب المذكرات والفونوغراف لأنه كان السبب في لقائنا، سعيد بتشريفك لنا أستاذ نادر، سمعت الكثير عنك من هناء و نهى، أنا مثلك إعتزلت العالم ولكنك تعيش عزلة منتجة، تعمل في نظرياتك وأجهزتك، أنا لاعمل لي سوى القراءة ورعاية الحديقة..

قال نادر: القراءة عمل منتج أستاذ جابر، مثلما هي رعاية الزهور التي تعني تخليق الجمال وإيقاظ البهجة التي غيبتها حوادث أيامنا المريعة. أنت توقد ضوءً في عزلتك، تنيرُ كوكبك الخاص من مجرّة الفكر والطبيعة...

جلس الجميع حول المائدة، إنهمكت نهى بتقديم المقبلات لهم بينما قامت هناء بإحضار أطباق الطعام مع أختها ميادة، لم يأكل نادر إلا القليل ولبث يتبادل الحديث مع والد نهى: تحدّثا عن إقتصاد البلد المنهار والحريات المصادرة، تحدّثا عن الدبلوماسية الفاشلة وأزمة الطاقة والتعليم واهتماماته الفيزيائية التي لم ولن تجد لها صدى في هذا البلد الذي تخيم عليه غمامة التجهيل والخرافة، تحدّثا عن العرفان وقوة الروح ومجالدتها للألم عندما تكون الأرواح بمنأى عن الجشع والتغالب، ولولا هذه الأحاديث لما صمد نادر على المائدة، كان متوتراً ومشغولاً بنهى وهو يتحدث عن أهمية التعليم الألكتروني عن بعد في جامعات مجانية وعن الإشارات الروحية التي تنبئه بحوادث مبهمة لكنها سرعان ما تتضح وتتجلى في هيئة حضور بشري..

قال جابر الكتبخاني: لم يخمد الأمل في روحي، مازلت أرى في جيل قادم قدرة على محو السحابة السوداء وإطلاق النور من أعماقهم..

ـ الأمل وحده لايكفي أستاذ جابر، نحن نراهن على وهم، التعليم أساس حلّ معضلتنا، ليس في بلدنا تعليم حقيقي، هنا مناهج تروج للغباء والتواكل، مناهج عمياء تقتل الصوت الحر والمبادرة وتدجّن الأطفال ليكونوا قطعاناً تُساق نحو فنائها المحتوم..

لبثت نهى قلقة تدور، جلست قليلاً في مواجهة والدها ونادر، وتكررت رؤيا الرجل في ذهنها، منحتها الرؤيا هذه المرة ملامح نادر، ثم تلاشت بعد أن أحدث الجميع جلبة من ضحك وعبارات مجاملة وهم يغادرون المائدة، ذهب والدها ونادر إلى غرفة المكتبة ولحقت بهما تحمل ذراع الفونوغراف، أخرجت الجهاز العتيق بعناية وحذر كأنها تتعامل مع طفل رضيع هشّ العظام، أزالت عنه الغبار بقطعة قماش ونادر يرنو إليها وتمنحه نظرة حانية وتتدفق من مقلتيها شرارات نور كغبار النجوم، يزهو نادر قليلاً بلذة السر المولود بينهما مستعيداً الكلمات القليلة العذبة التي تبادلاها واكتنزها في قلبه كجواهر ثمينة. أنجزت نهى تنظيف جهاز الفونوغراف وأجزائه المعدنية العلوية لكن صندوقه الخشبي كان قد طاله التلف من بعض الأماكن رغم طبقة القطن والأقمشة السميكة التي كانت تصل إلى منتصف ارتفاع الصندوق الكبير كوسادة لينة تحميه من الصدمات...

ـ تفضل أستاذ نادر، الآن يمكنك أن تعمل...

فتح نادرخريطة مطبوعة عثر عليها في الإنترنيت تعود إلى جهاز فونوغراف أديسون الذي صُنِع أوائل القرن العشرين، وشرع يركّب

الـذراع الذي ينتهي بالأبرة ثم ضبط الـذراع الجانبي الذي يقوم بتعبئة الجزء اللولبي داخل الجهاز فتعمل الآلة..

ـ أين البوق؟؟ سأل نادر..

قالت نهى: أوووه حقاً، لعله في قعر الصندوق داخل طبقة القطن..

أخرجـت قطع القماش وطبقات القطن مـن الصندوق الكبير فلم تعثر على شيء..

قال الأب: ضاع جهد الأستاذ نادر هباء..

قال نادر: الحصول على بوق مناسـب أسـهل مـن تصليح أي جزء من أجزاء الفونوغراف، لدي الخريطة وسوف أعمل على صنع البوق من لوح نحاسي، لاتهتم أستاذ جابر، قد نجد بوقا لدى أحد باعة الأشياء القديمة، لاعليك، دع الأمر لي..

قالت نهى: سأبحث أنا، لن أكلفك جهداً أكبر يانادر..

ـ بل نبحث معاً..

ـ حسناً، قال الأب، كلٌّ منكما يبحث من جانبه ونرى ماسيحصل..

خرجـت منـال ووالـدة نهى إلـى الحديقة وجلسـتا علـى مقاعد من الخيزران لها وسـائد مخططة باللونين الأبيض والأزرق، قدّمت لهما هناء الشاي وقالت وهي تبتسم:

ـ الجماعة منهمكون بالمعضلة الفونوغرافية، قالوا نشـرب الشاي بعد نجاح المهمة...

إلتحق الثلاثة بالنساء المستغرقات بأحاديث حزينة عن الراحلين والمهاجرين وعن احتمال غرق الموصل وتكريت وبغداد بانهيار سد الموصل الذي ظهرت فيه صدوع خطيرة ولم تعالج بحُقَن إسمنتية خاصة..

قدّمت هناء الشاي للرجلين ونهى وقالت:

ـ أخبرونا ياجماعة، هل نجحت المهمة؟

ضحكت نهى: لم نجد البوق، مانفع الفونوغراف دون بوق؟!!

الفصل الثامن

سادةٌ جُدُد


https://telegram.me/maktabatbaghdad

سادةٌ جُــدُد

تفتح نهى المجلد الأخير وتقرأ مادوّنه صبحي الكتبخاني:

يــوم الخامســ عشر من تشرين الثــاني ١٩١٧ ، بعــد أيام من إعــلان الهدنة بين العثمانيــين والإنكليــز وتوقيع المعاهدة بـين الحلفاء وتركيا وألمانيــا، زرت والدتي، كانت أختي ألفت قد استعادت بعض صحتها، بدت أختي بديعة فرحة متألقة..

همست لي أمي: أخيراً وافق والدك على خطوبتها من إبن أحد اصدقائه التجار، وهي منهمكة مع الخادمات في تهيئة متطلبات المخطوبة من ثياب وحلويات..

– وما أخبار والدي؟؟ وأخي نشأت؟؟

– والدك خرج مبكراً، بدا مهموماً وحزيناً كما كان طيلة الصيف منذ انسحاب الجيش العثماني ودخول الانكليز إلى بغداد، ونشأت منشغل بأمور التجارة ولانراه إلا قليــلاً، لكن والدك غاضب منه ؛ فقد سمع أنه يزور بيت (ريجينة موردخاي) و يلتقي ببنات مريم خان الفارسية هناك ولم تنفع توبته التي أعلنها لوالدك..

إنشغــل الناســ تلــك الأيام المضطربــة بأمريــن: إستسلام الأتــراك وانسحاب جيوشهم مــن بغداد، ووباء الكوليرا الذي كان يحوم بجناحيه الأسودين في أجواء بغداد منــذراً بمزيد من الفواجع، وأما الرجال أمثال والــدي ممّن لاتروق لهم الحياة دون أن يكونــوا تحــت جنــاح السلطة فلابد أنــه سيقوم بما أتوقعه منــه بعد أن رحل الســادة المهزومون أخواله الأتــراك وبات عارياً مكشوفاً بــلا سند من سلطة تحميه

وتحمـي أملاكـه وتجارتـه ومايتبع ذلك من حياة رفـاه على الطـراز السلطاني: بيت لمحظيات لاأحد يعرف أسراره وأسرة محصنة وتزمّت زائف ونكران للحق مالم يكن في مصلحة ثرائه وازدهار أعماله..

قالت أمي:

– كلنـا خائفون يا صبحي، إعـتن بولدك وزوجتك ولاتدعهمـا يغادران البيت أبداً..

– أنا حريص عليهما يا أمي، لاتخشي شيئاً..

– قبـل أيام عجبت من أمـر أبيك ؛ فلم أره مرتبكاً وحائـرا كما هو الآن، إندلع حريق في الأسطبل، لانعرف من رمى ناراً فوق تبن العلف، صهلت الخيول واندفعت تعـدو خـارج الاسطبل نحو الفناء الخارجـي وساقها البـواب إلى البستان وانشغل الباقـون بإطفـاء الحريق، مهـرة صغيرة بقيـت في الإسطبل وخرجـت تصهل وبين قوائمهـا أكوام علف مشتعـل وهي تنفض جسمها بجنون، حملـتُ عصا وأزحتُ العلـف المشتعل من بـين قوائمها، وانشغل والدك وإخوتـك والخدم بمعالجة الخيول المصابة..

في ذلك اليوم إهتاج والـدك كعادته وزجر الجميع وتوعّدهم بالقصاص، وتعلم أنـه حاد وعنيد وقاسٍ، لكنه تغير كثيرا منذ عودتـه من حلب خائباً لرفض مصطفى كمـال باشا لمطالبه، لم يهتم القائد التركـي بما عرضه عليه والدك، بل قال له غاضباً: القيـادة هـي التي تقرّر مـا ينبغي القيام بـه في بغـداد، عليك وعلى أهـل بغداد أن تواصلوا مقاومة الإنكليز..

فقـال له والدك: الجيشـ العثماني جرّدنا مـن الأسلحة فكيف نقـاوم طائراتهم مصطفى باشا؟؟

قال له: الأفضل أن تعود إلى بغداد وسنرى مايفعله الجيش المتبقي هناك، لاتشغلونا بطلباتكم، نحن في حالة حرب كبيرة..

وعاد من حلب مريضاً يأكل قلبه الندم لأنه فشل لأول مرة في تحقيق مايريده، كان الوالي ومن سبقه يحترمون والدك ويلبّون له كل مطالبه..

– كانوا يلبونها لأنه يغرقهم بالهدايا، سيجد سبيلاً لتعويض هذا الفشل، أعرف أبي جيداً، لن يستسلم..

– طلب مني اليوم أن أهيئ له البدلة الإفرنجية، لكنه تراجع عن ذلك بعد تفكير و قال:

– أم صبحي، جهّزي لي الصاية الشعرية وشال الترمة الكشميري والثوب الكتان والعباءة النايين والطربوش الجديد..

أعدْتُ البدلة الافرنجية المصنوعة من الجوخ الانكليزي إلى خزانة الملابس وأحضرتُ له ما أراد..

قال: أم صبحي، أريد أن تحضري لي القهوة بيديك اليوم..

أحضرت القهوة كما يحبها وأنا مستغربة لسلوكه الناعم الغريب ؛ فلم يسبق له أن إحتسى قهوته بيننا بل كان يحضرها له الخدم في الآوجاغ، شرب القهوة و صمت طويلاً وأنا جالسة أمامه، ثم قال:

– أم صبحي، ألا ترين ذهابي بهذه الملابس البغدادية غير مناسب؟؟

– وإلى أين تنوي الذهاب إسماعيل بك؟

– لدي موعد مبكر مع تجّار يهود من أصدقائي صيون زلخا ويعقوب خزّام وموشي حنون، سأمرُّ عليهم بعربتي ونذهب مبكّرين إلى مدرسة الأليانس، هناك

حفلة دعي إليها القائد الانكليزي الجنرال ستانلي مود، حكى لي صيون أنهم سيقدّمون تشخيصاً لتمثيلية انكليزية وسيمثل أولاده فيها..

- على هذا فالأمر يستلزم يا إسماعيل بك أن ترتدي البدلة الإفرنجية ؛ فأنت ستقابل قائد الإنكليز..

- أترين ذلك؟؟

تقول أمي: عجبتُ لهذا ؛ فهو لم يستشرني في أي أمر طوال حياتي معه، مالذي جرى؟ رأيت نوعاً من التردد والحيرة على قسماته..

ثم قلت له: ماتراه أنت لابد أن يكون مناسباً لهذه الحفلة، أنت أعرف مني بهذه الأمور إسماعيل بك..

قال لها: قد يعيب عليّ معارفي التجّار هذا التغيير المفاجئ..

- إسماعيل بك، ألست أنت القائل: المصالح تقتضي أن تكون كل يوم بلون وكل يوم بصورة؟؟

- بلى، قلت ذلك، نعم، إنها متطلبات اليوم، سأرتدي البدلة...

تقول أمي: عاد والدك من مدرسة الأليانس متهلل الوجه، سألته:

- كيف كانت الحفلة؟

- حضوري كان ذا فائدة عظيمة: دعاني الجنرال مود لزيارة مقره، وهذا غاية ماأرجوه، عرفت أن الحفلة أقيمت من أجله، قرأ المعلمون خطابات باللغة الإنكليزية والعربية وقدّم الطلاب تمثيلية، كانوا يرطنون بالإنكليزية ولم أفهم شيئاً لكنني قرأت في الورقة أنها من صناعة شاعر إنكليزي قديم إسمه شكسبير، قدّمني صيّون زلخا

إلى القائد فرحّب بي الجنرال مود وقال لمرافقه، سجّل في المفكرة أن ندعو إسماعيل بـك لزيارتنا في مقـر القنصلية، دعه يلتقي مساعدنا الجـنرال وليام مارشال. قدّموا لنـا القهوة والكيك وطلب الجنرال أن يُضاف الحليـب لقهوته كما اعتاد في بلاده، واستمرّت التمثيلية لكن الجنرال مود بدا متوعكاً واعتذر وغادر مع مرافقيه...

بعد ثلاثة أيام عاد والدك مكدراً حزيناً، رفض أن يتناول عشاءه، قال:

- الكولـيرا، لعنـة الله عليها أهلكت الناسـ وقتلت الجنرال مـود، قال الأطباء أن الحليـب الذي شربه مـع القهوة في حفلة الأليانسـ كان السبب، بعض الإنكليز أشاعـوا أن القهوة مُزِجت بالسمّ، قيل إنها عملية اغتيال، لاندري من نصدّق: أهي كوليرا أو أغتيال؟؟

- لاتشغل فكرك إسماعيل بك، الله يحمينا ويحمي أولادنا..

- لا عليك، سأرتاح في غرفتي..

تـرك أبوك هذه الجريدة، ورأيت فيها صورتـه المهيبة كأنه من أمراء بني عثمان، أنظر: ألا يليق به أن يكون الصدر الأعظم؟؟

- فات الأوان على مثل هذا يا أمي. ترى ما أخبار الإبن الذي جاء به والدي من المحمودية؟؟

- تعنـي أخاك بهجت؟؟ هو ولد جميل وفاهم ماشـاء الله، إنه في المدرسة، صار رجلاً وهو يشبه والدك تماماً...

- كم عمره الآن؟؟

- حسب قول والدك عمره الآن أربعة عشر عاماً..

- سـأراه قريبـاً، لابد أن أغـادر الآن ؛ فالأوضاع تنذر بالشـر في بغداد وجيش الإنكليـز يقـوم بدوريـات في كل مكان بعد وفـاة الجنرال مود ولابـد أن أعود إلى البيت...

إنه الحب

سريعا كريح الشمالْ

سأحمل قلبي إلى عتباتِ الحبيبْ

حافظ الشيرازي

تمضـي نهى ليلة عمل طويلة وهـي تدقق المجلد الأخير للجد صبحي الكتبخاني، ولم يتبقَ لديها سـوى مجلد إبنه فؤاد جدها، تفتح الكومبيوتر لتطبع الصفحات التي أنجزت تدقيقها وكشفت الممحوّ من كلماتها، تجد رسـالة ألكترونية من حياة، كانت على موعد قريب للقائها، ماحاجتها إلى رسالة؟؟

To: nuha-iraq@yahoo.com

From: hayat - babily@yahoo.com

دونما مقدمات عزيزتي نهى، دونما تمهيد أعترف لك: إنه الحب...

ألـم أخبـرك بأنني لـو وجدت الرجل الجديـر بي فلن أتردّد وسـأطلبه لحياتي وأهبه ماتبقى لي من زمن؟؟

إنـه الحب أجل، أطفـو الآن في بحر من الألوان والموسـيقى، عالمي

منسوج من الشوق والدفء والحوار الذي يتواصل ليل نهار دون أن ينطق أحدنا بكلمة واحدة، بل إننا لم نعد نميز بين ليل ونهار ؛ فالزمن ممتد بنا ولنا، رمينا ساعاتنا وماعدنا نعترف بالتقاويم، الفجر يشبه الغسق المسائي والظهيرة هي منتصف الليل، وأنا أعرف من أكون للمرة الأولى مع هذا المحبوب، أنا الآن حياة البابلي، لست زوجة أحد ولاحبيبة سواه: أنا حياة، وهذا هو حبي الأول، كل ماسبقه كان محاولات للبحث عنه، كل قصة عشتها كانت محض تمرين قادني إلى طريقه وأعانني على معرفة الحب، صوتي صار صوت امرأة حقيقية، رائحتي رائحة انثى عاشقة، لن تصدقي ما أنا عليه الآن، لن تصدقي..

إتصلت بعمي الشيخ قيدار وقلت له:

ـ عادت حياة إلى الحياة، أنا الآن إبنة أخيك التي عرفتها صغيرة، أنا باكتمالي ولست قناعاً أو حطام إمرأة..

ضحك عمي وقال: تقدّمي على هدى الروح وحدس الفؤاد ؛ فما تجلى لك الآن هو المراد المشتهى، لن تمكثي في بغداد بعد الآن، إصحبيه وتعالا إليّ...

سأغادر مع الرجل الذي أيقظ روحي وأعاد لإسمي وهج الحياة، لاتسأليني كيف ومتى وجدنا بعضنا، أخالُنا هبطنا من كوكب ساخن تخلّق تواً، أنا الضوء وهو اللهب، أنا النهر وهو المطر، أنا الحب الذي استيقظ وسط مدينة الخراب، وبغداد بقتلتها وعصاباتها ورعبها ماعادت تتسع لنا، سأترك كل شيئ بعهدة راوية وزوجها حامد وربما يجعلان من بيتي مأوى لليتامى الذين ترعاهم صديقتنا، صباح الغد سنتوجه بالطائرة إلى أربيل ومنها إلى القرية حيث يعيش عمي، جواز سفري مايزال بإسم آسيا

كنعان، ماعاد الأمر يعنيني طالما إستعدت نفسي ووهج إسمي بالحب، كنت كائناً محنطاً بالأوهام ومختنقاً بالكوارث وها أنا الان إمرأة تملك جوهرها وصوتها وتستعيد أنوثتها: أنا حياة العاشقة..

ليباركني قلبك، وآمل أن تعثري على روحك وإسمك في نظرة رجل جدير بك، عندها ستكتبين لي بلا تحفظ، أحدس أن لديك سراً، وهج العشق لايخفى على إمرأة مثلي...

بلّغي تحياتي لوالديك العزيزين.............

حياة البابلي: ١٠ تموز ٢٠١٤

تفكر نهى: كأن (حياة) وجهي الآخر وذاتي الخفية، الوجه الشجاع الذي يمضي نحو مقاصده دونما التفاف أو مداجاة، كلانا تعيش وهج العشق وإنْ بطريقة مغايرة، هل بوسعي أن...؟ لا أدري، قد يحصل مالا أتوقعه.. كل شيء رهن بوقته، الحب ساحر جميل، إنه المخيلة منسوجة بالرغبة والأمل، عندما نكون في أوج حالة العشق تسندنا المخيلة في ترنُّحنا بين الحرمان والشهوة الخلّاقة، ولكن إلى أي حد نبقى رهائن للمخيلة، أعلم أن نادر يتخيلني ويحلم بي، يشتهي حضوري الجسدي، يضمّني و يتكامل بي، وأحلم به مثالاً للعاطفة التي ترسمها مخيلة الأنوثة، أحلم بقبلاته وعناقه وهمسه وحنانه ولطفه، أتشهى خلودنا في لحظة النشوة الخالصة أو موتنا فيها... ما الذي ننتظره لنعلن ارتباطنا ونمنح المخيلة عطلة استراحة؟؟

هل نملك كلانا أنا ونادر بعض شجاعة حياة؟؟ آمل أن نحاول، أن

نقدح شـرر وبسـالة الروح، الحب مقدام والتردد آفة المحبين: فقد يفوت أوان الإقدام، علينا أن نمسـك باللحظة السـانحة.. هل سنفعل؟؟ بل هل سـأنجح في تحرير نادر من أزمة عزلته الخانقة؟؟ هل سـأنقذه من أخيلته الموجعة عن الناس وخراب النفوس؟ هذا هو التحدي الأول وعلى هدي نجاحي في تحطيم قوقعته يمكن لنا أن نشرع في تصميم حياتنا المشتركة هنا أو في أي مكان آخر.. أي مكان..

تفتـح نهى المجلد الأخير لجد والدهـا صبحي الكتبخاني، الحوادث تتسـارع، والنـاس تتهـاوى، والبلاد فـي مهب عاصفـة، ومايجري جدير بالتدوين، لابد أن الجد كان مثابراً على الكتابة حتى وهو في أسوأ حالاته النفسية وبوادر ضياعه ـ كم أشفق عليه!!... تقرأ:

منذ زمن لم أجلس مع إبني فؤاد لنتحدث حديث رجل لرجل كما اعتدنا، ناديته فقالـت أمه: إنـه يقرأ أحد كتبك في غرفـة الضيوف، ذهبـت لأستطلع مالذي يثير اهتمـام الولـد اليافع من قـراءات، كان مستغرقاً في قراءة كتـاب (علم الإجتماع) لهربـرت سبنسر، يـا إلهي ما الذي يورّط نفسه فيه هذا الصبـي؟؟ لم أقرأ أمثال هذه الكتـب إلا في الأستانـة فأنىّ له أن يفقه محتواها العصي علـى أفهام اليافعين؟؟ كنت أتمنى أن يقرأ الكتب الممتعة التي تروق لمن هم في سنه، أسأله:

– ما الذي فهمته من هذا الكتاب؟؟

– أعجبني فيه أنه لامكان للضعيف وسط عالم يتصارع فيه الأقوياء..

أذهلتني إجابته وسألته:

– وبعد، ما الذي أثار انتباهك أكثر من سواه؟؟

– رفضه للمجتمع العسكري الـذي يتجه نحو الحرب دائماً، وتفضيله المجتمع

الصناعـي لأنه يتجه إلى التعاون، ولكني لم أفهم نـوع مجتمعنا، كيف تصنّف مجتمعنا يا أبي؟؟

– مجتمعنا لم يتشكّل بعد، لاهو عسكري ولاهو صناعي، إنه لايزال مجتمعاً بدائياً، لم ينظـم عسكريا ولا توجد فيـه صناعات مهمة مثل دول أوروبا ليستحق وصف « المجتمع الصناعي «..

– أيعني هذا أننا نعيش بلا مجتمع؟؟

– نحن نعيش كبيوتات وعوائل متفرقة وعشائر وجماعات متعصبة..

– أفكر أنني عندما أكبر سأحاول أن أغير مجتمعنا إلى مجتمع صناعي..

– لماذا؟؟

– لأنه الأفضل..

– ولكننـا مجتمع تسـوده الأمية والجهل ياولدي وأهـم مايجب التركيز عليه هو التعليم..

– وغير التعليم؟؟

– أن نثقّـف المجتمـع بالصحف والكتـب ليتعلم الناس كيـف يفكرون وكيف يتماسكون في مجتمع جديد..

– هل أستطيع أن أصبح كاتباً في الصحافة؟ لماذا لاتؤسس جريدة ياأبي؟ وعندما أكـبر أعمل فيهـا،، لالا ليس هذا ما أريـد، أريد أن أكون قائـداً لتغيير المجتمع، أن ألتقي بالناس وأعلّمهم كل ماهو في صالح حياتهم...

– لاتستطيـع فعل هـذا إلا بالتعاون مـع آخرين، هذه ليست مهمـة أشخاص و ليست يسيرة ياولدي..

- نتعاون أنا وآخرون من الشباب عندما أكبر..

- ستفعل، أحلم أنك ستكون شخصاً مهماً في بغداد، ستغير شيئاً في حياة الناس وهذا يتطلب منك أن تواصل الدراسة وتتعرف إلى الناس أولاً..

- سأفعل يا أبي، ولكن متى؟؟

- سيحين الوقت بعد أن تستقر أحوال البلاد، الأمر يحتاج إلى وقت طويل..

- أبي،، لماذا لانزور أقاربنا، بيت جدي وبيت عمتي؟؟ لماذا؟؟

- سأحكي لك الخلاصة بعد عودتي مساء..

- سأنتظر حتى تعود..

اليوم هو الثلاثاء يوم صدور جريدة العرب، حصلت على نسختين من الجريدة التي أصدرها الإنكليز في بغداد، النسخة الأقدم أخذتها من والدتي الفخورة بظهور صورة زوجها إسماعيل بك الكتبخاني مع الجنرال الحاكم البريطاني العام، أما النسخة الأخرى الجديدة الصادرة بتاريخ ٢٠ تشرين ثاني ١٩١٧ فقد اشتريتها في طريق عودتي وهي مخصصة لمراسم تشييع الجنرال مود الذي توفي أول أمس الأحد..

صدرت جريدة (العرب) حديثاً عن (دائرة الأقلام العربية) التابعة للإدارة العسكرية البريطانية، رئيس تحريرها هو جون فيلبي ويساعده الأب أنستاس الكرملي الذي أختير لمكانته العلمية المرموقة ومعرفته باللغات الأجنبية واحترام أهل بغداد له، يكتب في الجريدة كبار الكتاب وتظهر كل ثلاثاء فتجتمع فيها أخبار الأسبوع كاملة وبات رأفت الخيامي من كتابها المعروفين..

في صدر الصفحة الأولى للجريدة الأقدم صورة بالزنكوغراف لحفل مدرسة الأليانس وقد كُتِب تحت الصورة: (الجنرال ستانلي مود قائد قوات مملكة بريطانيا

العظمى في حفل مدرسة الأليانس اليهودية مع وجهاء بغداد)، تأملت الصورة جيداً: كان والـدي بملابسه الإفرنجية ولحيته المشذبة وطربوشه أبرز الحاضرين الظاهرين في مقدمـة الصورة، وإلى يساره كان يجلس نجدت بك الخيامي زوج عمتي وعزت بك القـادري وأمين بك هاشم ورؤوف مصطفـى ووجهاء وتجار اليهود، أما في النسخة الجديـدة من الجريدة فقد نشـروا صور تشييع الجنرال مود الى مقـبرة الأنكليز محاطاً بأهـل بغداد والجنود البريطانيـين والهنود، وفي الصفحة الداخليـة للجريدة أبرزوا صـورة الجنرال وليام مارشال يستقبـل وجهاء بغداد: ظهر والدي هذه المرة بملابسه البغداديـة المعتادة واقفاً بين الضباط الانكليـز وبعض أعيان بغداد، تركت الجريدتين علـى منضـدة مكتبـي وطلبت مـن شاهـين أن يسخن لي الحمـام ريثما تعـد بنفشة الطعـام،،، قبل أن أستحمّ سمعنا طرقاً على البـاب، فتحت الباب فإذا برأفت الذي بدا مرتبكاً عظيم الأضطراب..

– صبحي، عيّن الجنرال وليام مارشال والدك مستشاراً للأمور التجارية في إدارة التجارة والمالية..

– ما أسرع مايحسم والدي تحولاته.. يالعجبي!!...

– أخمّـن أن الأمـر لن يستمـر طويلاً ؛ فالإنكليـز لايركنون إلى رجـال السلطة العثمانيـة إلا لمرحلة محدودة، هم عازمون علـى الإستفادة من خبرات أشخاص مثل والـدك ووالدي، لكنهم يبحثون أيضاً عن أشخاص يشكّلونهم على حسب مصالح الامبراطورية وتبعاً لمقاسات المزاج البريطاني، يريدون وجوهاً تعمل معهم دون ماضٍ عثماني..

– لعلك على صواب، ولكن ما الذي أتى بك هذه الساعة؟

– ألغت الادارة العسكرية البريطانية دائرة المكتوبي وجميع الدوائر التابعة لولاية بغداد، نحن بلا وظيفة يا ابن خالي..

ضحكت ساخراً: إذن يا أخي نحن الآن على مايرام، أحرار طليقون..

قال رأفت: لاتسخر صبحي، فكّر بحياتك وابنك وزوجتك، أنت مؤهل لعمل جيد كونك تتقن اللغة الانكليزية التي درستها في الأستانة..

- تعني أنني جاهز للعمل مع البريطانيين؟ أية مفاجآت لم أحسب لها حساباً؟!! والدي يجد لكل سلوك مسوغات وتخريجات شرعية، وها قد صرنا مثله..

- لاتخش شيئاً، زرت الأب الكرملي في جريدة العرب ورجوته أن يجد لنا عملاً كتابياً في الجريدة ووعدني خيراً، وقال عد بعد أسبوع ريثما أتدبر الأمر..

كنت في حالة من الحيرة والتشتت بين أفكاري ومواقفي من الأتراك وبين سخطي على احتلال الانكليز للبلاد، يبدو لي أن أمور الدنيا ليست بهذا اليسر والوضوح، إنها شبكة من المصالح المترابطة الخفية التي لاتظهر منها سوى بعض الخيوط..

تحدثنا طويلاً عن مصائرنا الغامضة ومصائر أولادنا، كان رأفت متفائلاً بما ستكون عليه أحوال البلاد بعد اندحار العثمانيين، وكنت على الضد منه لاأرى غير أمور مشوشة تنذر بالمخاطر الجسام، وأن حياتنا وحياة أبنائنا مرهونة بما يجري حولنا..

قال شاهين: صبحي بك،.. تفضلا جهّزنا المائدة..

- أين فؤاد؟؟

- فؤاد يدرس في غرفته، هل أناديه سيدي؟؟

- نعم، بسرعة، هيا رأفت جفّ فمي لفرط مرارة الحديث، لست مطمئناً يا رأفت لأي شيء.. في روحي رعشة رعب.. لكن هيا لنأكل ما هيأته الخاتون...

– لمـاذا لايأتي فؤاد لرؤية إبني عيسى؟ هما في سـن واحدة وسيفرحان باللقاء، أنتما تحبسان الولد وتمنعانـه من رؤية الناس، ماهكذا يُربى الأولاد ياصبحي، كيف سيواجه الدنيا وهو سجين بين أحضان أمه وأبيه؟؟

– سنأتي أنا وفؤاد معك، أنا في وضع مرتبك وماعدت أستطيع التفكير بروية. لابد أن اخرج معك ونتحدث..

– فلتأتِ الخاتون معنا، لابد أن تتعرف على وفيقة، لايصحُّ أن تبقى وحيدة...

– دع ذلك ليوم آخر، تعلم يا رأفت أن بنفشة قامت بتدريس فؤاد كتب الإبتدائية والان تعلّمه كتب المدرسة الرشدية، لكني غير مطمئن إلى مستواه العلمي، فما ترى في ذلك؟

– بوسعـي إصطحابه إلى مدرسة عيسـى وسأطلب من المدير إجراء اختبار له في جميع الدروس فـإذا نجح يضعونه في الصف الملائم لمستواه، أراه صبياً نبيهاً وبارعاً متفتـح الذهن، وسوف يضعونـه في الصف الثالث المتوسـط في مدرسة الإعدادي ملكي..

– يالهـا من فكرة سديدة، إذن سيأخذ كتبه معـه ليتهيأ للامتحان بمعونة عيسى. أتعلم يا رأفت أنه قرأ معظم كتبي، وإن كنت أشك في استيعابه لمحتوياتها لكنه قرأها فعـلا، ولطالمـا كنا نجده نائماً علـى الأريكة في غرفة الضيـوف وعلى صدره كتاب مفتوح أو إثنان..

– أرى لهـذا الولد مستقبلاً غير مستقبلنا، لابد أن نحرص على تعليمه ياصبحي ليكمـل دراسته في جامعات أجنبية هو وعيسى، سأرتـب مع وفيقة موضوع زيارة بنفشة إلى بيتنا..

- لماذا لاتأتي بوفيقة وعيسى ليزوراها أولاً ثم تقوم وفيقة بدعوتها؟؟ أليس ذلك أكثر قبولاً؟؟

- سأتحدث مع وفيقة ونأتي ثلاثتنا أنا وهي وعيسى..

- هل تظن أن وفيقة ستتقبل الفكرة، ألاتحسب حساباً لغضب والدي؟؟

- هي زوجتي وأنا من يقرّر ذلك وليس والدك..

إختفاء الأثر

الوداع لا يقع إلا لمن يعشق بعينيه، أما ذاك الذي يحبُّ بروحه وقلبه فلا ثمة إنفصال أبداً.........

جلال الدين الرومي

قبيل الغسق ذات مساء رائق توشّح سماءه غيوم أرجوانية، تمنيت أن نذهب أنا وبنفشة إلى البستان في شواكة الكرخ ونهجر رصافة بغداد كلها، غير أن أحوال بغداد لم تكن لتتيح لنا ذلك ؛ فالقوات البريطانية تطوق أطراف بغداد ومعسكرات الهنود من السيخ والهندوس والمسلمين والكركة تحيط بمنطقة الصرافية، هناك كنا نصحو على صياح الديكة في البستان وزقزقة العصافير على النخل واصطفاق الموج...

أعلمني رأفت أن أبي يُبدي إستياءه الدائم منذ شهور لإعتقاده أن وظيفة مستشار في مديرية التجارة أقل شأنا من وظائفه السابقة في الولاية وهو يردد أن خبرته بأمور بغداد وأهلها خبرة عمر لايمكن أبدا أن يبلغها جنرال بريطاني، وعندما بيّن لهم إمكانية أن يفيدهم بخبرته الطويلة في الإدارة العثمانية كلّفه الجنرال بشؤون العشائر إلى جانب الإدارة التجارية، لكنه بقي غاضباً ؛ فهو ما اعتاد أن يكون تابعاً للسادة الجدد بعد أن كان رفيق الوالي ومستشاره وله هيبة يقدّرها الصدر الأعظم ومصطفى كمال باشا قائد الجيش العثماني،،، هو مازال يعيش في ظلال السلطنة

ويعتقـد أن السلطان محمـد وحيد الدين سيرسل جيوشـه ويستعيد بغداد من أيدي البريطانيين فتعود له هيبته و مكانته القديمة...

أسرّني رأفت أن والدي يشكو من وهن صحته وهو لما يبلغ الثالثة والخمسين من عمـره، وهمس لي أنه وجده شاحباً عصبي المزاج ويشكومن عطش دائم وانحسار البصر...

خفّفـت رؤية أختي وفيقة واحتفاؤها بإبنـي حزني واضطرابي ؛ فقد إبتهج فؤاد برفقـة عيسى الذي تعلق به وتضرع إليّ أن يبيت عندهم وأوصيت وفيقة أن تهتم به ولاتدعه يخرج من الدار..

منـزل رأفت يماثل إلى حـد كبير منزل أهلي: منزلٌ ثلاثة طوابـق وله فناء واسع تتوسطه حديقة غنّاء فيها بئر يفتقر إليها بيتنا الذي اشتريناه بعد أن بعنا بيت النجيبية قرب الباب المعظم، إختلفت حياتنا حين هجرنا قصر البستان على النهر، لكن بنفشة – برعايتهـا وحبها – لم تدعنا نشعر بالفارق الكبير بين حياتنا في القصر وبين انتقالنا إلى هـذا المنزل الصغير ؛ بل جعلتنا نحس بأننا أغنـى الناس وأكثرهم سعادة وتآلفاً، لبثت تدللنا بما تتقن من فنون الطعام الأفغاني والفارسي والتركي، تغني لنا، تعلّم إبننا العلوم واللغات التي تتقنها والمعارف التي تعلمتها من قراءتها لكتبي الكثيرة، لكنها أورثتـه مَلَكَة الأحلام التـي سرعان ماتتحقق في أيام تاليات، حدثنـي أمس أنه رأى حلمـاً مخيفاً وأنه بكى عندما استيقظ صباحـاً، قلت له: تعال إحكِ لي حلمك، تردد وخاف وارتعش، قلت له: إحكِ لي ما الذي أخافك؟ عانقني وهو ينشج وقال:

– أبي، رأيت نفسي وحيداً في مكان غريب وقد تركتُماني أنت ووالدتي ولم أكن أعرف أين كنتما، بكيت في الحلم وبكيت بعد إفاقتي من الحلم..

– لاتهتمّ بالأحلام إلى هذا الحد..

– أمي تقول إن الأحلام إشارة لشيئ سيحدث..

– دعك من كلامها، لاتأبه لهذا..

كنت أعود إلى البيت فأجدها تسجل لنفسها مقاطع من غنائها على أنابيب الفونوغراف الأسطوانية، فأسألها:

– ماذا تفعلين ياروح روحي؟؟

– لاعليك، ستسمعُها ذات يوم..

عدت وحدي ذلك المساء إلى بيتنا في منطقة الصرافية قبل حلول الظلام، طرقت باب بيتي طويلاً حتى فتح لي شاهين وهو يحمل فانوساً لينير لي الطريق، كان وجهه شاحباً ونظرته زائغة...

– صبحي بك الخاتون.. الخاتون..

– مابها؟، ماذا حلّ بها؟ أنطق أين هي؟

– إختفت من البيت، بحثنا عنها ولم نجدها..

– متى وكيف؟؟

– عند صلاة العصر، أرسلتْ الخاتون الحارس لشراء بعض الحاجيات وطلبتْ من إمرأتي أن تعدّ الخبز للعشاء فانشغل الجميع، وكنت أصلي في حجرتي...

– كيف؟ أين ذهبت؟؟

– لاأحد يعرف، لانعرف صبحي بك..

لم تعتد بنفشة الخروج وحدها في بغداد ؛ فهي لاتعرف أحداً ومنذ سنوات

قطعت صلتها بمعارفها ممن كانوا يحضرون مجلس الغناء. أين تذهبين يابنفشة؟؟ ما الذي يحصل ياإلهي؟؟ ماكنت أصدق أقوال الحكماء بأن سعادة المرء لاتدوم، مطعون أنا، أصاب عقلي شللٌ فلا أستطيع التفكير بشيء، لم أتمالك نفسي، بكيت، أحسستُ بأطرافي تتخشب فسقطت على الأرض، حملني شاهين ووضعني على الأريكة الكبيرة وأحضرت إمرأته ماء ورد ورشّته على وجهي وشاهين يصرخ: صبحي بك، سيدي، صبحي بك..

لاأذكر كم يوماً لبثت فاقداً للنطق، ربما خمسة أيام أو أكثر، ماكنت أعي مرور الزمان، وكان شاهين وزوجته يعدّان لي الطعام فتعافه نفسي وأسترسلُ في النحيب..

حضر رأفت وحده وبدا مهموماً مكدراً، عانقني واستغرب من حالي، روى له شاهين ماكان من أمر بنفشة وما أصابني من إغماء وذهول..

– تحامل على نفسك ياصبحي، ماعهدتك تستسلم للأحزان، هيا، لابد أن تتناول طعاماً، إنهض، هذه ليست حال رجل نعتمد عليه...

– هل تصدق يارأفت؟؟ هل تصدق؟؟

– لن أصدق، لابد أنها ستعود، لاتحزن، لن تهجرك الخاتون، لابد من خطأ ما، عليك أن تكون قوياً، ستعود الخاتون، لايمكن أن تبتعد عنك..

– تغيب كل هذه الأيام؟؟ وتقول أنها ستعود؟؟ ما أدراني ماحصل لها؟؟ ما أدراني أنها اختطفت أو أن مكروهاً أصابها؟؟

– هوّن عليك، سأذهب لأبلّغ وفيقة ويبقى فؤاد في رعايتها، وسأعود لأعتني بك، سأحضِرُ طبيباً إنكليزياً من معارف والدي، لابد أن يراك الطبيب..

– وبنفشة؟؟ كيف أسكت عن إختفائها؟؟ تريدني أن أسكت؟؟ كيف هذا؟؟

– قد تعود، ستعود........

عطر بنفشة خاتون

البنفسجة رسولة عطارد

عبيرها يمرّغ الأسى بالرغبة

طفلة الجمر وبدء الخليقة، البنفسجة تغمر الوقت بخضاب التشهي،

تدوزن أهواءها على عروق العاشقين....

إصطحب رأفت طبيباً إنكليزياً وآخر هندياً، وأجمع الإثنان على أني مصابٌ بالكآبة السوداوية (الملانخوليا) ولم يُخفيا عني أمر سقمي، وصف لي الطبيب الإنكليزي عقاقير وأشربةً حضّرها صيدلاني في الجيش البريطاني غير أنها لم تنفع وكان الأرق يعاودني وانخرط بالبكاء طوال ليل وحشتي بعد غروب شمس حياتي بنفشة، ثم أناجيها بصوت مسموع مثل مجنون، وأهذي طوال الليل والنهار...

عمد الطبيب الهندي أزهر خان إلى محادثتي ؛ فكان يشاركني إحتساء الشاي الذي يُعدّه شاهين، وأنِسَ لحديثي وقصة عشقي وحدثني عن أقوال فلاسفة وحكماء عن السعادة والموت واصطبار الروح على البلوى وشفاء النفس بالأنس والشمّ والخروج من العزلة ؛ فالحياة كلها إلى زوال، لاشيئ يبقى على حاله..

بعد شهور وأيام لاأعرف عديدها وأنا أطوف في البيت وحيداً أتلمس ثياب بنفشة مثل ضرير يحاول فكّ طلاسم الأشياء باللمس والشم وتهييج الأشواق

ثـم كتمها، عثرتُ على قارورةٍ من زجاج أزرق نيلـي مزخرف بماء الذهب، رفعتُ غطاءها ففغمت أنفي أشذاء البنفسج البري، عطر بنفشة وسرُّها ووجدت بين ثيابها المطويـة جذور البنفســج البيضاء العطـرة الفواحة بأريج البنفســج القوي، دهنت جبينـي بزيت العطر، وفي تلك الليلة نمت لساعـات ورأيتها في حلمي تركع أمامي وتتضـرع لأسامحها على اختفائها الذي قُدِّر عليها ولامردّ للأقدار، نهضتُ مذعوراً وأنـا أذرف الدموع، وفي الليلة التالية وضعتُ عرق البنفسج تحت وسادتي ونمت، ولكنهـا لم تزرني في حلمي وأمضيت نهاراً لم يلازمنـي فيه الصداع والنحيب، وبعد أيام حضر إبني فؤاد مع رأفت وعانقني وبكى، وجدته متورّد الوجه وقد إزداد طولاً وبـدا فتىً بهيّ الطلعة شبيهاً بأمـه بدلالة الشامة على وجنته اليسـرى مثيلة شامتها العنبرية، قبّلته وقبّلت شامته...

همس لي: أريد أن أبقى معك..

أقنعته أن وجوده عند عمته أفضل له ؛ فأنا لاأستطيع العناية به..

قـال رأفـت: فؤاد يتقـدّم في المدرسة وهو متفـوق على أقرانـه في الصف، وأنا أشرف بنفسي على دراستهما في البيت هو عيسى..

غداة اليوم التالي زارني الحكيم الهندي أزهر خان، وقبل أن يبدأ محاوراته الجميلة التي تنشّط العقل وتستبعد الهموم، سألته:

– هل لديك أيها الحكيم معرفة بأسرار العطر؟؟

– ما تريد من هذا؟؟

– بالأمـس دهنت جبيني بزيـت البنفسج فواتاني النوم ومـا رأيت كوابيسي بل حلمتُ بمن أحبّ..

- عطـر البنفسج موصـوف في كتب الحكمـاء بأنه يفرّج الكـرب ويزيل الهمّ ويخفّف ألم العظام ويبهج الروح، لقد عثرتَ على سرّ شفائك..

- ولكن أيها الحكيم أزهر خان، هو يشفي مني عضواً ويهيج لواعج القلب..

- لم أعهد البنفسج يهيج أوجاعاً..

- أيها الحكيم، إنه، إنه عطرها وإسمها، وسرها..

- من؟؟

- من أودت بي إلى حال الجنون، مَنْ حدّثتُكَ عنها..

- لسـتَ مجنوناً بل مسكونـاً بلواعج الشوق يابني، وعليك أن تقتفي السبيل إلى خير مافي الحياة: السعادة..

- نلتها وتبدّدت..

سألت الحكيم الهندي:

- لماذا لا تدوم سعادة البشر؟؟ هل سيحقق الموت سعادتي إن سعيتُ إليه؟؟

هـل كان نصيبـي من الحياة أن أحظى بجوهر السعادة ثـم أفقده بإرادة ربانية أو قدر لامردّ له كما قالت بنفشة في حلمها؟

قال الحكيم: أما قرأتَ قول الفارابي في السعادة؟ لديك رسائل الفارابي فاقرأها تجد الجواب الشافي، أو إبحث في كتب سواه من الحكماء..

أمضيـت ليالي وأياماً أبحث في كتب الأولين عن جوهر السعادة لعلي أفهم شيئاً مما حلّ بي، فوجدت الفارابي يقولها على غير ما أنتظر من بلسم لسقمي: (هي الخير المطلـوب لذاته وليس تُطلب أصلاً ولا في وقت مـن الأوقات لِيُنال بها شيءٌ آخر،

وليس وراءها شئ آخر يمكن أن يناله الإنسان أعظم منها)، وما وجدت في هذا القول شفاءً ولاوقاءً من أحزان الروح، ولما قلت للحكيم أن قول الفارابي لايروي ظمأ روحي لمعرفة جوهر سعادتي، قال إليك رأي إبن مسكويه:

قال إبن مسكويه: إن السعادة أفضلُ خيرٍ وهي تمام الخيرات وغايتها ؛ ولكنها تحتاج في مرتبتها الأولى من هذا التمام إلى أشياء في البدن وخارج البدن ؛ أما إذا بلغ الإنسان المرتبة العليا من السعادة فإنه لا يحتاج معها إلى شيء أخر...

قلت للحكيم: وهذا رأي لا يشفي غليل حيرتي واضطراب ذهني ؛ فَمَنْ لي بمن يشرح صدري بحكمة أثيرة تنير لي هذه العتمة التي تمكّنت من قلبي واستبدّت بعقلي؟؟

قال الحكيم الهندي المطّلع على علوم الفلاسفة الكبار:

– بعض الحكمة لاتجدي نفعاً مع الكآبة السوداوية، بل أن شيئاً من القول يضاعف شدة الحزن، دع كتب الحكمة يا بنيّ ولنأنس بالشيخ الرئيس إبن سينا أو بالرازي والكندي، أتحبُّ السماع يابني؟؟

لزمتُ الصمت واغرورقت عيناي بالدموع، وهل أنا من يُسألُ عن السماع والموسيقى؟ إستعدت حديث المغني الأعمى تيمور:

«إبحث أنت عن نفسك وستلتقي بها، إنها تنتظرك في الطريق»

– وماهو الطريق ياتيمور؟؟

– سبيلك إلى المعرفة والمحبة، سماع الموسيقى ومعرفة أسرار الفكر والكون، الموسيقى فن لا تخوم له ؛ فهو يتولد من أغوار الإنسان ورعشة الأفلاك..

قلت لأزهر خان:

- سأحاول أيها الحكيم، سألوذ بالسماع كلما استطعت إليه سبيلاً..

- أتعرف من يعزف لك على القانون ؛ ففي هذه الآلة ماقال به الفارابي من مجاراة للنبض وتأثير في العقل وتهدئة للقلب وإيقاظ لمكامن البهجة...

طلبتُ من رأفت أن يُحضِرَ لي عازف قانون من إحدى الفرق التي انتشرت تعزف في المقاهي صحبة المغنين، قال رأفت:

- ماأعلمه أن لديك الفونوغراف، أم أنك نسيت؟؟ وفي الأسطوانات موسيقات صوفية وتركية وفارسية وغربية وأغانٍ طالما سمعناها معاً، فعلامَ نحضِرُ عازفاً غريباً؟؟ فلتجرّب وإن لم ينفع مالديك نستأجر موسيقياً..

غادرني رأفت وفؤاد والحكيم الهندي، آويت إلى غرفتي ولم أجرؤ على تشغيل الفونوغراف، كانت يداي ترتعشان وجسدي ينضح عرقاً وفي رأسي نبض يضرب عنيفا داخل صدغي، عاودني البكاء، إنتحبتُ طويلاً وشاهين يقف أمامي لايدري مايفعل ليخفّف عني،،، دهنت جبيني بالعطر السحري واسترخيت قليلاً وواتاني النوم حتى الصباح..

فقدت شهيتي للحياة والطعام، ولم أعد أطلب سوى الشاي ؛ فمع الشاي تتيقظ حواسي ويصفو ذهني قليلاً، وكان شاهين يزور أمي ويحضر لي أصنافاً من الشاي دون أن يخبرها عن أحوالي وهي التي أصابها الزمن بكروب وجراح وابتلاءات آخرها ما أصاب أبي من غيبوبات تناوبته حتى تعذر عليه الخروج من البيت ولزم غرفته في الديوان..

ناديت شاهين وأعطيته خلطة من أنواع الشاي ليعدّها لي في إبريق الخزف على السماور، لحظتها داهمني البكاء وسحّت الدموع من المآقي وغرقت في عمىً مؤقت: لم أشأ الرؤية وقد غابت شمس حياتي وحلّت العتمة في قلبي وانهارت دعائم بيتي...

ذات يـوم أنبأتني بنفشة – ونحن جلوس علـى الشاطيء يوم كنا في البستان – أنها لم تحب الشاي يوماً، ولكنها أدمنته لأنني أحبه، قالت بشيء من الحزن:

– في قلبي غصّة من الشاي وأهله..

وسألتها ماهي حكاية هذه الغصة؟؟

إمتنعـت عن الكلام برهة وحدّقت في النهر الذي تضرب أمواجه رمال الشاطئ وكانت الحمائم تهدل في تلك الظهيرة، قالت:

– لا أودّ الحديـث عما ينغصُّ سعادتنا، لتكن أحاديثنا عن حاضرنا ولنعش أيامنا بهناءة دون استدعاء الألم..

قلـت لهـا: ترى ما الـذي ينغصُّ عليك لحظـات الهناءة معي؟ أريـدك أن تقرّي بحقيقة ما يضنيك..

– لاشيء سوى رغبة أخيرة في حياتي ولاأظنني بقادرة عليها..

– أفصحي، قولي، سأفعل ما بوسعي لأحقق رغبتك..

– الأمر ليس بهذا اليسر يا صبحي..

– خففي عنك وأفصحي..

– رغبتي الأخيرة أن أرى أمي وأبي وإخوتي قبل أن أغادر هذه الدنيا..

– الأمر ليس عصياً يا بنفشة، نسافر معاً إلى سمرقند..

– أخشـى أنني لن أجد أحداً منهم بعـد عشرين عاماً من البُعد، من يدري مالذي حلّ بهم؟؟

هــا أنا أشرب شــاي النسيان وحدي – شاي نشدان السلـوى واستدعاء راحة النفس التي خاصمتني..

فتحــت كتاب الشــاي وقــرأت مادوّنه الراهــب البوذي عن شـراب الأتقياء، حدّثت الحكيم أزهر خان عن طفولتي وإقامتي في غرفة الشاي وعثوري على كتاب (طريق الشاي).. قال موبخاً:

– ألم أنصحك بالسماع؟ دع الكتب هذه الأيام وانصت إلى النغم..

– لم أجد العازف، وفي الحق لم أبحث، ثمة معضلة في الأمر..

– لامعضلات، هذا واجب الحكيم، ما يهمُّ الحكيم أن تستعيد نفسك من نفسك الأخرى..

ونادى شاهين: شاهين، أدخل الرجل الواقف بالباب..

هــرع شاهين ليفتح الباب فدخــل معه رجل نحيل جداً وضّــاء القسمات يعتمر طاقيــة من اللباد بلون الخشب ويرتــدي جبة خشنة من الصوف يضمُّها بحزام رفيع من الجلد، ويحمل آلة قانون..

قــال أزهر خان: سيقيم هذا المتصوّف الشافي عنــدك حتى نرى بوادر شفائك، فأحسِنْ إليه يُحسِن إليك، هذا العازف درس طريقة إبن سينا في العلاج بالموسيقى وهــي تختلف عمــا قال بــه الــرازي والفارابــي وآخــرون، ويمكنــك التفاهم معه بالتركية،،، ثم خاطب العازف بالتركية:

– هيــا يا جاغلـر إجلســ هاهنا واشــدد لنا نغمــات: راست ونـوروز وعراق وأصفهان، واجعلها توليفة لطيفة تبسط النفس وتريح الفؤاد، وعند المغرب إعزف له مقام النوى، ولما يحين ميقات النوم إعزف مقام (المخالف – الزيرَ أفكند)..

وقـال لي بالعربية: هذا العازف المتصـوف لايرتجي ثمناً سوى شفائك، حسبُهُ أن ينال رغيف خبز في اليوم كمعظم الزهّاد...

أقـام جاغلـر في بيتي وكان شاهين يرعـاني ويقدّم للرجل مايقيـم أوده، وصرنا نتبـادل الأحاديث في شأن السماع، والتزم بالعزف كما أوصاه الحكيم: موسيقات على مقامات الرست وعراق ونوروز وأصفهان، بعد أسبوع من السماع أحسستُ برغبة في تناول شيئ من الطعام ظهيرة أحد الأيام، فاجتهد شاهين وزوجته في إعداد أصناف شهية، لكنني لم أتناول سوى لقيمات قليلة..

قال رأفت الذي زارني مع فؤاد:

– ما شاء الله، ماهذا الذي أراه؟؟ أهذا صبحي؟؟ يانعمة الرحمن، لاأصدق..

– صديقنـا أزهـر خان أحضر لي هذا العازف الذي يُعـدُّ نفسه تلميذاً لإبن سينا، وعلّمنـي إنشاد بعض القصائد الصوفية، لكن بـي رغبة أن أعود إلى قصر البستان؛ فهذا البيت الصغير يجدّد أحزاني، ففيه وقعت الواقعة..

– سأدع خدم بيتنا يقومون بتهيئة القصر وتنظيفه، ولكن تبقى مسألة عبور النهر، أخشـى عليكم من المجازفة في الـزورق أو القفة؛ فالجنود الانكليز مُخوّلون بإطلاق النـار على من يشتبهون به، أعدك أنني سأهيء البيت متى ما استقرت الأوضاع في بغداد، ونزورك أنا ووفيقة وفؤاد بين حين وآخر..

– لي طلـب آخـر، أحضر لي كتب الشيـخ إبن عربي وأولهـا ترجمان الأشواق، ومن رسائله رسالة الوصايا ورسالة التجليات، وأرجو أن تزور أمي؛ فقد نفد المال لدي..

– سأزورها وأطمئن على صحة خالي إسماعيل الذي فحصه الطبيب الإنكليزي وقـال انه مصاب بداء السكـري وقد إلتهبت اعصاب ساقـه وازرقّت قدمه ورأى

الطبيب أن البتر هو الحل الوحيد، وسينقلونه إلى مستشفى الجيش البريطاني، سأحضِرُ لك الكتب..

– قبل أيام فكّرت في السفر إلى بلاد بعيدة لاأعرف فيها أحداً لأهيم على وجهي في البراري ؛ لعلني أشفى من أوهامي وبحثي اليائس عن نفسي وشبح سعادتي الضائعة..

– لاأنصحك بذلك ؛ فأنت قرأت مئات الكتب وزرت بلداناً كثيرة، فما الذي ستجده في البلد البعيد وأنت في حال من التشتت العقلي ووجع الروح؟؟

– مادام الأمر كذلك فسوف أعتزل الدنيا تماماً، وسيرافقني هذا العازف الفقير، ويبقى شاهين وزوجته يدبّران أموري..

– والدتك ملهوفة لرؤيتك وهي موجوعة القلب لمرض والدك وبعدك عنها، فلماذا لاترافقني لنزورها؟؟

– وأبي؟؟ لالالا، لاأريد أن يراني أبي وأنا في هذه الحال، لا لا لا، فلتأتِ والدتي إليّ..

– ستقوم وفيقة بالمسألة وترافقها في عربتي، وسأدعهم يحسمون لك نصيباً من أموال التجارة قبل أن يستولي نشأت على كل شيء..

– أرجو أن تأخذ الفونوغراف والأسطوانات وتحفظها في صندوق وتغلقه ولاتسلّم المفتاح الا لفؤاد عندما يكبر ويكمل دراسته كما اتفقنا..

– ألا تود أن تسمع شيئاً منها؟

– لا، هذا الفونوغراف إرتبط بها بحبيبة عمري بنفشة وهو ميراثي لولدي مع كتبي ودفاتري التي كتبتها طوال سنوات، وقد رتّبت كتابة وصيّتي وأشهدتُ عليها

شاهين والحكيم أزهر خان ووضع شاهين بصمته وأزهر خان ختمه، جعلتك وصياً على ولدي وتؤول له كل أموال أرثها عن أهلي..

– أنت بخير ياصبحي، أنت بخير وستُشفى بإذن الله..

– دعني أكمل كلامي، أريد أن اشهدكَ على سرٍّ، هذه أسطوانة عليها علامة صفراء سجّلتها دون قصد لحديث رجب عن إبن العبدة نمنم، أقسَمَ لي رجب أنه لم يمسّ نمنم وأن الولد هو إبن أخي نشأت وأنا من رأى نشأت يقتحم حجرة الخادمة السوداء نمنم، وعندما شهدت بما رأيت نهروني وعوقبت لأنني أتهَمت أخي، ولابد الآن أن يسمعوا هذا الإقرار ويستعيدوا الولد..

إنقضى شهر على هذا الحديث عندما جاءني رأفت وقال:

– لابد أن تزور والدتك قبل أن تفقدها ؛ فهي مريضة و لاطاقة لها على الخروج من البيت بعد بتر ساق والدك، وقد بينت لهم محتوى الأسطوانة حول ابن نمنم ونشأت، أحدث كلامي صدمة كبيرة وإنكاراً من نشأت وصراخاً من أمك لكنهم رضخوا أخيراً واستعادوا الصبي من رجب بعد أن تحدثت والدتك مع نشأت ووالدك

وأقنعتُهُما ولم يوافق أبوه على اصطحابه ليعيش مع أطفاله بل طلب من ألفت ووالدتك أن تهتما به..

هيا ياعزيزي صبحي، عربتي تنتظر في الباب، سأصحبك إلى بيت أهلك لترى والدتك ولن يعلم والدك بالأمر لأنه سجين غرفته..

– سيكون هذا آخر خروجٍ لي إلى دنيا الناس..

تمضي الشهور بطيئة ثقالاً وأنا رهين عزلتي بين كتبي ومجلدات ذكرياتي

وموسيقى الدرويش العازف، وقد تجرأت والدتي وخرجت من البيت وأوصلها الحوذيّ إلى منزلي بعد هذه الشهور، أخبرتني أن أختي بديعة أنجبت إبنة جميلة وأن ألفت صارت أمّاً بديلة لأخيك بهجت الذي نجهل أمّه كما صارت أماً لحمدي إبن نشأت من نمنم، وأسرّتني أن أبي كتب وصيته على أن تُوزّع العقارات والأموال والبساتين حسب الشرع بينكم جميعاً..

سألتها: كيف هو؟؟

قالت: لاأتمنى حالته لعدو، كيف يتحول الرجل من تلك المهابة والسلطة الى عجوز خائر القوة وهو يرى عجزه وساقه المبتورة، أحاول تسليته وأرسِلُ في طلب أولاد نشأت وتأتي وفيقة بعيسى وفؤاد فيستبشر بهم جميعاً، ثم تنتابه الأحزان ولايتكلم مع أحد...

نجدت الخيامي - والد رأفت، الذي يجيد خمساً من اللغات الأجنبية وكان مديراً للمالية في العهد العثماني - عيّنه الانكليز مديراً عاماً في دائرة الخارجية ببغداد. همس لي رأفت:

- عزيزي صبحي، أنت أقرب إلي من أخوتي، إذا سئمت العزلة وآثرت العودة إلى

دنيا الناس فسوف أطلب من والدي أن يقترحك للتوظيف في دائرة الخارجية،

حسبك هذا الحزن والعزلة...

قلت له: لاأريد من هذه الدنيا سوى العثور على بنفشة، وكلُّ ماعدا ذلك فهو لسواي من الناس..

- دعك من هذا، سأطلب من والدي أن يسعى لتعيينك قنصلاً أو وزيراً مفوضاً في اليونان ولعلك تجد هناك من يُنسيك غياب بنفشة..

– وهل تراها غدَرَتْ؟؟

– صبحـي لاتكـن عنيـداً، أنت تجيد اللغات وقـد قرأت مئـات الكتب حديثها وقديمها ودرست علوماً، فعلامَ لا تنتفع بما تعلمت وعرفت؟؟

– ألاتعلم أنني انتفعت بها في حياتي الخاصة وعليها أقمت سعادتي الضائعة؟؟

– وأين هي سعادتك وحياتك؟؟ هل هذا ما أعددت نفسك له؟؟ حياة دراويش وزهاد لا تضرُّ ولاتنفع وكأنها لاحياة؟؟

– سأكون على مايرام في هذه الحياة، ولاأظنها ستطول فإني أستعدُّ لملاقاة بنفشة التي تيقنت أنها رحلت عن دنيانا..

– وكيف تيقّنت من ذلك؟؟

– أراها كل ليلة في حلمي، وتقول لي: إشتقتُ إليك، إلحق بي..

– ألا يخطر لك أنها سافرت إلى بلدٍ ما؟؟

– إنها لاتعرف أحداً..

– مَنْ لايعرف يتعرّف، لاتخشَ عليها فهي ذكية بارعة..

– لماذا؟؟ ماذا فعلتُ لها لتهجرني؟؟

– لايمكـن كشـف أغوار النفسـ الانسانية، حتـى نحن لانعرف أغـوار نفوسنا أحياناً..

– ماكانت لتخفي عني أي شيء، لابد أن أمراً مفاجئاً أرغمها على الرحيل..

قاطعني رأفت:

- أرى أن تقبــل بوظيفة في الخارجية وسيزكّيك والدي لدى الحاكم العام السير أرنولد ولسون..

- لندع ذلك الآن فإني في حال لاأصلح معها للعمل..

- أنت تحتاج إمرأةً تحبك وترعاك، توقف عن عنادك وتشبثك بالوهم..

- لاأستطيع، روحي لاترضى بإمرأة غير بنفشة..

مصائر

تصل رسالة الكترونية من وليد جابر الكتبخاني شقيق نهى:

أمي وأبي، نهى، أعزائي ؛

الآن نستطيع القول أننا بخير، أخيراً وصلنا (مديات) التركية بعد رحلة شاقة طويلة من أربيل إلى دهوك وزاخو مرورا بسيلوبي وجيزري وايديل، ومديات ـ كما تعلمون ـ قريبة من ماردين حيث يقيم أقارب سميراميس. بقينا ثلاثة أسابيع في عينكاوا بعد رحلتنا من بغداد إلى أربيل، أقمنا عند أقارب سميراميس الذين فتحوا بيتهم لعدد من العوائل النازحة من الموصل، كانوا كرماء معنا ولم نشعر بالغربة مع هذا الجمع الهائل من النساء والشيوخ والعجائز والأطفال، الجميع فقدوا وطناً وبيتاً وأموالاً ودفئاً لكنهم لم يفقدوا أمل الخلاص، خلاص المسنّين غير خلاصنا نحن الشباب، نحن نسعى للرحيل وهم يتشبثون بالأرض والرائحة والحجارة وأعشاب البراري، يذهبون إلى الكنيسة القريبة كل مساء وفي أوقات القدّاس، كنا أشبه بعشيرة كبيرة فيها أمهات شابات ورُضّع يبكون وعاشقات حزينات وعجائز فقدن أزواجاً وأبناء، كنا نُمضي الوقت في استرجاع حوادث حياتنا نتشارك الأوجاع والشجارات، حدثت سرقات صغيرة قام بها صبيان بلا أهل، أرهقتنا هذه الأجواء الغريبة: علاقات طيبة ومتشنجة في آن معاً، تحملنا كل ذلك في انتظار أن تتوفر لنا وسيلة السفر إلى ماردين في تركيا،

أخيراً إتّصل بنا قريب لسـميراميس وبشّرنا: تنطلق الحافلة صباح الغد، إستعدّا...

إشـترينا بعـض الأطعمة للطريـق وحاجيات لصغيرنا نميـر، حجزنا له مقعـداً خاصاً في الحافلة لأجـل راحته وراحة سـميراميس التي عاودتها حالات من الإكتئاب والتعب خلال الإقامة في عينكاوة..

لن أحدثكم عن مشـقّات الطريق، الأهمُّ أن أقارب أباعد لسـميراميس لازالـوا يقيمون في مديـات القريبة من ماردين منذ أن هاجر أجدادها إلى شمال العراق منذ أواخر القرن التاسع عشر، ساعَدَنا هؤلاء الأقارب الذين لـم تنقطع علاقتهم بأهل سـميراميس حتى الفاجعة، وكانـوا عوناً لنا في اسـتئجار بيت قروي صغيـر مبنيّ بالحجر في بلدة مديـات أعجَبَنا موقعه فـوق هضبة طور عبدين التي نرى من مرتفعاتها السـهول المزروعة حولها وبسـتان أقارب سميراميس، قدّمْنا إلى مفوضية الأمم المتحدة طلباً للّجوء وحـدّدوا لنا موعـداً للمُقابلة وننتظر مع المئات مـن أمثالنا الذين يقيمون في مخيم انتظار للاجئين من سـوريا والعراق، زُرنا ماردين عاصمة الإقليم وتجوّلنا في دير الزعفران الذي يسـمى دير حنانيا وشاهدنا القلعة القديمة والأسـواق الجميلة التي تُباع فيها المصنوعـات الريفية الحجرية والورود والعسـل، أرسـل لكم الرسـالة من مقهى الإنترنيت، سـأجهّز البيت بخطّ إنترنيـت لأتحدّث معكم عبر السـكايب، نحن بأمان وقد تحسّـنت صحة سـميراميس كثيراً، إشـترينا كثيـراً من أصص زهور الجيرانيـوم والخزامى والبنفسـج ووضعناها في الشـرفة المطلّة على الوادي، سميراميس تستمع إلـى الموسـيقى التركية التي تحبهـا وتعدّ لنا طعاماً لذيذاً، إكتشـفت أنها طباخة ممتازة، نمير بدأ يمشي بخطوات متعثرة..

أجبكم، سأتحدث معكم خلال اليومين القادمين...

قبلاتنا جميعاً...

وليد ـ سميراميس ـ نمير

كان جابر الكتبخاني يتابع أخبار خواء خزينة العراق وتفسيرات المسؤولين عن الخراب وتبريرات الأحزاب المشاركة في الحكم وهي محض هراء وإتهامات متبادلة بين أطراف مسعورة، أرعبته نية الحكومة لتخفيض مرتّبات المتقاعدين، بدا مهموماً وقانطاً هو الذي أمضى ثلاثين عاماً في الوظيفة، عندما قرأت لهم نهى ايميل وليد المُبشّر بنجاته مع زوجته والطفل تهلل وجهه وامتلأت عيناه بالدموع:

ـ الحمد لله لقد نجا واحدٌ منا..

قالت الأم: لكننا تناثرنا هنا وهناك..

ـ أليس أفضل من هاشم إبن أختي الذي فقد بصره في انفجار سيارة مفخخة؟؟ أليس أفضل من جارتنا نجوى الطالبة التي بُترت ساقاها في انفجار آخر؟؟ نحن هنا شعب معاقٌ حتى لو بَدَوْنا بأجساد كاملة، كلنا معاقون مُخَرّبو الحياة، لاتشرعي بالنحيب ياعيوني ياميادة..

علّقت نهى: أبي هل ورثنا أقدار أجدادنا؟؟

ـ للتو كنت أفكر بما قرأته اليوم من أوراق جدي صبحي التي قمتِ بنسخها، هذه جدتي بنفشة خاتون تختفي بغتة ولايعلم أحد شيئاً عن مصيرها، وهاهو جدي صبحي يُصاب بالكآبة السوداوية ويعتزل الدنيا

ويكلّف أخته وفيقة بتربية والدي. هل تورَثُ الأقدار اللعينة أم أنَ حوادث الدنيا هي التي تحدّد أقدارنا؟؟

ـ أخمّن أن اختفاء جدتك بنفشة خاتون كان له مبرراته، وأظننا سنعرف ذلك بعد حين ؛ فكيف تهجر زوجة عاشـقة زوجها المحبوب وولدها لولا أنها فضّلت الهرب على مواجهة أمر خطير؟؟

ـ لعلّ الأسطوانات ستكشـف لنا بعض تلك الأسرار، وعدني الأستاذ نادر أنه سـيعالج الأسـطوانات ويحوّل الصوت إلى جهاز تسجيل حديث ويحاول تنقية الصوت..

ـ الأمـر يتوقف على البـوق، يالهذا الجدّ الذي جعلنا نعلّق آمالنا على فونوغراف عتيق..

عقّبـت أم نهى: واللـه لاأدري ماعلّة اهتمامك بهـذه الأمور، دع ذلك الزمن لأهله وعش معنا..

ـ أنا معكم، وبي فضول لمعرفة بعض أسرار أهلي..

ـ كان جدّك صبحي صاحب أطوار غريبة حقاً، لماذا ياترى كان يرفض العمل في الخارجية مع الإنكليز مع أن الجميع إنتقلوا من الولاء للعثمانيين إلى الولاء للإنكليز..

ـ ليس الجميـع: البعـض رفضوا، هـذا ماعلمته من بعـض مذكّرات الساسـة السـابقين فقام الانكليز بنفي الكثيرين إلـى جزيرة هنجام ومنهم كتّاب وأصحاب صحف..

ـ هل تظنُّ أن جدّك كان معارضاً للإحتلال البريطاني؟؟

ـ أغلـب الظن أنه كذلـك وإنْ لم يصرّح علانية بمعارضته، كان رافضاً

للاحتلال والإستبداد وتخلف بلاده، هذا ماعرفناه من مذكّراته: كان رجلاً متمـرّداً في الحياة والحب والزواج وسـيكون من المؤكد رفضه العمل مع الانكليـز بعد أن حلم بإسـتقلال بـلاده عن هيمنـة العثمانيين، كان يفكر بتطويـر التعليـم عند عودته من الأسـتانة لكنّ أحوال البـلاد أحبطت كل شيئ..

رنّ تليفون نهى النقال فاستأذنت لتردّ بعيداً عن أهلها..

أخبرها نادر أن ثمة احتمالاً للعثور على بوق يناسب فونوغراف أديسون، وقد وعده أحد المُتاجرين بالتحف القديمة أن يوفره خلال أيام..

قالت: وإذن متى نلتقي؟؟ لماذا لاتزورنا؟؟ أم أن ذلك يحرجك؟؟

ـ أفتقـدك كثيراً، تعالي غداً إن اسـتطعتِ، أصبحـت عزلتي عبئاً على روحي مذ عرفتك..

ـ هل سنخرج معاً؟؟

ـ عندما تصلين سنقرّر مانفعله..

ـ سأكون عندكم في العاشرة صباحاً..

ـ كـم أنت رائعة نهى!! كم غيّرتِ حياتـي، وكم أنا مدين لك، أمضي أوقاتي وأنا أشـيد أحلاماً كثيرة لأجلنا، سـنفعل، سـنكون معاً، لاتيأسـي مـن بطئـي في اتخاذ القرار؛ فقد جعلت العزلة إيقاعي أبطأ من ذي قبل، اللاجـدوى جعلتني في موقع المتفرّج القانـط ممّا يجري، لكنّي تغيّرت، تغيرت كثيراً بعد أن انتشلتِني من بئر الوحدة...

ـ لن أيأس وسأنتظر، تحياتي لمنال...

ـ إلى اللقاء...

الحب والجحيم

إن لم تستطع تشكيل حياتك كما تريد

فحاول ـ على الأقل ـ ألا تبتذلها

بالاحتكاك الزائد بالعالم..

بالحركة والكلام الزائد....

حاول أن لاتبتذلها بجرجرتها هنا وهناك..

بالطواف بها وتعريضها كثيراً للسخف اليومي.........

قسطنطين كافافيس

هل بوسع أحدنا أن يختار شكل وجوده؟ غالباً لا يسعنا ذلك..

يفكر نادر: أحببت أن أكون غيمة مترحلة بينما عملياً جعلت من نفسي شجرة ثابتة تمد جذورها في التراب وترنو للقمر والمطر وتمر بها المواسم، لكنني كنت خارج المواسم والفصول كلها، لا فرق لدي بين صيف وشتاء وربيع، كنت أقيم في الخريف ـ خريفي، حتى اكتشفت بوادر يباسي، أنا الشجرة المقيمة في نفسها والقانعة بوحدتها، ثم إنبثقت نهى مثل نبع ماء عذب فـي جفاف أيامي وتدفّقت ضحكتهـا الصافية فأيقظت روحي من غفلـة العيـش الرتيب بين الجدران وحطام أحلامي، ضحكت من نفســي

وقلت: يالطالعي الذي لايتغير، هاهو النبع يأتيني بغتة فيروي الشجرة ليرسخ بقاءها في مكانها، لاجدوى من كل هذا، أنا أخادع نفسي..

في انتظار نهى يفكر نادر: كم أحبها! لم أحب امرأة قبلها سوى والدتي الراحلة، فكأنها تمثل لي الآن كل تاريخ النساء، كم هي جميلة!! أجمل مافيها ابتسامتها الهانئة كابتسامة طفل، أجمل مافيها أنها نذرت نفسها لإنتشالي من عزلتي، أجمل مافيها أنها إنسانة لم تشوهها آلة الحرب التي دمرت أرواحنا نحن الرجال، درسنا ونلنا الشهادات، فأيُّ جدوى من كل ذلك؟؟ توالدت الحروب وفقست بيننا كبيوض الأفاعي وحددت مصيرنا: لا مستقبل لكم..

كنت أحلم أن أكتب نظرياتي، أن أصنع أجهزة غير مسبوقة، أن أؤلف كتباً عن الكون وعلم المستقبليات، لكن لوّثني خزي الحرب وقذارتها وشوّه رعبها أعماق نفسي وخلخل وجودي، لماذا ألقيَ بي في هذا الجحيم؟؟ لماذا؟

سمعته أخته منال، ظنت أنه يكلمها، إقتربت منه.. كان يكلم نفسه، تحولت الأفكار إلى صوت، إلى احتجاج مسموع، كل فكرة صارت كلمة ونبرة مشفقة أسيانة تسيل منها رائحة الخيبة، قالت منال:

ـ ماذا؟ مابك نادر؟

ـ لاشيء، أتحدث عن تعاستي..

ـ كلّنا تعساء..

ـ هذا لايعني أن نستسلم، نحن جبناء أيضاً، ما الذي يبقيك هنا؟ لماذا لم تهاجري مع إخوتي؟؟ لماذا نبقى بين الطلقة والرماد؟؟ أجيبي..

ـ أحب العيش هنا، لا أستطيع، لاأستطيع التغرب ولن أدعك وحدك في الجحيم، ألم تسمع ما واجهته نهى من قسوة في غرينوبل؟؟ لوكنتُ مكانها لتحطمت، لاأستطيع، ولكن ماذا عنك؟؟ لماذا تبقى؟؟ كان بوسعك الخروج معهم، ألم يكن ذلك أفضل من بقائك في عزلتك القاتلة؟؟

ـ كفانا لوماً وتقريعاً، كفى منال... أتوقع أن تأتي نهى اليوم، مصادفة جميلة أنك في إجازة من العمل..

ـ هل تسمح لي بسؤال أنا أختك الكبرى؟؟

ـ إسألي..

ـ هل تخشى الإنفراد بنهى وحدك؟؟ أراك غير قادر على تحمل مسؤولية اللقاء فكيف..

قاطعها نادر:

ـ ليس الأمر كذلك،، لالا

ـ تريد الإرتباط بها، أليس هذا ماتفكر فيه؟؟ إذن فلنحسم الأمر، اليوم نذهب لخطبتها!!

ـ لمَ العجلة؟؟ لدينا الوقت..

ـ تنتظر بوق الغرامافون، تريد مبرراً لذهابنا إليهم؟؟ أم أنك تتهيب من فكرة الزواج أساساً؟؟

ـ كل هذه الأمور مجتمعة.. نعم، أتهيب من أمر غير مضمون العواقب..

ـ متى تأتي نهى؟؟

ـ تأخرت، لم أعهدها تتأخر عن مواعيدها..

إنـه الصيف، النهارات أطول مما يحتمل المـرء والليالي وخمة حارة، الرياح سـاخنة كأنهـا تأتي من فوهة الجحيم فتحرق أوراق شـجر النارنج وقمم شـجيرات الفيكس والورد وبراعم الزهور والعشـب وتثير زوابع من القش والقذارات والأوراق في الشـارع، ينظر نادر إلى السماء الرصاصية التـي تعبرها أمواج من لهب ممغنط يحـرق الأرض وكائناتها العاجزة عن النجاة..

في ذلك اليوم إتصلت به نهى:

ـ نادر آسفة يتعذر عليّ الحضور، أصيب والدي بنوبة قلبية ونقلناه إلى مستشفى إبن النفيس وهو يرقد الآن في العناية المركزة، أمي منهارة تماماً، طلبت إليها أن تبقى في البيت وأنا من يرافق بابا في المستشفى..

ـ أتحتاجين عوناً؟؟ هل نأتي أنا ومنال؟؟

ـ ممتنة لك، إبن خالي وزوجته يقومان بكل شـيء وخالتي هناء تعنى بوالدتي..

ـ وكيف حال الوالد الآن؟؟

ـ ينتظر الأطباء مرور ثمان وأربعين سـاعة ليتأكدوا من اجتيازه مرحلة الخطر..

لم يجتـز جابر الكتبخاني السـاعات الثماني والأربعيـن، أطلق جهاز الكارديوغـراف رنينـاً متواصلاً وظهر خـط النبض مسـتقيماً تمافماً على شاشته، إجتاز جابر الكتبخاني عتبة الوجود إلى اللاوجود خفيفاً مثل خفقة طائر ضوئي وحراً من أعباء الأسرار المخزونة في الفونوغراف..

بعـد أسـبوعين أحضـروا لنادر بـوق الغرامافـون: كان مطابقـاً تماماً للخريطة التي زودهم بها، أبهجه بريق مقطعه الذهبي المحزز الذي يشكل قمـة البوق الشـبيه بزنبقة، صنعـوا مقطعه الطولي من معـدن خفيف قاتم اللـون يتناقص عرض شـكله البوقي كلما اقترب مـن قاعدته الذهبية التي سـتثبت على جهاز الغرامافون، بدا له البوق تحفة جميلة برع صانعها في إتقانها، تراءى له أشبه بنخلة ذهبية القمة سوى أن البوق يجود بالموسيقى والأصوات بينما تجود النخلة بالطلع والتمر والسعف والعراجين و الجمّار وأشياء كثيرة أخرى...

وجـد نـادر نفسـه الآن فـي غيـاب نهـى مُجرداً مـن الحمايـة ؛ فلا حصـون يتخفى وراءها، بغداد محاطـة بحواجز الكونكريت، والناس لهم مايتوهمون أنه حصن حمايتهم: ثروة مسـروقة، إنتماءات، ترتيبات سياسية ودينية واجتماعية فظة وعنيفة، شـهادات مزورة، طائرات خاصة للهروب، عمارات محروسـة جيـداً بصواريخ موجهة، أما هـو فحصن حمايته حب نهى..

إنهمر ضوء الشـمس الذهبي عبـر زجاج نافذة غرفة الجلوس المعتمة، كان الجو حارقاً وعدوانياً داخل البيت، الهواء شـحيح، لم يتبقّ أمام نادر الآنماينتظره في هذا المسـاء الخانق سـوى أن يخرج إلـى الحديقة، مرّ بشـجرة لها رائحة أنثوية ضاجة، تنشّق عبير زهورها الصغيرة شبيهة النجوم وأغمض عينيه، هاجمته غمامة من بعوض هيّجتها رائحة الجسـد البشري، كآبة مابعد الغروب تقبض قلبه وتعصره مثل يد عملاقة فظة، لكنه استبقى شيئاً من ذهب الشمس احتياطياً للحظة مثل هذه، ذهب الشمس كان يشير إلى وجه نهى الذي تجسّـد اللحظة أمامـه كما لو أنه إنبثق من حلم ملون، كل شيئ بدا ذهبياً براقاً باستثناء شعرها الكستنائي الطويل المموج، تقدم

نحوها كما يتقدم متعبد نحو تمثال إلهة معبودة، لمس وجهها، مرّر أصابعه على شفتيها النديتين، هبطت اليد إلى عنقها، سرت في جسده رعشة نشوة غامرة، تلمّس نهديها تحت قميصها الحريري بلون العاج،عانقها واشرأبّت روحه نحو الأعالي وهو يقبل شفتيها، كان للقبلة الطويلة مذاق عسل معطر أو رحيق زهور، عندما أفاق من حلمه تلمّس شفتيه اللتين إرتوتا من رحيق الحب وكانت في السماء غمائم بنفسجية شفافة تراود قمراً في ربعه الأول، وجد نهى أمامه، نهى حقيقية لكنها نهى بثياب الحداد الســوداء، تقدّمت منــه، إرتمت على صــدره وهي تنتحب، قبّل شــعرها وجبينها ومرّرأصابعه الراعشة في خصلاته الدافئة، همست له:

ـ رحل دون أن يراك ثانية..

ملاذ الشاي

قـرّرت نهى إكمـال عملها علـى المجلد الأخير لصبحـي الكتبخاني إكرامـاً لذكرى والدها، سـكنها الفضول ذاته لتقصّي أخبار الجد وأسـرته وعالمـه الغريب، بدأت أمها تتعافى تحـت رعاية هناء، واقترحت الأمّ أن تنتقل اختها هناء لتقيم معهما، ترددت هناء في البدء:

ـ سـأفقد حريتـي، أنـا الفوضويـة التي لامواقيـت لنومهـا وصحوها ووجباتها..

قالـت لها اختها ميادة: إفعلـي مايروق لك، لن نرغمك هنا على نظامنا الذي اعتدناه، كوني كما أنت، لاتجاملينا..

ـ وهل بوسع واحدة مثلي أن تجامل أحداً؟؟

ـ حسـناً أنقلي حاجياتك ويمكنك تأجير شـقتك الصغيرة مؤثثة لأحد معارفك، أو لعلك تجدين عروسين متزوجين حديثاً. ما رأيك؟؟

ـ إتصلت بي منال، تعتذر لأنهما هي ونادر لم يسـتطيعا حضور العزاء بسـبب مرضهـا، أخبرتهـا أننا لم نقـم عزاءً بـل تبرعنا بمصاريفه للأسـر المحتاجة في منطقتنا حسب ما أوصى المرحوم..

ـ أهلا بهما، متى يحضران؟؟

ـ غدا مساء..

ـ عندما كنتِ صباحا في العمل حضرَ فهمي إبن أخ المرحوم هو وزوجته ومعه سيارات الحماية، تعلمين أنه صار نائباً في البرلمان عن إحدى الكتل الكبيرة، عتب عليّ لأنني لم أخبره بمرض الراحل ووفاته، قلت له:

ـ أما كان عليك أن تسأل يوماً عن عمك؟؟ أم أن أمور المال وإدارة تجارتكم والمصالح الجديدة جعلتكم لاترون سوى صورتكم في المرايا؟؟

قال: ست ميادة، أنا مشغول جداً، وكان يجب أن تعلموني بوفاة عمي لأقيم عزاء يليق بإ سم عائلة الكتبخاني العريقة، مافعلتموه كان خطأ كبيراً ؛ سليل الكتبخاني يُدفَنُ بلا عزاء كبير يحضره كبار شخصيات بغداد ووجهاؤها..

ـ دع المظاهر لكم، بناءً على وصية عمك وزعنا المصاريف على الفقراء و لم نُقِم مجلس عزاء، حضر المقربون والأصدقاء الأوفياء وإخوتي، واكتفى الجميع بالقهوة، تعلم أن عمك الراحل لاينافق أحداً على حساب مايؤمن به، ولكن كانت غصته كبيرة لأنكم آل الكتبخاني والخيامي شغلكم حب السلطة وتنمية الثروة وماعدتم تسألون عن أحد. بماذا تفتخر عائلتكم اليوم، أجبني؟؟

ـ حسبك زوجة عمي، ماجئت إلى هنا لتقرّعيني، نحن أسرة لها تأريخها منذ العهد العثماني ونفخر بما وصلنا إليه اليوم..

ـ وماذا قدّمت بعملك منذ ثلاث سنوات؟؟ ربما ستقول أن والدك وجدّك قدّما شيئاً للبلد ـ كما تدّعون ـ من خلال عملهم في الولاية العثمانية ثم الدولة العراقية وأسسوا أحزاباً، رغم أنني لم أر نفعاً من أي حزب لغير قادته والمقربين منهم، وها أنت أمامي تخليت عما تسمّونه

تأريخ الأسرة ورحت تعمل مع المهيمنين على مصير البلاد ممّن نهبوا كل شيء..

ـ ماكنـت لأسـتطيع العمـل بمفـردي، تعلمين أن وضع البـلاد ملغوم ومعقد..

ـ ولمـاذا لم تعملوا على فك العقد ونزع الألغام؟؟ وإلا مانفع تنازلك عن تأريخ أسـرتك المزعوم؟؟ ماهو التأريـخ أصلاً؟؟ تأريخكم: مناصب سـلطانية وأراض زراعية وبسـاتين وهبهـا الولاة العثمانيون لكسـب ولاء أجـدادك وبعض وظائف بعد دخول الإنكليز، كفـى تزييفاً للوقائع، كفى تبريراً للمواقف الخطأ..

عندهـا هبّ واقفاً وقال لزوجته: هيا رانية، يبدو أننا أخطأنا بالمجيء، رغم ذلك يا زوجة عمي أنا حاضر لأية خدمة..

ـ هل سـألت يوماً عن وليد؟؟ هل تعرف أين هو؟؟ هل تعرف شـيئاً عـن نهى إبنة عمـك؟؟ منذ أعوام لم تتصلوا بنـا، زرتَ عمك مرة عندما كنت بحاجة لتوقيعه على صكّ بيع قطعة أرض تخص جدّك وأنكرتم حقّه فـي الإرث، وبعدها ماعرفت الطريق الينـا، وتأتي اليوم لتعاتبنا على مالم نقترفه..

ـ مع ذلك أنا أعرض خدماتي وأيّ عون تحتاجونه..

ـ شـكراً لـك، لانحتاج لشـيء سـوى أن نبقى كمـا أراد عمك، أبعد مانكـون عـن آل الكتبخانـي والخيامـي وأهل السـلطة، عشـنا كل تلك السنوات بعيداً عنكم وسنبقى..

قالـت هنـاء: أووه ياميادة، أوصـدتِ أمامه كل السـبل، ماكنت أظنك

حاسمة إلى هذا الحد، أما كان الأفضل أن تدعيه يتحدث ونرى مايقدمه..

ما عدت أحتمل نفاقهم وغطرستهم، رحل جابر بغصّته وماعاتبهم يوماً، سلبوه إرثه باحتيالات لفقوها ولم يفعل شيئاً، كان يردّد قول الشاعر الجاهلي الحارث بن وعلة الجرمي:

قومي همُ قتلوا أُميمَ أخي فإذا رميتُ يُصيبني سهمي

كأنني كنت أتكلم بصوته وأعبّرعما كابده منهم، لو كان موجوداً لما قلت الذي قلته، فاض بي غيظي من سلوكهم معنا، رفضت نهى مقابلة فهمي وزوجته..

ـ أحقاً؟؟ هذه مفاجأة كبرى لي، ماكنت أتوقع هذا، أين نهى؟؟

ـ تعمل في المكتبة..

سمعت نهى ماجرى، ملأها زهواً أن أمها عادت تستنطق قوتها الأنثوية المخزونة التي عُرِفت بها في السبعينيات قبل زواجها وأسعدتها معرفة سر عائلي: أن والدها الراحل أطلع أمها على مذكّرات الجد كلها..

شرعت تقرأ وتدقق في المجلد الأخير لجد والدها صبحي الكتبخاني: كانت الكتابة مختلفة عما سبق، بدا الرجل مهزوماً مرهقاً ولكن أفكاره كانت غاية في الوضوح، لعل ذلك يعود إلى مرانه على الكتابة..

... لايكفي أن يخدمني شاهين، هذه ليست حياة، تعدُّ زوجته الخبز والطعام وتغسل ملابسي، حسناً، هذه ليست حياة!!، أين تمضي ياصبحي؟؟ هذه ليست حياة، راحت بنفشة وماعادت لي حياة، مابقي لي شيء من قوة أو رجاء، كيف أسمّي هذه حياة؟؟ كل شيء خامد وخانق، وكل شيء بلا معنى، البيت كهف

والنهـار ضرير، هـذه ليست حياة، متى تنكشف الأسرار؟ متـى تعود بنفشة؟؟ هذه ليست حياة يا صبحي، العازف عجز عن إيقاظ روحي، إنه حزين مثلي، هذه ليست حيـاة يارب العالمين، أسمعُ في بعض الليـالي عزفه الجميل فأكاد أطير، أمسك بعباءة بنفشـة الحريريـة الزرقاء، أراها ترفرف أمامـي فأجد إمرأة مختلفـة، أركض أركض وسـط الظلام، أتشبث بطرف ثوبها الطويل، يتفتـت مثل قبضة تراب، هذه ليست حياة، مرة أخرى يغيّبني عطر البنفسج عن نفسي وأبكي، هذه ليست حياة، تتخضّل روحي وقميصي وكلماتي بالدموع، هذه ليست حياة ياصبحي...

لاأحـد لي، مخطيءٌ أنا، هناك أمي، أحبك أمي، أمي ماتخلت عني، لم تدعني يوما للعوز، لعلني أنا من تخلى عنها فانتهيت إلى حياة هي والعدم سواء، لكنها ماتخلّت عـن أحد حتى عندما أتى أبي بإبنه بهجت الذي أنجبه من محظية مجهولة، تولت تربيته وهـي لا تعلم أهو إبـن جارية أو إبن زوجـة سرية أو محظية؟؟ حياتهـا ليست حياة، هي مستعبدة كالآخرين في بيت الكتبخاني: تخدم أبي وتنشيء أبناء نزواته، حياتها عبودية تامة، لماذا؟؟ لماذا يا أمي نحن بلا حياة؟ لماذا ياجميلة بنت جلال الدين أحمد أفنـدي؟؟ اليـوم فقط تذكّرت أن لك إسمـاً وينبغي لي أن أناديك بـه، طوال الزمن كنـت زوجة إسماعيل بك، كنت عبدته، كنـت أم صبحي، كنت ربة البيت، كنت عبـدة مثل العبيـد الآخرين في بيت إسماعيـل الكتبخاني، لكن هـذه ليست حياة، مـات أخي مدحت فلزمتِ الحداد، أختي ألفـت أصابها الإحتصار فأحرقت نفسها وشوّهـت جسمها وذراعيها عندمـا لم تحظَ برجل يخفّف عنهـا سجن عذريتها بين العبيـد، كانت تنظر إلى الحارس بشهـوة أنثى فائرة الرغبات، تحدّق إلى رجب، ترنو إلى نعمـان، تنظر لي أيضا وتفيض من روحها الحسرة، أم نعمان ماتت، كانت هي الحياة التي تحكيها لنا، حكايات أم نعمان كانت بديلا لحياتنا المحنطة، الآن لديكم زمرّد المربّية الفارسية التي جئتم بها بديلة لأم نعمان، تعتني بكم وترعى ألفت، لكنها قطعاً لن تكون بمكانـة أم نعمـان في قلوب الجميع رغـم حنانها الأمومي ونظافتهـا ومهارتها في إعداد

الطعام، أختي بديعة عشقت عازف العود في الكنيسة عند تقديمهن النذور لمريم العذراء من أجل حمل أختي وفيقة، هذه حقيقة، لكن حبها وُئد في قلبها ثم أرغموها على زواج لم تسعد به وأغلب ظني أنها لبثت تحلم بعازف العود وهي تنام في أحضان زوجها الذي أنجبت منه طفلتها حورية، أنا عشقت بيدار وسازكار وبنفشة، هذه حقيقة لكنها الآن محض سراب، وهي ليست حياة.. وبنفشة؟ هل كانت حقيقة؟ إنها ليست حياة، لست أنا، هل حقاً لديّ إبن؟؟ لدي أخوات، لدي أم؟؟ لديّ إمرأة هربت مني؟؟

هل أنا صبحي الكتبخاني أم إسماعيل الكتبخاني مبتور الساق ومخصيّ الروح عاشق الجواري والمحظيات؟؟ كم من أبناء الزنا أنجب أبي من جواريه ثم تخلى عنهم واحتفظ ببهجت وحده؟؟ هل كان يعشق أم بهجت محظيته المجهولة فاحتفظ بابنها؟؟ من أنا وسط هذه الدنيا العجيبة الملتبسة؟

أسرّتني أمي أن أبي خرج في ليلة من الليالي مع الحوذي لمقابلة بعض أصدقائه من التجار اليهود صيون ورحمين ويعقوب، وأن صيون إشترى بيتاً كانت تقيم فيه محظية وجاريتان، وأن أبي أعتق النساء الثلاث وجعلهنّ يحتفظن بأولاده منهن وأجرى لهن نفقة تستمر طالما هو على قيد الحياة، هذا مانقله الحوذي للخدم وتهامسوا به وسمعت أمي الحكاية وسكتت على مضض وسامحته، لكنها إنفجرت ذات صباح وقالت للوالد العاجز في فورة غضبها:

– أنت ضعيف وعاجز، سأغفر لك كل مافعلت ؛ فأنت الآن بحاجة لرعايتي، سأسامحك على كل شيء – جواريك ومحظياتك وإبنك بهجت الذي لاأعرف أمه، لن أقسو عليك كما قسوت على الجميع، سأعينك على ماتبقى من حياتك، ولكن علامَ تخلّيتَ عن أطفالك الثلاثة من المحظية والجاريتين؟

قال لها: من أنت لتحاسبيني؟ أنا لم أخالف شرعاً وهنّ ملك يميني..

– لكنك خالفت الحقّ عندما تخلّيت عن أبنائك منهن..

- لست واثقاً من نَسَبهم..

- عجيب أمرك يا أبا صبحي، ولماذا تجيز لهن النفقة وأنت غير واثق من نسب الصغار؟؟

- نفقة متعة السنوات معهنّ وخدمتهنّ لي، أنا لا أخالف شرعاً بهذا..

ماذا يا أمي؟؟ لماذا؟؟ وكيف يتخلى عن أبنائه؟؟ هذا يعني أن لنا أخوة في كل مكان من بغداد وربما في أماكن أخرى، ياللسلالة المجيدة!! وأخي نشأت لايختلف عن والدي، فحسب ما تناهى لي كانت له محظية وجارية أفرد لهما بيتاً ونفقة، ولابد أنه أنجب منهما وتخلى عن ثمار السلالة الكتبخانية..

كيف تغفرين لأبي كل هذا؟؟ أنا لن أغفر لبنفشه رحيلها!! حياتكِ ليست حياة، وحياتي خدعة كبيرة، ماذا أردت من الدنيا؟؟ حلمت وحلمت وكتبت، وقرأت عن آينشتاين وبلانك وروبسبير وجوزيف كونراد والثورة الفرنسية،،،،، الخ وحلمت أن افعل شيئاً لبغداد، أن أوقظ الناس على بؤسهم، عرفت متع النساء في الأستانة و سافرت إلى سالونيك واقتنيت أوّل فونوغراف في بغداد وتزوجت أجمل مغنّية في السلطنة، وها أنا الآن لاأدري ماذا تعني لي الحياة، من سأكون صباح اليوم التالي؟؟ إنها ليست حياة، إنها الجحيم بعينه..

أُسائِل نفسي: هل أمضي إلى والدتي أخفف عنها البلوى وتخفف عني الفجيعة؟؟ هل أعود صبياً أخرق يلوذ بحضن أمه بعد جولات فشل وخسارات في دنيا الناس؟ هل أذهبُ إليها؟ ولكن كيف أتحمل مواجهة أبي ونحن ضدان لايأتلفان؟

قالت لي عندما زارتني:

- أبوك معتكف في حجرته في الديوان، أخوك نشأت ماعاد معنياً بالبيت الكبير، إتّسعت تجارته مع دخول الانكليز وتعددت عقود تجارته مع شركة الهند الشرقية،

ونـادراً ما يزور والدك ويتحدّث معه عن شؤون السوق ويسلمه بعض أرباح تجارة الشاي التي ارتبطت باسم والدك..

هذه ليست حياة، هل أبقى بحاجة إلى عون رأفت؟؟ لماذا؟؟

أصبـح رأفـت موظفاً مرموقاً لـدى الإنكليز بعدما عينوا والـده نجدت الخيامي مديـراً للأمـور اللخارجيـة، أنـا مشوّش الفكـر ورأفـت في صحوة الـرأي وقوة الرجولـة، مذ هربت بنفشة إنطفأت روحي وماتت رغبتي وعجزت تماماً، أنا لست برجـل، أخصاني الخذلان وانفغرت فجوة كبيرة في روحـي وعقلي ومات جسدي رغم أنه حي، ماتت رجولتي، مِتُّ، هذه ليست حياة..

شـدّد رأفت على فكـرة عودتي للبيت الكبيـر، أما أنا فقد تـرددت ولم أحسم أمـري، وكنت مشفقـاً مما سيعدّونه تخليـاً عن مواقف بنيتُ علـى أساسها حياتي، أخشى أن يعتبروا عودتي بعد كل هذا رغبة في التوبة والتصالح مع مايمثله أبي. قال رأفت:

– تردّدك وهواجسك تجعل الأمور أكثر صعوبة، هم أهلك و لا شيء يقف بينك وبينهم وأراه الأمر الأفضل لك ولهم ولنا جميعاً، لن ندعك بمفردك..

نقـل شاهين بعضـ حاجياتي بعربة رأفت وذهـب بها إلى والدتـي وأوصيته أن يهيئوا لي غرفة الشاي لأقيم فيها، سآخذ معي كتاب (طريق الشاي) – دليل التائهين في العشق والخيبة، وبعض كتب أحضرتها من الأستانة وسأحمل معي ملابس بنفشة وعطرهـا وبعضـ حليها ومجلـدات مذكّراتي، وهكـذا تصبح لي ظـلالٌ من حياة، ولكنها ليست حياة..

يعذبنـي أن أغادر البيـت الذي عشت فيه مـع بنفشة وإبننا كمـا يُعذّبني البقاء فيـه، أنـا في مشكلـة روحية، كيـف لي أن أدع حياتي في هذا البيـت – وفيه ذاكرة

الشم واللمس والنظر والسماع – وأمضي خاوياً أعزل إلى منزل أهلي؟؟ وكيف لي أن أبقى فيه مُقيماً مع أحزاني وخيبتي؟؟ فلآخذ بعض مايعينُني على تحمل الفجيعة، في الليلة الماضية أخرجت من خزانة الكتب وأدراج منضدتي مجلّدات مذكراتي ولدهشتي وجدت الجرائد التي تصدّرتها صورة والدي والجنرال ستانلي مود موضوعة وسط المجلد الذي رويت فيه قصة بنفشة، لاأدري من فعل ذلك، ولمَ أشغل نفسي بهذا وفي روحي من الألم وذل الخيبة والحيرة إزاء مصائرنا الغريبة ما يشغلني عن توافه الأمور..

صباح اليوم التالي أرسلت شاهين ليحضر الحكيم الهندي أزهر خان لأستشيره فيما عزمت عليه ولنتفق على مصير العازف المشرّد الذي آويته زمناً في بيتي، قال الحكيم أزهر خان: العودة إلى أحضان الأم ومنزل الأهل طريق سالكة للشفاء..

– لن أشفى من نفسي يا أزهر خان، إنها ليست حياة...

– أنت بحاجة إلى اللقاء بأناسٍ يحبونك والتحادث معهم، العزلة تزيد حالتك سوءً، فكرة حكيمة أن تغادر عزلتك، لاتقلق على العازف، سأجد له ملاذا يؤويه..

– قد أحتاجه في أيامي القادمات، لم أحسم أمر التخلي عنه..

– أرسِلْ لي شاهين فأحضرُهُ لك..

أعطاني الحكيم أزهر خان كتاب (تهذيب الأخلاق) لإبن مسكويه وقال لي:

– لو أنك تمعّنت فيما أورده إبن مسكويه في كتابه هذا عن النفس لعرفت ما أنت فيه ولم تسعَ إلى مفارقة حسّك بما يجري لك..

– وهل ترى في معرفة ما أنا فيه شفاء؟؟

– سنرى، وسأزورك بين الحين والحين وأعرف ما يطرأ عليك من تغييرات وعلامات شفاء إن شاء الله..

- فـإذا حضرت أصحَبْ معك العازف فقد أتدبّرُ له مكاناً وعملاً في بيت أهلي، لأني سافتقد إلى السماع، قد أعجز عن مواصلة حياتي دونما سماع..

قال: سأمكث بعض الوقت معك..

أعـدّ لنـا شاهين الشـاي، وأخذ الحكيم أزهـر خان يقرأ لي في كتـاب (تهذيب الأخلاق):

(... ونجـد أنفسنـا تقبل صـور الأشياء كلهـا على اختلافها، مـن المحسوسات والمعقـولات على التمام والكمال من غير مفارقة لـلأولى ولا معاقبة ولازوال رسم بـل يبقى الرسم الأول تاماً كامـلاً، وتقبل الرسم الثاني أيضا تامـاً كاملاً ثم لاتزال تقبـل صورة بعد صـورة أبداً من غير أن ترفض او تقصـر في وقت من الأوقات عن قبـول مايرد ويطرأ عليها من الصور، ولذلك يـزداد الإنسان فهماً كلما ارتاض في العلوم والآداب....................)

سألتـه: وهل أعود إلى الإستغـراق في العلوم والآداب وقد منعتني عنها أملاً في الشفاء؟؟

- عليـك أن تختار ما ترتاضـس به نفسك وتشعُّ به روحك مـن العلوم والآداب دون اعتـزال الناسـ ؛ فالعزلـة والتخلي عن الناسـ وترك التخالط بهـم تصير بها ملكاتك التي ركبت بك باطلة مالم تتوجه إلى خارجك..

- وإن كنـت لا أطيق العِشـرة والناس إلا على مضض وقسر للنفس بعدما جرى لي؟؟

قال الحكيم أزهـر خان: إسمع مايقوله أحمد إبن مسكويه لعلك تقتنع بما يورده من صحيح التجارب، وأخذ يقرأ لي:

(... واعلـم أن الإنســان مـن بين جميـع الحيـوان، لايكتفي بنفســه في تكميل ذاتـه، ولابد له من معاونـة قوم كثيري العدد حتــى يتمّم حياته طيبــةً ويجري أمره علـى السداد، ولهذا قال الحكماء أن الانسان مــدني بالطبع أي هو محتاج إلى مدينة فيهـا خلق كثير لتتم لـه السعـادة الإنسانية ؛ فـكلٌ بالطبع وبالضـرورة يحتاج إلى غيره......................)

- ولكــن أيهـا الحكيــم، نفسي تهـاب التخالط وروحــي ترفض الإجتماع إلى الناس..

- أمـك ليست من غرباء الناس وعليك أن تجالسهـا وتتحدث إليها وتنصت لما ستحدثك به من أمور مشتركة بين أم وإبنها...

نساء في السراب

تتواجه النساء الثلاث في البيت الذي احتفظ بمعالمه وبعض أشجاره ورائحتــه التي تميزه عن روائح البيوت التي يعرفنهــا: هناء وميادة وابنتها نهــى جابــر الكتبخاني، وحيدات لايملكن ســوى ومضــات ضوء صغيرة تبقّت من إشــتعالات الشباب في قلوبهن، وحيدات في مدينة الموت بعد رحيل جابر الكتبخاني...

أســرار عائلة الكتبخاني لاتعني أحداً ســوى نهى التي تنوء تحت وطأة ذلك الماضي اللعين الملتبس لأســرة والدها ذي الأصول العربية والتركية مــن جهة والدة إســماعيل الكتبخاني: المرأة الجميلـة التي جاؤوا بها من أزمير، أســرة عجيبة لها إرث باهظ من الشــر والدناءات العتيقة وأبناء الزنا وشــهوة الســلطة والمال والجواري والمحظيات، ونهــى عازمة على إتمام المهمــة حتى آخر صفحة لتنشــر المدونــات في كتاب وفــاءً لعهد قطعته لوالدها، وسيكون كتاب سيرة على غير ما اعتاد الناس من تجميل تواريخ أســرهم وإضفاء صفات الكرامة والشــرف والخير وتمجيد الرجال والنساء وصياغتهم كقوالب الحلوى الكاملة الجمال...

ثمة حلف ســري يجمع بين النساء الثلاث وإن اختلفت مواقفهن حول أمــور كثيــرة: جدوى الــزواج والإنجاب والحب، جــدوى البقاء في البلد المتهــاوي أو المغــادرة دونمــا عودة، معنــى الحرص علــى زراعة الزهور الموســمية فــي أوانها أو زراعــة النباتات الدائمية قليلــة التزهير، معنى أن

يتجنبن الخروج معاً خشـية أن يلقين حتفهن مجتمعاتٍ في انفجار أو حادثة،،، إتّفقن في هذا الحلف السـري واختلفن على معنى حياة كل منهن...

ميادة ترمّلت حديثاً، هناء خذلها عاشـقها وعنّسـت، ونهى خاضت تجربـة انفصال في زواج بائس وتورّطت في حب مسـتحيل، قبل هذا عشـن أيام قحـط وحصار، أيام قصـف بالصواريـخ والقنابل وحرائق أبتلعـت نصـف بغداد، وشـهدن أيام خطـف وقتل علـى الهوية، قُتل فـؤاد ابن ميـادة وأقارب وأبناء جيـران ومعارف، اليوم لاسـلوان لهن سـوى متعة أن يرثين أنفسهنّ في خساراتها، كن أحيانا يذرفن الدموع ويمزجنهـا بدقائـق الزمن، يختنقـن بالعبرات والسـاعات أو يواجهن المرايـا سـاخرات من وجوههـن المتجهّمـة، وكن في أحيـان أخرى يتشـدقن ببسـالة لايملكنها أو يدّعين نسـيان قصص مرّت بهن، تقول هناء لأختها:

ـ الأفضـل لنهى أن تغادرنـا، لاجدوى من بقائها هنا وهي بعدُ في سن الحادية والثلاثين، دعيها تعود الى غرينوبل..

تصمت الأم، تعرف أنهن نساء وحيدات في وحشة الأنوثة والثكل، لاإبـن ولارجل يدفع عنهـن إبتلاءات الوحشـة والمخاوف، منعزلات ومنشـغلات بأوجاعهن المتفاقمة، الجسد يتوجّع عندما تستسلم الروح لخسـاراتها: يظهر ألمٌ في الرأس أو تشـنج فـي العضلات أو تهيج في المفصـل أو ألم في الأصابع أو تؤرق إحداهن حرقة في المعدة، تبتكر لهن الوحشـة وطعم الخسـران مايكفي من الأوجاع التي تشغلهنّ عن أنفسـهن، ثلاثتهن يمنحن البيت أنفاس حياة ناعمة تنسـجها شهوات

الأنوثة رغم كل شيء، يحاولن إقتناص أمل في سماع بعض الأخبار أو الفرجة على مسلسلات كورية أو تركية مبهرة وخداعة كالبرق الخلّب..

منذ أول الليل تجالس نهى نفسها في الحديقة: تتصل روحها بالقمر والريح وتحيطها أصوات حشرات الليل الصرّارة، يعذبها صوت قطرة ماء رتيبة الايقاع تتقطر من حنفية في حوض الحديقة، تنتظر كلمة من نادر، قبولاً بالخروج إلى العالم، تفكّر: لاأمل في كل ما فعلت، لم أنجح في إنتشاله من تلك البئر العميقة التي احتفرها لنفسه كملاذ آمن من الكوارث التي تفترس المدينة: جرائم إبادة منظمة واستنزاف طاقات البشر ونهب لموارد الأرض والبلد. لعله على حق في عزلته وانطوائه، فماذا عليّ أن أفعل؟؟

تأتي هناء، تجلس قبالتها، ليس ثمة حديث يمكن أن تبدأه المرأتان دون أن ينعطف نحو تقييم حياتهن هن النساء الثلاث، هناء أشدهنّ ميلاً إلى معالجة الخسارة بالسخرية ومناقشتها بالتشفي من النفس، تهمس لنهى:

ـ لاتبقي هنا، عودي إلى غرينوبل، سيأتي أخي من أربيل ويعيش هنا قربنا مع زوجته نازنين خان، لاتخشي علينا من شيء، أنا مازلت في قوتي، وأمك تستعيد علاقاتها مع صديقات الأمس، سمعتهن يتحدثن عن مجموعة أمهات يقدّمن الغوث لطفلات الشوارع المشردات، إحدى الصديقات خصّصت منزلها لإيواء الصغيرات، وأمك تعهّدت بتعليمهن، أما أنا فسوف أجمع لهن الثياب والكتب والأدوية، لاتقلقي علينا، نحن تدبرنا أمورنا، وبقيت أنت..

ـ أظنني إستنفدت كل رغباتي..

ـ تكذبين، تقول هناء..

ـ لاأكذب، ولا أطمح لشيء..

ـ أنت تحبين نادر ونادر لايمنحك أملاً باقتران أو حياة زوجية ترتجينها، لايريد مغادرة الجحيم ؛ فقد استمرأ الإشفاق على نفسه..

ـ أنت مخطئة خالتي هناء، نادر يحيا على أمل ارتباطنا...

ـ تخدعين نفسك، أنت تتمتعين بحرمانه وحرمانك، هذا ما أراه فيكما، أنتما لاتتقدمان خطوة واحدة كأنكما تدوران في لجة رمال متحركة..

ـ سأقترح عليه الرحيل معي..

ـ وما الذي تتوقعينه؟؟

ـ لست موقنة من شيء، لاأدري.. لاأدري..

ـ كفانا خساراتٍ يانهى..

ـ إذن سأنهي ماتبقى من مجلد جدّ والدي وأبدأ بمجلد جدي فؤاد، لابد من إنهاء الموضوع ؛ فلم أعتد ترك الأمور معلقة..

تناديهما أم نهى: أيتها الثرثارتان كفى كلاماً، أعددت العشاء..

تضحك هناء: تظن أمك أن الطعام يحل عقدنا الكثيرة، لاتعترف أن حيواتنا تُسرَق منا في هذا المكان والزمان، يسرقون منّا الحب والأمان والعائلة، صحيح أننا اجتمعنا معاً لكننا لسنا بعائلة، العائلة حب وامرأة ورجل، أليس كذلك يانهى؟..

ـ هي الآن في حالة من فقدان التوازن بعد رحيل والدي، لاتدرك

مدى قوة الريح القادرة على اقتلاع كل شــيء، رياح التعصب والجشــع، تمــرّ بمرحلة من خداع النفس، لاترى العصف طالما هي مختبئة في قلب البيــت ومنهمكة بإعداد الطعــام وذرف الدموع على فراق والدي. إذهبي إليها أنت أما أنا فسأعمل في المكتبة...

ـ تناولي عشاءك معنا ثم انصرفي للعمل..

ـ لاشــهية لديّ، إنشــغالي بالعمل يستبعد أي انشغال آخر، ربما أتناول شيئاً بعد إنهاء عمل الليلة..

الفصل التاسع

الحياة وأحجياتها


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أوراق بنفشة خاتون

أوشـكت نهى على الإنتهاء من تحقيق المجلد الأخير الذي تبقى فيه نحو ربع صفحاته، قبل أن تشرع بقراءة المجلد أثارت فضولها بضع أوراق مصفـرّة مدسوسـة في جيب الغـلاف الجلدي الأخيـر، أخرجت الأوراق بحذر: سـبع أوراق مكتوبـة بخط أنثوي منمّق وناعم أشـبه بتطريز دقيق، بعض الكلمات بدت مطموسـة بفعل قطرات ماء سـقطت عليها، نشـرت نهى الأوراق الهشة على منضدة كبيرة وشرعت تقرأ وتطبع السطورالواضحة علـى الكومبيوتر وتحاول بصبـر عجيب فكّ ألغاز الكلمات المطموسـة، ميّزت في لغة التدوين بسـاطة لاترقى إلى بلاغة الجدّ صبحي الكتبخاني وأسلوبه الأدبي الجميل، أنهت العمل وجلست تقرأ...

... أنا بنفشة زوجة صبحي أفندي الكتبخاني، أكتب هذه الأوراق في بيت صغير قـادني إليه رأفت ليكـون ملاذي - بعد أن زرته في القشلة - حتى يتدبر لي سفراً إلى سمرقنـد، كنـت أعرف أنه يعمـل في الجريدة، حكيت له ماحـدث وسبب هروبي ورجوتـه أن لايخبر صبحي بشيء ويكتم السرّ عنه وإلا كان سبباً في موته، وطلبت منـه أن يحضر لي أوراقاً وحبراً و قلمـا - إذا أمكنه ذلك -، وفي المساء أحضر لي ما طلبت..

قضيـت عصر يوم هربي شاردة أتيه في أزقة بغداد العتيقة بحثاً عن وجهة أذهب إليهـا، كان يوماً مُروّعاً يماثل يوم خطفني قطاع الطرق وباعوني للنخاس ويشبه يوم أهـداني التاجر الـذي اشتراني إلى الـوالي، أيام سوداء هي التي جعلـت سعادتي مع

صبحي فردوساً وابتعادي عنه جحيماً يُضافُ إلى تلك الأيام السود، أنا عاجزة عن مواجهة افتضاح الحقيقة التي عرفتها عصر ذلك اليوم، غادرت بيتي وحبيبي إلى الأبد، لا أعرف ما أفعل، الإختفاء أفضل الحلول، الإبتعاد عن رجل حياتي وحبيب عمري صبحي الكتبخاني، أخاف عليه أن تقتله معرفة الحقيقة التي كشفتها اليوم، لم يكن أمامي إلا أن أختفي، نعم لا بد أن أختفي من حياة صبحي الحبيب، ولكن أين أذهب؟؟ لاأعرف غير بضعة أشخاص في بغداد وقد انقطعتُ عنهم بعد زواجي، أعرف بعض وجهاء بغداد الذين كانوا يرتادون مجلس غنائي في بيتي بالنجيبية لكني أترفع عن طلب المعونة من أحدهم بعد أن صددتهم جميعاً وربطت مصيري بصبحي، أعرف العازف يوحنا البغدادي والملحنين اليهوديين خضوري بلبل وصالح شمّيل والثلاثة أصحاب شهامة وكرم، لكنّي أجهل السبيل إليهم. تذكرت أمراً: عندما كنت في قصر الوالي نامق باشا الصغير كانت تتردد على القصر إمرأة تركية إسمها جلّنار تخيط ملابس زوجات الوالي وبناته وجواريه وتحضِرُ لهن أقمشة الحرير الصيني والهندي والموسلين الموصلي والدمقس الشامي وبعض العطور النادرة التي تأتيها من مسقط والهند، و لما أعتقني الوالي ووهبني قصر النجيبية ظلت جلنار تأتي إليّ وتخيط ملابسي وتحضر لي البراقع والعباءات، كنت لا أظهر لرواد مجلسي إلا وأنا أسدلُ برقعاً من موسلين بنفسجي يخفي معالم وجهي فلم يره أحد منهم وكانوا يكتفون بسماع صوتي، أتذكر شكوى جلنار التي كانت تأتي بعربتها وتقول:

– أووف أتعبني الطريق، هدّ حيلي من باب الأغا للنجيبية، خرجنا قبل الضحى وما وصلنا إلا مع أذان الظهر...

سأذهب إلى باب الأغا وأسأل عنها، لابد أن أجدها..

تهت أول الأمر عندما مشيت في الشارع الجديد الذي فتحه الوالي خليل باشا قبل انسحاب العثمانيين من بغداد، سألت بعض الفتيان العابرين عن الطريق إلى محلة باب الأغا، كنت أضع خماراً أسود مخلخل النسيج أرى الطريق ولايرى

وجهي أحـد، هي المرة الأولى التي أخرج فيها إلى طرقات بغداد وأشاهد كل هؤلاء البشـر: باعة يفترشون الأرض وينادون علـى بضاعتهم من الخضار والثمار والخبز والتبـغ، حوذيون وأطفال حفاة وجنود انكليز وهنـود بعمائم ملونة ووجوه قاتمة، نساء مجللات بالسواد،،،، مـرّت بي عربة كان حوذيها يلهب ظهرالحصان الأسود بالسوط فانهمرت عليّ ذكريات طفولتي في قرية قلندر، قلندر قرب سمرقند، كانت قريتنـا ترقـد في واد بين جبال صخريـة، هناك إمتطيت حصانـاً أسود يملكه والدي ناظـر الدين بشتـي، كان الحصان يركض بي إلى أطراف الـوادي وتتطاير ضفائري العشرة وتخشخش جلاجلها الفضية، كنت صغيرة وأتخيل أنني ألمس الغيم فيسقط المطـر وأقطف زهرة البنفسج من البراري عندما كنت أرعى الكباش والماعز قبل أن يخطفنـي قطاع الطرق، كنت سعيدة أركض بين الوادي ونهر سيحون، أتسابق مع الفتيات بملابسهن الملونة وضحكاتهن، نركض نحو ضفاف النهر والمروج، ونحلم نحـن البنات الفقيرات أن نجد كنزا مـن كنوز ملوك المغول ؛ فقد حكت لنا الجدات حكايـاتٍ كثيرة عن الكنـوز وكان الرجال أقارب أبي والرعاة يحكون القصص في الشايخانات القديمة عـن الكنوز وهم ينصتون إلى زفير السماورات، كنا نبحث في المغـاور فلا نجد غير السحـالي والطيورالعاجزة عن الطيران، في يوم بعيد وأنا ألاحق عنـزاً تسلقـتْ التل - أنـا البنت التـي كان إسمها فرغانة - لمحـتُ عجوزاً هرمة، كومـة عظـام محشورة في جلد بشـري يابس تطل من كهف علـى منحدر التل وهي تتدثر بفروة خروف وعلى رأسها طائرغريب، وكانوا يتحدّثون عنها في القرية بأنها العرافـة الساحرة التـي تخطف الصغار والرجال، تشـوي الصغار وتأكلهم وتمتص قـوة الرجال وتعيدهم إلى القرية فاقـدي الرجولة، فزعت وقلت ستشويني العجوز وتأكلنـي وترمـي عظامـي، أردت الهرب لكـنّ العجوز قبضت علـى طرف ثوبي وتمسكتْ به و قالت لي بصوتها المتكسر:

- لاتخـافي ياصغـيرة، ماشاء الله، علـى وجهك ختم السعـد، ستطير بك الدنيا

كمـا يحلّق النسر وتغمرك بالذهب وتحيطك الخلائق من كل صوب وتعيشين مرات ومرات كأنك تموتين وتحيين، تموتين وتحيين..

وبعـد يومين كنـت أرعى القطيع على السفح فاختطفنـي قطاع الطرق وباعوني للنخاسـ... لم أفهم حينها كلام العرافة لكنه انحفر عميقاً في ذاكرتي، وها هو يعود اللحظة فأفهـم ماقالته عرافة التلال، تردّدت الكلمـات عاصفة في رأسي وطرقت على قلبي: كأنك تموتين وتحيين، كأنك تموتين وتحيين..

مـررتُ بجامـع الآصفية وبعض الدكاكـين، قلت لابد أن أجد أحـداً أسأله عن بيت الخياطة جلنار، كانت مجموعـة من الشبان يشاهدون صراع الديكة ويهرجون ويتفرج عليهم رجال جالسـون في المقهى وهناك أولاد يشترون زيت السيرج لملء قناديـل الإضـاءة بعـد أن أوشكت الشمس علـى الغروب، رأيـت دكان بائع تبغ وجرائد وكان رجلاً مُسِناً سمِحَ القسمات، توقّفتُ مترددة ثم اقتربتُ من الدكان:

- السلام عليكم..

- وعليكم السلام..

- هل تعرف بيت الخياطة جلنار؟؟

- البيت الرابع على يدك اليسار، على بابه مطرقتان من النحاس..

- دام فضلك أيها الخيّر..

طرقـت الباب مرتين ففتحت جلنار التي كانـت تضع برقعاً أسود، فزعت حال رؤيتها لي وصاحت:

- ستّي بنفشة خاتون، ما الذي أخرجك من البيت؟؟

عانقتني وهي تردد: ماالذي أخرجك في هذا المساء، تفضلي أدخلي..

- لن أثقل عليك، أريد أن أبيت لديك الليلة، لاأعرف أحداً سواك في بغداد..

- بيتي تحت أمرك ستي بنفشة خاتون..

قادتني عبر المجاز إلى الحوش الكبير الذي تتوسطه نخلة تحيطها الزهور والرياحين، في الإيوان أرائك مكسوة بالبسط الصوفية، وعلى العمود الذي يتوسّط الرواق قفص بلابل من جريد النخل...

قلت لها:

- جلّنار خانم، هل تعرفين الطريق إلى القشلة؟؟ أريد الذهاب إلى هناك في الصباح ولاتسأليني عن سبب ذهابي..

- سأرسل معك إبني شاكر ؛ فهويعرف كل شيء عن منطقة القشلة لأنه يعمل عند مجلد الكتب محمود الورّاق في سوق السراي ويمر يومياً بالقشلة ويحكي لي عن الإنكليز والهنود، إطمئني أنت في أمان ولن أسالك عن شيء، تفضلي تناولي لقمة قبل أن تنامي في غرفة إبنتي مريهان فهي تنام معي منذ وفاة والدها..

- لاأريد شيئاً الآن سوى النوم..

مانمت، كنت أحترق بين شوقي لزوجي وحبيبي صبحي وإبني ومايحتّمه هذا من كتم للسرّ، وبين أن أمضي في خطة هربي وابتعادي عن بغداد حتى النهاية، إنتحبتُ وأنا أتوقع ماسوف يصيب صبحي عندما يكتشف إختفائي، سيعتبرني إمرأة غادرة وهذا ما يزيد عذابي، هل أعود إليه صباحاً وأطلب غفرانه؟؟ وكيف سأفسّر غيابي هذه الليلة عن بيتي؟؟ ما هي الكذبة التي سأتدبرها لأقنعه ببراءتي من كل غدر؟؟

في لحظة من اللحظات صممتُ على العودة صباحاً، أدركتُ أنني سأموت إذا ابتعدت عن صبحي، أحسُّ الآن بملمس شعره الناعم تحت أصابعي، أشعر بمذاق قبلته، أشم رائحته، أسمع انفاسه وهو نائم، أنظر في الظلام فأراه وأسمعه يصرخ: تعالي، تعالي، أسرعي..

بدا الليل بلا نهاية وكنت أرتعش لا من البرد - إذ دثرتني جلنار بأغطية صوفية ولحاف - وإنما من خوف قلبي وارتجافه، إنتحبتُ طويلاً ثم استسلمت بعد أن أتعبني البكاء لغفوات متقطعة، إرتفع أذان الفجر من الجامع القريب وصاحت الديكة من سطوح المنازل المجاورة، ووجدت نفسي أتراجع عن فكرة العودة إلى صبحي وعقدت العزم على المضي في خطتي، إشتريتُ من جلّنار بعض الملابس وحملتها في صرّة صغيرة معي...

أوصلني شاكر إبن جلنار إلى باب القشلة ومضى في طريقه...

سألت الحارس عن رأفت بك الخيامي، رافقني الحارس إلى الطابق الثاني من المبنى وأشار إلى الغرفة التي يعمل فيها الخيامي مع بعض الموظفين الإنكليز، أعطيت الحارس بعض المال وانصرف..

وقفت بباب الغرفة وناديت: رأفت بك..

خرج رأفت مذعوراً ؛ فهو لايتوقع أن تزوره إمرأة في محل عمله..

- أنا بنفشة..

- ماذا؟ هل حدث لصبحي شيء؟..

- لا، صبحي بخير..

رويت له القصة كلها وتوسلت إليه: أرجوك إحفظ السرّ ولاتخبر به أحداً مهما حصل..

- ولكن أين تذهبين؟؟

- أريد أن أعود إلى سمرقند عند أهلي..

- كيـف تسافرين وحدك وهناك مخاطر كثيرة قد تتعرضين لها، إسمعي يا أختاه، لـدى أقاربي بيـت صغير لايسكنه أحد سآخذك إليه حتـى أتدبّر لك طريقة للسفر، إنتظريني، سأخبر مدير الجريدة بخروجي وأصحبك بعربتي إلى ذلك البيت..

مرّ رأفت بمالكي البيت وأخذ المفتاح منهم وأوصلني للبيت وغادرني وعاد بعد ساعة ومعه الحوذي يحمل جرّة ماء وبعض الخبز والطعام..

- أنـتِ هنا في أمان ولاأحد يعرف مكانـك، سأحدّث الكولونيل (جون دنهام) عن موضوعك ليساعدنا في أمر سفرك ضمن قافلة محمية..

أمضيـتُ خمس ليال في البيت الموحش بين نحيب وحزن وانتظار، ولم أكن أنام إلا قليلاً، وفي ظهيرة اليوم السادس سمعت طرقاً على الباب..

- انا رأفت إفتحي الباب..

- أهلاً وسهلاً أخي رأفت: قل لي كيف هو صبحي؟؟

- صبحي بخير لكنه حزين جداً ولايريد أن يكلم أحداً..

إنفجـرت بالبكاء وشهقت: أرجوك أريـد أن أعود إليه، ولكن كيف أعود وقد هربت منه؟؟

- خاتـون رتّب الإنكليز أمر سفرك، ثم كيف ستواجهين صبحي بعد أسبوع من هربك؟؟

- لاأعرف، أنا في حيرة من أمري، لاأعرف..

- طلب الكولونيل جون دنهام أن يراك وو

- كيف؟ ولماذا يراني؟؟

- يعتزم تقديمك للخاتون المس بيل هذه الليلة ؛ فهناك حفل تقيمه الادارة البريطانية في دارها..

- و من هي المس بيل خاتون؟؟

- المس بيل مستشارة المندوب السامي وهي التي ستدبّر أمر سفرك بأمان إلى طهران ثم سمرقند..

- كيف وأنا لا أعرفها؟؟

- سيعرّفك عليها الكولونيل..

- أخشى أن في الأمر شيئاً لا أفهمه..

- إطمئني أنا حريص على سلامتك، لن أدعك تتعرضين لسوء أو خطر، سيقابلك الكولونيل أولاً فهو يعرف اللغة العربية، وكذلك المس بيل تعرف التركية والعربية..

غيّرت ملابسي ووضعت عباءتي وبرقعي..

صحبني رأفت في عربته إلى منزل الكولونيل الذي قابلني مُرحّباً، وقال:

- حدّثني رأفت عنك وعن ذكائك ومعرفتك اللغات وغنائك وعزفك الموسيقى..

- لكني تركت الغناء..

- لابأس من بعض الغناء بين حين وآخر، وسوف تُسَرُّ المس بيل بوجودك..

نظرتُ إلى رأفت محرجة، أشار لي أن أهدأ..

صحبنا الكولونيل بسيارته العجيبة – وكنت خائفة جداً – إلى دار المستشارة،عبرنا ممشى الحديقة المحفوف بشجيرات الورد والآس وصعدنا ثلاث درجات إلى الشرفة التـي يتوسطها المدخل، فتح الباب حارسٌ يرتدي الملابس العسكرية وأجلسني في صالون كبير مضاء بالثريّات، وبقي رأفت والكولونيل جالسين في الشرفة....

أقبلت المس بيل و سلّمت عليّ، وجدتها سيدة مهيبة الطلعة ونحيلة جداً وذات قسمات صارمة، ترتدي ثياباً مـن الموسلين الرمادي وقلادة من لؤلؤ ملون، وقالت بالعربية:

– مرحباً بنفشة خاتون. هل تعرفين اللغة الفارسية؟؟

– نعم خاتون، أتحدّث الفارسية والتركية..

– أخبرني الكولونيل أنك مغنية مشهورة ومتحدّثة بارعة..

– كنت أغني من وراء ستار وهجرت الغناء منذ سنوات..

– هل تتفضلين عليّ الليلة بالغناء هنا في الحفل الذي سيحضره المندوب السامي والضباط الإنكليز فقط؟؟

– لا أستطيع خاتون.. أعذريني..

– حاولي ولدي مفاجأة لك..

– ماذا؟؟

ستعرفين بعد الحفل، وستكـون أغنيتك هدية شكر أخيرة لي، تعلمين أننا النساء نمرُّ بموجات من الحزن ونحتاج الى شيء من المرح..

- وأغنيتي حزينة أيضاً..

- لابأس بغناء حزين يتناغم مع ما أنا فيه، أودّ أن أسمعك..

أمرت المس بيل الخدم أن يضعوا منصّة في صدر صالونها ويسدلوا ستاراً وبدأت أتمرنّ من خلف الستار..

صفّقت المس بيل إستحساناً وقالت:

- ماهذا السحر؟؟ لم أسمع صوتاً بهذا الجمال مذ جئت إلى العراق..

بعد الغناء إنفردت بي المس بيل وبدأت تسألني عن بعض الأمور، وبدا واضحاً أنها تعلم كل شيء عني منذ بيعي في السوق حتى عيشي في قصر الوالي وعتقه لي وزواجي..

- القنصل البريطاني أثنى عليك وعلى ذكائك وعلمك، ونريد أن نرسلك برسالة غير مكتوبة إلى شركة النفط البريطانية في طهران، ومن هناك سيقوم رجالنا بتسهيل سفرك إلى سمرقند، سنرسل لهم برقية بالأمر، ستعودين صباح بعد غد إلى هنا و تسافرين مع الجيش في سياراتنا بصفتك مبعوثتي إلى طهران، هل تشاركينني إحتساء الشاي؟؟

- خاتون، أنا لا أشرب الشاي، معذرة..

- حسناً، سآمرهم أن يحضروا لك القهوة، إستريحي ريثما أنجز بعض الأمور..

بعد الحفلة وغنائي من وراء الستار عرضت عليّ المس بيل مبلغاً من المال للتصرّف به في الطريق، إعتذرتُ عن قبول الهبة فقالت:

- الطرق لها مفاجآت، قد يطول السفر وتحتاجين إلى مبيت في فندق أو خان في طهران ريثما يوصلك رجالنا إلى سمرقند، ثمّ بلغتني برسالتها الشفاهية إلى مدير شركة النفط البريطانية - الفارسية...

عُدْنا في سيارة الكولونيل لنستقل عربة رأفت التي تركها مع الحوذي قرب بيت الكولونيل، وبِتُّ الليلة الأخيرة وأنا أكتب هذه الأوراق وسأرجو رأفت أن يضعها في دفاتـر صبحي ويسلّمها إلى إبني فؤاد عندمـا يصبح راشداً ويقدّر الأمور ويفهم معنى الغفران إزاء والدة لاتملك سوى التضحية بسعادتها لتجنبه ووالده الألم...


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل العاشر

عصر الملوك



آخر تدوينات صبحي

بقـي مايقـارب الثلاثيـن صفحة مـن المجلـد الأخير للجـد صبحي الكتبخاني، شرعت نهى تقرأ فخمّنت أن الجد صبحي كان مشوّشاً ومتعباً عندمـا دون هـذه الصفحات ؛ فما كتبه كان أشـبه بهلوسـات أو لعله كان تحت تأثير الأفيون أو الذهول أو شدة الحالة السوداوية...

... ذات صبـاح وبعد شهـور من انتقـالي إلى بيت أهلي توفّي والـدي وانشغل الجميـع بمجلس العـزاء، بدأ أخي غير الشقيـق نشأت يزور البيـت بين حين وحين ويلمّح إلى رغبته في ترميم البيت، قالت له والدتي:

- إبني نشأت، لاداعي لكل هذه المصاريف، البيت بخير ويكفينا مانحن فيه..

قـال لها: لاظنه يتّسع لنا جميعاً وهو علـى هذه الحال، سأضيف غرفاً أخرى من جهة البستان..

- لن تفعل شيئاً الآن، عندما تقرر الإنتقال للعيش معنا إفعل حينها ماتشاء...

لم أتدخـل بينهمـا، غضـب نشأت وصمـت وتركته والدتـي في الفناء ولاذت بغرفتها التي لازمتها منذ وفاة والدي..

إعتكفتُ في غرفة الشاي ودموعي تسحّ على وجهي ؛ فأنا في غنى عن الدخول في نقاشـ مع نشأت الذي لم يعد يخفي مطامعه، دخلـت المربية الكبيرة زمرّد تحمل صينية الطعام ورأتني على هذه الحال، فقالت:

- يا بني ما الذي تفعله بنفسك؟؟ طوال أيام وأنت جالس هنا تحدق بالكتب، لا ترقد في سريرك ولا تنام، ما الذي أصابك ياصبحي؟؟ أنت مسحور يابني، ولابد أن تأخذ الترياق لإبطال السحر. إسمع ما أقوله لك: أمك متعبة وأنا في مكانة أمّ تريد الخير لك، أنت مسحور ياصبحي، سأحضر لك الترياق وأمزجه بالطعام ولابد أن تتناوله لتشفى، لايصحُّ أن تبقى مستسلماً للهم والغمّ...

- لستُ مسحوراً يازمرد خان، أنا موجوع القلب..

- هذا يأخذك إلى السقم والهلاك، أنت مسحور والسحر منع عنك النوم والراحة وأوجع قلبك..

- دعيني يازمرد خان، إهتمي بأمي وبهجت وحمدي، ساعدي ألفت في تدبير أمور البيت وأعيني والدتي على تحمل غياب والدي، خففي عنها..

- أنا مشغولة البال بك ياولدي، إن كنت ترفض تناول الترياق لطرد السحر والسموم سأحضر لك بعض الأفيون، إعتدنا في بلدتنا (أشكنان) أن نداوي أوجاع الروح والحزن بالأفيون، الحزن يأكل الروح ويدعها كالرماد، هل تفضل تدخينه بالغليون كما أفعل؟؟ لديّ غليون جديد من الخشب الثمين سأحضره لك..

- جرّبته في الأستانة ونفرت منه، لاتحاولي يازمرد خان...

هيأت ألفت الشاي على السماور الروسي المزخرف بالرسوم وقدّمت لي قدحاً كبيراً، وجلست قربي تحدق في وجهي مثل مأخوذة وتهمهم بكلام غير مسموع وتحرّك رأسها بنوع من الذهول، سألتها:

- مابك ألفت؟؟ علام تحدّقين في وجهي؟؟ مابك أختي العزيزة؟؟

- لا أخفي عليك ياصبحي، أنت تذوي يوماً بعد آخر وقلبي يؤلمني عندما أراك

تذبـل، أرجوك لابد أن تستعيد صحتك من أجـل أمي ومن أجل إبنك فؤاد، من أجلنا نحن الذين نحبك..

- أنا بخير يا ألفت، إعتني بنفسك..

- لابـد أن تنـام جيداً وتـأكل جيداً، سأطلـب من زمرد أن تعدّ لـك المحشيات والمقليات التي تحبها، إشرب شايك الآن وستشعر بالراحة..

إستلقيـت علـى سريري وغفـوت أو لعلني تخدّرت وفقدت وعيـي إلا قليلاً، فكنـت مابين النائم والمخدر الذاهل مسلوب القدرة والوعي، شعرت بجسد امرأة إلى جانبـي، أحسسـت بأنفاسها تلهب وجهي، شعرت بها تمـرر يدها على جسمي وتشهـق، حاولت أن افتح عيني فعجزت، لمسـت ثوبها، ياللعجب إنه ملمس ثوب بنفشـة الحرير المطرز بأسـلاك الفضة، فغم أنفي عطر البنفسـج، كان جسمها دافئاً وهـو يلامس جسمـي، أحسستُ براحـة غريبة وخوف مريع، همهمـت: بنفشة، بنفشـة، لم تنطق، عندمـا جاهدت لأفتح عينـي رأيت شبحها يغـادر غرفتي بسرعة ويتلاشى في الظلام، نمتُ ثانية ورأيتها في حلمي بين أحضاني..

في الليلـة التاليـة حـدث الأمر ذاتـه: سقتني ألفـت الشاي فتخـدرت ونمت، وأحسسـت بأنفاس المـرأة تلفح وجهـي، جسدها الدافيء يلامـس جانبي ويداها تجوسـان على وجهي وجسمـي، أحاول لمسهـا فتتعثر يدي المخـدّرة على صدرها وجسدهـا وثنيات ثوب بنفشـة ومخرّماته التي أحفـظ ملمسها، أشـمُّ عطر إمرأتي وأعود إلى خدري وأغفو عميقاً..

تكـرّر الأمر في الليـالي التاليات، كنت أقول لنفسي: أقـف على هاوية الجنون، فأهـب مذعـوراً ويهرب شبح المـرأة، في الليلـة التالية وكانت ألفـت تعدُّ لي شاي المسـاء، نادتها أمي فذهبت مسرعة وتأخـرت عني فما استساغ فمي مذاق الشاي، حاولت النوم ولعلني غفوت قليلاً، وشعرت بالمرأة إلى جانبي، أنفاسها تحرق وجهي

ويداهـا تجوسان على جسـدي وعطر البنفسج يفـوح من ثيابها، تمتمـت: بنفشة، بنفشة، هل عدت يا بنفشة؟

اختفت المرأة حالما سمعت صوتي، وتركت وراءها رائحة عطرها – عطر بنفشة ذاته وحفيف ثوبها..

قالت زمرّد: كيف الحال إبني صبحي؟؟

– لاشيء، غير أحلام مشوشة أراها وأنا بين المنام والصحو..

– هذا فعل الأفيون، لاتقلق، الأفيون يريح جسدك..

– ماذا؟؟

– أعطيـت ألفت بعض الأفيون وعلّمتهـا أن تضع القليل منه في الشاي كل ليلة ليعينك على النوم..

– ألفت تسقيني الأفيون؟؟

– نعـم، ألفـت قامت بالمهمّة على خير وجه، وقالت إنـك تستغرق في النوم بعد شربـك لقدح الشـاي، وأكون أنا منشغلـة برعاية والدتك التي تمضـي الليل باكية منتحبة لفراق الوالد..

قمـت الى خزانة ثيابـي لأغير ملابسـي في الصباح فوجدت صـرة ثياب بنفشة مبعـثرة وقـد اختفى الثوب الـوردي المطرّز بالخـرز وخيوط الفضـة والآخر المزين بالدانتيل..

ناديت: زمرّد، من عبث بملابسي؟؟

- لاأحـد يابني، عندما تغسل الخادمة الثياب تأخذها ألفت وتطويها وتضعها في خزانتك ولاتسمح لأحد سواها أن يرتب ثيابك..

لايمكـن، لايمكن أن تكون ألفت هـي التي... لا لالا.. إنهـا بنفشة التي تزورني كل ليلة..

تفزع نهى من الفكرة المجنونة التي سطّرها صبحي: أن تتقمص ألفت شخصية بنفشة وتزوره ليلاً بعد أن تسقيه الشاي الممزوج بجرعة كبيرة من الأفيون..

- يا إلهي، ماهذه العجائب في أسـرة الكتبخاني؟؟ وماذا فعل صبحي بعد ذلك؟؟

أنهى صبحي الصفحة الخامسة بعبارة واحدة:

- جعلوني أدمن الأفيون وتقاسموا محنتي وجسدي، ماهذا الجنون؟؟

حرائق

من يشتهِ ولايفعل يولِّدُ الوباء..........

وليم بليك ـ (زواج الجنة والجحيم)

حالما تبدأ نهى بقراءة الصفحات المتبقية من مجلد الجد صبحي، تناديها والدتها، وتخمّن ما الذي تريده منها ؛ فذكرى رحيل فؤاد الفاجع راسخة كأنها تاريخ البلاد ذاتها: جريمة مسجلة ضد مجهول مع أنهم يعرفون القتلة جميعاً، كيف تنسى ذلك وقد تهاوت في مدرسة اللغات وحملتها سيارة الإسعاف إلى المستشفى ورقدت أسبوعين تحت رقابة الأطباء. كيف تنسى فاجعة أخ وبلاد؟؟

ـ نعم ماما اليوم الذكرى السابعة لرحيله، أرى أن نقدم من أجل راحة نفسه مساعدات للنازحين في المخيمات القريبة من بغداد وهو ماكان يعمل عليه: تقديم العون لمن يستحقه، لاتفعلي شيئاً غير هذا، لاتقيمي مجلساً للقريبات والصديقات ولاتعدّي عشاء باذخه من الأطعمة التي كان يحبها، كفّي عن هذه العادات..

ـ ولكن ياإبنتي، لابد من ذلك، ستزورني الصديقات والقريبات، وماكان والدك سيوافق لو كان حياً..

- بل كان سيقترح الأمر ذاته، تكفي القهوة والشاي ونتبرع بتكاليف العشاء، هذه فكرة خالتي هناء أيضاً، قالت بأنها ستصحبك إلى المخيم لتسلّمي الهبة بنفسك لمن يحتاجها فيرتاح قلبك. متى ستزورك النساء؟؟

- الساعة الخامسة، لدينا مايكفي من الوقت، ألا ترافقيننا؟

- ألا تكفيك خالتي هناء؟ هي تعرف الطرق والأماكن كلها، أما أنا فسأنهي عملي وأرتاح قليلا، لم أنم الليلة الماضية..

تواصل نهى العمل في مجلد مذكرات الجد في محاولة يائسة لتفادي البكاء، فؤاد كان رفيق عقلها وشريك أفكارها والأقرب إليها من أخيها الأصغر وليد، فلتعمل وتقرأ وتدون لعل مفاجآت أحداث السلالة العجيبة تذهلها عن حزنها...

كتب صبحي الكتبخاني:

... سمعت ألفت تهذي في غرفتها المجاورة لغرفة والدتي، كنت على وشك أن أدخل غرفة والدتي لأحييها وأطمئن عليها وأرى احتياجاتها كعادتي كل يوم، فتلكأت قليلاً لدى الباب وأنصتُّ لألفت، كانت واقفة أمام المرآة تتحدث إلى صورتها:

- أكرهك، أنت نفسي، أكره نفسي، أكره جلدك المحروق، أكره حياتك، أنت يا ألفت عبدة للجميع، أنا لاشيء وأنت لاشيء، لاأعرف من أكون، ما أنا سوى مربية لأخي بهجت وحمدي إبن نشأت، فليأتِ نشأت ويأخذ إبنه النغل، مالي أنا وتربية أولاد الزنا؟؟ أكره عارهم، أكره حياتي، هم يخفون عار شهواتهم وأنا المبتلاة بهذا العار ولاأحد يفكر بي - بألفت المسكينة المحبوسة، أريد أن أموت، لا قيمة لحياتي، مانفعي لنفسي؟؟ أعطيتهم كل مايريدون ولم أحصل على شيء، هذا ظلم، ظلم...

مساء ذلك اليوم جاءت الى غرفة الشاي حيث أقيم مع كتبي ودفاتري، قالت:

- ماهــذا؟ أرى عشاء شهياً، زمـرد بارعة مثل كل الفارسيــات والأفغانيات في إعـداد الوجبات الشهية، والدتي تحـب طبخ زمرد وقد صرفت الطباخ العجوز فلم نعد نحتاجه بعد وفاة الوالد، أتسمح لي أن اجالسك وآكل معك؟؟

- وكيف لا يا ألفت عزيزتي؟ المشاركة تفتح الشهية، هيا إجلسي..

تناولنا العشاء لأول مرة معاً ورأيتها مبتهجة رائقة، قالت:

- حـان الآن موعد شايك الليلي، أوقـدتُ الفحم في السماور والشاي يتخمر الآن..

قدّمت لي قدح الشاي وجلست ترمقني بنظرات غريبة، رشفتُ رشفات سريعة من الشاي ففاجأتني:

- صبحـي، لمـاذا لم نشاهد زوجتك أم فؤاد؟؟ أين هـي؟؟ هل طلقتها؟ أعرف أن اسمها بنفشة، هل هي فارسية أم أفغانية؟؟

- ماشأنـك بها؟؟ لاتفتحي هــذا الموضوع بعد الآن، دعيني، ألفت لاتتدخلي في ما لا يعنيك..

- تكلم مع أختك، أنت تعنيني وأحبك، خفّف عن نفسك..

- لاجدوى من أي كلام، دعيني وحدي أرجوك ألفت..

- أشرب شايك كي تنام جيداً، لابد أن أرعاك، أنا اختك..

- إعتني أنت بنفسك ياألفت..

- انا لست مريضة، عندي إحتصار، أنا وحيدة، خائفة، أكره نفسي، أنا ميتة منذ زمن، ميتة منذ زمن، ولا أحد يعنيه أمري..

- هل تسمحين أن يراك الحكيم الهندي أزهر خان عندما يزورني غداً؟؟

- الحكيم أزهر خان ليس مبتغاي..

قالت ذلك وصمتت ولم أشأ أن أطيل الحوار معها عندما انفجرتْ بالبكاء وهرعتْ نحو غرفتها وأغلقتْ بابها..

جلست أقرأ على ضوء قنديل الزيت في بعض الكتب التي تصرف ذهني عن الألم والفقدان، لاأعلم كم مّر من الوقت وأنا أقرأ عندما لمحتها تقترب من باب غرفتي ثم تختفي مسرعة مثل شبح، واصلتُ القراءة طويلاً ثم أطفأت المصباح وعزمت على النوم فسمعت صراخ زمرد:

- نار، نار، صبحي أفندي، ألفت، نار في الحرم، البيت يحترق..

خرجت من غرفتي وناديت جميع الموجودين، أحضرت الخادمات دلاء الماء من الحوض الكبير في الفناء، إنهمك شاهين والبواب والخدم الآخرون في إطفاء النيران اللاهبة في غرفة ألفت، عندما نجح الرجال في إطفاء النيران التي شبت إستطاعت زمرد أن تدخل الغرفة وصرخت:

- صبحي أفندي، ستي ألفت، ستي ألفت..

وجدناها جسداً متفحماً وقد تناثرت حولها خرز معدنية كثيرة وأسلاك فضة مسودة عرفت فيها زينة ثوب من أثواب بنفشة، وخمّنت أنها شرعت بإحراق الثوب فامتدّت النار إلى ثيابها وفراشها وجسدها الذي احترق مرتين في جنونها الأول وجنونها الأخير، ثم بدأت تصرخ عندما أتت النار على جسمها وامتد اللهب إلى غرفة أمي..

نجحت بعون من الخادمات في إخراج أمي من غرفتها التي امتلأت بالدخان

وألفيتها موشكة على الاختنــاق، حملتها إلى سريري وكانت تطلق شخيرا لصعوبة تنفسهـا، بـدا وجهها مزرقاً، فركت يديها ونفخت في وجههـا فاستجابت قليلاً ثم بـدأت تتنفس، أسرع بهجت وحمـدي إلى غرفتي وهما يجهشـان بالبكاء وأخذا يقبلان وجه الوالدة ويديها وجبينها، قلت لهما:

– ليبقَ حمدي مع جدته وليذهب بهجت مع شاهين لإستدعاء نشأت..

وصل نشأت في عربته مع شاهين وبهجت وقال متبجحاً ومعرِضاً بي:

– لو كنتُ هنا لماحصل الذي حصل، أختنا المختلة من جانب وغياب الرجال عن

البيت من جانب، هذا هو سبب المصائب...

– لـن أرد عليـك لأنك أخي الأكـبر وربّ العائلة بعد رحيـل والدي، فكّر فيما ستفعله، نجت أمي وراحت ألفت ولاجدوى من الكلام الآن..

– مـاذا أفعـل؟؟ سأنتقل للعيشـ هنا، لن أدع بيـت الأسرة مهجـوراً، سأحضر زوجتي والأولاد والخدم بعد إنتهاء مجلس العزاء..

– إذن سيكون لي تصرف مختلف مع وضعي وحالة البيت..

– أتعتزم البقاء هنا؟؟

– قد أبقى وقد أعود إلى بيتي، أليس لي حق في منزل والدي؟؟

– سنرى من هو صاحب الحق..

– تـرك ابي وصيـة وعليها شهود وقـد حفظها لدى قاض عـادل، ثم هذا ليس وقـت الجدل في الحقوق، أختنا ماتت فقـم بالواجب يارجل البيت ولنهيء جنازتها في الصباح..

بعد إنتهاء أيام العزاء طلبت من رأفت أن يرسل خدمه مع خادمي شاهين لتهيئة قصر البستان ؛ فقد آن لي أن أعود إلى حياتي بعد استتباب الوضع في بغداد...

قال رأفت: كيف تدع الوالدة وحدها في مثل هذه الظروف؟؟

- سأعرض عليها أن ترافقني هي وبهجت وزمرد عندما ينتقل نشأت وزوجته إلى بيت الأسرة..

- ترى وفيقة أن من الأفضل للوالدة أن تقيم عندنا لتعتني بها وتساعدها زمرد في هذا..

- سنرى ماتقرره أمي، فلها وحدها القول الفصل في هذا..

- قالت الأم: لن أغادر بيتي إلا يوم مماتي، لا يا إبني، دعني هنا، لن أذهب معك أو إلى بيت وفيقة، هذا بيتي، من يعتني بأخيك بهجت؟؟ لن أتخلى عن بهجت اليتيم، إذهب أنت حيث تجد راحة القلب ودعوني هنا ؛ فأنا لا أطيق العيش بعيداً عن بيتي..

- لعلك تجدين بعض السلوى في البستان ورؤية الشط كل مساء، وهناك سيكون بهجت معنا ولن أتخلى عنه وسأهتم بدراسته..

- بهجت متعلق بأخيك نشأت، وأظنه سيختار العمل بالتجارة معه وهذا أفضل له، لن أدعه يتغرب للدراسة في بلاد بعيدة..

- فلنسأله، لاتقرّري بدلاً عنه..

نادته أمي وسألته: إبني بهجت، مارأيك لو نذهب أنا وأنت للعيش في قصر البستان مع صبحي؟؟ أم أنك تفضل العيش مع أخيك نشأت؟؟

- لو شئتِ إذهبي أنت مع أخي صبحي، أما أنا فسأبقى في البيت مع نشأت

لأني قررت العمل معه في تجارة الخيول، أحب الخيول والإعتناء بها مع السائسين..

قلت له: هل أنت واثق من موافقة نشأت على هذا الأمر؟؟

– نعـم، كلّمَني في الأمر، وقال لن أجد من هو أحرص من أخي على خيولنا، لن أثق بغريب..

– في حـال تغـير موقف نشأت منك لسبب أو لآخر فبيتـي هو بيتك وأنت أخي الذي أحب..

قالت أمي: أنا باقية مع بهجت هنا، لن اترك بيتي حتى آخر يوم من حياتي..

إنتقلـتُ إلى قصر البستان وهدأت الـروح، واستطعت بعد أسبوعين أن أستعيد قدرتي على النوم والتركيز على ما أقرأه وأدونه، وحسمت أمري أن يجد لي رأفت وظيفـة مناسبة تعينني على نفقات الحياة قبل أن نقتسم أموال الوالد الراحل – تلك الأموال التي يعمل أخي نشأت جاهداً للاستيلاء عليها..

لبـث رأفـت يعمل محرراً في جريدة العرب بعـد أن تخلى جون فيلبي عن رئاسة تحريرها فخلفته المس بيل يساعدها الأب انستاس الكرملي، أعجِبت المس بيل ببراعة رأفـت الخيامي في تحرير مواد الجريدة التي كان يشـارك فيها كبار الأدباء والكتاب ومنهـم الشاعران جميل صدقي الزهاوي ومعـروف الرصافي وكانت مهمة رأفت تسليم المقالات للأب الكرملي الذي يفحص سلامتها اللغوية والسلوبية ثم يعرضها على المس بيل كرئيسة تحرير ومسؤولة رقابية..

وجّهـت المسـ بيل الدعـوة إلى رأفت ووالده الـذي يعمل في دائـرة الخارجية لحضـور حفل عشاء أقامـه أحد الوزراء العراقيـين الكبارعلى شرفهـا واستقبلتهم زوجـة الوزير الأوزبكية الجميلة المهيبة التي أعـدّت مائدة زاخرة بالأطباق الشرقية

الفواحـة بتوابـل الهند وفارس وأتبعتهـا بأنواع الحلويات المعطـرة بالزعفران وماء الورد ونالت مائدتها إعجاب المس بيل وزوجة المندوب السامي..

حدّثنـي رأفـت عن المجتمـع السياسـي وانفتاحه علـى الإنكليـز في الحفلات المختلطة وتمنى لو نتخلص من التزمّت الذي فرضته التقاليد الموروثة على عائلاتنا.. وقـال: بوسعنا الكتابة عن ضرورة تعليم المرأة وخروجها إلى العمل؛ فلدينا أخوات وبنـات على قدر كبـير من الذكاء والتعقل والطموح لكننـا أرغمناهنّ على الخنوع والصمـت وجعلنا منهن عبداتٍ داخل أسوار الحـريم، قال ذلك هو يحاول إضفاء مزيد من الأهمية على العمل في جريدة العرب، قلت له:

- سأعمل، ولكن ماهو العمل الذي سيناط بي؟؟

- تكتب المقالات كما كنت تكتب سابقا في صحف الإتحاد والترقي..

- مقالاتي تدعو للاستقلال سواء في ذلك العهد أو اليوم، وهذا ما سيدعو لحظر مقالاتي..

- إذن تخصّصْ في الكتابة عن تعليم المرأة وعملها أو إعمل محرراً مساعداً تقوم بتنسيـق المقالات وتبويبها وتقديمها لـلأب الكرملي ليطّلع علـى سلامتها اللغوية، وأما السلامة الفكرية والسياسية فتلك تقررها المس بيل..

أوراق رأفت الخيامي

فكّت نهى عقدة الحبل الحريري المبروم والمعقود حول العلبة الجلدية التـي كتِب عليها بخط جميـل: مذكرات فؤاد الكتبخانـي، فتحت العلبة فوجدت تحت المجلد الكبير دفتراً آخر مغلفاً بجلد أحمر ومكتوب عليه:

(هذا السـجل يعود إلى رأفت الخيامـي)، ملأها الفضول: لماذا يضع رأفت الخيامي إبن عمة جدّها دفتره مع مجلد جدها فؤاد؟؟

لم تطل دهشتها واستغرابها ؛ فعندما بدأت تقلب أوراق رأفت أدركت السـر: كان رأفـت يعلق على مجلدات صبحي وأفـكار صبحي من جانب ومـن جانـب آخر كان يتحـدّث عن السـنوات التي أعقبت هرب بنفشـة خاتـون وأوضـاع صبحي والعائلتيـن والوقائع التي حصلت بعد تأسـيس الدولة العراقية...

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد ؛

أنـا رأفت نجدت الخيامـي، أعتزم في هـذه الأوراق توضيح بعض الأمور التي حدثت لأبن خالي صبحي الكتبخاني ولنا...

مـرّت خمس سنوات على هـرب بنفشة خاتون، إنتقل ولدي عيسى وفؤاد إبن صبحي منذ عامين إلى مدرسة الأليانس اليهودية من أجل أن يتقنا اللغتين الإنكليزية

والفرنسية استعداداً لابتعاثهمـا إلى لندن كما نحلم أنا وصبحي، تغيرت الوزارات وبخاصة وزراء المعارف منذ ١٩٢٠ مراراً، وبعد تأسيس الدولة العراقية وتنصيب فيصل إبن الحسين ملكاً على العراق حصلت أمور وحوادث لا يسعني الكتابة عنها إلا فيما يخص عائلتنا ومصير الأولاد..

كنـت في الحقيقة أحترق بين نارين ؛ فصبحي الكتبخـاني أقرب الناس من أهلي إلى نفسـي، وبنفشة خاتون كانـت أختاً كريمة لي وهي إمـرأة وفية لم تخذل صبحي يومـاً طـوال حياتهما الزوجية بـل منحته السعـادة وهو الـذي كان لا يستقر على حـال وتأخـذه الأحـلام مآخذ شتـى، كنت في حيرة تمـزق قلبي بـين أن أكتم السر الـذي إستأمنتني عليه بنفشة وأمر هربها، وبين خوفي على صبحي من تحطم قلبه لو انكشـف السر، فاخترت أن أصمت وأدع بنفشة تمضـي إلى مصير إختارته بإرادتها وسيتكفل الزمن بنسيان صبحي لها، أكتب هذا حتى لايلومني أحد على مافعلت..

بعـد فرار بنفشة ونهوض صبحي من صدمة الفقـدان بعون من الحكيم الهندي أزهـر خـان والعازف التركي جاغلـر رأيت أن ينتقل إلى منزل أهلـه ليحظى برعاية والدتـه وأخته ألفت، رفض فكرتي أياماً ثـم اقتنع، وفكّرت أنه مما يعجل بشفائه أن نبحث له عن زوجة تعوضه حنان بنفشة وحبها ورعايتها، حدثت أختي وداد – التي كانت تميل إلى صبحي – في الأمر وأقنعتها أن نقوم بزيارة بيت خالنا لنلتقي بصبحي وذهبنـا إليه، وما أن رأى أختي الجميلة وداد بصحبتي حتى أدرك مسعاي فتركَنا في غرفة ضيوف الحرم وعاد إلى غرفة الشاي وأغلق بابها عليه..

أخبرتـه بعد وفاة والده إسماعيل الكتبخاني وانتهاء أيام العزاء أنّ بوسع والدي الطلـب من المستشار الإنكليزي تعيينه في أية وظيفة من الوظائف التي تليق بقدراته ومعرفته باللغـة الانكليزية والفرنسية والتركية، وعليـه أن يغادر حالة القنوط التي سحقته، فلم يرفض بل قال:

– وهل تراني أصلح لشيء بعد كل هذا؟؟

قلت له: أنت تصلح للحياة ولابد أن تنهض وتخرج من عزلتك، رحل والدك ولم تعُدْ والدتك بقادرة على العناية بالجميع، لابد أن تفكر بفؤاد فهو يتمنى أن يراك أباً قوياً يعمل كبقية الآباء، عليك أن تعوّضه عن وحشة أمه برعايتك له..

قال: أريد أن أراه، أحضره لي غداً..

بدأ فؤاد يزور والده يومياً في بيت الجد إسماعيل الكتبخاني، وصارا يتحاوران في أمور الحياة وكشف فؤاد لوالده عن رغبته في دراسة الاقتصاد أو الحقوق..

قال له صبحي: أتوسم فيك خيراً وأرى أنك ستعوض إخفاقي في الحياة بنجاحك فيها، لاتفكر بغير النجاح، أحلمُ أن أراك شخصية مرموقة في دولة العراق..

قال له فؤاد: وأنت يا أبي، لماذا لم تفعل ولم تحقق مشروعك وكنت تملك كل مقومات النجاح؟؟

- أردت اغتراف السعادة الشخصية قبل كل شيء، آمنت بالحب أكثر من أي شيء في الحياة لأنني حُرِمتُ من الحنان والحرية في بيت والدي فنفرت من أية سلطة، حاولت العمل لكن اضطراب الأوضاع وسقوط السلطنة العثمانية أعاق الكثير من أحلامي فنأيت بنفسي عن العمل السياسي والتعليم وتفرغت لحياتي وكانت ولادتك إيذاناً بولادة مشروع المستقبل، أنت مستقبلي..

نهض فؤاد لحظتها وقبل رأس والده وبكى..

تجنب الإثنان ذكر الوالدة المختفية لكن حزنهما كان بادياً للعيان..

إتفقتُ مع صبحي في إحدى لحظات صفائه النادرة أن نفكر بالتقديم لولدينا فؤاد وعيسى للالتحاق بالبعثة الدراسية إلى بريطانيا على حساب وزارة المعارف...

كانت الصحف قد نشرت خبر اغتيال توفيق بك الخالدي الذي ذهب ضحية الصراع على السلطة بين العراقيين المتنفذين والصراع مع البريطانيين، وفي هذه

السنوات كانت حالة بغداد غاية في الأضطراب ؛ فقد ذهب المعتمد البريطاني إلى البلاط الملكي للتهنئة بذكرى تتويج الملك فيصل الأول في البلاط فسمع هتافات ضد الإنتداب وبريطانيا من داخل البلاط، تقدّمتْ من بوابة البلاط مجموعة من النساء الريفيات وقد تمنطقن بعباءاتهن السود وشرعن يهزجن بقصائد شعبية ترثي أبناءهن ضحايا القصف البريطاني وعلت أصواتهنّ بسقوط الانكليز وهن يلطمن صدورهن. إعتبر المعتمد البريطاني ذلك أمراً مبيتاً يمثل إهانة له وهو ممثل ملك بريطانيا ولابد أن للملك يداً في هذا، وعليه أن يقدم إعتذاراً رسمياً عما جرى، حاول الملك التخفيف من شأن الواقعة واعتبرها حادثة عفوية من أمهات ضحايا القصف الثاكلات، لكن المعتمد أصرّ على أن يقدم الإعتذار فاضطرّ الملك الى ذلك وعلم فيما بعد أن حرس المعتمد البريطاني إعتقلوا الأمهات النادبات ثم أفرجوا عنهن بعد أسبوع..

كتبت الصحف مقالات كثيرة عن الواقعة مؤيدة موقف الأمهات النادبات والملك ضد التعسف البريطاني ؛ لذا أغلقت سلطة الانتداب مكاتب الحزبين الوطني والنهضة كما أغلقت أبرز صحيفتين معارضتين للإحتلال: صحيفة (المفيد) و (الرافدان) واعتقلت أثنين من مدراء التحرير وأهانت من تبقى منهم، فرّ بعض رؤساء التحرير إلى إيران وتركيا، وأصدر المندوب السامي أمراً بنفي الباقين إلى جزيرة هنجام في الهند..

طلبت من والدي أن يتحدث مع وزير المعارف بشأن ابتعاث فؤاد وابني عيسى جمال الدين رأفت، ووعده الوزير خيراً شرط أن يكونا من المتفوقين ليعودا لخدمة الوطن. تفوّق الولدان وحقّت لهما البعثة وسافرا إلى بيروت ومنها بالباخرة إلى لندن..

أخيراً إنتقل صبحي إلى قصر البستان وتحسّنت حالته وطلب مني أن أبحث له عن عمل في الجريدة ووفقت في ذلك، إنتقل شقيق صبحي الأكبر نشأت إلى منزل

العائلة وضمّ إبنه حمدي إليه، كان نشأت قد عمل على توسيع تجارته مع شركة الهند الشرقية لكن سحب القوات البريطانية من إيران زلزل سوق التجارة العراقية وتوقف التبادل التجاري بين البلدين وتفاقمت ديون التجار، وتأثرت تجارة نشأت لكنه إعتمد على علاقته الطيبة بمدير شركة بيت لنج وعوّضته تجارة الخيول عن خسائر السوق...

هذا بعضُ ما وددْتُ إضافته ؛ فأنا لا أجيد الكتابة مثل صبحي الذي أعدّهُ كاتباً بارعاً وقد أطلعني على مجلداته الممتعة التي قرأتها بشغف واكتشفت أنني قد أغمطه حقه لو وصفته بأنه رجل حالم ؛ فقد كانت أفكاره أفكار رجل ثائر على القديم ويحلم بالتغيير لكن الوقائع المتسارعة والحوادث حالت دون ذلك...

رأفت الخيامي

تموز، ١٩٢٤

الزائلون

الكل إلى زوال، نحن ومن يناقضنا زائلون..........

تحلـم أو تراودها الـرؤى، تنام أو تقف في البرزخ القلق مابين الصحو والغفـوة الهينـة، ترى بلداً ضوئياً وتسـتحضر صوراً من عالـم مرجوّ لتزيح صورة أمها المنتحبة على ولدها المغدور فؤاد، تريد أن تنسى صورة أخيها المضرّجـة بالـدم ؛ فتراه فتى من ضـوء وضحكات، تحلـم فترى طرقات ضوئية مشوشـة كالمجرات في السماء، ترى جموع بشر تسبح في ممرات النور، ثمار الشـجر مصابيح، وثمـار النخل عناقيد نجوم، رأته طفلاً يلعب بطيارة ورقية شـفافة تبرق في الليل وهي تعدو معه في مرج شاسع وتحلق بهما الطيارة الورق، يتعثران بحجارة تتدحرج وتستدير فتصير أقماراً صغيرة ومن بعيد تومئ لهما النوافذ بوميض ضوء ملون وتطلق الأبواب شعاعات ضـوء، تطير نهى للحاق بأخيها فؤاد الذي حلق بطائرة الورق، يمرّان فوق البـلاد الحزينـة التي شـاهدا مدنها وقراها فـي الخرائط مرسـومة بدوائر صغيـرة، لكنها تراهـا الآن مدناً من زجاج ورخام وطيـن وحجارة محاطة بحقول عباد الشـمس والقمح، يرتفعان فوق الأنهار والتلال ويختفي فؤاد بين سـحب الدخان بفعـل ريح عاصفـة هبّت على العالـم، تلاحقه نهى فتفقد أثره وسـط الاعصار المريع، تعدو راكضـة في الهواء، تعدو وراءها الأشـجار، تنفتح كوة في سحب الدخان، تقترب من أخيها وتلمس طرف

قميصه المهفهف، تصرخ به: توقف قليلاً، أريد أن أغلق جراحك النازفة، توقف قليلا لاتسرع، مرت ثماني سنوات وأنت تحلق تائهاً في الإعصار، ألم ينل منك التعب وأنت تنزف؟ همس لها من البعيد:

- عودي، عودي يانهى، إختبئي في النور فإنهم قادمون..

رأت نهى الضواري تخرج من الكهوف والمغاور وتتجه نحو ببغداد، سمعت زئيرها وعواءها وهي تتقدم نحو المدن وتبتلع النجوم والفوانيس والشموس التي رأتها نهى في بساتين النور، بغتة طارت الصواريخ والنيران نحوها، خبأتها الشمس في قلبها ودارت بها بين النجوم ثم وضعتها على سطح بيتها في الفجر واشتد هطول النيران، سمعت صوت فؤاد يصرخ بها من الأعالي:

- نهى إذهبي، ولكن لاتبتعدي كثيراً ولاتقتربي، أنت في الفجر فابقي في الفجر، لاتحتاري، لاترددي، قولي لأمّنا أنني أحبها و طوال السنوات كنت أرنو لوجهها، لعينيها الدامعتين، لشفتيها وهما ترددان إسمي عندما تضع رأسها على الوسادة، نهى: حاذري العتمة قادمة فكوني الشروق، الليل قادم، الليل قادم هذه المرة من الشرق والغرب معاً..

تستيقظ من الرؤى، تجد أمها تناجي صورة فؤاد، تهمس له بقصص الأحياء، تحدثه عن والده الراحل وأخيه الناجي من الموت العراقي، تهمس له: أختك نهى شمس حياتي الوحيدة، نحبك كلانا، لتهدأ روحك يابني، أنت حي في قلبي..

مساء ذلك اليوم في ذكرى الفتى المغدور، جاءت النساء لزيارة أم نهى وليندبن أبناءهن المغدورين وأزواجهن الذي قضوا حسرة على الأولاد والبلاد، تحدثت الزائرات الحزينات عن آخر الكوارث، عن غرق جهات

أبي غريب، عن وصول أعداد غفيرة من النازحين إلى بغداد، ثمة إشاعة عن احتمال انهيار سد الموصل وغرق مدن كثيرة، إشاعة أكبر عن تقسيم البلاد، وتهجير ملايين أخرى من البشر..

عقبت نهى على أحاديث النساء: إنه الطوفان وليس لنا من نوح يبني سفينة الخلاص..

قالت الأم: ليس من نوح ولا شفيع لهذه البلاد، الماء يهددنا والنيران تلاحقنا، وكل صباح نصحو على كارثة، كل مساء ننام على فجيعة..

غادرت النساء المحزونات متورمات العيون محمرات الأنوف، حملت نهى أقداح الشاي والأطباق إلى المطبخ، لاذت أمها بغرفتها وهي تفكر بمصير إبنتها التي تحطمت أحلام صباها، ماذا يسعها أن تفعل لها وقد خسرت وظيفتها في فرنسا وعادت من أجل والدها؟ وعندما وصلت سرعان ماورّطها بتحقيق مذكرات تختصّ بتأريخ سلالته التي تعاونت مع كل مغتصب للبلاد..

هاتفُ نهى يرن ومنال شقيقة نادر تتحدث من الطرف الآخر:

ـ أدعوكم مساء الغد لحضور مناسبة عائلية. أنتم أهلنا، لا أحد لنا سواكم..

تسألها نهى: خير إن شاء الله..

ـ كل الخير، لن أبوح بشيء، يروق لي أن افاجئكم..

قالت هناء: خير، يارب إمنحنا أفراحاً وفيرة وبشائر كثيرة، كفانا غماً وهمّاً وموتى ومقابر، نتطلع إلى فرح قليل، يكفينا القليل يارب العالمين،

ما رأيك نهى أن نشتري باقة ورد وعلبة حلوى ممتازة قبل أن نذهب إلى بيت منال ونادر؟؟

ـ فكرة جيدة، إشتري الورد والحلوى حين عودتك من العمل..

ـ هل قرأتِ صحف اليوم؟؟

ـ وهل في صحفنا من جديد سوى مايفجع القلب..

ـ فاز إبن عمك فهمي منصور الكتبخاني للمرة الثانية في إنتخابات برلمان هذا العام ٢٠١٤، تخلى عن حزبه الشبحي وانتقل إلى حزب ذي هيمنة وقوة عدد، قيل أنه وزّع أموالاً كثيرة على الناخبين في منطقته..

ـ وهل يتغير أبناء منصور الكتبخاني؟؟ هذا دأبهم منذ زمن بعيد، إنهم أشباه نشأت الكتبخاني الذي كان يقايض كل شيء بالمال، نشأت شقيق جدنا صبحي ونقيضه، ومع ذلك يحيون ذكرى الجد صبحي فيطلقون إسمه ـ يالمفارقة ـ على من يناقضه من الأحفاد..

ـ هيا تعالي لنعدّ العشاء، سأحضر بعض كبة الرز والدجاج المشوي..

ـ هذا كثير، كأنك تعدّين وليمة، أنا شخصياً لاأشتهي شيئاً، سأنصرف للعمل على المدوّنات العتيقة..

ـ ألانستحق وليمة؟؟، كفانا حرماناً من كل متع الحياة..

ـ تمتعي، ما يمنعك من متع الحياة يا خالتي الجميلة؟؟

ـ المتعة تستدعي المغامرة والمغامرة قد تتطلب بعض تضحية وأنا لم أجد ما يستحق أن أضحي بشيء من أجله..

ـ دونما تضحيات لن تحصلي على شيء يذكر في هذه الحياة، تنازلي عن بعض الأمور لتحصلي على سواها، هذه هي نظرية العيش الراهنة: التبادلية، لاتثقي بالأقدار كثيراً، إصنعي قدرك بنفسك ولاتخشي أحكام الآخرين، لاتخشي شيئاً ؛ فالكل إلى زوال و نحن ومن يناقضنا زائلون..

ـ ما أسهل الكلام، البلد في حالة اختلال وانهيار، والحياة لها طعم مرّ..

ـ إعشقي وعيشي حياتك، لاتبقيْ تابعاً لأحد، بوسعك ذلك، مازال الوقت أمامك..

ـ ماعدت أقتنع برجل، أما أخبرتك عنهم؟؟

ـ تنازلي عن بعض شروطك..

ـ مهما كانت رداءتهم هم لايتنازلون.. لا أود الإنغماس في الفكرة، لدي مشاغل أكثر أهمية..

ـ ماهي؟

ـ لنحمد الله أن لدينا بيتاً نلوذ به، شاهدت أهوالاً لا توصف بالأمس عندما ذهبت مع أمك إلى مخيم النازحين لنقدم للأمهات بعض المال عن روح أخيك فؤاد، رأيت فتيات يافعات معرضات للاغتصاب كل لحظة، يالهول ما رأينا: طفلة في العاشرة زوّجوها لشيخ يملك سيارة أجرة، كاد يغمى على والدتك وهي ترى الطفلة العروس وأبوها يتسلم ثمنها ويسلمها للسائق العجوز، قالت أمك للأب:

ـ حرام يارجل، أماعندك رحمة؟؟

ـ وكيف أطعم ستة أولاد صغار وأمهم المرضع؟؟

ـ وتبيع البنت المسكينة؟؟

ـ أسترها، قد تأتيني غداً حبلى فأذبحها، في الأقل اليوم نحصل على لقمة لأخوتها بثمنها..

ـ كم ثمنها؟؟

ـ ما شأنك أنت؟؟

ـ إن دفعت لك فدية لها هل تبطل زواجها؟؟ كم دفع لك العريس؟

ـ بعد حسم حق السيد الذي أحضر العريس وعقد الزواج يبقى لي خمسمائة دولار..

ـ أدفع لك سبعمائة دولار وأصحب البنت لأسجلها في المدرسة وأعتني بها..

ـ ها.. لا أدري، السيد ما يقبل.. إحنا مانبيع بناتنا..

سألته أنا: كم مرة بعت هذه الصغيرة؟؟

ـ زوجتها مرتين، أختي مو بيع هذا زواج وشهود..

قلت لأمك: هيا بنا، ماجدوى أن تدفعي له وسيجد السبيل لاستعادتها منك ويبيعها غداً مرة أخرى؟

بكت والدتك واحتضنت الطفلة وقبلتها، قالت له: حرام حرام..

ـ ومايحدث لنا أليس حراماً؟؟ يهجروننا من بيوتنا ويستولون على أملاكنا وسياراتنا، ويتركوننا بلا رحمة؟؟

قلت لوالدتك: سيكون مصيرها الضياع عندما تكبر وتدرك مصيبتها،

أن تدفعي فدية لها فكأنك تسهلين عملية بيع البشر، المشكلة معقدة، الحل بيد الدولة وليس بيدنا، وبما أننا لم نحظ بدولة فهناك المئات من الصغيرات يجري بيعهن كل يوم مثلما بيعت البلاد..

ـ يا إلهي أخاف من الآتي خالتي هناء، والله إني أرتعش من هول ماسمعت، ما الذي يحدث لنا؟؟ في لحظات كهذه أندم على عودتي للعراق، لكن رؤيتي لوالدي قبل رحيله وتحقيق مذكرات جدّه قد تبرر ذلك، أما لقائي بنادر فقد أضاف سبباً أكيداً لتشبثي ببغداد..

ـ نحن وحيدات يانهى، هل يمكنك ترك والدتك التي فقدت إبناً وزوجاً؟؟ الحياة عسيرة جداً، ماذا نفعل؟ لابد أن نكون حذرات وسط هذا الجنون، هل نتكيء على عائلة الكتبخاني؟ هل نطلب من النائب فهمي الكتبخاني أن يحمينا؟؟

ـ أبداً، هؤلاء مساهمون في خراب البلاد منذ العهد العثماني حتى اليوم، الحقيقة أنا لاأتشرف بالانتساب إليهم..

ـ هم من نهبوا حقوق أبيك فنبذهم دون أن يقاضيهم..

ـ هم بعض سادة الجحيم الذي نحترق في نيرانه، هل تعلمين أن سلوان شقيق فهمي يعمل في تجارة مولدات الكهرباء وتجارة الأدوية؟؟ لا أدري ماهي خبرة سلوان في الكهرباء والأدوية ومستجداتها على الساحة العالمية؟؟ درس القانون وعمل محامياً، لكنه ترك كل شيء واستغل موقع أخيه ليُثري بسرعة، تعلمين أن أملاكهم وعقاراتهم الموروثة منذ العهد العثماني وزمن الإحتلال البريطاني توفر لهم حياة مرفهة وجميعهم حاصلون على جنسيات بريطانية وكندية وأمريكية..

ـ لابد أن له شركاء في وزارة الصحة ووزارة الكهرباء وإلا لما استمرت تجارته، أعني ثمة فساد..

ـ وله حتماً شركاء في وزارة التجارة..

رسمت المروحة السقفية في دورانها الكئيب ظلالاً وتهاويل على السقف، كان الجو خانقاً ورائحة دخان تتسلل من النوافذ، بغداد تختنق في الحر والغبار، والنساء يحاولن حماية الحياة بالكلمات والأحلام المبتورة ويحصين بفضولهن خلل الناس والمدينة المتهاوية، ويحلمن بسعادات مستحيلة...

تمرّ فترة صمت وتضحك هناء، تقول بنبرة ساخرة:

ـ أتعلمين أن إبن عمك سلوان هذا خطبني ورفضته؟؟

ـ كم أحبك عندما تبوحين لي بأسرارك!!..

ـ ليست أسراراً، أمك ووالدك الراحل يعلمان بالأمر ؛ فقد زارنا سلوان هنا في بيتكم وتكلم مع أهلك في الموضوع، قال لي المحامي المبجل حينها وهو يبدي وجهة نظره بحياتي البائسة وحياة والدك: أنا رجل واقعي، حياتنا بحاجة إلى نظرة واقعية وشطارة مضاعفة لنرتقي بها، ما لا تأخذينه أنتِ سينقضُّ عليه سواك، لاتضيعي أية فرصة من يدك، نحن في ساحة حرب ـ حرب من أجل الثروة والسلطة، وفي هذه الساحة لن يرحمك أحد مالم تكوني ذات أنياب ومخالب، هذه الساحة تشترط القسوة والمطاولة..

عندها ضحك والدك وقال له: عزيزتنا هناء لاتمتلك القسوة المطلوبة، ولذا فهي لاتصلح لهذه الحرب، فكان رده المفاجيء:

ـ سأمنحها جنسيتي الكندية، وبها ستكون أقوى وبوسعها أن تكون قاسية بالقدر المطلوب..

عندها قلت له:

ـ ولكني راضية بنمط حياتي ولاأتوق أبداً للتخلي عنه، لكل منا مايناسبه..

قال: أيعني هذا أنك ترفضينني؟؟

ـ الأمر لايتعلق بك أنت بل بي..

ـ ماذا؟؟

ـ أنا على علاقة برجل يحبني وسنتزوج قريباً..

نظر سلوان باستنكار إلى والدك وإليّ ثم قال:

ـ وتقولينها علانية أنك تحبين رجلاً وأمام زوج أختك؟؟

ـ ولماذا أخفي أمر الحب وهو سبيلنا للحياة؟؟ هل ترى الحب إثماً أو جريمة؟؟

ـ مهزلة، هذه مهزلة.. كيف توافقون على هذا السلوك المشين؟؟

رد أبوك بحزم: هي ليست قاصراً ياسلوان، إنسانة راشدة تملك الحق في الإرتباط برجل تختاره ويختارها..

ـ وأنتم موافقون؟؟

ـ الأمر لايتوقف علينا بل على خيارها..

ـ عجيب أمركم، ترفضون مكانتي وإسم أسرتي وثروتي و..

صرخ والدك به: كفى هراء، ماهي مكانتك؟؟ وماقيمة ثروتك الفاسدة؟؟ أترانا لانعلم!! من ترانا أمامك؟؟ هيا أخرج من بيتي ولاترجع إلينا ثانية..

سألتها نهى: وهل كنت تحبين حقاً؟؟

ـ أبداً، أردت أن أصدم عنجهية سلوان وزهوه بشرف أسرته، أحب أن أصفع هؤلاء الزائفين، صار الموضوع حديثاً تتندر به عائلتا الكتبخاني والخيامي وراحوا يلوكون إسمي ويرمونني بأحط التهم، كيف لإمرأة محترمة أن ترفض الزواج من سلوان الثري الكبير مالك القصور والمزارع والسيارات؟ لابد أنها مجنونة أو مختلة لترفض زواجاً مثل هذا.. أتعلمين نهى، فضّلتُ أن أوصف بالمجنونة والفاجرة على أن أبيع نفسي لسلوان الكتبخاني تاجر المولدات والأدوية منتهية الصلاحية وأحد أقطاب الفساد المعروفين في بغداد..

صباح اليوم التالي فاحت في البيت رائحة دافئة عذبة، تغير طقس الأمس الحزين وانطلقت الأشذاء بهبوب رياح دافئة، إمتزج عطر زهور الياسمين المتناثرة على المرج بشذا الشاي ورائحة الخشب الندية التي تطلقها جذوع الأشجار المعمرة بعد رشها بالماء، رائحة عذبة تشبه الحياة في صباح نيساني، سألت نهى خالتها هناء وهما تتفرجان على فيلم يعرض حالة ولادة:

ـ ألاتتوقين للأمومة؟؟

ـ فات أوان هذا العذاب الجميل ـ أن أكون أماً: عندما كنت ما أزال

طالبة في كلية الإدارة والإقتصاد كان حلمي أن أتزوج حال تخرجي وأنجب ولديـن وبنتـاً واحدة، حتى أنني اخترت أسـماء الأطفـال، عندها وقعت واقعة حرب الخليج الثانية ودخل الجيش الكويت وسـيق معظم الشـباب الذين أعرفهم إلى الموت، قتِلَ مَنْ قتِل في الحرب ومات الآخرون تحت القصـف عندما تراجع الجيش واحترق الكثيرون في دباباتهم وعجلاتهم، منـذ تلك اللحظات الظلماء الموجعة مات حلمي بالأمومة. قلت لنفسـي: أي جنـون أن أتـزوج وأنجب صغاراً لمثل هذه الحـروب التي بدأت ولن تنتهي أبداً!!...

ـ خالتي، لكنك رويتِ لي قصة حبك، هل نسيت؟؟

ـ أجـل، أنا توّاقـة للحياة والحب والرجل، حاولـت، حاولت الخروج مـن كهـف الخوف، ولكن لم يسـاعدني القـدر، خذلني الحـظ وبعدها قررت بحزم أن أسـتبعد فكرة الزواج والإنجاب، الآن جاء دورك، تزوجي وانجبي، لابد لأمك أن ترى أحفادها، عمرك في انتظارات عقيمة..

ـ سأفعل، والله سأفعل، سأتزوج إن أستطعت تغيير بوصلة الحظ...

ـ إن طاوعك نادر، أليس كذلك؟؟

ـ لست أدري بعد، قد نمضي معا إلى فردوسنا وقد نتلبث في جحيمنا، لاأدري ما الذي سـيحصل لنا والبلد يشـوى على نيران حرب أهلية متقدة وحـرب إرهاب وحرب نهـب وتدمير، ما قيمة مصائرنا الشـخصية ونحن نواجه اختفاء بلد كامل؟؟

ـ سـأذهب إلـى العمل، تأخر الوقـت، عليّ أن أزود سـيارتي بالوقود وأصطحب زميلتي معي..

ـ لاتنسي باقة الزهور وعلبة الحلوى..

ـ يؤرقنـي موضـوع الفونوغراف، لابـد أن يأتي نادر إلـى بيتنا لنقوم بتشغيله بعد أن حصل على البوق..

ـ سـيأتي وسيشـغل الفونوغراف ونستمع إلى الأسـرار المشرّفة لعائلة الكتبخاني، وستنهين موضوع المذكرات وتتفرغين لحياتك..

ـ لم يتبقّ لدي سـوى مجلد جدّي فؤاد، سـأنهي العمل عليه كي أشعر أننـي وفيت بوعـدي لوالدي، كانت رغبته أن يسـتمع إلى الأسـطوانات العتيقـة وينصت إلى صوت جدّته بنفشـه خاتون وجده صبحي، لم يمنحه القدر هذه الفرصة..

ـ لاتأسفي طالما ستحققين حلمه بطباعة مذكّرات الجد، إرتاحي جيداً لتكوني مشرقة عند ذهابنا إلى بيت منال ونادر..

ـ سأعمل قليلاً وأنتظر عودتك أيتها الخالة العظيمة..

ـ تسخرين مني؟؟

ـ بل أقول الحقيقة ؛ فأنت خالة رائعة وصديقة جريئة وإمرأة شجاعة..

إستقلّت هناء سيارتها، كانت في حالة انفعال وإحساس مريع بالخواء، رائحة الحيـاة ورائحة الموت تتمازجان في الهواء الكدر، يبدو أن العنف ستتسـع نيرانه والعتمة سـتكون أطول من عصر الطوفان، يا إلهي متى نحيا حياة انسانية بسيطة كمثل البشر؟؟ مجرد حياة عادية، لانطلب الكثير أبداً، فلأنظـر للحياة، لابد أن نواصل ولانتراجع، هاهم الناس يذهبون عابسـين منغلقيـن ومرعوبيـن إلـى أعمالهم، الصغـار الى المـدارس في حافلات

مكتظة بنضارة الصبا، باعة الصحف اليومية يرتبون الصحف على مساند خشبية أو يرصونها فوق الأرض، سيارة ترش الشارع بالماء، وباعة يعرضون بضاعتهم على عربات صغيرة قرب المدارس، وثمة شباب ملثمون يحملون رشاشاتهم ويسرعون حول ساحة التحرير، تجمعات بشرية تتدفق من شوارع السعدون والكفاح والرشيد وجسر الجمهورية وتحتشد قرب نصب الحرية، أسرعت هناء لتدخل أول شارع السعدون بعد أن استدارت حول ساحة التحرير، وجدت الشارع مغلقاً وكان عليها أن تعود باتجاه ساحة الطيران، إكتشفت أن الشوارع أغلقت في الدقائق التي إستغرقها دورانها حول الساحة، عادت أدراجها إلى البيت وإتصلت بصديقتها:

ـ الطرق مغلقة، سأعود إلى البيت..

فتحت منال المزهوة بأناقتها وزينتها الباب فصاحت هناء: ما أجملك منال، بشّرينا، ما الخبر؟؟

قدّمت لها باقة الزهور، ووضعت نهى علبة الحلوى على المنضدة التي تتوسط الغرفة، ضحكت منال وقالت:

ـ ألا تصبرين قليلاً أيتها المتعجلة؟؟ ما هي إلا دقائق وتعرفين..

ـ إعترفي الآن، لاطاقة لي على الإصطبار.. هيا..

ـ خطبني فراس صديق أخي نادر، رفضت الأمر طوال عامين، كنت أحثّ نادر على الزواج لأطمئن على وجود إمرأة حنون تعنى به وتحبه، الزمن يخوننا، قلت لن أدع الزمن يباغتني، لابد أن أحظى بالتوازن في حياتي الباهتة قبل فوات الأوان..

قاطعتها هناء ونهى بالعناق والقبلات:

سألت هناء: ماهي ظروفه؟؟ هل وضعه جيد ويليق بك؟؟

قالت: نعم هناء، فراس يقترب من الخامسة والأربعين، تخرج مع نادر ولبث يعمل في التدريس ثم إستقال وعمل في التجارة، لديه متجر للمعدات الزراعية، هاجر شقيقه إلى ألمانيا منذ سنوات وتوفيت أمه قبل عام، يملك بيتاً صغيراً في حي المنصور، قرر أن يعرضه للإيجار ويستأجر بيتاً قريباً من هنا حتى لانبتعد عن نادر، ونحن الآن في طور تأثيث المنزل..

تساءلت هناء: هل لي أن أساعدك في عملية إختيار الأثاث.. سأتفرغ لذلك وأكون معك كل يوم..

ـ ممتنة لكرمك هناء، فراس يساعدني في كل شيء، سأوكل إليك مهمة إختيار الستائر؛ فهي من المهمات الصعبة..

ـ سأفعل، ومتى الزفاف؟؟

ـ سيكون العقد والزفاف في يوم واحد، لايحبذ فراس الضجة والحفلات، أنظري، هذا خاتم خطبتي، مدّت يدها نحو هناء ونهى..

قالت نهى: مبارك يامنال، أتمنى لك السعادة وراحة القلب.. خاتم جميل..

عقبت هناء: أوووه خاتم رائع، ألماس وذهب أبيض..

قالت منال: لم أكن اريد خاتماً ثميناً كهذا لكن فراس أجبرني وقال:

ـ أي خاتم سيكون أقل مما أود التعبير عنه من حب وتكريم لك..

ـ من سيأتي من الأقارب؟؟

ـ لا أحد، إبنة عمي الدكتورة فرح، إنتقلت من بيتها بعد تلقيها تهديداً من عشيرة مريض توفي في عملية جراحية، هددوا جميع أطباء المستشفى بالقتل..الحكومة لاتفعل شيئاً لحماية الأطباء، وهي الآن في منزل أهل زوجها، لم أوجه الدعوة لأحد سواكما، أخي نادر لايطيق رؤية الغرباء في بيتنا ولم يدعُ فراس أحداً من أقاربه ؛ فأخته مازالت في حداد على إبنها الذي توفي قبل شهرين في حادث انفجار سيارة مفخخة في البصرة ولم يشأ إخبارها بأمر الخطبة، أنتما أهلي وأقاربي، كنت أتمنى أن تأتي الست ميادة أيضاً..

ـ هي تبلغك تهانيها واعتذارها، كان بودّها المجيء، بالأمس كانت الذكرى السنوية لرحيل أخي فؤاد وهي متعبة جداً كالعادة، ستزوركِ قريباً..

ـ بل أنا من ستزورها، سنأتي أنا ونادر..

نادت منال:

ـ نادر، هيا وصلت نهى وهناء..

قال نادر من الطابق العلوي: أنا قادم..

ـ أسرع سيحضر فراس بعد قليل..

ـ أنا ذاهبة إلى المطبخ لأهيئ العصائر والشاي والكيك، إبقيا هنا مع نادر..

قالت هناء: إجلسي أيتها العروس، سأقوم بواجب الضيافة، الصديقات لمثل هذا اليوم..

نظـرت منـال إلى نهـى وضحكت: إنهـا الأفضل بين مـن عرفت من صديقات طوال عمري..

هبط نادر السـلم مسـرعاً وأقبل نحو نهى، مدّ يده المرتعشـة يصافحها وهمس بنبرة عاتبة:

ـ لماذا لم تزورينا، حتى دعتك منال؟؟

ـ قـررتُ أن أنجـز تدقيق مدوّنات الجد صبحـي الكتبخاني وطباعتها وفاء لعهد قطعته لوالدي، أوشـكت على الإنتهاء وتبقى لدي مجلد واحد لجـدي فؤاد، كانت سـياحة عجيبة فـي أزمنة بيـت الكتبخاني وغرائبهم وخطاياهم، عرفت الكثير وتعلّمت مالم أتعلمه في الكتب..

ـ ومتى نشغل الفونوغراف؟؟

ـ هذا يتوقف عليك، قرّر متى تشاء..

ـ نزوركم بعد غد، تعلمين أن فراس خطيب منال هو من دبّر لنا صناعة بوق الفونوغراف..

ـ له الفضل أولاً وأخيراً فيما سنعثر عليه من أخبار آل الكتبخاني.....

كجنين يعبرالمخاض بدت قصة العشـق الملتهبة بين نهى ونادر جنيناً يوقـظ الممكنـات في لحظة الخروج إلـى العالم ليصبح وجـوداً مكتملاً حيـاً ومفعماً بالوعود، إنقضـى بينهما فصلٌ من زمـن الإرجاء والعقلانية المتريثة، وبدأ فصل إشتعال الهوى بين النقائض: نهى المقتحمة المغامرة التـي لاتملك سـوى حقها في المجازفـة الأخيرة، ونـادر المتوجس مما يحيـط به وبها، نادر المرتاب بالعالـم وأوضاع البلاد، المتردد بين خطوة العلانية وصمت الكتمان..

دعاهـا إلـى غرفة مختبره ليريهـا بعض تجاربه ويبهرهـا بما يصنع مع عجائـب الآلات الصغيرة والتجارب الفيزيائية، إسـتأذنا مـن هناء ومنال وارتقيا السلّم الى الطابق الثاني، أمسـك بيدها وهمـا يقفزان الدرجات، دخـلا الممـر المعتـم المفضي إلى غرفتـه، لم يكن من إضاءة سـوى نور شـحيح باهت لقمر مكتمل يتسلل من بين السـتائر في آخر الممر، جذبها نحوه، إحتضنها فاستجابت لعناقه، تشمّم شعرها العطِر وعنقها ولثم ذقنها ووجنتيهـا، تأوّهت قليـلاً فقطف قبلته الأولى من فمها المتوهج، لم يعودا يسـمعان سـوى نبضهما المتسـارع، سـوى همهمة القبلات، سوى انبهار الروح في اكتشـاف نشـوتها وهـي تتخطى عتبات الرهبـة وتحطم أغلال خوفها ونكرانها..

تعالـت ومضات ضوء مـن أعماقهما واتقدت بينهمـا لَهَباً أضاء عتمة الليـل، أفلتـت نهى مـن بين ذراعيه، قادهـا إلى غرفة المختبـر كما يقود شخص راشـد طفلة ضلّت الطريق وهي تبحث عمن يرشدها في الظلام.. أجلسها على الأريكة وسكب لها ماء في القدح وقدمه لها، ولما لم تشرب حمل القدح وأدناه من فمها وجعل يسقيها جرعة جرعة..

ضحكا معاً، إحتضنها وقبل جبينها، أخذت يده وقبلت راحتها..

إكتمل العشـق: هكذا قررت نهى، وهكذا مررت رسـالتها اللامنطوقة في لمسـة يدها الراعشة على يده، إكتمل يقينه بحبها وانغلق قوسا المحبة على روحين أفلتتا من براثن الكارثة العامة، قالت له:

ـ هي حياة واحدة نادر، لا أمل في سـلام مكرّس أو يقظة للضمير من حولنـا، وأيُّ انتظـار لهذين الأمرين محض مغالطـة للحكمة الوحيدة: أن نحيا رغم كل شيء..

أطـرق برهــة وتســاءل: أبوســعنا عبــور بحيرة النــار ومهرجــان العنف سالمين؟؟

ـ فلنجرب، نحن لم نغامر بعد، أتهابُ المخاطرة؟؟

ـ عشــتها في الحرب، عشتها في جبهة الموت، عشتها تحت القصف، عشــتها في العزلة التي امتصت رحيق قلبي، لم يتبقّ لدي خوف من شيء سوى خوفي عليك..

ـ لـو قيّـض لنا أن نحيا معاً برهة زمن أو نموت معاً متعانقين، ألا تجد هذا جديراً بالمجازفة؟

ـ بلـى يسـتحق هذا الاحتمال أن نجازف بكل شـيء مـن أجله، إنما أخشى لومك إن لم نفلح في بلوغ تلك اللحظة..

ـ وما الذي يحول دونها؟؟

ـ كل ماحولنا من خراب ورماد ويأس ومفاجآت لم نتحسب لها وموت وذكريات موجعة تنهش رؤوسنا ولحمنا..

ـ إنسَ كل ذلك وأجبني: هل تؤمن بنا؟؟

ـ وهـل ترتابين في هـذا؟؟ حبك هو الإيمان الوحيـد الذي يحقُّ لي إعتناقه..

نادت منال: نادر، نهى، هيا، أحضرت هناء القهوة...

الفصل الحادي عشر

عند انكسار الضوء


https://telegram.me/maktabatbaghdad

مُدوّنات فؤاد الكُتُبخاني

بدا فؤاد في مدوناته متأثراً بأفكار والده حول الحياة والسياسة وعائلة جده إسماعيل الكتبخاني، إكتشفت نهى أن مجلد مذكراته كان مكتوباً بتلك الرؤية الناقدة التي لاتتقبل الوقائع كما هي بل تعمد إلى تفسيرها على أسس إقتصادية وإجتماعية وسايكولوجية، وتميزت رؤيته بنظرة جريئة عن الحياة والأفكار والأحلام الشخصية ؛ فهو ـ باستثناء تعقيباته العاطفية الرومانسية على اختفاء والدته بنفشة خاتون والتي تحتلٌ مساحة واسعة من مذكراته ـ كان شديد الإنبهار بالحياة الجديدة التي سادت بغداد في العقد الثالث من القرن العشرين، وبخاصة ماكان يحدّثه عنه رأفت الخيامي زوج عمته وفيقة التي احتضنته بعد اختفاء أمه ومرض والده ؛ فقد نقل إليه رأفت ماكان يراه من مظاهر حياة إجتماعية منفتحة بين الطبقات العليا والعائلات الثرية التي بلغ أبناؤها مراتب رفيعة في السياسة والمجتمع...

آب ١٩٢٥

لايغيب وجهها عني، لاتغادرني نظرتها الحانية ولاتدعني لحظة دون أن تشاركني ما أنا فيه، أمي الحبيبة بنفشة، أحزاني تفوح من ضحكتي، كيف لفتىً مثلي أن ينسى ذلك الحنان والرعاية والصوت الساحر والمعرفة الغزيرة التي لاتملكها النساء الأخريات؟؟ كم تختلف أمي عن عمتي رغم حنانها ورعايتها لي مع ولدها عيسى؟؟ كيف لي أن أنام ليلة دون أن أحاور طيفها وأغفو على صوتها؟؟

يحزنني أن أرى والدي رجلاً مكسوراً هدّهُ الهمّ وقهره الفقدان، أبي لايستحق كل هذا الذي كابده وعاناه من أجلها، هل ألومه؟ أم ألومها؟؟ لايعلم أحدٌ منا سبباً لهروبها، أرى ضباباً يلفّ الحكاية، أرى دخاناً أسود يشوّه المسافة بيني وبينها، هل ستعود يوماً؟؟ هل سأراها ثانية؟؟ هل أسمعها تناديني بصوتها العذب: فؤاد، فؤاد..

غادرت بيت عمتي وفيقة وزوجها رأفت الخيامي لأعيش مع والدي الذي انتقل إلى قصر البستان بعد أن تحسنت حالته الصحية وبسبب التغييرات التي حصلت بعد وفاة جدي إسماعيل الكتبخاني وعودة عمي نشأت للإقامة في البيت الكبير، عمل والدي في جريدة العرب التي ترأس تحريرها المس بيل، كان يكتب أحياناً تلميحات بارعة عن أحلامه المنكسرة وعن توقه لرؤية بلده في أحسن حال، وكانت المس بيل تحجب بعض مقالاته مما أورثه قنوطاً موجعاً لكنه صمد ولم يتراجع إلى عزلته وصمته السابق..

عدت إلى ذلك البيت الجميل العتيق وسط بستان النخيل والنارنج والأحلام، في هذا البستان بدأت حياتي ونبتت بذور أحلامي، صرت أمضي أوقاتي فيه، أتمتع بالطبيعة التي حرمتُ منها في بيتنا الصغير الذي أعدُّه بيت شؤم أسود ؛ فمنه إختفت أمي بنفشة خاتون وتهاوى أبي وأخذتني عمتي وفيقة لترعاني في بيتها مع ولدها عيسى..

أهبط إلى الشاطيء الرملي لأصطاد السمك أيام الجمعة من كل أسبوع ويقوم شاهين بإضرام النار في التنور لإعداد الخبز وشيّ السمك، كنت قد أتقنت تحضير الشاي على السماور الروسي الجميل المزخرف برسومات زهور ملونة بينما كان والدي يطالع الكتب أو يقرأ مافاته من الأخبار المنشورة في الجريدة. بدا أننا نعيش حياة مستقرة رغم غياب الأم، زارتنا عمتي بديعة ذات يوم ومعها إبنتها الصغيرة الجميلة حورية بضفائرها الشقراء واللثغة المحببة حين تنطق حرف الراء، تمنيت أن تكون أختي أو أن تكبر فأتخذها زوجة لي، علمت من عمتي أن عمي نشأت يرمي

إلى الحصول على وظيفة كبيرة في الدولة - إلى جانب عمله التجاري - وأنه يقيم الحفلات في مزرعة الخيول للمس بيل والسير دوبس المعتمد السامي البريطاني، وأنه قدّم للمس بيل فرساً أصيلة - هدية في عيد ميلادها - من الأفراس العربية التي كان يتاجر بها جدّي إسماعيل الكتبخاني، كما قدّمت لها زوجته عقداً ثميناً من لؤلؤ البحرين الذي تعشقه المس بيل، وقد تلقّى عمي نشأت مقابل خدماته سنداً بأراض زراعية شاسعة في منطقة التاجي..

ناقشني والدي حول توقعاتي لأحوال الدولة العراقية عندما شكل ياسين الهاشمي الوزارة السادسة بعد تأسيس المملكة، كنت حينها أتابع الوقائع وأقرأ الصحف واختلط بالناس وعلمت - مثلما يعلم الجميع - أن المس بيل تخشى كثيراً من ياسين الهاشمي المعارض للهيمنة البريطانية ؛ حتى أنها صرّحت في بعض المجالس بأن وجوده على رئاسة الوزارة أقل خطورة من بقائه خارجها، وكان البريطانيون يعوّلون عليه لإتمام توقيع المعاهدة طالما بقي في الوزارة...

أبديت خشيتي من تفاقم الأوضاع ومحاولة الكثير من السياسيين رفض المعاهدة لكن رسالة منذرة من المندوب السامي خيّرت العراقيين بين قبول المعاهدة أو التخلّي عن ولاية الموصل، فجرى التصويت على قبولها..

قال والدي: زمني ولّى كما ولّى زمن والدي وسلطنة بني عثمان، لكنني أريدك لزمن مختلف وأن تحتضن أحلامك ولاتفرّط بها كما فعلت..

قلت له: سأكون كما أحلم أن أكون، سأحقق كل ماخططت له ولسوف أنجح فيه، تعلمت من تجربتك الكثير ولن أكرر أخطاءك ؛ فطريقي مختلف باختلاف الزمان.. عاودني بالسؤال:

- هل تتوق للعمل في الوظائف الحكومية بعد عودتك من البعثة المرتقبة؟؟ أم تعتزم العمل السياسي الحر كما كنت أتوق في شبابي؟

- أتمنى أن أعدّ نفسي إعداداً جيداً لأقوم بخدمة الناس بالطريقة المناسبة لزمننا الراهن، علينا أن نجتاز مراحل عديدة خلال سنوات قليلة، ليت الأوضاع تستقر ليتضح كل شيء..

ضحك أبي وقال: ها أنت تقول ما كنت أقوله أيام دراستي في الأستانة، عسى أن تلائمك الظروف وتنجح في تحقيق ماتحلم القيام به..

كنت أمضي أوقات العصر معه نتمشى في البستان، نتحدث فيما قرأناه من كتب ونعود بعدها إلى المكتبة ليطلعني على كتاب يراه مهماً ويعترف بأنه غيّر أفكاره وطوّر قدرته على الجدل والنقاش - هو كتاب (مشروع السلام الدائم) للفيلسوف (إيمانويل كانت)، جلبه من الأستانة وهو باللغة الإنكليزية التي برعتُ فيها مع اللغة الفرنسية بعد دراستي في مدرسة الأليانس اليهودية بشهادة المدرسين، قال لي:

- إسمع يابني، إذا كنت تود حقاً أن تطور بلدك، إستزد من العلم واقرأ عن علم الإجتماع: لديّ مؤلفات هربرت سبنسر ومؤلفات فويرباخ، ستعدُّ نفسك إعداداً ممتازاً لو قرأتها وأنت تهيئ نفسك للدراسة في الخارج لتكون على علم بكثير من متطلبات المجتمعات الحديثة..

- قرأتُ في جريدة الإستقلال عن الجمعية الفابية التي يُعَدُّ الفيلسوف جورج برنارد شو أحد مفكريها ورعاتها، راقت لي الأفكار التي تقوم عليها الجمعية ؛ فهي تتطلع إلى إشتراكية تطورية تتجنب الصراعات الدموية بين الطبقات كما حصل في روسيا، لذا قرّرت أن أتعرف إلى طبيعتها عندما أصل لندن..

- لدي بعض الكتب عن الفابية، أتعرف أصل التسمية؟؟

- لا..

- هو اشتقاق من اسم الجنرال الروماني فابيوس وهو من تصدى لهانيبال الذي

تسبّب بخسائر عظيمة للرومان: عمد فابيوس إلى المناورة والمداورة في المعارك حتى أنهك العدو واستنزف طاقته وقدراته وهزمه، أي بمعنى العمل غير المباشر لإنهاك العدو، العمل العقلاني الهادئ غير المتطرف أو المدفوع بنزوعات ثورية طاغية، أرى أننا هنا تنفعنا الفكرة الفابية ؛ فنحن لانريد إشتراكية متطرفة أو رأسمالية متفرعنة..

– هذا حلمي ولكن...

– ولكن ماذا؟؟

– مجتمعنا غير مهيأ لشيء كهذا..

– عليك بالتعليم والتعليم ثم التعليم قبل أن تحلم بأي حل سياسي، عليك أن تعالج مشاكل مجتمع جاهل وأمي ومتخلف ومحكوم بعقليات عتيقة وقبلية متزمتة..

– هل يعني هذا أن أعود لأعمل بالتعليم؟؟

– ولِمَ لا؟ تستطيع أن تقود مجتمعك من صفك المدرسي وتروج لفكرتك بين عقول طرية تستوعب ماتقدمه لها من أفكار تخص العدالة والخدمات دون عنف أو قسر بل بهدوء وحكمة..

– سير الأحداث الراهنة يشوّش تصوراتي عن المستقبل..

كنا نتجنّب الحديث عن والدتي باتفاق غير معلن، لكنها كانت حاضرة في كلماتنا وصمتنا وفي نومنا وصحونا: كنت أراها تنوء بحمل ثقيل وتمرّ بي أثناء النوم تمسّد شعري وتقبل جبيني وتقول لي: كن الولد الوفي لأبيك الحبيب، لاتخذله، إعتنِ به، حقّق له مايتمنى، قل له أن أمي تحبك وما خانتك يوماً..

أتشبثُ بها فتفلت من يدي وتغيب في سرابها مثل موجة دخان، أهكذا تكون النساء الجميلات الواهبات المانعات؟؟ أهكذا هي أمي العارفة الحسناء تهبني كل

ماهـو ساحر وتمتّعني بصوتهـا البهي وتغمرني بخبرتها ثم تتخلـى عني بغتة دون أن تنذرني بالرحيل؟؟

تمزّقـت روحـي وتصـدع قلبـي، هل مـن سبيل لعـلاج صدوع القلـب؟؟ هل ستلازمـي أوجـاع التمزق طوال حياتـي؟؟ ليتني أفقد ذلك الجزء مـن ذاكرتي، أو أقتلعه بيدي، آه لو إستطعت إفراغ رأسي من ذاكرتي الموجوعة، ليتني أستطيع لأنجو من هذا الليل المعتم الذي يفترس روحي وأخشى أن يخيّم على مستقبلي..

ربطـتُ اختفـاء والدتي بالحوادث التي هـزّت بغداد بعد الإحتـلال البريطاني: الثـورة في الجنـوب والتمردات بين القبائل، حتى بـدا لي أن غيابها مشدود بخيوط خفيـة بما يجـري حولنـا، لم أصرّح بشكوكـي لوالدي، يكفيـه ما يعانيـه من مرارة الخذلان...

رأيـت والـدي في غرفتـه يحتضـن ثيابها ويبكـي، لم أشـأ أن أباغتـه بوجودي فابتعـدت، وطلبت مـن شاهين أن يذهب ويحضر العـازف جاغلر لعلّه يخفف عن أبـي وطأة الشـوق بموسيقاه.. لاأحتمل كل هذا، البلاد تغلـي ولا تنضج شيئاً، كل ماحولنا يفوح برائحة أرض مريضة مصابة بآفة قاتلة ولا أحد بقادر على علاجها،،، وبالرغم من أن والدي نهض وأصبح يخرج للعمل وعاود اهتمامه بالكتب وأوصى علـى كتب جديـدة ستأتيه بالبريد من لندن عبر عنـوان الجريدة، لكنه يخيفني بهذه الحـالات من الإرتـداد للنحيب والتذكـر المرير لأمي، كيف أساعـده؟؟ هل أقترح عليـه الإرتباط بامرأة تخفف عنـه اللوعة والوحشة بعد سفـري للدراسة؟؟ لِمَ لا؟؟ سأتحـدث معه وليكن مايكـون.. سأقترح عليه أن يتـزوج وداد إبنة عمته و شقيقة رأفت الخيامي، ربما سأكون أول ولد يخطب زوجة لأبيه، لِمَ لا؟؟ وداد إمرأة جميلة وحنون ورقيقة تعدّت عمر الطيش وبوسعها أن تسعد أي رجل، وهي تحب والدي وتتحدث عنه بإعجاب كبير..

كنـا نتناول فطورنا صباحاً في الشرفة المطلة على النهر، أحضر لنا شاهين الشاي والبيض والخبـز الساخن الـذي خبزته إمرأته تـواً، كان الجو رائعـاً وأشذاء الورد تفعـم الهواء، وثمة قـبّرات وهداهد وعصافير تتقافز بـين الحشائش وتلتقط حبات عنـب الذئب أو تلتهم اليرقـات، مرّت زوارق وقفف كثيرة أمامنـا ثم بانت سفينة نقل كبيرة من سفـن شركة بيت لنج محملة ببضائع الهند وسيلان قادمة من البصرة، أطلقـت دخانـاً وضجيجاً أفـزع الطيور فهاجـت وحلقت بعيـداً إلى أعالي النخل، وعدت أحدّثُ والدي عن أحلامي، قلت له:

– لو كنـتُ محظوظاً وسافرتُ للدراسة، سأعود من البعثـة مهيأ تماماً لأعمل من أجل البلد، وعندها سأتزوج لتستقر روحي ومشاعري..

ضحـك والدي وقال: سيكون يوم عيـد لي، أن تتزوج وأرى أولادك وتقوم بما يروقـك مـن أعمال عظيمة تخلد ذكـر آل الكتبخاني بطريقة مختلفـة عما كان عليه والدي وكما هو عليه عمك نشأت..

– اذن سوف أسعدك وأتزوج أجمل فتاة في بغداد، ولكن علام بقاؤك وحيداً يا أبي؟ لماذا لاتتزوج وتسعدني بوجود من يعتني بك؟؟

– دع هـذا الأمـر، ليس يسيراً على روحي ومشاعـري التعامل مع أية أمراة بعد والدتك بنفشة خاتون..

– حتى لو كانت هناك إمرأة جميلة جداً تحبك بصمت وتحبني كما تحب إبناً لها؟؟

– من هي هذه المرأة؟؟ وأين توجد مثل هذه المرأة؟؟

– موجودة يا أبي، إنها وداد خاتون أخت عمي رأفت..

– وداد إبنة عمتي؟؟ يالك من إبن مشاغب..

- هل أحضر لك الشاي بطريقتي؟؟

- أجبني أولاً، هل تقبل أنت أن تحل وداد محل والدتك؟؟

- لابد أن تستمر الحياة ؛ فالزمن لا يتوقف بغياب أحد، أعرف أن لكل شخص مكانته وله الحب الذي يستحقه، ولكن لابد أن نغادر دوامة المأساة، لابد أن تعيد ترتيب حياتك، لاتستسلم، لاتنهزم يا أبي..

- لست في معركة لأهزَمَ، الموقف بيني وبين نفسي وهو صراع موجع أن تصارع نفسك وتمتثل لكبريائها..

- إجعل نهاية لصراعك هذا، إحسمه الليلة قبل الغد ليبتهج محبّوك ويتكدر كارهوك..

- هل تظن أن ثمة أحداً قد خاننا وشجّع أمك على الفرار؟؟

- لا أدري، فالأمر كله محض تكهنات، لاأدري يا أبي ولايمكن أن نتهم أحداً دون دليل..

- فلنذهب غداً لزيارة عمتك وفيقة، إشتقت إليها..

- ولعلنا نحظى برؤية وداد خاتون..

- هيا هيئ لي الشاي يا فؤاد، إنك والله لتصلح للقيادة بدلالة قدرتك على الإقناع..

أوشكت الشمس على المغيب وانعكست أشعتها الملتهبة على النهر وتعالى ضجيج الطيور وهي تلوذ بأعشاشها، وهبّت نسائم محملة بأريج الورد الجوري البري، وضعت أمامه صينية الشاي، كان يمسح دموعه بمنديل، أشاح بوجهه عني فابتعدت كأنني منشغل بتأمل الغروب..

في الصبــاح أعلــن جازماً: لا، لن أتــزوج ثانية، سأعمل علــى تدوين مذكراتي وسوف أتركها لك، ولعلك ستكتب بعضاً من فصول حياتك ليتعرف أحفادنا على أرواحنا الهائمــة وخلجاتنا وعذاباتنا التي لايسع الصــور الفوتوغرافية ولا قصص الأمهات أن ترويها على حقيقتها...

لندن

تعـرّف نجدت الخيامي والد رأفت إلى المستر برنارد بورديليون الذي كان يشغل منصب مساعد المس بيل السكرتيرة الشرقية في بغداد، بقي برنارد يعمل بعد وفاتها في مكتبهـا بسبب إطلاعه على المعلومات السريـة بشأن الأوضاع في العراق والتي كانـا يضمّنانهـا في الرسائـل الموجهـة إلى وزارة المستعمرات، وطلـب منه نجدت بـك أن يكتـب توصية بي وبإبن عمتـي عيسى للدراسـة في بريطانيا، ولكن بعثات العـام ١٩٢٧ كان قد جرى إقرارها مـن وزارة المعارف والجانب البريطاني، فقرّرنا الانتظار حتى سنة ١٩٢٨ لنحظى بقبول في البعثة.

زوّدَنـا المستر برنارد برسالـة توصية موجزة إلى رئاسة جامعـة أوكسفورد التي تخـرّج منها هو والمس بيـل، وطلب من المسؤولين أن يولونـا رعاية خاصة ؛ فنحن كلانـا مـن الطلبة النابهـين البارزين في دراستنا ومـن أبناء العائـلات المرموقة التي تعاونت مـع السلطة البريطانية في بغداد خير تعاون ونأمل أن ننتفع من خبرة الأبناء لاحقاً في بناء دولة العراق...

قضيـت عاماً بعـد تخرّجي مـن الثانوية أهيئُ نفسـي وأطوّر مهاراتـي في اللغة الإنكليزية بعون من والدي الـذي إنشغل حينها بإستشارة محامين معروفين لمواجهة المؤامـرات الوضيعة التي يحيكها عمي نشأت للإستيلاء على إرث جدي إسماعيل الكتبخاني وحرمـان أخويه وأختيه من حقوقهم مستقوياً بعلاقاته مع المتنفذين، وفي نهاية الأمر تمّ لوالدي ما أراد وحال بين نشأت وأطماعه المتعاظمة..

لم نحـظَ بالترحيـب المأمـول في جامعة أوكسفـورد لأسباب غـير مفهومة رغم التوصيـة ؛ فكان أن إتّصلنا بقريب لنا هو غـانم الخيامي إبن عم رأفت وكان يدرس الطبّ في لندن، فاقترح علينا أن نسجل في (كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية) التـي أسّسها المفكر (سيـدني ويب) الإقتصـادي البريطاني الكبـير وأحد مؤسسي الجمعية الفابية مع زوجته بياتريس، قال الأستاذ غانم:

– هـذه الكلية هـي الأفضل والأرفع مكانة بين المعاهـد الجامعية المماثلة في لندن والمملكة كلها، ستكونان محظوظين لو تم قبولكما فعلاً..

كـدت أطير فرحاً لهذه المعلومة ؛ فأنا أودُّ دراسة العلوم السياسية والقانون أولاً ومولعٌ بفكرة الجمعيـة الفابية ولابد أنني سألتقي يوماً في رحاب الكلية بهذا المفكر الكبير..

لم نعلـم سبب عدم اكتراث رئاسة جامعة اوكسفورد بتوصية مساعد المس بيل، غير أن غانم الخيامي كان له رأي واضح في الأمر ؛ إذ قال لنا:

– هناك صراع إرادات ومصالح بين الشخصيات البريطانية التي تعمل مع وزارة المستعمرات، ولابد أن نفترض وجود منافسات في هذا الشأن، ويمثل صعود حزب العمال إلى الحكم ثانية صدمة كبيرة لهؤلاء المحافظين جميعاً مهما اختلفت مشاربهم وبضمنهم مستر برنارد كما يعلم الجميع..

ساعدتنا السفارة العراقية بإرسال برقية إلى وزارة المعارف بشأن انتقالنا إلى كلية لندن وتمت الموافقة بعد أسابيع واحتفلنا أنا وعيسى ؛ فأيُّ عائق يعني عودتنا فاشلين إلى بغداد.ز

تمّ قبولنـا في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسيـة بعد اختبارات مضنية على

مــدى أيام، ورغم لغتنا الإنكليزية السليمة إلا أن الكلية فرضت علينا سنة تحضيرية قبــل اختيار التخصص، إجتزنا السنة، وانتسبت إلى قسم العلوم السياسية والقانون بينما فضّل عيسى دراسة الاقتصاد..

كنــت أرى نفسي رجلاً كبيراً خبِر الحياة وصهرتـه تجاربها، وهو نوع من الوهم والغـرور الذي ينتاب الشباب ليزهوا بأنفسهم قبل أن يحققوا أي شيء يذكر، وفي لنــدن وبعد خبرة عــام في الغربة إكتشفتُ بطلان فكرتي عــن نفسي ؛ فأنا لاأعرف شيئــاً قياســاً إلى شباب هذه البلاد الغريبة المختلفة عمــا عشته وعرفته، بل حسبتُني جاهــلاً إزاء أساليــب العيش في مدينــة عظيمة مثل لندن، غــير أن رغبتي في التعلم وتوقي لمعرفة كل شيئ دفعاني للتجربة والمشاهدة والبحث..

بهرتنــي علاقــة الطالبــات بالطلبــة ومــدى شجاعتهــن وبراعتهــن في الجــدل والمناقشــة، ولفتت انتباهي طالبة من أصول هنديــة مهجّنة: كانت ساحرة الجمال، إعتــادت أن تناقش الأســاتــذة ؛ فلا تتقبل معلومة دون أن تحــاور وتنقب في أصول الفكرة ومؤداها، كان إسمها (جايا)، إلتفّ حولها معجبون من أعراق مختلفة لكنها كانت تمضي مــع صاحبة لها إلى قاعة المكتبة وخلفها تتساقط كمطر حزين حسرات الشبــان المسحوريــن بفتنتها وجمالها، كنــت أراها منهمكة في البحــث والدراسة وتدويــن الملاحظات وهي في مكانهــا المفضل في ركن المكتبة المطل على الحدائق، و ذات يوم إلتقيتها لدى باب المكتبة، فبادرتني بالتحية وقدّمت نفسها:

– أنا جايا مهيتاب..

وارتبكت عندما مدّت يدها لي وصلصلت أساورها المبهرجة وتحرك طرف رداء الساري الذي كان بلون الغسق كاشفاً عن عنقها الجميل، مددتُ يدي وأنا أرتعش، إنها المرة الأولى التي ألامس فيها كفّ امرأة:

– فؤاد كتبخاني.. أنا فؤاد

- هل تحب أن نحتسي الشاي معاً مستر فؤاد؟؟

تجرأت وقلت:

- يشرّفني ذلك.. آآآنسة جايا..

تلعثمت ولكني قلتها، قلتها تحت نثيث مطر لندن الرقيق الذي كان يحنو علينا..

سِرْنـا من المكتبـة إلى شارع ستراند، شعرت بالـدوار وامّحت جميع المشاهد من حولي وماعدت أرى غير وجهها وهفهفة الساري، كنت بالكاد أتماسك في خطوي وأقاوم لجة الدوار اللذيذة التي تدفقت في رأسي وجعلت مني موجة مترنحة، لم أكن أتوقع كل هذا، أذهلتني المفاجأة حتى أنني في لحظة من تلك اللحظات لم أصدق أنها تسير معي..

دلفنـا إلى صالة شاي تديرهـا إمرأة وابنتها، طلبت جايـا شاياً بالحليب وطلبت شاياً أسود وفطائر كورنـوول لكلينا، سألتني جايا عن دراستي وبلدي واندهشتْ إذ عرفـتْ أنني من بغداد ؛ فقد حدّثها عمها الضابط الهندي عن مدينتي عندما كان في الجيش البريطاني حين دخوله العراق، قالت:

- حدّثنـي عمّي عن بساتين النخل ونهر دجلـة (تايغرس) وعن الأطعمة الشهية التـي تناولهـا في الولائم البغداية، لكنه قال أنه نادراً ماشاهـد إمرأة بغدادية، إلا في حفلات القائـم بالأعمال الانكليزي حيث كانت زوجـات بعض الوزراء يحضرن رفقة أزواجهن وكّن نساء غاية في الجمال والرقة والظرف.

- أجـل آنسـة جايا، المـرأة عندنا حبيسة الـدار ولاتخرج إلا نسـاء معدودات للدراسـة في مدارس مخصصة للبنات وهي ذات مبانٍ أشبـه بالسجون لا نوافذ لها تطلّ على الخارج ولا تحيطها الأشجار لئلا يتطفل عليها المتطفلون، حتى أن مدرسة للبنات قرب بيت جدي لم تفتح حتى تم قطع النخيل وأشجار السدر القريبة منها..

- عندنـا يختلف الأمر قليلاً مع أن النساء يقعن في مرتبة تماثل العبودية في بعض طبقات مجتمعنا الهندوسي، تراني معك في كلية لندن لأنني تحدّيت وصمّمت. رفض والـدي المتمسك بالتقاليد الهندية إكمالي للدراسة في لندن، لكن والدتي البريطانية وقفت إلى جانب طموحي، كنت أعجب منه، كيف له أن ينتقي من التقاليد مايناسب هواه: يتزوج إمرأة من دين آخر ومجتمع مختلف ويتمسك بالتقاليد فيما يخصُّ مصير إبنته؟؟

فكّرت لحظتها: وماذا سيفعل والد جايا لو تقدّمت لخطبتها؟؟ هل سينكر عليها الإقتران برجل من دين ومجتمع مختلفين؟؟

بعد أن احتسينا الشاي، قالت جايا:

- هل اكتشفت المنطقة القريبة المحيطة بالكلية؟؟

- نعم، سرت طويلاً حتى كوفنت غاردن، وقبل يومين زرت متحف (سير جون سوان) واقترح عليكِ زيارته فهو يضمُّ معروضات فاخرة ومدهشة وفيه صالة شاي راقية، أتمنى أن تقبلي دعوتي المفتوحة للذهاب إلى المتحف واحتساء الشاي هناك...

- سنذهـب قريبـاً، لاحظت أن لك أخاً يشبهك لايـكاد يفارقك. لماذا لاتدعوه فيصحبنا في جولتنا؟؟

- إنه عيسى إبن عمتي، درسنا معاً في بغداد وجئنا معاً الى لندن.. عيسى متوعك قليلاً هذا اليوم..

- إذن دعنا نتيه في شوارع لندن وسأدلّك على بعض الأماكن الجميلة فيها..

- لاأريـد أن أثقـل عليك آنسة جايـا، ربما الأفضل أن أعـود إلى المسكن لأعتني بعيسى..

- أنا من عرضت عليك النزهة، ثم أن عيسى رجل وليس طفلاً لترعاه..

سرنـا طويلاً، مررنا بمبنى الأوبرا الملكيـة الفخم وعرجنا على كوفنت غاردن.. وطـوال الطريق كانت تحدّثني عـن الشعر والأدب وشارلـوت برونتي وتشارلس ديكنز وتوماس هاردي وطاغور وفورســتر، وكنت أنصت اليها مسحوراً بمعرفتها الواسعة بـالأدب الانكليزي والهندي ؛ إذ لم نقرأ نحـن في مدرسة الأليانس سوى بعض مسرحيات شكسبير وبعض نصوص تشوسر، قالت:

- هل تودُّ أن تقرأ الروايات؟؟

- لاأظنني أملك الوقت الكافي للدراسة ومطالعة الروايات..

- لكنـك تتعلم الكثير عن أحوال المجتمعـات من الرواية، الرواية سجل للحياة الإنسانية وتقاليد الشعوب وأحلامها، الرواية تفتح أمامك آفاقا لم تكن لتتوقعها..

- وماذا تقترحين لي من قراءات روائية؟؟

- أقـترح أن تقرأ أعمال تشارلس ديكنز وشارلوت برونتي وتوماس هاردي.. سأحضرهـا لك غداً، والآن عليك أن توصلني إلى مسكني القريب من الكلية، ترى أين تسكنان أنت وقريبك؟؟

- قريباً من الكلية في شارع ريد ليون (شارع الأسد الأحمر)..

توثّقـت علاقتي بالآنسة جايا، وجههـا تحول إلى زنبقة مضيئـة، أصابعها كانت تتألق كالشموع المتقدة، أغرمت بها، رويت لها قصة والدتي المختفية فقالت:

- إنّها الكارما..

- ماهي الكارما؟؟

- الكارمـا مفهوم أخلاقـي نؤمن به في ديانتنـا: فعلُ الخير والنوايـا الطيبة تلقى عواقـب خيرة وجزاء طيباً، النوايـا السيئة والأفعال الشريـرة تفضي إلى عاقبة على شاكلتها، وكلُّ إنسان يلقى المصير المكافئ لجنس أعماله خيراً أو شرّاً..

- وما علاقة ذلك بأمي؟؟

- لابد أن سلفاً لأبيك إقترف عملاً شريراً..

- ويقع العقاب على والدي؟ ليست هذه بعدالة..

- قد يكون العقاب لأمك ذاتها، من يدري..

لم أكن أعرف شيئاً عن هذه المعتقدات الهندية، وعندما رأت دهشتي قالت لي:

- بوسعنا أن نكون كما نتمنى..

- كيف يا جايا؟؟

- نصعـد إلى النـور كلما كنا واضحـين، نحن الشمس ونحـن القمر والنجوم، بوسعنا أن نكون البحر والغيم..

- تعنين أن نتخيل؟؟

- أن نتقمص الحالة، التخيل وفعل الإرادة يحققان مانتشهّى..

- أنت معلمتي..

- كل منـا معلـم الآخـر، أنت علّمتنـي الصبر من قصـة حياتـك واختفاء أمك وعيشك بين عمتك وأبيك..

عشقـت معلمتي جايـا، أخذتني ذات مساء إلى معبد صغـير مقام في منزل ثري

هندوسي شمال لندن، كان هناك السوامي – المعلم – الذي أوقد البخور ونثر زهور اللوتس حول الشموع وجلس على الأرض أمام تمثال شيفا يرتل ترنيمته..

روت لي جايا بعض الأساطير عن آلهة الهندوس والتجلّيات الأنثوية لها، ثم قادتني إلى حديقة مذهلة تمتد أمام المنزل الريفي: ثمة مرج أخضر شاسع كالبحر وأشجار جوز وكستناء عملاقة أراها لأول مرة في حياتي، جلسنا تحت ظلة خشبية محاطة بالأزاهير وقدّم لنا خدم بملابس رسمية الشاي الأخضر وحلويات الجيبالي وبعض الثمار الشهية..

ساعدتني علاقتي بجايا على النجاح والتفوق ؛ فقد كنا نتنافس للحصول على أعلى التقييمات من أساتذتنا، كما ساعدتني في التعرف على المزيد من معالم لندن والريف عند بيت قريبها، وصرنا نُمضي عطلات نهاية الأسبوع معاً: نكتشف الحياة والمدينة والناس، نحلم وندرس ونمرح ونرتاد المقاهي وأماكن اللهو معاً طوال سنوات دراستنا، فيما إتخذ عيسى له صديقة إنكليزية من مدينة بورتسموث، كانت جميلة متحفظة متشبثة بتقاليد الطبقة الوسطى البريطانية ومولعة بالموسيقى ؛ فكانت تدعونا لحفلات موسيقية وتعزف على البيانو وتمضي ساعات طويلة في التدريب، سألتني ذات يوم عن الموسيقى الشرقية، لم أعرف كيف أجيبها، قصدت مكتبات بيع الآسطوانات فلم أجد غير بضع أسطوانات لموسيقى تركية وبعض المقامات الأوزبكية ؛ فأنا ماعرفت سوى العازف التركي جاغلر – الذي كان يعزف لوالدي – وأغاني والدتي المدهشة..

هيأت لنا غرامافوناً وجلسنا ننصت إلى الموسيقى في غرفتها، قالت جايا: موسيقانا تختلف عن كل أنماط الموسيقى التي سمعتها هنا ؛ فهي في معظمها تدعو للحياة والبهجة والرقص والتأمل المبهج، موسيقاكم بها شحنة حزن قاتلة..

– لعلها تعكس نمط حياتنا وأسلوب تفكيرنا..

زرت مـع عيسى وجايا مقـر الجمعية الفابية حيث يقام مهرجـان خطابي، وكنا نأمل أن نلتقي جورج برنارد شو أحد أهم أعمدتها في المهرجان الذي أقامته الجمعية بمناسبـة صعود حـزب العمال إلى الحكـم، لكننا شاهدنا عن بعـد الكاتب هربرت جـورج ويلز كاتب روايات الخيـال العلمي إلى جانب أحد مؤسسـي الفابية السير والاسـ وهما يخطبان في الجموع، أنصتُّ إلى الخطابات والنقاشات فأصبتُ بشيء مـن الإحباط، ماتحدث عنه هؤلاء القادة وماناقشـه جمهورهم صدمني تماماً: إحتج الجمهور على أخطاء كثيرة إرتكبها حزب العمال الحاكم وندد بها، فما الذي أستطيع عمله مع شعب تشكّل الأمية أكثر من تسعين بالمئة من تعداد سكانه ولم يحظ بالتعليم فيه سوى أبناء العوائل الموسرة؟؟ ماذا أفعل ومن سيناقشني إن أخطأت كما يحدث أمامي الان؟؟

عنـد عودتنا إلى الكلية لمحت جايا تشوّشي وإحباطي، ناقشتني في أفضل السبل لبلـوغ الأهـداف في العمل السياسـي السلمي، كنت لاأرى أمامـي سوى العوائق وكانت لاترى سوى الممكنات..

وصلتنـي رسالـة تحمل أخبـاراً طيبة عن تحسـن أوضاع والدي، لكنـه ألمح إلى خلاف صامت بينه وبـين رأفت بسبب مواقف رأفت المؤيدة بشكل قاطع للإنكليز وبسبـب جشعه المفاجيء لجني الأموال ؛ فهـو مع احتفاظه بعمله في الجريدة شارك في مقـاولات مـع المهندس البريطاني مـوري بوند الذي يحتكـر تأسيس منظومات الكهرباء في بغداد والمدن الأخرى وأصاب الإثنان ثراء فاحشاً. كتب أبي:

ولـدي العزيز، صدمتني هذه الأمور التي لاتتقبلها روحي وأخلاقياتي ؛ فرأفت زوج عمتـك رجل من عائلـة ثرية جداً تملك العقـارات والأراضـي الزراعية التي وهبهـا العثمانيـون لوالده، ثـم اتسعت رقعة الممتلـكات بعد أن منحهـم الانكليز إقطاعيّـات واسعة في منطقـة سامراء والحلة و لاأرى موجباً لهـذا الطمع المخزي، إبنـي فؤاد: هي حيـاة واحدة نعيشها فكـن مترفعاً عن الجشع، لاتتشبـه بهم فلدينا

مايكفـي لنعيش برفـاه وكرامة نحسَدُ عليهما، سحبت الوصيـة التي أودعتها لدى رأفت ووضعتها لـدى القاضي عز الدين الأمين وذكرت فيها أن أموالي كلها تؤول إليك، كمـا استعدت الفونوغراف والأسطوانات، حصلـت على نصيبي من إرث جـدك إسماعيل الكتبخاني بعد تقسيم التركة: بستان كبير وأرض زراعية في منطقة التاجـي ودار في الحيدرخانة وبعض المال، وتخلّى لي عمك نشأت عن تجارة الشاي مقابل أن أتنازل عن نصيبي من تجارة الحبوب والخيول والأقمشة، كما حصل عمك الصغير بهجت على حصّة تضمن له حياة كريمة..

باشـرت عملـي في تجـارة الشاي وعـدتُ إلى كتابـة مذكراتي وتركـت العمل في الجريـدة ؛ فقـد إضطربت الأمـور وتوالت التغييرات والضغـوط بعد أن تقاسم المهمـات عددٌ من المسؤولين الذين تضاربت مصالحهـم واختلفت رؤاهم مما أفضى إلى إغلاق الجريدة..

خذلني سلوك رأفت الذي انجرف في حياة إجتماعية غريبة وابتعد عن إهتماماته التـي عرفته بهـا ؛ فصار يحضر الحفلات الراقصة التـي يقيمها المهندس موري بوند ورفقائـه ويسهـر في دور اللهـو رفقة الانكليـز، شكَتْ لي عمتك وفيقـة من غيابه المستمـر عـن البيت ولم أشأ مفاتحتـه في هذا الأمر رغم تضرع وفيقـة وشكواها من تغير أحواله..

أنتظر أخبار نجاحك وتخرجك لتعود لي حاملاً شهادة مشرفة من لندن، ليكن الله في عوني فأتحمل عامين آخرين وأنت بعيد عني..

حوّلتُ لك مبلغاً من المال، سيصلك الإبلاغ قريباً...

والدك المحب صبحي الكتبخاني

في اليـوم التـالي لوصول المـال، دعوت جايـا إلى مطعم فاخـر، وحضرنا سباق الخيل، وشاهدنا أفراد العائلة المالكة بأبهتهم وأناقتهم، سألت جايا دون مقدمات:

- جايا، هل تتزوجينني؟؟

إندهشت جايا لأول وهلة، إبتسمت وقالت: كمبدأ، نعم، أقبل أن نرتبط..

- نحن نوشك على التخرج بعد أقلّ من عامين وأعتزم ترتيب أمور حياتي بناء على موافقتك..

- لامانع لدي، وسأكتب لوالديّ.

- هل تتوقعين رفضاً منهما؟؟

- ربما ثمة رفض مبدئي، لكني سأحاول إقناعهما..

- وإن رفضا؟

- نتزوج هنا في لندن زواجاً مدنياً..

أخبرت عيسى بعزمي على الزواج، ثم كتبت رسالة مطولة إلى والدي أزفُّ له خبر اعتزامي خطبة جايا، وأرسلت له في الرسالة صورة لها..

إنقضى شهران ووصلني الرد من أبي، باركني وأبدى سعادته وأرسل لي مرة أخرى مبلغاً من المال مع قريب له وصل إلى لندن للعمل في سفارة المملكة العراقية..

لم يخب توقعي: رفض والدا جايا زواجها من مسلم بغدادي، فأعلنتْ لهما أنها ستتزوج بي وعقدنا زواجنا في دار بلدية لندن وعشنا في بيت ريفي صغير في الضواحي ووظفنا خادمة لتدبر شؤون المنزل وننصرف نحن لدراستنا، حملت جايا وبعد تسعة شهور أنجبت إبننا جابر، ولم يمرذ على ولادته غير ستة شهور حتى أخبرتني جايا بأنها حامل مرة أخرى، فوظفنا مربية إنكليزية للعناية بالطفل والأم الحامل التي أجّلت دراستها عاماً واحداً، أرسلتُ لأبي صورة إبني الجميل، وفي بغداد إحتفل أبي مع عمتي وفيقة وعمتي بديعة وعمي بهجت بولادة إبني، وكتب لي والدي: لاتهمل ختان ولدك، أخبرت جايا بالأمر فاعترضت وعدّت الأمر نوعاً

مـن وحشية نمارسها علـى الصغار، حاولت إقناعها فرفضت رفضـاً قاطعاً، ولم أشأ إغضابها وهي في شهرها الثامن، وقرّرت أن نقوم بختانه لدى عودتنا إلى بغداد..

ولـدت جايا طفلة جميلة جداً تشبهها وتشبـه والدتي، وأطلقنا عليها إسم جايا بنفشة..

إنقضى عامان وكان علّي انتظار جايا لإكمال دراستها لكنها بدأت تتغير وتُبدي مزاجاً عصبياً وتجتاحها نوبات كآبة، حتى أنها هجرتني وصارت تنام مع الصغيرة في غرفة أخرى وتدعني وحدي مع جابر..

بالـكاد إستطاعـت جايا إجتيـاز المرحلة الأخـيرة من دراستهـا، وفاتحتها بأمر السفر إلى بغداد، فصعقت وهاجت:

– أنا باقية في لندن، لن أرافقك إلى بغداد..

– أنت زوجتي ولن أتخلى عنك..

– إبقَ معي لنعمل هنا ونربي طفلينا..

– وكيـف أهجـر أبـي؟؟ لا، لا أستطيع، لن أخذلـه بعد أن خذلتـه والدتي، لن يتحمل مزيداً من الصدمات..

– هذا قراري، إذهب أنت..

– وماذا عن الطفلين؟؟ كيف تريدينني أن أتركهما؟؟

– سأكون عادلة وحكيمة وواقعية، خذ أنت جابر وتبقى جايا بنفشة معي..

– لايمكن.. لالا..

- هذا هو الحق والعدل، لن أرافقك لكنك ستأخذ الولد معك..

أكلني الغيظ والقهر وافترسني ألم الخذلان، كيف تغيرت الحبيبة هكذا بعد إنجاب إبنتنـا؟؟ ما الذي حصل؟؟ لاأفهم، قالت لي: يبـدو أن بيننا إختلافات كثيرة ظهرت خـلال السنتين اللتين أمضيناهما تحت سقف واحـد، لكل منا عادات وثقافة مختلفة وآراء متناقضة، سأبقى هنا وتستطيع أن تزورني وترى إبنتك جايا بنفشة وتأتي بإبننا جابـر معك، لـن أعود إلى الهند ؛ فقـد أغضبت والديّ، وأستطيع هنـا أن أتدبر لي عملاً في مكتب محامي أو أعمل في شركة قريبي الذي زرنا قصره خارج لندن..

- وماذا عن ارتباطنا؟؟ أنا أحبكِ جايا، أحبكِ جداً..

- ننفصـل يا فؤاد، لكي تكون حراً وأكون مثلـك، الحب وحده لايكفي لإدامة حيـاة ناجحة، الحـب عنصر واحد بين عناصـر عدة في نجاح أية زيجـة، أنت تعرف هذا..

- تصرّين على الفراق؟؟

- لا قول لدي سوى هذا، ولك الخيار أن تبقى معي هنا..

- إذن سنذهـب إلى السفارة معـاً ونوثق طلاقنا، وأتعهد لك بنفقة لإبنتي جايا بنفشة طوال حياتي..

عـدت إلى بغداد بعد عامين من تخرجي وكان قـد سبقني إليها عيسى وعينته الحكومة مسؤولاً عـن الإتفاقيات التجارية مع بريطانيا في إدارة التجارة بواسطة جدّه نجدت الخيامي...

شرع عيسى يعمل علـى تأسيس جماعة تسعى للوصول إلى الحكم عن طريق الإنتخابات والتطور الهادىء وطرح برنامج عمل كما تفعل الأحزاب البريطانية، إنضـمّ للجمعية مدرسون ومهندسـون وأطباء وطلبة ومعظمهم مـن أبناء الأسر

الموسرة، وقمت بوضع برنامج العمل الذي استلهمته من الجمعية الفابية وبعض الأحزاب الإشتراكية، واستطعنا بدعم مالي من رأفت الخيامي والد عيسى من شراء مطبعة حديثة،،، كانت تلك خطوتنا الأولى في طريق التنوير، وكان من أوائل الكتب التي قمنا بترجمتها وطباعتها كتاب(روح القوانين) لمونتيسيكيو وكتاب (مساهمة في فهم الطبيعة البشرية) لديفيد هيوم وكتاب (مدخل إلى الفلسفة الحديثة) الذي سحرني عندما قرأته في لندن والتقيت مؤلفه سيريل إدوين جود أحد أعضاء الجمعية الفابية الكبار..

مضيت أتجول في بغداد وأتفقد أحوال أهلها وعمرانها وأتساءل: كيف بوسعنا أن نعمل على تغيير هذه المدينة؟؟ كيف نوقظ أهلها من غيبوبة الإتكالية والركود؟؟ كيف نسعى لتأسيس مئات المدارس في بلد فقير يتقاسم ثروته المكتشفة حديثاً الإنكليز وساسة البلاد؟؟ كان حنيني لمدينتي كحنيني لوالدي، وتوقي للتغيير كرغبتي في تحطيم قيود البشر..

إحتفاءً بعودتي، دعانا عمي الأصغر بهجت لزيارة مزرعة الخيول والمنزل الجديد الذي أقاموه قرب النهر، وافق أبي على مضض من أجل الترويح عني واصطحبنا عمي بهجت بسيارته الفورد، كان الجو حاراً وثمة رطوبة مزعجة تتعالى من النباتات والنهر، بدا بهجت فخوراً بخيوله وأسمائها وأصولها وأنسابها وتحدّث عن تجارتها التي تعدُّ تجارة راقية مربحة، وأمر الحارس أن يذبح حملاً صغيراً، وبدأت النساء الطبخ على الحطب في زاوية مكشوفة وأعدت إحداهن الخبز في التنور بينما قامت إمرأة عجوز بخضّ اللبن في وعاء جلدي واستخرجت الزبدة وقدّمت لنا اللبن في طاسات نحاسية..

إنهمكنا في الأحاديث وعمّي بهجت يسألني عن لندن وسباقات الخيل فيها، وراح الحارس وأبناؤه يستعدّون لمد السّماط في شرفة البيت، وما أن شرعنا بتناول الطعام حتى أقبل من بعيد عمي نشأت ممتطياً فرسه البيضاء وهو يلوّح بسوطه، تبعه كلبان

مهتاجان واصلا النباح ؛ فضرب أحدهما بسوطه مرتين ومزق جسده الهزيل وأرداه ميتاً وساح دمه وراء مسير الفرس على مرأى من الجميع ثم لوّح بالسوط في الهواء، أصيب والدي بصدمة بالغة لهذا المشهد الدموي واعتذر عن البقاء وطلب من بهجت إعادتنا إلى قصر البستان بسيارته دون إبطاء...

إستاء والدي من خبر انفصالي عن جايا:

- كيف تتخلى عن إبنتك الصغيرة؟؟

- وكيف أتخلى عنك؟؟ إتفقنا أنا وجايا أن أزورها كلما سنحت لي الفرصة وأرى ابنتي وأصحب معي إبننا لتراه..

- أهذا ماكنت أرجوه من زواجك؟؟ تزوج ثانية حتى لا تعيد دورة حياتي البائسة..

- حتماً سأتزوج في الأقل من أجل أم بديلة تعتني بإبني جابر.. أبي أود زيارة جدتي..

- لم أشأ أن أخبرك وأنت في لندن عن وفاة جدتك، يبدو أن الهموم أكلت روحها وهي ترى نشأت يتصرّف بالبيت وأهله كما يشاء، زرتها وهي تحتضر وسألتني عنك وأخبرتها أنك أنجبت ولداً وبنتاً فهدأت روحها، أمسكت يديّ وتشبثت بها ثم أسلمت الروح......

أغلقت نهى المجلد وقد أصابها الدوار: جايا، جايا، مستحيل، لماذا لم تخبرني يا أبي؟؟ رحلت وحملت السر معك؟؟ جايا جدتي لأبي؟؟ وعمّتي جايا بنفشة التي لاأعرفها؟؟ وربما هناك جايا أخرى هي إبنة عمتي التي توهّم الرجل الغريب في القطار أنني هي.. جايات يتكاثرن في كل مكان، لو أرى صورة جايا الأولى لفهمت كل شيء، يا إلهي أية

مفاجآت وغرائب تكشفها هذه الدفاتر العتيقة؟؟ كم أشفق مما سيأتي، ماعدت أتحمل المزيد من المفاجآت، ترى لماذا ورّطني أبي بكل هذا؟؟ ماجدوى هذه الحقائق المربكة؟؟ إذن من هي الجدة أمينة التي كانوا يقولون لنا أنها والدة أبي؟؟

حافات الحب

الحذر في الحب غالباً مايكون أشد أنواع الحذر فتكاً بالسعادة الحقيقية........

برتراند رسل

مايخشـاه المرء هو مـا يقع فيه، يقف نادر علـى حافات الحب، على حافات الحياة،على حافات الأمل، يختار دوما أن لايتجاوز تلك الحافات التي تشـكل منظومة مـن الخيارات المقننـة، أما ما يأتـي وراء الحافات وحدودها فهو عالم عنيف قاسٍ محتشـد بمسـببات الفناء والموت، هكذا أدرك نادرعبثية النظام البشـري، عبثية نظام التعليـم، عبثية القوانين التي تبقى رهينـة المجلدات، ماجدوى القوانين والأحـكام العنيفة تصدر عن قيم قبلية وميليشيات وأحزاب عمياء؟؟

بدأت مشـكلته مع المدرسـة في صباه: كان متفوقاً جداً حتى أنه كان ينهي حل مسـائل الرياضيـات للصف التالي كلها خلال أسـبوع ولكنهم يبقونـه في صفه مع الصغـار الذين يعجزون عن حل معضلة هندسـية في كتبهم المقررة..

ـ لمـاذا علـي أن أهدر الوقت والجهد في المدرسـة؟؟ لما أرغَمُ على

ذلك؟؟ كان بوسعي قراءة كتب المدرسة كلها في البيت بدل أن أوضع مثل آلة صماء يجري تلقينها وحشوها بمعلومات باهتة تمنَعُ معها الأسئلة والاستفهامات، أنا لاأقتنع غالباً بما يلقنوننا إياه، وليس لي حق الإعتراض أو الإمتناع عن تلقّي التفاهات..

حصل على كتاب في تأريخ الفلسفة الإغريقية وبدأ قراءته وهو في الصف الخامس الابتدائي، دفعه شغفه بالفلسفة إلى محاولة تعلم عدد من اللغات مبكراً وبخاصة اللغة اللاتينية لمحض أنه أراد قراءة النص الفلسفي المسمّى (في أصل الأشياء De Rerum Natura) الذي كتبه لوكريشيوس بلغته اللاتينية تقريضاً لعمل الفيلسوف (ديموقريطس) واضع أصل النظرية الذرية، تعلّم نادر من قراءاته الفلسفية المبكرة والواسعة أن طرح الأسئلة أهم من الحصول على الإجابات، وفهم أن (لماذا) هي الكلمة المفتاح لفهم الأسرار والتعرف إلى غوامض الكون، تساءل عن الحياة والموت، لماذا نولد ونموت؟؟ لماذا الموت؟؟ أين تذهب أفكارنا بعد الموت؟ ماهي حدود الكون؟ هل للزمن من بداية ونهاية؟؟

منذ تلك اللحظة إمتلأ رأسه بالأسئلة وفاضت من روحه الإستفهامات وتسامى بها حتى حدود الإنفصال عن الوجود المادي، ثم بغتة إكتشف فظاعة عنف العالم الذي يعيش فيه، وحشية الظلم، بشاعة العوز، وقرّرفي لحظة اليأس المطبق أنه: لاأمل، لاجدوى من كل شيء ؛ فاختار الصمت والعزلة.. ولكن ما أن إلتقى نهى حتى أزاحت حرائق الحبّ ميراث القنوط، إنتشى باكتشاف الأنثى فيها، تمتع بحوار العقل وتوافق الأهواء وهو موقن من هشاشة الحياة التي قد تتسرب كالرمل من بين الأصابع، وعارفٌ بأن الزمن سائل خفيف يتبخر تحت شمس الفواجع على نحو مباغت ومخيف، وإذن عليه أن يمضي قدماً في الحب ويوقف هذا

السـيل من الهواجس المتناقضة التي تحدُّ من إنفلات الروح وتحرُّرها في فراديس العشق..

إتّصل بنهى في ليلة ماطرة، شاء أن يغتسل صوته وكلماته بالمطر وتشعّ روحه بالنضارة التي يتطلبها حديث عاشق، قال لها:

ـ غداً سـأزوركم ونجرب تشغيل الفونوغراف وسأتحدث إلى والدتك بشأننا لنعلن سرنا منطوقاً بصوت والدتك..

ـ أنتظر هذه اللحظة المباركة..

ـ نامـي، لاتدعـي القلق ينتابك، أنا واثق من بـزوغ قوس قزح الحياة فوق رأسينا غدا ليكللنا بالأمل..

ـ كم تغيرت يانادر، أهذا أنت حقاً؟؟

كان المطـر قد إشـتدّ ودوى الرعد وانطلقت البـروق في عتمة المدينة التي تحاصرها الإنفجارات وتخطفها سـلالات القتلة من عشاقها، لم تنم نهى، آثرت أن تمضي ليلتها في شـيئ آخر سوى النوم، أنصتت لموسيقى تسـتدعي الهـدوء المخملي الناعم وتقـود بحنانها الدافيء إلى مسـارب النـوم أو متاهات الأحلام، أخرجت خاتم جدتها الكبرى بنفشـة ووضعته فـي بنصرها، رأت حجره الزمردي يشـع ضوء مزرقاً كمثل نجمة في مجرة بعيـدة، وتراءت لها بنفشـة خاتون ترفـل أمامها بثيابها المزركشـة وعقود اللؤلـؤ والياقوت تزيـن نحرها، سـمعتها تتكلم بلغة غريبة ثـم تبيّنت أنها تتحدث لهجة بغدادية عتيقة من ذلك الزمن القاصي، قالت لها:

ـ كوني أنت في الحب والجنون، لاتتواني ولاتتراجعي، واصلي الحب حتـى لو لـم يُقدّر لكمـا أن ترتبطا، هو قرينك وشـبيهك وهوالرجل الذي

يناقضك وينأى عنك ويدنو ويتكامل بك، لاتماثليني في الجُّبن حين هربتُ من حبيبي وقدر حياتي فرسم لي الخوف مصيرا بائساً لم أقاومه وها أنا وحيدة في قرية نائية أقتات على ذكريات الحب وأذرف روحي مع الدموع: لاأهلٌ ولا ولدٌ.. تخليْ عن كل فكرة سوى الحب، كوني أنت، كوني أنت كما تتشهين، لاتتعثري بالخوف، إمضي نحو قدرك وعاندي كل منطق و حساب...

لدى الباب ـ وقد وجدها وحدها ـ عانقها نادر بصورة مباغتة وسريعة، ثم أمسك بكفها وقبل ظاهر كفها وباطنه، في غرفة الجلوس حيّا أم نهى وجلس قربها على أريكة ذات ملمس مخملي دافيء وممتع بنعومته التي تلذذت بها أصابعه المرهفة وارتاح لها، كانت الأم تعدُّ الشاي على سماور كهربائي، وصوت هناء يتسلل من داخل البيت رائقاً وبه رنّة حزن وهي تردد أغنية لنجاة الصغيرة: (.... إلّا إنت فيها إيه الدنيا إلا إنت، إلا أنت....)

نادت السيدة ميادة: هناء وصل الضيوف، ترى أين منال؟؟

ـ مع فراس يحاولان إيقاف السيارة قرب البيت..

دخلت منال، نظرت إلى نفسها في مرآة المدخل الطويلة وعدلت تسريحة شعرها وابتسمت لسعادتها التي توهّجت بها عيناها، عانقت السيدة ميادة ونهى وقدّمت خطيبها:

ـ فراس، خالة ميادة، نهى..

ـ زواجاً سعيداً..

جاءت هناء محدثة زوبعة من الضجيج بكعب حذائها العالي وخشخشة

أساورها وهي تنوء بحمل أطباق الكيك والفطائر والحلوى.. وضعت الأطباق على منضدة القهوة، وقالت:

- ما أجملكما، منال وفراس، ليسعدكما الله ويسعد جميع الأحبة (وغمزت بعينها إشارة إلى نهى ونادر)

نظرت إليها منال: لاتستثني نفسك..

إحتسوا الشاي، إمتدحت منال شاي السماور الشهي بنكهته القوية وأثنت على مذاق كيك جوز الهند...

إقترحت نهى أن يرافقها نادر إلى غرفة المكتبة ليجربا تشغيل الفونوغراف:

- ما عدت أحتمل، أريد أن أتحرر من هذا العبء وأعرف ماهو مخبوء في الأسطوانات...

قالت منال: لِمَ العجلة؟؟ إجلسا معنا قليلاً..

ردّ نادر: قبل كل شيء أود التحدّث إلى الست ميادة منفردين..

نهضت السيدة ميادة وأعلنت: لك ذلك، إذن نذهب نحن إلى المكتبة..

هللت هناء بضجتها المعهودة: يارب، فلتكثر أفراحنا..

عادت ميادة من غرفة المكتبة وحدها وعلى محياها علائم حيرة، إفتعلت إبتسامة باهتة وقالت لنهى:

- ينتظرك نادر ليعلّمك طريقة تشغيل الفونوغراف..

- لن أتأخر عليكم، سأسمع الأسطوانات في وقت آخر..

الفصل الثاني عشر

الفونوغراف: كشفُ الخبايا



https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن تنتهي وتبدأ الحياة

عندما أفكر فيك يكاد يخنقني الحنوّ

كازانتزاكيس

كتاب (المنشقّ)

خرجت نهى إلى الشرفة الأمامية المطلة على الحديقة، تنفست هواء الليل الرائق، روت أصص نباتات الجيرانيوم ونبات دمعة الطفل والفلفل ذي الثمار الكرزية و نبتات الخزامى العطرة بعناقيدها البنفسجية، ثم خصّت الياسمين المتسلق على الأعمدة برذاذ حنون، حملت مرشة الماء وروت زهور البتونيا و المينا التي تتدلى من سلال معلقة على عموديْ الشرفة، إمتلأ الهواء بعطور الخزامى والياسمين، حامت فراشات النور حول المصابيح المتوهجة في سقف الشرفة وأصدرت طنيناً، جلست على الأريكة المحاكة من الخيزران وشرعت تتأمل الأشجار وحياتها وحُبّ نادر الذي جعلها ترنو إلى المستقبل بعد أن سلبت كوارث حياتها قدرتها على الحلم، تأملت الفراشات قصيرة العمر ـ جمال أجنحتها المهدور، النخل وعمره الممتد شبيه الأبد، الإنسان وحياته التي تلفها ألف عقدة، حياتها المضطربة التي تركت عليها الحروب ندوبها وتعقيداتها وجروحها التي لم تلتئم بعد، رأت الحرب مثل وحش هلامي يحدق إليها بعينين

مشتعلتين تلاحقانها أينما أدارت بصرها، أغمضت عينيها ولكن صورة الغول إستقرّت في وعيها مثل جمرة وارتسمت في الذاكرة..

دخلت البيت، إجتاحها الشوق لنادر، لم تشأ مهاتفته منتصف الليل، ضغطت رقمه في هاتفها النقال ثم ألغت المكالمة. فتحت التلفاز وشاهدت مقاطع من فيلم (لاتدعني أرحل أبداً) عن رواية كازو إيشيغورو المريعة: أيتام مهجورون بلا أهل يُحتَجزون في ميتم هيلشام ويعتني المشرفون بتغذيتهم وعزلهم عن العالم من أجل توفير أعضاء بشرية لمن يشتري ؛ فيتم استئصال الكلى والأكباد والبنكرياس ليتحولوا إلى هياكل جوفاء مستعدة للموت وهي تتقبل حقيقة حياتها المبتورة وكأنها الحقيقة الوحيدة لأنهم لايعرفون سواها، يمنحونهم كل شيء إلا الزمن، حروب بشعة على الروح الانسانية أينما ولّينا وجوهنا، أيتام تسلب أعضاؤهم عضواً عضواً وتُسرَقُ أعمارهم وهم في إزدهار يفاعتهم، يالعار الإنسان في كل العصور!!..

إنفجرت نهى بالبكاء وأغلقت التلفاز على مشهد موت الشاب الذي إستأصلوا قلبه، يالهذا العالم الذي لاقلب له!!...

ـ حياتنا في هذا البلد أشبه بحياة هؤلاء الفتيان والفتيات منذورة للنهايات الموجعة، يا إلهي علامَ تختبرنا بكل هذه الخسارات؟؟ علامَ نعيش حيوات ناقصة بقلوب كسيرة مجروحة؟

أخبرتها أمُّها أن نادر أبدى رغبته بالزواج منها، وأنها سألته:

ـ كيف ستعيشان؟؟ ستقول لدي بيت وهنا لدينا بيت، ويمكنكما أن تختارا العيش معي أو بمفردكما، ولكنكما ستنجبان أطفالاً، فكيف تضمنان لهم حياة كريمة وأنتما عاطلان عن العمل؟؟

قال نادر: سنقوم بالتدريس الخصوصي، نهى تدرّس اللغات وأنا أدرّس الرياضيات والفيزياء..

أبدت أمها رفضها لهذا المقترح: هذا عمل لايُعوّل عليه على المدى البعيد، لاضمانات فيه لتكوين أسرة مستقرة.

فقال: أظنني أجيد ترتيب أمور حياتنا ؛ فلاتقلقي ست ميادة..

ردّت نهى بنبرة حاسمة:

ـ لايهمني إن تزوجنا أو لم نتزوج، المهم أننا سنعلن خطوبتنا، وقد لايحصل الزفاف، ولكني عازمة على أن لاأخذلكِ ولا أخذله، هو رجل حياتي..

ـ ماذا يعني هذا؟؟

ـ سأتبع عقلي وقلبي معاً، لن أقع فريسة الهوى وحده ؛ نادر هو من أعاد لي توازني مثلما أعدت له معنى الأمل وأنقذته من عزلته، أنا وهو متكاملان حتى لو عاش أحدنا في اليابان وعاش الآخر في البرازيل..

ـ وهل ستختلفين عن سلالة الكتبخاني وسلالة الجدة مديحة؟؟ مصائر مهدورة، حظوظ مكسورة، إرث مرير، إختفاء وأحزان وانتحار بالنهر أو بالنار، فكّري جيداً ولاتستسلمي لهذا الإرث اللعين،،، إنجي بنفسك...

ـ أعدُكِ أنني سأنجو بالحب، لاأعرف كيف، لكن رؤاي وأحلامي تبشّرني بمصير أجمل مما تتوقعين..

ـ وكم من أحلامك كانت نذراً فاجعة..

ـ وبعضها كانت بشائر مبهجة..

ـ زوجة عمك أرسلت لي صوراً عتيقة لجدّك صبحي وجدتك بنفشة كانت محفوظة مع أوراق عمك منصور، فتحوا الخزنة ووجدوها في علبة معدنية، أنت تشبهين جدّتكِ، لها شامة على وجنتها اليسرى كمثل شامتك تماماً..

قالت نهى بشيء من التأكيد وكأنها تقرأ تقريراً علمياً موثقاً:

ـ كنت أعلم أن بي شيئاً من بنفشة خاتون وشيئاً من جايا وأشياء من صبحي الكتبخاني.. كلٌّ منا مصنوع من بقايا اؤلئك الغابرين والغابرات.. نحن فسيفساءٌ آدمية، صور مدمجة من خلاياهم وأرواحهم ودمائهم..

وضعت الأم العلبة المعدنية المزخرفة أمام نهى وقالت بنبرة ساخرة:

ـ هاهم أسلافك بوجوههم وأقنعتهم، فلتهنأي بهم..

فتحت نهى العلبة، بهرتها صورة بنفشة خاتون التي صوّرها المصور الموصلي الشهير يوسف سنبل عندما زار بغداد قبل الإحتلال البريطاني، كتب على ظهر الصور (بنفشة خاتون تصوير يوسف سنبل الفوطوغرافجي الشمسي بالموصل)، بدت الصور واضحة المعالم رغم لونها الحائل المتحوّل إلى اللون البني والرمادي، لكن جمال بنفشة خاتون الساحر لم يتأثر ولم يخفت بخفوت تفاصيل الصور ومرور الأزمنة، كانت ذات وجه بيضوي فاتن وعينين شهلاوين وفم جميل وأنف دقيق وهي ترتدي ثياباً فخمة وتحيط عنقها الغرنوقي بعقود من اللؤلؤ وسلسلة تتدلى منها جوهرة كبيرة وخلفها أعمدة أسطوانية وفوانيس تنير بقعاً محدودة من المكان، وقد أحيطت صورها بزخارف من أغصان الآس والزهور والنقوش المخرّمة كما

كان متبعاً في صور تلك الأيام وبخاصة مع صور المطربات والراقصات وغواني ذلك الزمن، وجدت في نظرتها ذلك التيهان المثير الذي يحجب معنى النظرة العميق عن الناظرين..

لم تُعِرْ نهى إهتماماً للصور الأخرى ؛ فقد خلبت لبّها الجدة المختفية بنفشة خاتون، كانت ثمة صور للجد صبحي تجمع بينهما ويتوسطهما إبنهما فؤاد، غابت النظرة التائهة وحلّت محلها نظرة إمرأة لها من السعادة بقدر ما لها من تعاسة الروح، ولم تجد نهى صوراً لنساء عائلة الكتبخاني لكنها عرفت صور الجدة جايا الهندية في حفل زفافها لجدها فؤاد في لندن، ثمة صورة لطفلة جميلة تشبه جايا هي عمتها (جايا بنفشة) مع طفل آخر يشبهها هو جابر والد نهى وكُتِبَ خلف الصورة: أخذت هذه الصورة في كيوغاردن ـ لندن بمناسبة عيد ميلاد إبنتي جايا بنفشة الأول..

أخيراً عثرت نهى على صورة رائعة لزفاف جدها فؤاد وعروسه البغدادية الجميلة (أمينة) إبنة القاضي محمد كمال القانوني، وخلف الصورة ختمٌ باللون الأزرق (تصوير ليليان الأرمنية ـ خصوصي للنساء والعائلات وحفلات الزفاف)، أحاطت بالعروس والعريس نساء جميلات يتزينّ بالمجوهرات ويرتدين القبعات والملابس الإفرنجية السائدة في عقد الثلاثينات..

قرّرت نهى إنهاء تحقيق مذكّرات جدها فؤاد وطباعتها وأدركت هذه اللحظة أن عملها في إعادة كتابة المدونات وطباعتها كان عملاً ملهماً ساعدها على تخطي أحزانها وأيقظ فيها روحاً تتلهف لمشاركة الحياة مع شخص آخر لتنقذ نفسها من الإنكفاء على ذاتها ولتنصرف إلى ماتبقى من حياتها، وقد أيقنت مدى ضعفها البشري إزاء مايحيط بها من حتميات

الوجود في بلد يتلاشى، شاءت أن تكتمل حياتها بالتضحيات، بتعزية والدتها التي تفترس روحها الفقدانات، تكتمل بتنفيذ رغبة والدها حتى النهاية، بإنقاذ نادر من عزلته ومنحه حباً غير مشروط، حباً شاسعاً لايركن إلى حدود أو نهايات،،، أشبه بدائرة كونية لفلك كوكبي مستديم الدوران حول بؤرة ضوء، تساءلت مع نفسها:

ـ هل أنا من صنف الكائنات التي لاتجد متعتها إلا في اجتذاب المآسي وتعقيد العلاقات والاستسلام للفجيعة؟؟ هل حقاً أنا لاأبتغي متع الحب ونيل شهوات الجسد الذي تحدّثت عنه خالتي مديحة؟؟ ماذا تفعل إحدانا بجسدها إن لم تخصّبه بالحب وتنجب به وتزهو بجماله أمام من تحبّ؟؟

قالت لنفسها أيضاً: يبدو أنني أجد متعتي الآن في إعادة صياغة أزمنة آل الكتبخاني وكتابة حيواتهم وإعادة تشكيلها، فماذا سأفعل بعد أن أفرغ من هذه المجلدات العتيقة؟؟ هل أكتب مدوّنات زمننا؟؟ قصة عشقنا أنا ونادر؟؟ قصة بغداد المدينة المنذورة للموت هي وأهلها؟؟ هل سأكشف عن رغباتي الخفية فيما أدوّن تفاصيل حياتي؟؟ هل سأبوح بمدى رغبتي لعناق نادر وتوقي للوصال؟؟ هل سأختبر مع نادر المتعة الفريدة التي يتحدّث عنها العشاق والتي ماعرفتها أبداً مع طليقي التافه؟؟ لا أدري، لكنني سأواصل الكتابة على مايبدو، وسأنتمي إلى آل الكتبخاني وهم يلقون بحيواتهم في جوف المجلدات ويحولون وقائع أيامهم إلى حكايات يائسة تخفي تحتها وهج المتع وأشواق الحياة وجمر المجازفة..

فلتحاول الآن قراءة الفصول الأخيرة من مذكرات جدها فؤاد الكتبخاني..

... واصلنا العمل في الجمعية وطبعنا المزيد من الكتب والصحف في مطبعتنا، وتوالت الحوادث تباعاً: تزوجت ووجدت في أمينة معشوقة لاتشبه أحداً، ليست هي جايا المتعقلة التي غدت بعد زواجنا تحسب حساباً لكل شيء وكأنها تنجز مشروعاً تجارياً خاضعاً لتقييمات محض مادية،أانجبت لي زوجتي الفاتنة أمينة إبني منصور ثم إبني فيصل الذي توفي بالحصبة في عامه الأول، عمّ الحزن بيتنا وتأثر والدي بوفاة حفيده الصغير وأصيبت زوجتي أمينة بالإكتئاب، ونحن نمرّ في هذه الظروف الموجعة من فقدان ولدنا ومرض زوجتي إندلعت الحرب العالمية الثانية في شهر أيلول ١٩٣٩ بإحتلال القوات النازية لبولندا ثم اجتاحت بلداناً أخرى، كنت أعتزم السفر إلى لندن لرؤية إبنتي جايا بنفشة لكن نشوب الحرب حال دون سفري..

توفي الملك غازي في حادث غامض دارت حوله تكهنات مريبة، وعمت الأحزان البلاد، وبعد شهور من وفاة الملك إشتعلت الحرب العالمية الثانية واجتاحت بغداد الشائعات عن ميل بعض السياسيين إلى جانب ألمانيا النازية التي عدّتها بعض الجهات المناوئة لبريطانيا حليفاً ضد الهيمنة البريطانية على البلاد..

تهاوت صحة والدي وهو ينصت عبر الإذاعة إلى أخبار الدمار والموت الذي عمّ أوروبا كلها، تورّمت ساقاه وضاقت أنفاسه وأصيب بغثيانات ونوبات غيبوبة متقطعة، رفض أن ننقله إلى المستشفى الملكي فأحضرنا له طبيبا بريطانياً وآخرعراقياً، قرّرا أنه مصاب بقصور كلوي كامل لم يعد ينفع معه علاج متأخر، أوصاني والدي أن أدفنه في مدفن خاص أعدّه في أحد أطراف البستان وهو يتسع لضريحين ؛ فقد كان يأمل عودة والدتي بنفشة لتدفن إلى جواره، وزرع حوله أشجار نارنج وشجيرات ورد وأقام فوقه سقفاً وأحاطه بسور من الحديد، بعد أيام عجز عن النطق وتردّت حالته ولبثت معه أعنى به وأسقيه الماء وأقبله وأجفف عرق الإحتضار عن جبينه حتى أطلق شهقته الأخيرة وهو يرنو إليّ بنظرة يائسة متسائلة لعله كان يرجو أن تعود حبيبته بنفشة وتلقي عليه نظرتها الحانية قبل أن يفارق الحياة..

مرّت سنوات الحرب العالمية الثانية التي لم أكتب شيئاً خلالها واجتاحت العراق حوادث جِسام ؛ فابتعدت عن الجمعية التي أسسناها أنا وعيسى عندما هيمنت على البلاد أحـزاب سياسية متنفـذة تعاملت بعنف مع الجمعيـات والأحزاب المعارضة وأعدمـت السلطـة عدداً من قـادة الحزب الشيوعـي واعتقلت أعـداداً كبيرة من أعضاء أحزاب اخرى..

إنصرفت لعزلتي في قصر البستان، وكنت أصحب عائلتي في سيارتنا الفورد إلى المزرعـة التي ورثها والدي عن جدي في منطقة التاجـي، وأرادت أمينة أن نقيم بيتاً صغـيراً في المزرعة نلوذ به أيام الصيف بعيداً عن بغـداد ومنزلنا العتيق في البستان، وفي تلـك الأيـام عقدت معاهدة بورتسمـوث مع بريطانيـا، إضطربت البلاد على أثرهـا وقامت الإحتجاجـات والمظاهرات لكنهـا أخمِدَت بقـوة الجيش والشرطة وسقط عدد من المتظاهرين قتلى برصاص الشرطة من بينهم حمدي إبن عمي نشأت مـن الخادمة السوداء نمنم الذي تمرد على والده وعاش بعيداً عنه رافضاً التمييز بينه وبـين أخوته غير الأشقاء بعد أن سحرته أفكار الأحزاب الداعية إلى الحرية والعدالة ونشـط فيها واعتقل مرتين حتـى وافاه الأجل برصاصة غـادرة، حزنت كثيراً على حمدي الذي عاش حياة تفتقد إلى الحنان و العدالة في بيت والده..

بعـد كل تلـك الأعوام والحوادث سافـرت سنة ١٩٥٣ إلى لنـدن لرؤية إبنتي وطليقتي جايا مصطحباً معي إبني جابر، فاكتشفت أن زوجتي السابقة جايا مهيتاب قـد تزوّجت رجلاً إنكليزيا يعمل في وزارة المستعمرات ثم انفصلت عنه وتزوجت ثريـاً هنديـاً يملـك مصانع للنسيـج في الهند يمضي معظـم فصول السنـة في لندن، وكانـت جايـا تصحبه في زياراته القصـيرة إلى الهند دون أن تسعـى للقاء والديها، وأدخلت إبنتنا جايا بنفشة إلى مدرسة داخلية، وما أن بلغت جايا بنفشة الثامنةعشرة حتـى هربت من المدرسة وتزوجـت صديقها الأسكتلندي جـون آشكروفت رغم معارضة والدتها، وأنجبت بنتاً جميلة أسمتها جايا ميراي. عرضت على جايا بنفشة

أن تصحبني لزيارة بغداد للتعرّف على أسرة والدها والعقارات التي سترثها، لكنها إعتذرت بلطف وقالت:

- قد أزورك في يوم ما يا أبي، أما الآن فإنني معنية بتربية إبنتي جايا ميراي، أعدك أن أفعل..

غير أنها لم تفعل، وماعاتبتها في رسائلي بل كنت ألتمس لها الأعذار كل حين..

عـدت إلى بغـداد خائب الأمـل، كنت أرجـو إستعادة إبنتي جايـا بنفشة لكنها ضاعـت منـي واختارت حياتها بعيداً عني وعما كنـت أخطّط لها من حياة هانئة في بغداد، وأحسست بطعنة موجعة عندما تيقّنتُ من فقدانها إلى الأبد..

ذات يوم صحبني عيسى لحضور معرض لجماعة الفن الحديث في نادي المنصور ؛ فقـد غدا متابعاً للفنون وهاويـاً متحمساً ومقتنياً للأعمـال الفنية مذ كنا في لندن وتعرّفنـا إلى الفـن الحديث في (تيت غالـيري) ومتاحف لنـدن ومعارضها العريقة، ولهوسه بالصفقـات الرابحة ورؤيته الإقتصادية البحتة فقـد إعتبر إقتناء اللوحات الفنية استثماراً مربحاً يكفل له ثروة مريحة في المستقبل..

تزوّج عيسى إبنة طبيب مـن الرسّامين العراقيين المعروفين كانت زميلة لشقيقته في كلية الطب..

إلتقينـا بعض الأصدقـاء من الفنانين والمهندسين، وقدمنـي عيسى لرجل مهيب تصحبـه زوجتـه البريطانيـة الحسنـاء وكان مهندساً مرموقـاً يعمـل في سكرتارية مجلسـ الإعمار، تحدثنا طويلاً ثم دعانـا لإحتساء القهوة في النـادي وعندما عرف إهتماماتـي إقترح أن أقدم طلباً للتعيـين في سكرتارية مجلس الإعمار لأعمل في أحد المشاريـع لحاجتهـم إلى أمثالي ممن درسوا خارج البلاد، تمّـت تزكيتي من قبل رأفت الخيامـي والمهندس المذكور ووالد زوجة عيسى وبدأت العمل في مشاريع السدود

والجســـور، في تلك الفــترة أكمل جابر الثانويــة متفوقاً وأختـــار الدراسة في جامعة الحكمة..

(... هـذا ما أردت كتابته عــن بعض محطّات حياتنا وكنت آمـل أن أعطي لكلٍ حقــه، ولكنني لست بالكاتب الجيد كما كان أبي، وأرجـو ممّن ستقع بيده مذكّراتي أن يغفر لي قفزاتي الزمنية ؛ فلست مؤرخاً لأتابع جميع وقائع السنوات، بل ماأراني إلّا رجـلاً ملولاً ينتابني الضجر من تكرار الكتابة عن حوادث عشتها،،، فكّرت أن أستمـع إلى أسطوانات الفونوغراف لكني أرجأت تلـك الرغبة وأشفقت من إثارة أحزان روحي وأنـا أنصت لصوت والدتي الحبيبة، فعمدتُ إلى حفظها في صندوق مـع الفونوغراف وأودعت مذكرات والـدي في الصندوق الثاني، لعلّ ولدي جابر يطّلع على مذكراتنا.................)

تفّاحة الأسرار

في بحثك عن الحقيقة كن متأهباً دوماً لما هو غير متوقع ؛ لأن الحقيقة منهكة في البحث عنها وباعثة على الحيرة عند إيجادها..........

هيراقليطس

هذا المساء الشفيف الذي يحتضن قمم النخل بأضواء شمس آفلة، يحرك في روح نهى طاقة ماعهدتها من قبل، طاقة غريبة قد تحسَبُ نوعاً من الخلل أو توصف بأنها تنبثق من نزعة شريرة إنكشفت بغتة في كيانها وجعلت عالمها الساكن يتزلزل ويتصدع وتنهار أقانيمه الراسخة. تساءلت نهى:

ـ هل ترقد في أعماق كلّ منا جمرة متقدة تنتظر هبّة ريح لتطلق حرائقها وتحول خيوط الروابط الهشة إلى رماد؟؟ أشعر بهذه النار تطلق ألسنة لهبها وتقضي على تحفظاتي ومخاوفي أجمعها..

قبل يوم واحد وهي تنصت إلى والدتها الرافضة لفكرة زواجها من نادر كان بوسعها التحكم في الأحداث بعقلانية كاملة والإنصياع إلى ماتراه الأم بحساباتها المنطقية للحياة، لكنها غدت اللحظة قادرة على اجتراح موقف خارج عن جميع التوقعات،،، الحب يدفعها نحو الإستنارة، يضيء

عقلهـا، يوقـظ وعيها، يحفز حواسـها، الحب متكأهـا الأخير في فوضى زمنها الغادر، فليكن الحب مدينتها الفاضلة وسـط حرائق مدينتها المدمرة ومجتمعها المتهالك، لم ترث من والدها سـوى الزهد والتعقل والتشـبث بالمثال، ومن والدتها غير الحنان المفرط والتربيت على أكتاف الحزانى، فلماذا لاتوقظ في قلبها عزم جدتها الشـجاعة بنفشـة خاتون وتعرض على نـادر مغادرة البـلاد إلى أيـة أرض يمكنهما بلوغهـا؟؟ فليتدبر الآخرون حياتهم ويكفوا عن اسـتعبادها من أجل بقائهـم، لماذا يتعين على الحب أن يغدو أضحية للجميع ويُنحَرَ إزاء المطالبات الفظة؟ لماذا عليها ان تدفع كل تلك الأثمان المريعة لتفوز برضى بائس يتوّجونها به إبنة بارّة؟

في هذا المسـاء البنفسـجي الناعم مثل أغنية حب تتماوج بين غمائم ملونة، في هذا المسـاء الشـهي الـذي أيقظ لديها شـهوة الحياة تتفحّص عبارات نادر المحسوبة بدقة رياضياتية صارمة وتعلم مايدور في روحه من صراعـات متقاطعة، فهل تيأس وتتخلى عن هذه الروح العذبة المعذبة؟؟ لا، لن تنسـحب ولن تيأس وعليها أن تنتشـله من وهدة قنوطه واستسـلامه لفكرة محددة عن العالم خارجه، ستقول له:

ـ كـن العاشـق ولاتُنَظّرْ للعشـق وتحـوم حوله، كن البشـارة ولاتلتفت للكارثة التي تهددنا، كن يانادر واهب الولادة السـعيدة ولاتجعل من حبنا الجنيـن الجهيض، كن الرجولة المكتملة وسـأكون الأنوثة المانحة، تدفق كالنبـع ولا تتقمص السـراب المخادع، كن الرغبة ولاتسـتدعي محفزات الألـم، كن أنت، كن المعرفة التي تقترح قوانين البقاء ولاتسـتمطر العتمة لحياتنا، لايكفي إدعاء العشق أو الحكمة او النبل لتصبح مقيماً في الحب أو مالكاً لحكمة لاوتزو أو سـقراط أو أن تكون فارسـاً من فرسـان النبالة، واعلم أنّ اقنعة التردد تفتك بالحب، روّض نفسـك وصوتك لتنكشف في

النــور فتعزز رجائي بأنك البشـير والـولادة والرجولة والنبـع وأنك الرغبة والمعرفة التي لاتخنق الأمل..

ستقول له كل هذا وقد تختصر الحكاية باقتراح مجازفة وترى ماتؤول إليه الأمور...

أدارت ذراع الفونوغراف ووضعت أحد القوالب الأسـطوانية ثم ثبتت الأبرة المتصلة بالبوق المعدني عليها، إنطلقت خشخشة مختلطة أول الأمر ثـم انطلق صوت إمرأة ذو نبرة عميقة قادمٌ من بين طبقات الأحزان وركام الأزمنة. راح الصوت المحزون يردّد:

لم أقضِ حقَّ هَوَاكَ إن كُنتُ الذي	لم أقضِ فيـهِ أسـىً، ومِثلـي مَـن يَفـي
ما لي سِوى روحـي وباذِلُ نفسِهِ	في حـبّ مـن يهـواه ليسَ بمُسـرِفِ
فَلَئنْ رَضيتَ بها، فقـد أسْعَفْتَني	يـا خيبـة المسعـى إذا لَمْ تسـعـفِ

توقفت الأغنية وانهمرت الدموع من عيني نهى، وهي تردّد:

ما لي سِوى روحي وباذِلُ نفسِهِ	في حـبّ مـن يهـواه ليسَ بمسرفِ

وضعـت قالباً أسـطوانياً آخر وأنصتـت إلى صوت بنفشـة وهي تغني قصائـد صوفية غزِلـة، وأنصتت إلي صوت صبحي وهـو يتحدث إلى إبن الحارس الذي أتّهِمَ باغتصاب الخادمة السـوداء نمنم، جرّبت سماع أغانٍ لمغنيـن قدامى وموسـيقيين، تنبهت إلى قالب آخـر كان مربوطاً مع مثيله بشـريط حريري حال لونه، فكّت عقدة الشـريط، وفي هذه اللحظة هاتفها نادر:

باغتته بسؤال صادم: نادر هل لديك جواز سفر نافذ؟؟

ـ نعم، علام تسألين؟؟

ـ هل أنت مستعد للمجازفة الأخيرة في حياتك؟؟

ـ معك، أجل، أنا مستعد..

ـ سأحجز تذكرتين لي ولك في رحلة بعد غد إلى أسطنبول، سنفاجيء الجميع، لاتخبر أحداً، لاتحمل معك إلا ماهو ضروري للرحلة..

ـ ووالدتك؟؟

ـ لاتطرح المزيد من الأسئلة، العشق أولاً..

ـ أيتها المجنونة، ماكنت أتوقع منك هذه المفاجآت..

ـ إنه قراري الذي اتخذته هذا المساء، شئتُ أن يكون للأمر طعم المجازفة الحارق..

ـ وماذا بعد؟؟

ـ ليس من شيء آخر، إنتظر مكالمتي غداً...

ـ ولكن، هل فكرت ملياً بالأمر؟؟

ـ إتخذت قراري وماعليك إلا أن تتخذ الموقف الذي أتوقّعه منك..

عادت لتشغيل الفونوغراف، إنطلق صوت بنفشة المتحشرج المحفوف

بخشخشـة تشكل طبقة مشوشة لكنها استطاعت أن تفهم مضمون الكلام جيداً بعد إعادة تشغيل الأسطوانة لمرات عديدة:

... أنـا بنفشة زوجة صبحـي الكتبخاني وأم ولده فؤاد، فجعـتُ اليوم بمصيبة لاتخطـر على بال أحـد في هذا العالم، وقعـت بين يديّ هذا اليـوم جريدة نشرت أخبـار لقاء الجنرال مود مع وجهاء بغداد وأثريائهـا، وكتبوا تحت الصورة أسماء الرجـال الظاهرين فيها وكان معهم التاجر الذي اشتراني وأهداني للوالي نامق باشا الصغير، وماكنـت أعرف إسمه من قبل،أ نجبت له ولداً حرمني منه حال ولادتي، هذا التاجر الذي إشتراني من النخاس – ياللعار –........

إنتهت الأسـطوانة الأولى فوضعت نهى الأسطوانة الثانية التي كانت مربوطة معها وشغلتها..

... أنـا بنفشـة، هذا التاجر الـذي إشتراني من النخاس هو ذاتـه إسماعيل بك الكتبخـاني والد زوجي صبحي ؛ فيكون ولدي منه – لـو بقي حياً – أخاً لصبحي وأخاً لولدنا فؤاد، رحمتك يا رب العالمين، كيف يحدث لي كل هذا؟؟ لماذا تضعني في تجربـة مخزية ولاذنـب لي في كل ماجرى مـن مصائب بـدأت باختطافي وبيعي للنخاسـين؟؟ وقعـت مغشيـاً عليّ بعـد رؤيتي للصـورة، ولمّا أفقت مـن غيوبتي سجّلت هذا الكلام وقرّرت الإختفاء من حياة صبحي وضحيت بحبي وسعادتي مـع حبيبـي صبحي وانفطر قلبـي على فراق ولدي فـؤاد الذي سأحـرَمُ منه كما حرمـت من ولدي الأول الذي أنجبته من إسماعيل بك، وقد ألقى حتفي في رحلة الهرب فليغفر لي من يحبّني وليغفر لي الله ذنوباً لا يد لي فيها................

صُعِقـت نهـى للمفاجأة المخزيـة وفهمت من بنفشـة أن بهجت أخ

صبحي هو إبن بنفشـة وهذا يعني أنه أخ لفؤاد من أمه، أية عائلة تنخرها المخازي وتداخل الأنساب؟؟

عمدت إلى تدوين كلام بنفشة وطبعته على الكومبيوتر واحتارت فيما إذا كانت سـتقرّر إضافته لكتاب المدوّنات، ثم فكّرت: علامَ الحيرة؟؟ قـرارٌ مثل هذا سـابق لأوانه وسـأفكّر بالأمر متى مـا اعتزمت طبع كتاب (أزمنة بيت الكتبخاني).....

تنويه ختامي

الرّوايــةـ أية روايةـ عمل تخييلي ينطوي على لعبــة ذهنية intellectual game ، وتســتلزم عملية كتابة الرواية ، وبصرف النظر عن تجنيســها النوعي وأدواتها التقنية ، بعضاً من المواد الأولية النابعة من الخبرة الشخصية للكاتب ، أو مــن التفاصيــل ذات الطبيعــة الواقعيــة (تأريخيــة، إجتماعية، سياســية، إقتصاديــة،،، الخ) التي يمكن توظيفها كمادة لاحمة للأفكار المشــكّلة للعبة الروائية التخييلية ، وعلى هذا الأســاس إســتعنْتُ في كتابة هذه الرواية ببعض التفاصيل التأريخية والتقنية المُثبّتة في الويكيبيديا ، كما وظّفت توظيفاً روائياً بعض المعلومات والتفاصيل التأريخية المذكورة في المؤلّفات التالية :

١ . أمين المميّز، بغداد كما عرفتهاـ شذرات من ذكريات، بيروت، مكتبة الحضارات، ٢٠١٠.

٢ . عبــد العزيز القصّاب ، مذكّرات عبد العزيز القصّاب، المؤسســة العربية للدراسات والنشر ، لبنان ، ٢٠٠٧.

٣. إليزابيث بيرغوين، جيرترود بيلـ من أوراقها الشــخصية، ترجمة: نمير عباس مظفر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢.

٤ . كامــل الجادرجي، مــن أوراق كامل الجادرجي، بيــروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧١.

٥. سيريل بورتر، رسائل سيريل بورتر ـ العراق بين حربين عالميتين ، ترجمة: د. أمل بورتر، عمّان، دار فضاءات للنشر، ٢٠٠٩.

٦. عبد الرزاق الحسني، تأريخ الوزارات العراقية، فصول متفرقة منشورة على الشبكة العالمية.

٧. العراق في العهد العثماني، مجموعة دراسات منشورة على الشبكة العالمية .

أودّ التوجّه بشكري الخاص إلى الصديق الأستاذ (واثق صادق) الذي تكلّف عناء البحث عن كتاب (بغداد كما عرفتها)ـ الوارد في المصادر أعلاه ـ في الأسواق العراقية وإرساله لي حيث أقيم في عمّان، كما أتوجّه بعظيم الشكر والإمتنان لدار (المدى) التي دأبت على نشر أعمالي (المؤلفة والمترجمة) ومنذ سنوات خلت بحلّة إخراجية رائعة تسرّ العقل والقلب معاً.

لطفية الدليمي

لطفيّة الدليمي

أعمال الكاتبة

الأعمال الإبداعية:

١– ممر الى أحزان الرجال – قصص – بغداد – ١٩٧٠

٢– البشارة – قصص – بغداد – ١٩٧٥

٣ – التمثال – قصص – بغداد ١٩٧٧

٤ – اذا كنت تحب – قصص – بغداد – ١٩٨٠ – طبعة ثانية المدى ٢٠١٥

٥ – عالم النساء الوحيدات – رواية وقصص – بغداد – ١٩٨٦ – طبعة ثانية دار المدى– ٢٠١٠

٦ – من يرث الفردوس – رواية–الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٨٩ طبعة ثانية دار المدى ٢٠١٤

٧ – بذور النار – رواية – بغداد – ١٩٨٨

تدرك نهى من تتابع الإشارات الغريبة على وعيها أنّ جذورها تمتد لأكثر من عرق وأكثر من بلاد وأكثر من عصر ، لاتعلم حقيقةَ منْ أية نطفة أتت ومن أي صلب تحدّرت . أيُ البشر يعلم حقيقة أصوله ونسبه ؟ لاأحد ... هي لاتريد أن تعرف ، ماجدوى أن تعرف ؟؟ فلتعش حاضرها حسبُ . إنها في قلب الحياة ولها أن تتقبل وجودها مهما كانت جذورها وأصول الأسلاف ..

البشر جميعا - وليست وحدها - صُهروا في بوتقة هائلة يسمونها الحب أو العشق أو الغرام وهي ليست سوى الرغبة في تلاحم الأعراق والأجساد خوفَ التلاشي في خديعة الموت ، الكل وُلدوا من مكيدة نشوة عارمة سرت في اللحم صعقة مكهربة ، عشقوا وتناسلوا وتخالطت أنسابهم وخانوا وتقاتلوا وأسسوا البيوت وأقواس النصر وميادين المدن والأسواق ومنازل البغاء والبنوك ، وأكل ملامحَهم عفنُ الكراهية أو جذام الجشع ثم انشغلوا بتوسيع المدافن التي عزّزتها صراعاتهم والحروب ..

